الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

ما قبل التأسيس وحتى عام ١٩٥٤

عدنان سعد الدين

مكتبة مدبولى

6894

الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

ما قبل التأسيس وحتى عام ١٩٥٤

اسم الكتاب: الإخوان المسلمون فى سورية
مذكرات وذكريات
ما قبل التأسيس وحتى عام ١٩٥٤
المؤلف: عدنان سعد الدين
الطبعة: الاولى ٢٠١٠
رقم الايداع: ٢٠٠٩/٢٠٤٤٣
الترقيم الدولى: X - ٨١٠ - ٢٠٨ - ٩٧٧
الناشر: مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
ت: ٢٥٧٥٦٤٢١ ف: ٢٥٧٥٢٨٥٤
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

عدنان سعد الدين

الكتاب الأول

الإخوان المسلمون فى سورية

مذكرات وذكريات

ما قبل التأسيس وحتى عام ١٩٥٤

مكتبة مدبولى
٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ الأديب: عبد الله الطنطاوي

قرأنا الكثير من الذكريات والمذكرات لقادة العالم وزعمائه السياسيين والعسكريين، ولبعض أدبائه ومفكريه، كما قرأنا القليل لقادة العرب وزعمائهم السياسيين والعسكريين، ولبعض أدبائهم ومفكريهم. . وجاءت بعض تلك الذكريات والمذكرات في مئات الصفحات، وبعضها كان في آلاف الصفحات.

قرأنا (مذكرات الدعوة والداعية) للإمام حسن البنا، رحمه الله وإخوانه رحمه واسعة، وكانت هذه المذكرات مصدراً من المصادر المهمة للدارسين والباحثين في تاريخ مصر عامة، وتاريخ جماعة الإخوان المسلمين في مصر خاصة، وللذين عكفوا على دراسة شخصية الإمام البنا، كما كانت وما تزال، مرجعاً وملهماً مهمّاً للدعاة من تلاميذه، ولو لم يكتبها الإمام لفاتنا خير كثير.

وكتب بعض تلاميذ الإمام وبعض إخوانه شيئاً من مذكراتهم، ألقت الأضواء على سيرورة الجماعة وإمامها، وكانت التاريخ الحق للدارسين، فكتب اللواء صلاح شادي: (صفحات من التاريخ)

بجزأيه, وكتب الشيخ الجليل محمود عبد الحليم كتابه الرائع: (الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ) وكتب الأستاذ كامل الشريف: (الإخوان المسلمون في حرب فلسطين) و (المقاومة السرية في قناة السويس).. وكتب غيرهم من الإخوان المصريين, وجلوا كثيراً من الحقائق, وردوا على كثير من الشبهات والاتهامات.

أم الإخوان في البلدان العربية الأخرى, ومنها سورية, فقد قصروا في هذا المجال, فلم نقرأ للعراقيين سوى (من سجل ذكرياتي) للشيخ محمد محمد الصراف – المراقب العام الأسبق – ولم نقرأ للأخوة الأردنيين سوى مذكرات الأستاذ يوسف العظم, وكتب الدكتور مصطفى السباعي مقاله اليتيم: (الإخوان المسلمون في حرب فلسطين) وهكذا ضاعت جهود وإنجازات ضخمة في شتى المجالات: الدعوية, والتربوية, والفكرية, والثقافية, والاجتماعية, والسياسية, والاقتصادية, وكذب من كذب من كتاب المذكرات والذكريات من السياسيين المناوئين للحركة الإسلامية, وغمطوا رجالها الكبار, وافتاتوا على التاريخ, ونسبوا إلى أنفسهم ما لم يفعلوه, فضاع كثير من الحقائق, وزيفت بعض الحوادث والمواقف, وصدق بعض الناس ما قرؤوه, ووقع الجور والحيف على تاريخ الجماعة وعلى رجالاتها الأبرار, بسبب تقصير كتابها و قادتها في هذا الميدان الحيوي الذي شغله خصومهم, وناموا هم عنه.

كتب بعض كتابهم – في الآونة الأخيرة – عن الشخصية الفذة , أول قائد للجماعة في بلاد الشام , الدكتور مصطفى السباعي , عليه

شآبيب الرحمة والغفران، وكنت ممن كتب، ولكن كل تلك الكتب لم تشكل تاريخاً للجماعة، وإن كان فيها شيء من التاريخ، بسبب تماهي شخصية القائد السباعي، أول مراقب عام، بتاريخ الجماعة. . .

وكذلك ما كتبه بعض الإخوة الذين تعرّضوا لأقسى أنواع التعذيب، كتبوا عدة كتب عما عانوه في المعتقلات، فكان ما كتبوه من أدب السجون، وتأريخاً لحقبة مظلمة في حياة سورية.

وكانت محاولات لكتابة تاريخ الجماعة، وشُكلت لجان، ولكنها لم تتمكن من الاضطلاع بهذه المهمة الصعبة، وبقيت الجماعة بلا تاريخ، وبقي الإخوان يتطلعون إلى من يكتب لهم تاريخ جماعتهم، بمنجزاتها الفكرية، والدعوية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، إلى أن جاء هذا الكتاب الفريد في بابه، ليؤرخ للحركات والجماعات الإسلامية في سورية عامة، وللإخوان المسلمين خاصة، وليضع النقاط على الحروف في مرحلة التأسيس، ولتكون كلماته الفاصلةَ في هذا الموضوع المثير للجدل، ولينصف رجال الرعيل الأول الذين كان لهم شرف السبق في رفع راية الإسلام في بلاد الشام، وفضيلة التصدي لحملات التشويه التي تولى كبرها المستعمرون والمستغربون والعلمانيون، واليسار واليمين جميعاً. . أولئك الذين استهدفوا هوية الأمة، وشرقوا بها وغربوا، فتصدى لهم علماء أجلاء، ومفكرون كبار، جاهدوا على جبهتين: داخلية وخارجية، وتمكنوا من الحفاظ على عقيدة الشعب، وعلى أخلاقه، وقادوا حركات التحرر من

الأجنبي الدخيل، حتى دحروه، واستقلت بلادهم التي أوهى كيانها المستعمرون، ومن بعدهم: أعوانهم من عصابات العسكر الانقلابيين.. بمصادرة الحريات، وإفقار الناس، وبالفساد والإفساد في سياساتهم الداخلية، وارتباطاتهم الخارجية التي كشفت الأيام سوآتها.

تحدث الكاتب عن كل هذا، في تبويب دقيق، وتحر للصدق عميق، ووعي كامل لما جرى على الأمة العربية الإسلامية وما يزال يجري، عبر تخطيط لئيم شارك فيه بعض المنحرفين من أبنائها، فقد فتح الكاتب عينيه وقلبه وعقله بُعَيْدَ سقوط الخلافة، وسقوط أجزائها وأطرافها أشلاء تحت نير المستعمر الغاشم الذي احتل بلاد الشام، ومزقها إلى كيانات خاضعة له.. شاهد علماء الأمة وهم يستنهضون الشعب لطرد (الحرامي الذي دخل الدار) وانتسب في يفاعته إلى جماعة الإخوان الفتية، وأكب على قراءة الكتب والصحف قراءة الدارس الذي يريد أن يحيط بكل ما يجري علماً، ليعينه على التحليل والتركيب، واتخاذ الموقف السليم تجاه ما يضطرب على الساحة السورية، بل وعلى الساحة العربية، خاصة بعد أن انتقل إلى مدينة الأزهر، واحتكَّ بالحركة الأم، وبإخوان الأستاذ البنا وبتلاميذه.

يتميز المؤلف بسجايا وصفات ندر وجودها مجتمعة في سواه، وهي التي أهلته للتصدي لهذا العمل الكبير دون سواه من كتّاب الجماعة، برغم كثرتهم، وقدرتهم على الكتابة، ولكن في غير هذه البابة.

منها تكوينه الثقافي، وسعة أفقه، وحركته الدائبة، واتصاله بالناس

عامة، والمثقفين والسياسيين خاصة، بحيوية وإخلاص واتزان، ووعي ملاكُه عقلٌ قادر على فهم الأمور على حقيقتها، وقلبٌ سكنته ونمته صوفيةٌ سليمة وكلتْه إلى الله تخطيطاً وتسليماً وتوهجاً في الأخذ والوعي والعطاء..

ومنها أن الأستاذ المؤلف نشأ في طاعة الله، واتخذ لنفسه إخواناً بررة، كصديقه الحميم، الدكتور عبد الكريم عثمان - رحمه الله تعالى- وهو من هو دعوة، وعلماً، وثقافة، ورجولة، وثاني صديقيه الحميمين الأستاذ الشيخ مصطفى الصيرفي، حفظه الله تعالى.. وكان الثلاثة يكمل بعضهم بعضاً في سائر المجالات.

ومنها الظروف العصيبة التي مرت بسورية، والتآمر عليها من الداخل والخارج، وتناحر الأحزاب، وارتباط بعضها بالشرق وبعضها بالغرب، وتحالفها في وجه المد الإسلامي الذي أرعب عملاء اليسار واليمين معاً.

ومنها أن الأستاذ المؤلف قاد حركة الإخوان المسلمين في سورية، في مرحلتين دقيقتين، بل هما من أخطر المراحل التي مرت بها الجماعة عبر تاريخها الطويل..

الأولى: مرحلة ما بعد الانشقاق عام ١٩٧٥ فقد تسلم الأستاذ عدنان الجماعة وهي ممزقة، منهكة، مفلسة مالياً، فقادها بجدارة، وحقق بمبادراته الجريئة، ونظراته الصائبة مع إخوانه في القيادة، في مدة قصيرة، ما فاق ما كنا نأمله، وعلى الصعد كافة، حتى وصف

بعضهم هذه المرحلة بالمرحلة الذهبية فقد صار للجماعة نظامها، وخطتها العامة، وخططها المرحلية، وميزانيتها، ومفرَّغوها، وزار - وهو المطلوب من السلطة القمعية - أكثر المراكز في القطر، على مدى ثلاث سنين حافلة بالنشاط في سائر الميادين، وزار بعض الأقطار العربية، من أجل تنسيق العمل معها..

والمرحلة الثانية: هي التي بدأت بالصراع الدامي مع نظام أسد، وما نشأ عنه من اعتقال، ومطاردة، وتعذيب، وقتل، وتشريد.. كان الأستاذ عدنان يعمل في دولة الإمارات فاستقال من عمله، وانتقل إلى بلد مجاور، ليكون قريباً من الأحداث، يوجهها، ويشارك في صنعها.. أعاد تشكيل القيادة، ووضع خطة التحرك، وكتب بيان الثورة الإسلامية ومنهاجها، واستقبل الإخوة الفارين من النظام الأسدي بدينهم وأرواحهم وأعراضهم، وأمَّنَ لهم السكن والعيش الكريم، وكلَّ ما يحتاجون إليه، فحفظ - بذلك - لهم كراماتهم، وصان أعراضهم، ودماءهم، ووجَّه أبناءهم وبناتهم إلى المدارس، والجامعات، بل والدراسات العليا، فكان للجماعة منهم مئات الخريجين الجامعيين، وعشرات من حملة الدكتوراه، وسعى في تأمين العمل الكريم لكثير منهم.

ثم إن المؤلف يتمتع بذاكرة قوية حية، أرهقته وأرهقت العاملين معه، فهو يتذكر الصغيرة والكبيرة، بناسها، وزمانها، ومكانها، كأنه يحمل بين جنبيه مسجلاً يحفظ له ما يريد وما لا يريد..

لم تقعده الشيخوخة، ولم تشغله شواغل الحياة، ولم يصرفه

المرض عن التأليف في موضوعات دقيقة ذات مركب خشن، كموضوع هذا الكتاب الذي جمع فأوعى، وكان لسورية وحركاتها الإسلامية، ككتاب الشيخ الجليل محمود عبد الحليم لمصر ولإخوان مصر..

لقد سد الأستاذ عدنان بهذا الكتاب ثغرة كبيرة، وملأ حيزاً ما زال شاغراً منذ تأسيس الجماعة، وسيكون هذا الكتاب محرضاً للكتاب والدارسين المعنيين بالشأن السوري عامة، والشأن الإسلامي خاصة.. يحرضهم على الكتابة والدرس والتحقيق والتمحيص، كما سيكون محرضاً للدعاة والعلماء، ليشرعوا أقلامهم، ويكتبوا ذكرياتهم، ويدونوا ما عندهم من وثائق ومذكرات هي ملك للجماعة، بل هي ملك للأمة قاطبة، وهم الشهود الذين يأثمون إذا ما كتموا شهادتهم..

إن هذا الكتاب تأريخ صادق أمين للإخوان وأنصارهم وحلفائهم في التجمعات الإسلامية السورية، وهو تتويج لعمر أمضاه صاحبه في ميادين الدعوة والتربية والسياسة والثقافة والفكر، وهو جزء من عدة مجلدات ستكون في آلاف الصفحات بإذن الله، وأضرع إليه - سبحانه - أن يمد في عمره، ويكلأه بعين عنايته ورعايته، ويهبه الصحة والعافية، ليتم هذا العمل الكبير.

وصلى الله وسلم على سيدي وقائدي ومولاي محمد رسول الله.

٢٩/٨/١٤٢٨هـ - ٢٠/٩/٢٠٠٦

❋ ❋ ❋

توطئة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيدنا محمد بن عبد الله، الرحمة المهداة، والنعمة المزجاة، الذي أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لينقذ بهديه البشرية من الجهل والزيغ والضلال، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك، فجزاه الله خير ما يجزي نبياً عن أمته وبعد:

فمن مقومات السياسة الشرعية، الاهتمام بأمور الخلق وشؤون العباد، والنهوض بهم إلى مراقي الخير ومدارج الفلاح، وتحصينهم من الزيغ والهوى، وتبصيرهم بحقوقهم وواجباتهم، وتوعيتهم بمسؤولياتهم الفردية والاجتماعية، وتنبيههم على الأخطار المحدقة بهم، والمكائد التي يحوكها الأعداء في الداخل والخارج للإيقاع بهم، والكشف عن المؤامرات المدمرة التي تستهدف أرضهم وشعبهم.

لقد دأب الأعداء على بث الأراجيف المغرضة لتشويه مبادئ

الإسلام والنيل من دعاته، واستخدام وسائل الإعلام لتأليب الرأي العام العربي والإسلامي والدولي (وعلى جميع الصعد الشعبية والحكومية) ضد العاملين في الحقل الإسلامي وقادة الجماعات الإسلامية، وإلباسها تهم التطرف والتعصب ومعارضة الوحدة ومعاداة الجماهير وحقها في العيش اللائق الكريم، وهضم حقوق الأقليات والطوائف وغير ذلك من مسلسل المفتريات الملفقة والاتهامات الباطلة على مدار أكثر من خمسين عاماً، ومثل هذه السياسات الهادمة للرجال والمبادئ تحركها وتخطط لها أجهزة وحكومات تنسج خيوطها، وتضع لها برامجها وأهدافها، وترصد لها المبالغ الطائلة والكوادر المدربة، وهذا ما برعت به دوائر المخابرات الأجنبية الشرقية منها والغربية، ولا سيما البريطانية سابقاً والأمريكية لاحقاً في صنع زعامات محترفة قادرة على العبث السياسي والتضليل المذهبي والمتاجرة بالشعارات، والمزايدة في المبادئ، والقفز على الحبال، وركوب الموجات، وتدليس الأفكار، واللعب بالعواطف لتخدير الجماهير، وتبديد الثروات، وتمزيق الصفوف، وإثارة النعرات، وافتعال الأزمات وجر الشعب إلى الهزائم والنكبات.

في هذه الذكريات والمذكرات أو هذه الصفحات رصد لأحداث مضت، ومعالجة متواضعة لأخطر الموضوعات السياسية والفكرية التي تشغل عقول العاملين للدعوة الإسلامية، والدارسين الذين ينشدون الحقيقة، ويبحثون عنها، والمعنيين بشؤون الدعوة والأمة والوطن حاضراً ومستقبلاً.

❋ ❋ ❋

مدخل

بالرغم من كل ما ورد على نظام الخلافة العثمانية في أيامها الأخيرة من ظلم وانحراف واختراق يهود الدونما للسلطنة، ومن اضطهاد للعرب، وفرض اللغة التركية والقومية الطورانية عليهم، وما ينطوي عليه هذا الظلم من إعلان الحرب ليس على العرب ولغتهم فحسب، وإنما على الإسلام ذاته، وعلى القرآن الكريم الذي شاء الله أن تكون العربية لغته التي يتعبد بها المسلمون ربهم، ويؤدون بها صلاتهم.

بالرغم من كل هذا، فإن إلغاء الخلافة في استانبول عام ١٩٢٤م إنما هو إنهاء لآخر مظهر لسلطان المسلمين السياسي، وقضاء مبرم على المعقل الأخير للقيادة الروحية للعالم الإسلامي.

إثر ذلك أضحت شعوب الأمة الإسلامية - ولا سيما الشعب العربي - كالغثاء بين الأمواج، وكالريشة في مهب الريح، فوجدت نفسها في ضياع، تواجه قيادات سياسية عالمية تعرف ما تريد، سواء أكانت وثنية كاليابان والهند، أم شيوعية كالصين والاتحاد السوفياتي

- سابقاً - أم كتابية كالولايات المتحدة ودول أوربا الغربية، فقد كان العرب والمسلمون مبعثرين مشتتين، يسيرون على غير هدى، دونما قيادة كفوءة ترعاهم أو راية خفاقة تجمع شملهم.

بعد أربع سنوات من هذا الضياع وفقدان التوازن، استيقظ العرب والمسلمون على صيحة مدوية أطلقها على أرض الكنانة وفوق ضفاف النيل داعية مصلح لم يأبه المراقبون والمتربصون لصيحته، ظناً منهم أنها واحدة من الصيحات التي لا تلبث أن تموت في يومها أو في غدها، وعندما رأوا حشود المصريين وغير المصريين من العرب والمسلمين تستجيب للنداء، وتنطلق كالمارد، وتهدر كسيل عرم، أدرك الأعداء - وما أكثرهم - خطورة هذا الداعية، وحجم هذه القيادة الفذة، فسارعوا وقرروا قتله وتصفية الجماعة التي بناها وقادها، بكل ما يملكون من أسباب الكيد والبطش والحقد الدفين.

من هو حسن البنا رحمه الله؟

إنه حسن بن أحمد عبد الرحمن الساعاتي الملقب بحسن البنا، ولد في قرية المحمودية من مديرية البحيرة في مطلع القرن العشرين الميلادي عام ١٩٠٦، أكمل تحصيله الابتدائي والمتوسط في بلدته، ودرس بمعهد المعلمين في مدينة دمنهور، وتتلمذ على والده الشيخ أحمد عبد الرحمن الرجل الصالح والمحدث الكبير صاحب شرح وتحقيق المسند لأحمد بن حنبل، وعلى عدد من الشيوخ، فأخذ من التصوف الزهد وتطهير النفس وتزكيتها، وتنقية القلب من العلل

والشوائب، كما أخذ من السلفية الطريقة والاتباع مبرأة من الجمود والجفوة والتطاول على العارفين وذوي الصلاح، وعندما التحق بدار العلوم في القاهرة نال شهادتها، وكان الأول بين طلابها.

في مدينة الإسماعيلية التي باشر مهنة التعليم في مدارسها، شرع بوضع الأسس في بناء كبرى الحركات الإسلامية عام ١٩٢٨م الموافق ١٣٤٧هـ، ولما يمض على مكثه في الإسماعيلية عام واحد، إذ تضافرت عوامل عدة في تكوين شخصيته القيادية الفريدة، فقد حباه الله تعالى عقلاً راجحاً، وذكاءً حاداً، وبديهة حاضرة، وقلباً كبيراً يسع المحسن والمسيء، وإحساساً مرهفاً، وذاكرة عجيبة، وفراسة تنظر بنور الله، وكان مفتاح شخصيته الزهد ونكران الذات والخروج من سلطان الدنيا، وتحرره من التفكير بها، أو الاهتمام بشأنها أو متاعها، ذكر من دخلوا منزله أنهم شاهدوا صورة من الزهد تذكر بما كان عليه العارفون الكبار من أمثال الإمام أحمد بن حنبل(١).

لقد كانت تجربته المبكرة، ومشاهداته المثيرة عاملاً حاسماً في وضوح الرؤية وتحديد الهدف لديه، فقد راعه ما رآه في أوساط الشيوخ من انقسام وصراع، واستفزته رؤية المعسكرات البريطانية جاثمة على صدر الوطن، وآلمه تفشي البؤس والفقر والحرمان في

---

(١) سمعت هذا من الشيخ الداعية الدكتور مصطفى السباعي، ومن طبيب مصري التقيته في مؤتمر انعقد في فندق انتركونتتال بمكة المكرمة عام ١٣٩٧هـ، وقد دخل غرفة نومه وهو مسجى بعد استشهاده قبيل دفنه رحمه الله.

السواد الأعظم من المصريين لحساب المستعمر والملاكين الكبار والشركات الأجنبية، كما رأى تخاذل القصر والأحزاب السياسية أمام العدو المحتل، فبادر إلى وضع نظريات العمل الإسلامي، وأطلق الشعارات، وحدد الغايات، ورسم الخطط، وشرع في مخاطبة الشعب، وتوعية الجماهير، وبناء التنظيم، وهو دون الخامسة والعشرين، وكتب رسائله كالمتون في اختصارها، ودقتها، فجاءت أعماله من حيث النضج والاكتمال في بدايتها مثلها في نهايتها.

كان رحمه الله يملك جاذبية لا تقاوم في زلاقة اللسان، وسحر البيان، والاستشهاد بآي القرآن، فإذا بالإسماعيلية مركز القيادة للجيوش البريطانية المحتلة تصبح قلعة المقاومة، وحصن الجهاد، وموئل الأبطال، من أمثال شيخ الفدائيين يوسف طلعت، وقائد المجاهدين محمد فرغلي، رحمهما الله وأعلى مقامهما.

انتقل الإمام حسن البنا إلى القاهرة عام ١٩٣٢ لتكون مقراً لقيادة التنظيم، وسرعان ما أثمرت حركته رحمه الله قطوفاً يانعة، فسددت لها حكومة حسين سري أولى الضربات فانتشرت في القطر المصري من أدناه إلى أقصاه، ودخلت بيوت المثقفين والموظفين والعمال والفلاحين، فعاجلتها حكومة السعديين برئاسة إبراهيم عبد الهادي بضربة قاسية عام ١٩٤٨، فجاءت ردة الفعل اتساع دائرتها لتصل إلى الأقطار العربية، وعندما قررت حكومة جمال عبد الناصر القضاء المبرم عليها عام ١٩٥٤، ورفعت قادتها وعلماءها على أعواد

المشانق، وأعربت جميع القوى الكبرى على لسان صحفها عن ارتياحها وسعادتها[1] كانت النتيجة وصول جماعة الإخوان المسلمين إلى جميع أنحاء العالم، ودخولها القارات الخمس وانتشارها في أكثر من خمسين بلداً، وكذا في أوساط الأقليات والجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا وجميع بقاع العالم.

لسنا بصدد دراسة شافية عن الإمام حسن البنا في هذه المذكرات والذكريات، فهذا يحتاج إلى مجلدات، والرجل متعدد الجوانب والمواهب، بيد أن إلمامة سريعة عن شخصيته وأفكاره وبُعد نظره في أمور كثيرة وخطيرة لابد منها، باعتباره مؤسساً وقائداً لكبرى الحركات والجماعات الإسلامية في العصر الحديث.

حسن البنا واحد من العمالقة الكبار في هذا العصر، جدد للأمة الإسلامية دينها، وأحيا آمالها، وأيقظها من سباتها، وأسمعت صيحته أرجاءها، أسس كبرى الجماعات الإسلامية في القرن العشرين الميلادي (الرابع عشر الهجري) وربّى جيلاً بل أجيالاً صلبة عازمة على التغيير والتحرير والنهوض الكبير، وانتقل بالعمل الإسلامي من حيّز النظريات والفرضيات إلى سوح الجهاد والبناء، وأعطى من نفسه

---

(١) كنت طالباً في السنة الأخيرة بكلية آداب القاهرة عندما نفذ حكم الإعدام في قادة الإخوان المسلمين من أمثال المشرع الكبير عبد القادر عودة وشيخ المجاهدين محمد فرغلي وإخوانهما، وكانت صحف القاهرة الأهرام والجمهورية والأخبار تنقل ما تكتبه الصحف العالمية في السوفييت وأوربا وأمريكا من ابتهاجها وشماتتها بإعدام قادة وشيوخ الإخوان المسلمين.

القدوة في العطاء والفداء، والإخلاص والتجرد ونكران الذات.

إن معظم الدراسات التي تناولت سيرة حسن البنا رحمه الله اقتصرت على سجاياه وصفاته وشمائله وسيرته الذاتية، وقلما وقعت عيني على دراسة تتناول تجديده الديني وإصلاحه الاجتماعي وفكره السياسي، وفي هذه العجالة أشير إلى أفكار ومواقف مهمة تلقي الضوء على شخصية الإمام ونهجه في الإصلاح، وسبقه في قضايا كثيرة تقدم بها على غيره من المفكرين.

١- حدد منذ وقت مبكر دعائم عدة لدعوة الإخوان، فذكر منها أنها ربانية تستمد من هذه الصلة روحانية تسمو بها إلى طهر الإنسانية، وأنها عالمية موجهة إلى الناس كافة (فالبشرية عائلة واحدة، أبوها آدم وأمها حواء)[١].

٢- عُني رحمه الله بالإصلاح الاجتماعي بعد تأسيس الجماعة بوقت قصير، فبنى المساجد، وأنشأ المعاهد للبنين والبنات، وأقام الأندية، وأسس مقرات لحفظ القرآن الكريم، وشجع على الصناعات المنزلية والخفيفة للنسيج والسجاد، وشكل لجاناً للمصالحات وفض الخصومات، وأخرى لجمع الصدقات وإسعاف المعوزين والفقراء، وهيأ للمرضى مستوصفات متنقلة.. إلخ في أنحاء مصر، كالذي عرفه

---

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد، صدرت عام ١٩٤٢: ٢٢٦ من كتاب مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا الطبعة الثالثة عام ١٩٨٤، وكل ما ورد عن الإمام في هذه المذكرات مأخوذ من هذه الطبعة.

المـواطنون وشاهـدوه، واستفـادوا منه في الإسـماعـيليـة وشبراخـيت والمحمودية والدقهلية وغيرها[1].

٣- دعا إلى الـحرية السيـاسية بلـغة لا ينقصـها الوضوح، فـقال: الحرية السيـاسية ركن من أركان الإسلام، وفريضة مـن فرائضه، وإننا نعمـل لاستكمال الـحرية ولإصلاح الأداة التـنفيذيـة كجزء من تعـاليم الإسلام[2] والإسلام الحـنيف يعلن الحـرية ويزكيـها، ويقرهـا للأفراد والأمم والـجمـاعات بأفـضل مـعانـيهـا، ويدعـوهم إلى الاعـتزاز بهـا والمحافـظة عليها، يقول ﷺ" «من أعـطى الذلة من نفسه طائعـاً غير مكره فليس مني»[3]. ومن هذا المنطلق رفض الإمام الهـيمنة الأجنبية مهـما كـان الثـمن، فقـال: وقد وطـنا أنفـسنا علـى أن نعيـش أحراراً عظماء، أو نموت أطهاراً كرماء[4].

٤- أقر وجود الأحزاب السياسية بـضوابط ومناهج معلنة، وامتدح كثـيراً من رجـالات الأحزاب، وقال: قـد عملـوا على خدمـة القضـية السياسية المصرية، ونحن لا نبخس الرجال حقهم، بيد أنه رحمه الله أخذ على الأحـزاب أنها لم تحـدد منهاجاً دقـيقاً لما تـريد من ضروب الإصـلاح، وقال: إن هذه الأحـزاب تعـاقبـت على الـحكم فلـم تأت

---

(١) رسالة: هل نحن قوم عمليون ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م من مجموعة الرسائل.

(٢) رسالة المؤتمر السادس عام ١٩٤١: ٢١٣ من كتاب مجموعة الرسائل.

(٣) مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي: ٣٠٨ من مجموعة الرسائل صدرت عام ١٩٤٨ .

(٤) رسالة المؤتمر السادس: ٢٢٠ من مجموعة الرسائل صدرت عام ١٩٤١ .

بجديد، فالإمام البنا لم يرفض فكرة الأحزاب وحقها في الوجود والمشاركة السياسية، ولكنه أنكر واقعها وانحرافها وافتقارها إلى المنهج الإصلاحي الذي يخدم البلاد والعباد، وعندما عرّف الإمام جماعة الإخوان بجملة من المزايا والصفات والمقومات، جاء منها كما قال رحمه الله: نحن حزب سياسي نظيف يجمع الكلمة، ويبرأ من الغرض (المنافع الخاصة) ويحدد الغاية، ويحسن القيادة والتوجيه[1]. وفي الاجتماع نفسه أكد على موضوع فلسطين وقال: إن مصر والعالم العربي والإسلامي يفتدي فلسطين (قلب العالم العربي) أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله ﷺ.

٥- دعا الإمام البنا رحمه الله إلى الوحدة العربية بحماسة شديدة، وتحدث عن ميزات العروبة وخصائصها والقيم التي تحلت بها وعُرفت عنها[2] فقال: نحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخلق، ونعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى النهوض بالإنسانية، ولعلك لست واجداً في التاريخ من أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك

(١) كلمة الإمام في اجتماع رؤساء المناطق الذي عقده عام ١٣٦٤هـ الموافق ١٩٤٥م: ٢٥٢ من كتاب مجموعة الرسائل.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٣ .

الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ[1] وتحدث الإمام عن الوحدة حديثاً يفيض في الحماسة والاقتناع، وربطه بالعقيدة وأصول الدعوة إلى الإسلام في مناسبات كثيرة، وفي فترات متفاوتة، كان أوضحها ما جاء في خطابه بالمؤتمر الخامس عام ١٩٣٨م فقال: ثم إن هذا الإسلام نشأ عربياً، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه، وأحب هنا أن أنبه - يقول الإمام - إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرفها النبي ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان»، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لابد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية[2]، ثم أكد الإمام المرشد على هذا المعنى في المؤتمر

---

(١) رسالة دعوتنا: ٢٤ من مجموعة الرسائل (الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م) في مطلع الثلاثينيات.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس الذي ألقى فيه الإمام خطابه الجامع عام ١٣٥٧ - ١٩٣٨: ١٤٢ من مجموعة الرسائل.

السادس الذي تم عقده عام ١٩٤١ وجاء فيه: العروبة لها في دعوتنا مكانها البارز وحظها الوافر، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير، ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب (الجماهير) العربية ونهضتها، فهذه الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية لا تمزق في أنفسنا أبداً معنى الوحدة العربية الإسلامية التي جمعت القلوب على أمل واحد، وجعلت من هذه الأقطار جميعاً أمة واحدة مهما حاول المحاولون وافترى الشعوبيون، ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ولخير العالم كله(١).

هذا هو رأي الإمام حسن البنا في العرب والعروبة والوحدة العربية، وأزعم أن أعضاء الجماعة في خارج مصر، ولاسيما في بلاد الشام - سوريا ولبنان والأردن وفلسطين - والعراق، لو أخذوا برأي الإمام الشهيد حسن البنا ورفعوا لواء الوحدة العربية وفق المفاهيم التي حددها الإمام رحمه الله في هذا الشأن، لقطعوا الطريق على الحركات والأحزاب القومية التي جنحت بالعروبة جنوحاً ضاراً، والتي اشترطت للوحدةِ العلمانيةَ أو الماركسيةَ مضموناً لها، وأخذوا بكل ما يبعدها عن الإسلام ورسالته التي صار العرب بها خير أمة أخرجت للناس.

٦- أما الشؤون الاقتصادية فقد سبق الإمام عصره بما يخصها خمسين عاماً على الأقل، فقد آلمه ما يعانيه المواطنون من فقر ومرض وبؤس وجهل واضطهاد، فأرسل صيحة مدوية حذر فيها من

---

(١) المؤتمر السادس عام ١٩٤١: ٢٣٠ - ٢٣١ من مجموعة الرسائل.

النتائـج المترتبة عـلى ذلك، والتي قد تفـضي إلى سوء المصـير، وقد شخص رحمه الـله أحوال الناس، وما يعانونه من جـوع وحرمان، في المؤتمر السادس عام ١٩٤١، فذكر أن دخل الفرد في الشهر جنيهان، في الوقت الـذي تبلغ تكاليـف الحمـار ٣٤٠ قرشاً، أي ضـعف دخل المواطـن على وجه التـقريب[١]، وأن في مـصر ٣٢٠ شركـة يملكـها أجـانب وغـرباء وجـاليـات، بيـنمـا لا يمـلك المـصـريون سـوى ١١ شركة[٢]، ونادى رحمه الله بتأميم قناة السويس، وقال: قناة السويس أرض مصرية حفرت بدماء المصريـين وجهود أبنائها، فيجب أن يكون لمصر حق الإشراف عـليها وحمايتها وتنـظيم شأنها[٣] وفي مكان آخر من بحوثه ورسائـله نادى الإمام بتأميم القنال صراحـة، وعبر عن ذلك بقوله (تـمصير القنـال) كما نادى بتـمصير الشـركات، وإحلال رؤوس الأموال الـوطنيـة محل رؤوس الأمـوال الأجنبـية كـلما أمـكن ذلك[٤] والتحـول إلى الصناعة فـوراً، لأن ذلك من روح الإسلام[٥]. وطالب في نفس البـحث وفي هذه الرسالـة باستقلال الـنقد (عن الإستـرليني) واعتـماده على رصـيد ثابت مـن موارد مصـر وذهبها لا عـلى أذونات الخزينة البريـطانية، وعلى أوراق لا قيمة لها إلا بالضـمان الإنجليزي،

---

(١) المؤتمر السادس: ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق: ٢٠٩ .

(٣) رسالة اجتماع رؤساء المناطق عام ١٩٤٥: ٢٦١ .

(٤) رسالة النظام الاقتصادي: ٣٤٦ من مجموعة الرسائل.

(٥) المصدر السابق: ٣٤٧ عام ١٩٤٨ .

كما تحدث الإمام عن نظام الملكيات، فدعا إلى إعادة النظر في تملك الأرض، وقال بتشجيع الملكيات الصغيرة، وتعويض ذوي الملكيات الكبيرة، حتى يشعر الفقراء أن لهم في الوطن ما يعنيهم أمره، ويهمهم شأنه(١).

إن الإمام لم يترك مناسبة، إن في المؤتمرات أو الرسائل أو المقالات أو صحف الجماعة إلا دعا إلى تحرير الفلاحين والعمال والحرفيين من الظلم والاستغلال وسيطرة الشركات الأجنبية، وإعطائهم حقوقهم المجزية ليعيشوا وأبناءهم حياة كريمة تكفل لهم التعليم والعلاج والرزق الحلال والكرامة الإنسانية كما نصت الآية الكريمة في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٢).

٧- وأخيراً - وليس آخراً - دعا الإمام إلى وحدة الكلمة وجمع الشمل ورص الصفوف والتقاء الهيئات والمؤسسات والشخصيات على الأمور التي توحد ولا تفرق، وتجعل الشعب كله صفاً واحداً وكتلة متراصة كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وأن يعذر الأخ أخاه، والجار جاره، والمواطن أبناء وطنه في أي خلاف ينشب بينهم كما كان يفعل الفقهاء والكبار والأئمة العظام، فأطلق رحمه الله كلمته الشهيرة التي

---

(١) المصدر السابق من رسالة النظام الاقتصادي عام ١٩٤٨: ٣٤٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

ذهبت مثلاً، فقال: فلنتعاون على ما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

هذه ملامح عن شخصية الإمام، وشذرات من فكره الثاقب ورأيه السديد، ونظره البعيد، وسبقه أبناء جيله في استشراف المستقبل، وهذا هو شأن الكبار والمصلحين، فرحمه الله وأعلى مقامه في عليين، وجزاه عن أمته وملته خير الجزاء وأحسنه.

* * *

مقدمة

قلَّ من يدرك الدور التاريخي الذي اضطلعت به جماعة الإخوان المسلمين في العصر الحديث في حياة العرب والمسلمين.

لقد خرج المسلمون - ولا سيما العرب منهم - من الحرب العالمية الأولى منهكين بعد زوال آخر مظهر للسلطان السياسي للمسلمين إثر هزيمة العثمانيين، فكانت الهزيمة النفسية أكبر من الهزيمة العسكرية حيال التفوق الغربي، وتجاه إنجازاته الحضارية في شتى الميادين.

أمعن الغرب في تمزيق الوطن العربي والعالم الإسلامي، وفي تغريب شعوبه، وعاشت الأمة أزمة حادة في الهوية والانتماء، فنشأت حركات وأحزاب وجماعات تحمل الفكر الغربي، وتدعو أبناء الأمة أن يخلعوا عن أنفسهم ربقة الإسلام، وتؤكد على صبغ الحياة الخاصة والعامة بالصبغة الغربية في مجالات السلوك والتربية والمناهج وكل شؤون الحياة، بل إن الأجيال الناشئة وطلاب المدارس كانوا

يتحرجون من أداء الصلاة إلا خفية للقلة القليلة التي كانت تحرص على أداء هذه العبادة، وهكذا كان شأن المواطنين في بلاد الشام التي تشمل سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وفي العراق ووادي النيل وبلاد المغرب العربي في شمالي إفريقيا، طيلة العشرينيات ومطلع الثلاثينيات، والناس في غفلتهم سادرون، حتى استيقظوا على صيحة مدوية أطلقها الإمام المجدد حسن البنا على ضفاف النيل عام ١٩٢٨ بعد أربع سنوات من إلغاء الخلافة الإسلامية في استانبول، وإلحاق تركيا بأوربا، وتجريدها من كل صبغة إسلامية بعد أن حمل العثمانيون الراية الإسلامية لأكثر من ستة قرون.

كانت أولى النتائج الباهرة التي حققتها جماعة الإخوان المسلمين بعد تأسيسها بفترة وجيزة هي تحرير شعوب الأمة العربية والإسلامية من الأزمة النفسية الحادة في الهوية والانتماء، إثر الهزيمة التي منيت بها في أعقاب الحرب العالمية الأولى والتفوق الغربي عسكرياً وحضارياً، إذ عادت الثقة لأبناء الأمة في عقيدتهم وشريعتهم وتاريخهم وأمجادهم وقدرتهم على الاضطلاع بدور حضاري منقذ في المستقبل كالذي نهض به آباؤهم وأجدادهم من قبل في هداية البشرية وإنقاذها.

* * *

سوريا أول من استجاب لصيحة الإمام البنا

تضافرت أسباب عدة جعلت من سوريا أول قطر عربي يستجيب لصيحة الإمام حسن البنا في ظهور دعوة الإخوان المسلمين في سوريا في وقت مبكر، ومن ذلك:

١ - اهتمام الإمام المؤسس ببلاد الشام ولا سيما فلسطين، إذ أدرك رحمه الله ما يبيت لها من شرور ومخططات ترمي إلى خطفها من أهلها، وإحلال اليهود الوافدين إليها من كل الآفاق محلهم، بدعم من البريطانيين الذين وهبوا فلسطين وأقطعوها لليهود بموجب وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا في ٢-١١-١٩١٧، وكأنها ملك شخصي له، أو لدولته.

أرسل الإمام وفداً مشكلاً من أخيه الشيخ عبد الرحمن والأستاذ أسعد الحكيم والشيخ عبد المعز عبد الستار يرافقهم الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، زار الوفد مدن فلسطين يحذر أهلها، وينبه للذي يبيته الصهاينة لانتزاع فلسطين من شعبها، ويستنهض الهمم كي يهبوا

ويجاهدوا وينقذوا وطنهم. التقى الوفد في حيفا بالشيخ نمر الخطيب خطيب مسجدها الكبير، وكان في مقتبل شبابه، فانعقدت أواصر الأخوة والمحبة بين الشيخ نمر وبين أعضاء الوفد، ولا سيما الشيخ عبد المعز عبد الستار، وما يزالان على عهدهما منذ ٥ آب عام ١٩٣٥ تاريخ ذهاب الوفد إلى فلسطين وحتى يومنا هذا، وما يزالان على العهد في الوفاء لدعوة الله، ولرابطة الأخوة في ذات الله، والشيخ عبد المعز هو البقية الباقية من أعضاء مكتب الإرشاد الذي كان يرأسه الشهيد حسن البنا، ومثله الأستاذ فريد عبد الخالق أمد الله في عمرهما، أما الشيخ نمر الخطيب فإنه يجاور في المدينة المنورة، ويعطي دروسه لطلاب العلم كما كان حاله في حيفا وبيروت دون كلل أو ملل، بالرغم من أنه بلغ المائة من عمره المبارك، والشيخ عبد المعز عبد الستار يقيم في الدوحة عاصمة قطر، وهو في التسعينيات من عمره المديد أمضاه في الجهاد في سبيل الله وفي الدعوة إلى الله، أما الأستاذ فريد عبد الخالق فيقيم في القاهرة قريباً من إخوانه وأبنائه الذين رباهم على طاعة الله وحمل راية الإسلام. وقد شارف على التسعين من عمره المبارك.

٢ - كان الإمام يرى في بلاد الشام أملاً كبيراً للعرب وللمسلمين، وينظر إليها بعين التقدير والمحبة والرجاء، فالذكريات الكريمة والأحاديث الشريفة تؤكد على خيرية هذه البقعة، وأن الله تعالى بحكمته وبفضله باركها وبارك حولها، والأحاديث الشريفة شجعت

على سكناها والإقامة على أرضها، واللجوء إليها عند ظهور الفتن، وما إلى ذلك من نصوص يقرؤها من يبحث عنها في مظانها.

وقد نقل تلاميذ الإمام ومريدوه والذين رافقوه وعايشوه أقوالاً عنه رحمه الله في بلاد الشام تؤكد على ثقته بالشام وأهلها، وما يعلقه عليها في خدمة الدعوة من آمال، مثل: في مصر قلوب، وفي الشام عقول، ومثل: لوكنت في بلاد الشام لبَلَّغْتُ دعوة الله إلى العالم كله - في عشرين سنة، ولم يغادر مصر طيلة حياته - باستثناء رحلة الحج - إلا مرة واحدة، حضر فيها إلى دمشق على رأس كتيبة من مجاهدي الإخوان المسلمين لينضموا إلى إخوانه العرب والفلسطينيين في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وبعد عودته بفترة وجيزة اغتالته يد المكر والغدر في (١٢-٢-١٩٤٩م). لأسباب عدة يأتي في مقدمتها جهاده وحماسته في الدفاع عن أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

٣- في الثلاثينيات رحل عدد من طلاب العلم من سوريا إلى مصر لتلقي الاختصاصات في علوم الشريعة في الأزهر الشريف، كان من أبرزهم الشيخ مصطفى السباعي والشيخ محمد الحامد رحمهما الله، فتعرفوا على جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة، وعلى مرشد الجماعة الشيخ حسن البنا، وكانوا يحضرون الدروس الأسبوعية التي يلقيها المرشد مساء كل ثلاثاء، فامتلأت نفوسهم إعجاباً بغزارة علمه، وجميل تواضعه، وسعة أفقه وحسن معشره،

فتعلقت قلوبهم به، ولم يستطيعوا فراقه أو الابتعاد عنه.

قال الشيخ مصطفى السباعي في حسن البنا: فوالله ما رأيت إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح من حسن البنا رحمه الله[1]. أما الشيخ محمد الحامد، فكان في حديث دائم عن الإمام وفضائله وإخلاصه وقدراته وتواضعه. إلخ وأقتصر على ذكر موقف واحد صادفه في أول عهده في مصر، وقد سمعنا ذلك منه رحمه الله: قال الشيخ الحامد: ذكر لنا بعض الطلاب أن شيخاً يلقي حديثاً مساء كل ثلاثاء في دار الإخوان بحي الحلمية، فذهبنا واستمعنا لأول مرة إلى محاضرة بعنوان: السلام في الإسلام، أبديت تسع ملحوظات فقهية على المحاضرة، وبعثت بها إلى الأستاذ المرشد داخل مظروف كيلا يطلع أحد غيره عليها، وفي الثلاثاء التي تلت، قال المرشد من فوق منبر الثلاثاء: استلمت من الشيخ محمد الحامد الحموي تسع ملحوظات تعقيباً على كلمتي التي ألقيتها في الأسبوع الماضي بعنوان: السلام في الإسلام، قال الحامد في الأولى كذا وكذا، وقلت كذا وكذا، والصواب مع الشيخ الحامد، وعدد ثماني ملحوظات وهو يقول: والصواب مع الشيخ الحموي، أما التاسعة، ففيها رأيان جائزان ورأي الحامد هو الراجح، يقول الشيخ محمد رحمه الله، منذئذ عرفت أننا أمام مخلص ومصلح كبير، وأنه سيقوم بدور عظيم في

(١) مصطفى السباعي عظماؤنا في التاريخ: ٢٤٧ .

النهوض بالمسلمين، ازداد الشيخ تعلقاً بالإمام، واستمرت الصلة طيلة حياة الإمام البنا، ونقل الشيخ محمد تجربة الإمام وفكر الإخوان وتنظيمهم إلى سوريا، وأسهم في تأسيس الإخوان في مدينة حماة على غرار ما شاهده في القاهرة، وقال: لم يعرف المسلمون منذ سبعة قرون مرشداً كاملاً وإماماً مجدداً كالشهيد حسن البنا، ويقول: سبقنا الإمام البنا شهيداً إلى جوار ربه، لكننا لم نفترق، فلا يكاد يمر علي أيام قليلة حتى أراه في الرؤيا زائراً لجامع السلطان (أكبر أو أهم مساجد مدينة حماة التي كان الشيخ محمد الحامد رحمه الله خطيبه وإمامه) يحضر الباحات التي تُؤدَّى فيها العبادة، وتعطى فيها الدروس الشرعية والتربوية، كان آخر لقاء بين الإمامين في دمشق، عندما ذهب الشيخ محمد الحامد على رأس وفد من أعضاء الإخوان في حماة بمناسبة حضور الإمام إلى دمشق على رأس كتيبة المجاهدين من إخوان مصر، فرغب الأستاذ البنا أو بعض إخوانه بالتقاط صورة مع الشيخ محمد وإخوانه، فتمنع الشيخ الحامد لكراهيته لأخذ الصور، لكن الإمام (الذي لا يرى بها بأساً طالما أنها خالية من التجسيم ومقتصرة على حبس الظل) عزم على أخيه الحامد قبول ذلك، فاستجاب تأدباً وهو كاره، فوقف وحرك شفتيه بكلام غير مسموع، وعندما حاول المصور سحب الصور وجد الفيلم قد احترق، وتبين أن الشيخ كان يدعو الله تعالى أن يصرف عنه هذا الحرج، لما يُعرف عنه من شدة الورع، فكان ما كان، وبهذا السياق سمعت من الشيخ محمد علي المراد خليل الشيخ الحامد ورفيق دربه أنه رأى في منامه الشيخ

محمد الحامد وهو يشير إلى صورته، فلم يأبه الشيخ المراد رحمه الله إلى ذلك، لكنه رآه مرة أخرى وهو يشير بيده إلى صورته فذهب إلى أبنائه وسأل بعضهم: ما موضوع صورة الشيخ؟ فأجابوه: إن صاحب استوديو (جروا) يعمل على تكبير صورة الشيخ لتوزيعها في المدينة، فذهبوا إليه، واتفقوا معه على إلغاء المشروع، وتعويضه عن الجهد والتكاليف التي بذلها في هذا الشأن، كما قام الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري أحد مؤسسي جماعة الإخوان في حلب بجهد مشكور في إقامة الصلة بين الإخوان في مصر، والإخوان في سوريا قبيل التأسيس، غير أن الجهد الفاعل في هذا المضمار قام به الشيخ مصطفى السباعي الذي أتاحت له إقامته في القاهرة منذ وقت مبكر إحكام الصلة مع العاملين للإسلام في كل الميادين، فلقد ذهب رحمه الله إلى القاهرة لتلقي علوم الشريعة في الأزهر سنة ١٩٣٣م، فكان حركة لا تهدأ بين طلاب الأزهر، ومع العلماء وهو دون العشرين، ومع الصحافة الإسلامية، وفي صحبة كبار الدعاة من أمثال محب الدين الخطيب. ولقد أسس وهو طالب في الأزهر جمعية التعارف الإسلامي، وشارك في تأليف لجنة الشؤون الإسلامية في الأزهر، وقام بتأسيس ناد للطلبة السوريين والفلسطينيين في القاهرة، وأقام صلة وثيقة بالشبان المسلمين في مصر، التي سبقت الإخوان المسلمين في الظهور، وكانت له صلة وثيقة بقادتها كما سيأتي ذلك في حينه، ثم انحاز إلى الإخوان المسلمين في مصر، وآثر التعاون معهم والاندماج بهم لأسباب أهمها:

أ - الفهم الشمولي للإسلام في دعوة الإخوان المسلمين.

ب - السبب الثاني والأهم تأثره بشخصية الإمام حسن البنا، وإعجابه بمواهبه، وقدرته في قيادة الجماعة، وما انطوت عليه شخصية الإمام من معاني التضحية والإيثار والإخلاص والتفاني[1].

الصراع بين دعاة الغرب ودعاة الإسلام

إثر الهزيمة العسكرية التي مني بها العثمانيون، وانعكاس آثارها السلبية على شعوب المنطقة، وفي مقدمتها الشعب العربي، وما أعقب ذلك من إحباط وشعور بالنقص تجاه الغرب المنتصر، وبما جاء به من تفوق وتقدم وإنجازات حضارية، إثر ذلك ظهرت على مسرح الحياة العام، ولا سيما في الساحة السياسية شخصيات وقادة ومُلاك كبار، ومفكرون ومثقفون تخرج الكثير منهم في جامعات فرنسا وأوربا وأمريكا، وعاش بعضهم في المجتمعات الغربية، وأشربوا في قلوبهم عاداتها وأفكارها، بل وعقائدها، فنادوا بتقليدها، وبناء مجتمعاتنا على منوالها، وأسسوا حركات وجماعات وأحزاباً سياسية تتبنى مفاهيم الحضارة الغربية بعجرها وبجرها وبكل ما تنطوي عليه من سموم ومخاطر وانحلال في مجالات التعليم والتربية وحياة المرأة، والتحرر من ضوابط الشرع الحنيف وتعطيل أحكامه واستبدال أنظمة غربية بها، في العقوبات والحياة الاقتصادية والقوانين المدنية، وفي كل شؤون الحياة الفردية والاجتماعية.

---

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور: ١٣٨ .

يقول المؤسسون لجماعة الإخوان المسلمين في حماة: بعد أن ألغت السلطات الكمالية في تركيا الخلافة الإسلامية في السلطنة العثمانية، وبعد أن سقطت سورية تحت نير الانتداب الفرنسي في أوائل العشرينيات، هب كثير من المثقفين ومن أصحاب الأملاك وكبار التجار ونادوا بالكفاح الوطني، والنضال السياسي لتحرير سورية واستقلالها، داعين إلى التحرر والالتحاق بركب المدنية الحديثة، دون أن يكون للإسلام حضور في تحركهم وفي طروحهم، بل جاهر البعض منهم بوجوب الابتعاد عن الإسلام وعن قيمه وأحكامه، متأثرين في هذا بالنهج الغربي، والفكر العلماني، والطابع الكمالي.

ومن هنا تنادى أهل الغيرة الإسلامية ممزوجة بالحمية الوطنية من رجال الإسلام وشيوخه وعلمائه، ومن وجهاء البلد وزعمائه كي يلتقوا ويشكلوا جماعات وجمعيات إسلامية تنادي بالعودة إلى رحاب الإسلام، وإلى التمسك بأهدابه، ومباشرة الكفاح تحت رايته. ومن هنا كانت البداية، بل البدايات في المدن السورية التي رافقها وسبقها تحركات في دمشق وحلب وحمص، وأعقبتها تحركات مماثلة في اللاذقية والساحل ودير الزور والحسكة وحماة، لتكون مقدمة التجمع الكبير والحوارات المستمرة بين رجال الدعوة في سوريا، والتي أفضت في نهاية المطاف إلى تأسيس حركة الإخوان المسلمين في سوريا ولبنان والأردن والمدن الفلسطينية.

الجمعيات التي سبقت ميلاد الإخوان

كثير من الإخوان الذين كتبوا عن الإخوان المسلمين في سوريا

وعن قادتها التبس عليهم نشوؤها، واختلطت عليهم المؤتمرات التي انعقدت بين يدي تأسيسها، فذكر بعضهم، أن الجمعيات عقدت عدة مؤتمرات في حلب ودمشق تمهيداً لتأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سوريا في الثلاثينيات، وفاتهم أن معظم الجمعيات قد نشأت في الأربعينيات، فكيف تشارك في اللقاءات جمعيات غير موجودة كما هو شأن جماعات الدير واللاذقية وحماة؟!

لقد استبان لي بعد المراجعة لهذه الكتابات أن النشاط في الحوار واللقاء كان في البداية - في بداية ومنتصف الثلاثينيات - مقتصراً على أبناء دار الأرقم في حلب، وأبناء الشبان المسلمين في دمشق وأبناء الرابطة الدينية في حمص، فكانت تلكم اللقاءات النواة التي اتسعت وتعمقت وانتهت إلى ظهور حركة الإخوان في سوريا بشكل نهائي عام ١٩٤٥م.

لا بد من التنويه إلى الدور الكبير الذي اضطلع به العلماء والدعاة في عقدي العشرينيات والثلاثينيات في سوريا، وهي تمر بمرحلة انعدام الوزن إثر انفصالها عن السلطنة العثمانية، ووقوعها في قبضة الفرنسيين تنفيذاً لاتفاقات سايكس - بيكو، وتقسيم بلاد الشام والعراق بين الإنكليز والفرنسيين، لقد تصدى السادة العلماء والشيوخ لتيارات التغريب التي زحفت في ظل الانتداب الفرنسي، وألّفت الأحزاب ودعت إلى برامج وأيديولوجيات وافدة فيها اليمين واليسار، دون أن يكون للإسلام فيها أي نصيب أو حضور، فانتزعوا منها قيادة

الجماهير، وعملوا بكل حماسة وإخلاص على تثبيتها على عقيدتها وقيمها، وأنقذوها من السقوط في شرك المعتقدات والمبادئ الدخيلة الوافدة من الكتلتين الغربية والشرقية على حد سواء.

عرف التاريخ من أولئك العلماء القادة في حلب: الشيخ محمد النبهان والشيخ عيسى البيانوني والشيخ راغب الطباخ ونجيب خياطة وأحمد الزرقا وأسعد عبجي. وفي إدلب: الشيخ نافع شامية، وفي حماة: الشيخ سعيد الجابي والشيخ سعيد النعسان والشيخ محمود العثمان والد الدكتور الأخ عبد الكريم العثمان رحمه الله، وفي حمص: طاهر الرئيس وحسني السباعي، وعبد العزيز عيون السود. وفي دمشق بدر الدين الحسني والشيخ علي الدقر صاحب الجمعية الغراء، والشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ حسن حبنكه، وعبد المحسن الأسطواني، والشيخ كامل القصاب. وفي دير الزور الشيخ حسين رمضان، وفي حوران تبنى الدعوة فيها الشيخ علي الدقر وإخوانه رداً عل النشاط التبشيري، فجاء بعدد من أبنائها إلى الجمعية الغراء، فتخرج عدد منهم أمثال الشيخ عبد العزيز أبا زيد والشيخ سليم المصري، وهذه أمثلة وليست على سبيل الحصر، ومن هؤلاء من عمل على نشر العلم والدعوة ورفع راية الكفاح ضد المستعمر، ومنهم من اقتصر على تربية الشباب وتفقيه الناس بأمور دينهم وأحكامه.

لقد كان أولئك السادة وكثير من أمثالهم (لا يقلون عنهم قدراً) المنقذين لأبناء جيلهم من الوقوع بين براثن سلطة الانتداب وأعوان

المستعمر ودعاة التغريب والمروجين للتقاليد الغربية أو للمبادئ الشيوعية، لقد كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ كربان للسفينة التي قادها، وخلصها من العواصف الهوج والأمواج العاتية، وأوصلها إلى شاطئ الأمان والسلام والنجاة، فحفظوا للأمة شخصيتها، وللأجيال الصاعدة عقيدتها وقيمها، فجزاهم الله خير الجزاء، وأثابهم على ما قدموه للأمة والملة، وعلى جهادهم وتضحياتهم التي حفظت البلاد والعباد، وحررت الوطن من رجس المستعمرين والظالمين بالتعاون مع الوطنيين المخلصين من أمثال إبراهيم هنانو وهاشم الأتاسي وشكري القوتلي، رحم الله الجميع رحمة واسعة، وجزاهم عن الوطن والمواطنين خير الجزاء.

القائد الفذ مصطفى السباعي

لا يسع المؤرخ أو الدارس لنشوء جماعة الإخوان المسلمين في سوريا أن يغفل الحديث عن الدكتور الشيخ مصطفى السباعي أو الوقوف عند محطات بارزة في حياته ومسيرته، وذلك لسببين:

أ - الدور الحاسم الذي اضطلع به في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سوريا وفي قيادتها وإنجازاتها على مدى عقدين.

ب - تداخل حياة الشيخ بأعمال الجماعة وأنشطتها تداخلاً لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، ومن ثم فلا بد من إلمامة عاجلة عن حياة الرجل الكبير المليئة بالفكر والعبر والإنجازات العظيمة طيلة حياته المباركة.

ولد الفقيد الشيخ الدكتور مصطفى السباعي في مدينة حمص عام ١٩١٥، وتلقى العلوم الشرعية والعربية عن والده الشيخ حسني السباعي، وعن ثلة من العلماء الذين كانوا يفدون على منزل والده، ويعقدون الجلسات العلمية والفقهية، وقد ظهرت على الشيخ مصطفى علائم النجابة والنباهة منذ طفولته، ثم لم يلبث أن حصل بتفوق ملحوظ على الثانوية الشرعية ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره، شرع منذ وقت مبكر بتحريض المواطنين على الاستعمار الفرنسي، وكتب المنشورات التي كانت توزع سراً، وأنكر بعض البدع والعادات الضارة المتفشية في المجتمع(١). فلم تلبث سلطات الانتداب الفرنسية أن ألقت القبض عليه وأودعته السجن عام ١٩٣١ وهو في السادسة عشرة من عمره، ولم تكد تفرج عنه حتى اعتقلته مرة أخرى إثر خطبة عصماء أهاج بها المصلين على الفرنسيين عام ١٩٣٢، فمكث في السجن ستة أشهر(٢).

غادر الشيخ حمص إلى القاهرة عام ١٩٣٣ للدراسة في الأزهر الشريف، فأتاحت له الإقامة في مصر فرصاً ثمينة حقق بها آماله العريضة، فاتصل بالشيخ الكبير محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح التي سبق للشيخ مصطفى مراسلتها والكتابة فيها وهو في الثانية عشرة من عمره، فتابع الكتابة بالمجلة وهو قريب من صاحبها

---

(١) مصطفى السباعي الداعية الرائد والعالم المجاهد للأستاذ عبد الله الطنطاوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١ : ١١ .

(٢) المرجع السابق: ١٢ .

ومؤسسها، فكان القراء يطالعون كتاباته ويعجبون بها، كما اتصل بجمعية الشبان المسلمين التي سبقت بالظهور جماعة الإخوان المسلمين، ثم اتصل بجماعة الإخوان المسلمين وبمرشدها حسن البنا، وشرع يخطب في شعبها وفروعها، وكان خطيباً مفوهاً، بليغ اللسان، فصيح البيان، فكانت خطبه ذات أثر بالغ في نفوس السامعين، وكان رحمه يحرض الطلاب على التظاهر ضد المستعمر البريطاني، ويشارك في المظاهرات ويلقي في المتظاهرين الخطب الحماسية، ويستنفر أبناء الكنانة لمقاومة المستعمر، فلم تحتمل سلطات الانتداب ما كان يفعله ويقوم به، فزجت به في السجن عام ١٩٣٤م، وعندما تم الإفراج عنه استأنف جهاده، فاعتقلته السلطات البريطانية عام ١٩٤١ مرة أخرى بتهمة تشكيل جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق[١]. وبعد شهرين من اعتقاله أبعده الإنكليز من مصر إلى فلسطين، فأمضى في سجونهم أربعة أشهر، ثم عاد إلى سوريا، مستأنفاً نشاطه في مدينة حمص ضد الانتداب الفرنسي، فاعتقله الفرنسيون، ونفوه إلى لبنان وأودعوه سجن المية ومية، وفي قلعة راشيا بلبنان، ليمكث فيهما ثلاثين شهراً تحت التعذيب وفي الأشغال الشاقة دون أن ينال العدو من عزيمة الشيخ شيئاً كما ذكر الذين كانوا معه في السجن، بل كان يشحذ العزائم، ويستنهض الهمم، وعندما تم الإفراج عنه وعاد إلى حمص باشر مهنة

(١) مصطفى السباعي الداعية الرائد والعالم المجاهد للأستاذ عبد الله الطنطاوي، الطبعة الأولى ٢٠٠١: ١٢ .

التدريس في التربية الإسلامية واللغة العربية دون أن يفتر أو يهادن الفرنسيين، بل كان دائب التحريض على الثورة المسلحة ضد المحتلين، وتخليص الوطن من الفرنسيين، وإنقاذ فلسطين من اليهود والبريطانيين.

خاض الدكتور السباعي المعارك في كل الميادين وعلى جميع الصعد، عمل مع العلماء والجمعيات في المدن السورية، لتفعيل دورها، والاضطلاع بمسؤولياتها في تربية الجيل وتحصينه مما يبيت له من الإضلال والإفساد، وفي تحرير الوطن من الأعداء، والتصدي للمبادئ الهدامة التي وفدت في ظل الانتداب، وقاتل رحمه الله الفرنسيين عندما أعلن السوريون الثورة على فرنسا، وخطب فوق المنابر، فهزها وهز معها مشاعر المواطنين، وشرع قلمه، فكتب في الفكر والسياسة والإصلاح والمرأة والفقه والحضارة أروع ما كتب، ولا سيما في فقه الواقع وفي تجارب الحياة، وأنشا كلية الشريعة حصناً منيعاً للعلوم الإسلامية، فأمدت المجتمع في سوريا ولبنان والأردن وغيرها بالدعاة والعلماء والمصلحين، وأقام للفقه موسوعة، لتجديده وتبويبه وتقريبه إلى عقول المثقفين وطلاب العلم، وإلى أذهانهم وقلوبهم، واستنفر الأمة للدفاع عن فلسطين وخوض المعارك ضد الصهاينة الزاحفين على أرضنا المقدسة بدعم من الإنكليز ودول الغرب وأمريكا، وقاد الشباب المتطوع من أبناء الجماعة وأنصارهم، وكان في مقدمتهم في القتال على بطاح فلسطين وفي ربى القدس

الشريف. يقول الأستاذ أميل الغوري أحد المقربين من الحاج أمين الحسيني وعضو الهيئة العربية العليا: قبيل خوض المعركة الخطيرة حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً للاحتيال على الشيخ وإقناعه بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة مهمة، ولكنه أبى ورفض وأصر على خوض غمار المعركة مهما كلفه الأمر، وقال: إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله - دفاعاً عن الوطن - ولما لم نستطع ثني الشيخ عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في القتال وفي المقدمة، فكان له ما أراد، فخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر للعرب[١].

طاف الدكتور السباعي الدول الأوربية والبلدان الشيوعية، وحاور المفكرين والمستشرقين، وصحح أخطاءهم، وأعطى عن الإسلام صورة مشرقة، لا تستطيع العقول السليمة رفضها أو جحودها، وكان في كل هذه المراحل من جهاد القلم واللسان والفكر واليد شجاعاً مقداماً لا يهاب موتاً ولا عدواً، كما كان جواداً يؤثر الآخرين على نفسه وعلى قوته، وقد شهدت ذلك بنفسي عندما كنا على قرب منه. لقد انتزع الشيخ السباعي إعجاب الأصدقاء والأعداء والمنصفين

(١) مجلة حضارة الإسلام الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤: ١٠٣.

والمستشرقين على حد سواء. قال عنه فقيه العالم الإسلامي الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة - في زيارة له إلى دمشق: إنه لم ير في بلاد الشام أعلى من السباعي همة، وأعظم منه نفساً، وأشد منه على الإسلام والمسلمين حرقة وألماً[1]. أما في معركة الدستور عام ١٩٥٠، وفي قاعة البرلمان وفي العمل الصحفي وكتابة افتتاحيات المنار - ١٩٤٦ - ١٩٤٩- فحدث عن الشيخ مصطفى السباعي ما تشاء ولا حرج.

استمر شيخنا ومعلمنا مصطفى السباعي في مسيرته التي ابتدأها وهو ابن اثنتي عشرة سنة وطاف البلاد، يستنهض العلماء، ويعبئ الجماهير دون أن يضيع ساعة من حياته المباركة، حتى أقعده المرض العضال، فأمسك بيمينه القلم، وكتب أعظم وأثمن ما سال به قلمه، وجادت به قريحته، وفاض به علمه، حتى إذا ما انطفأ السراج، كان تشييعه إحياء لمنهجه في الدعوة والجهاد، فكان الشيخ رحمه الله مصدر خير وبركة للإسلام والمسلمين في حياته وبعد مماته. رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنانه مع الشفيع الحبيب الذي أحبه فقيدنا إلى حد الفناء، ونافح عن سنته، ودافع عنها دفاعاً نال به إعجاب كبار العلماء من ذوي الاختصاص في العالم الإسلامي، ولا سيما في مصر حيث ناقش رسالته عن دور السنة في التشريع، فقد سمعت من الأستاذ عبد الوهاب حموده، وكان يدرسنا

(١) د. مصطفي السباعي - عظماؤنا في التاريخ: ٣٩ .

في كليـة الآداب بجامـعة القاهرة: قـال وهو يعطيـنا بحوثاً فـي القرآن الكريم بعد أن عرف أنني سـوري، قال: في بلادكم - سوريا - رجل عظـيم، دافع عن الـسنة دفـاعاً غـير مـسبـوق، هزم به كـل المناوئـين والمرجفين والمعادين لسنة رسول الله ﷺ إنه مصطفى السباعي.

نسأل الله العلي العظيم أن يأخذ بأيـدينا ونواصينا، وأن يثبتنا على ما كان عـليه القائد الفـذ والعالم العامل المـجاهد، والمفكر الـمبدع، والمصلح الكبير شيخنا مصـطفى حسني السباعي طيب الله ثراه، ونور ضريحه، وأعلى منزلته، وجزاه الـله عن الإسلام والمسلمين، وعنا - نحن تلامذته - خير ما يجزي عباده وأولياءه الصالحين.

* * *

ظهور الجمعيات الإسلامية في سوريا

شهد عقد الثلاثينيات من القرن الماضي ميلاد الجمعيات والحركات الإسلامية في المحافظات السورية، ففي كل مدينة كبيرة ظهرت جمعية للعلماء، تدعو الناس إلى دينهم والتمسك بأحكامه وآدابه، وأداء فرائضه، واجتناب المحرمات والمفاسد، وكانت هذه الجمعيات تراجع المسؤولين من وزراء ومحافظين، عندما ترتكب مخالفات، وتعرض صور فاضحة وأفلام خليعة وما إلى ذلك، وقد ملأت هذه الجمعيات فراغاً كبيراً، وحدت من موجات المعاصي والموبقات، كذلك شهد هذا العقد نشوء جمعيات إسلامية أسسها ذوو الغيرة على الإسلام والمدافعون عن حماه وآدابه، فأدت دوراً كبيراً في التصدي للتيارات المناوئة للإسلام، وجذبت إليها أعداداً كبيرة من المواطنين، ولاسيما الشباب والطلاب، وأنشأت مشروعات مفيدة ومدارس وأندية ومستوصفات. . . إلخ وتركت بصمات واضحة للعمل الإسلامي في المجتمع، فكانت هذه الجمعيات مقدمة لميلاد

جماعة الإخوان المسلمين في سوريا التي تشكلت من اتحاد هذه الجمعيات واندماجها في جماعة واحدة في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.

كان شيخنا السباعي رحمه الله على صلة وثيقة بالعلماء وبالجمعيات التي أسسوها، وكان من أشهرها في دمشق: الجمعية الغراء وعلى رأسها الشيخ علي الدقر، وجمعية التمدن الإسلامي وعلى رأسها أحمد مظهر العظمة، وجمعية التوجيه الإسلامي وعلى رأسها الشيخ حسن حبنكه، ورابطة العلماء التي كان من أشهر علمائها: أبو الخير الميداني والسيد مكي الكتاني والشيخ إبراهيم الغلاييني والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت[1].

كان الشيخ السباعي يستنهض همم العلماء، ويحثهم على العمل، ويعتب على بعضهم في تقصيره وتراخيه وانزوائه، ويثني على جهود العاملين منهم والمخلصين من أمثال الشيخ محمد كامل القصاب الذي وصفه بأنه أمة، رأى فيه همة الشباب وحكمة الشيوخ ودهاء الساسة وعلم الفحول وإيمان السلف الصالح من علماء المسلمين[2]، كما أثنى على العلماء الذين استجابوا لدعوة الشيخ القصاب التي وجهها إليهم، ووصفهم الشيخ السباعي بأنهم من خيرة العلماء، الذين تمكنوا من الإبقاء على القضاء الشرعي، وحالوا دون

(١) مصطفى السباعي لحسني جرار: ٥٨ .

(٢) مصطفى السباعي آلام وآمال: ٥٨ .

إلغائه، كما حالوا دون حل الأوقاف الأهلية[1].

كما كان الشيخ السباعي على صلة وثيقة مع الجمعيات التي تشكلت منها جماعة الإخوان في منتصف الأربعينيات، وكان يقارب بينها، كما يقارب بينها وبين الجمعيات الخاصة بالعلماء.

حقق العاملون للإسلام خطوة كبيرة على طريق تنظيم العمل، ولمِّ الشمل، وتوحيد الجهود، فقد شهد السباعي - الذي كان يدرس في مصر في أثناء زيارة له إلى سوريا استمرت أربعة أشهر - انعقاد المؤتمر الأول لجمعيات العلماء في دمشق عام ١٩٣٨م الموافق ١١-١٣ رجب ١٣٥٨هـ، كما شهد انعقاد المؤتمر التأسيسي أو الثالث حسب تقدير موسى الحسيني لجمعيات شباب محمد ﷺ الذي تم عقده في أواخر شعبان من العام نفسه، أي كان يفصل بين المؤتمرين خمسة أسابيع[2].

أشاد السباعي رحمه الله في مؤتمر شباب محمد ﷺ بالثلة الأولى من المؤسسين في حلب ودمشق أمثال: عمر بهاء الأميري، وعبد الرؤوف الأسطواني، وعبد الوهاب الأزرق، وعمر خياطة، وصلاح الدين الشاش، وصلاح الدين دعدوش، وجمال العش، وعزت المرادي، وإسماعيل المرادي، وعبد الفتاح الحمصي، وحيدر حجار، ممن حضروا المؤتمر العتيد لجمعيات شباب محمد ﷺ عام

---

(١) المرجع السابق: ٥٨ .

(٢) المرجع السابق: ٦٣ و٦٤ .

١٩٣٨م من حلب ودمشق وربما من حمص. كما ذكر السباعي كذلك الشيخ عبد الوهاب ألتونجي وعبد القادر السبسبي وآخرين بالخير وأثنى عليهم، ثم اتخذ المؤتمرون قراراً باعتبار دار الأرقم في حلب المركز الرئيسي لشباب محمد ﷺ، وقد نوه السباعي بأن اهتمامات المؤتمرين لم تكن واحدة، وأن الشيخ رحمه الله عانى الكثير من أجل التقريب بينهما(١).

وردت قصة طريفة على لسان عمر بهاء الأميري يشرح فيها سبب التسمية التي شاعت في الجمعيات الإسلامية باسم شباب محمد ﷺ وأضيفت إلى الأسماء التي عرفت، وذلك في شهادته التي سجلها له أعضاء الجماعة في مدينة جدة عام ١٩٨٧ الموافق ٢٢/٣/١٤٠٨هـ، قال رحمه الله: هاجم رجل تركي الإسلام بكلمات نابية، فأرسل له الأستاذ عبد الوهاب الأزرق برقية يدعوه فيها إلى المبارزة، طلب فيها من التركي أن يعين سلاحه والشهود والموعد وساحة المبارزة، وإذا كان ما نسب إليك لا أصل له، فعليك أن تنفي ما ورد على لسانك، وبعث الأستاذ عبد الوهاب صوراً عن هذه البرقية إلى وكالات الأنباء، فانتشر الخبر أن أحد الإخوان في حلب يتحدى المدعو (رشدي آرات)، فجاء الرد بعد أربعين ساعة من رشدي آرات يتنصل من الكلام الذي نسب إليه، فحضر صحافيون وسألوا عبد الوهاب: من أنتم؟ فأجاب بعفوية: نحن شباب محمد ﷺ وصارت هذه التسمية

---

(١) المرجع السابق: ٦٦ - ٦٧ .

شعاراً لعدد من الجمعيات، فصار يقال في حلب: دار الأرقم، شباب محمد ﷺ وفي حماة: الإخوان المسلمون شباب محمد ﷺ، وفي دمشق: الشبان المسلمون شباب محمد ﷺ[1].

اعتبر الشيخ السباعي نفسه عضواً في جمعية الشبان المسلمين في دمشق، وتحدث باسمهم في حفل تأبين الأستاذ عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر، معتبراً أن جمعية الشبان المسلمين في دمشق وجمعيات شباب محمد ﷺ في سوريا ثمرة هذه الجمعية المباركة في مصر. غير أن اسم الإخوان المسلمين الذي غلب على الحركة يعود إلى عام ١٩٤١ عندما أسست جمعية بهذا الاسم في مدينة حماة، وفي عام ١٩٤٢ أسس السباعي نفسه جمعية بهذا الاسم في حمص عقب وصوله إليها، وهكذا صار في حمص جمعية العلماء، وجمعية الإخوان، ثم قام السباعي عام ١٩٤٢ بعد التشاور مع إخوانه في جمعية الشبان المسلمين في دمشق بتوجيه الدعوة إلى جميع ممثلي هذه الجمعيات في حلب ودمشق وحماة وحمص ودير الزور واللاذقية لتوحيد العمل تحت راية واحدة[2].

(١) ثمة رواية أخرى عن السبب في تسمية شباب محمد ﷺ ستأتي لاحقاً.

(٢) مصطفى السباعي لعدنان زرزور: ١٣٤، ولابد من التنويه أن جماعة الإخوان المسلمين، في حماة ظهرت عام ١٩٣٨ كما سيأتي تفصيلاً وليس عام ١٩٤١ كما جاء في كتاب الدكتور عدنان زرزور. وأن الجمعية في حمص كانت تحمل اسم الرابطة الدينية في أول نشأتها وليس اسم الإخوان المسلمين إلا بعد توحيد هذه الجمعيات، إذ أعلنت أنها تحمل اسم الإخوان المسلمين وهو الاسم الذي كانت الجمعية في حماة تسمي نفسها به منذ البداية باقتراح من الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

الجمعيات التي سبقت ظهور الإخوان المسلمين

قبل عقد على ميلاد جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، ظهرت ست جمعيات إسلامية في ست محافظات سورية، ثلاث منها تم إنشاؤها في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي، وثلاث تم تشكيلها في النصف الأول من الأربعينيات، ثم اندمجت هذه الجمعيات الست في جماعة واحدة، هي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا عام ١٩٤٥م، وكي تكون الصورة واضحة ومكتملة عن نشوء هذه الجمعيات وظروف تشكيلها، وعن الشخصيات التي قامت على تأسيسها، وعلى بعض ما اضطلعت به من أعباء، وما أدته من واجبات والتزامات يحسن الوقوف معها ومعرفة صفحات من تاريخها، باعتبارها النواة التي انبثقت عنها جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

١- الشبان المسلمون في دمشق

في رحاب الجامعة السورية حدث ميلاد النواة الأولى للشبان

المسلمين أو للإخوان المسلمين فيما بعد: فالطلاب الذين وفدوا من المحافظات السورية إلى دمشق ليلتحقوا بإحدى الكليتين اللتين بدأت الجامعة بهما - الطب والحقوق - تم التعارف بين عدد منهم في الجامعة، ألف بينهم التمسك بأهداب الدين وآدابه، وجمع بينهم الخلق الكريم والسلوك الحسن، وسرعان ما انعقدت بينهم صداقة فأخوة ذات أثر في قيام جماعة الإخوان المسلمين في أوقات لاحقة.

لقد أتيح لي اللقاء - كغيري - بالدكتور فايز المط الأستاذ العريق في كلية الطب بدمشق، واستمعت إلى شهادته وإلى ما تذكره عن نشوء أو ميلاد الإخوان المسلمين، ثم أرسلت بعض إخواني لتسجيل شهادته والتأكد منها في وقت مبكر من ثمانينيات القرن الماضي، وقد حصل بعض المهتمين على شهادته في عام ١٩٩٣م أي بعد ذلك بفترة من الزمن، وكان الدكتور فايز قد تقدم به العمر، وعانى من مصاعب عندما ذهب إلى سوريا، وعمل على حدوث انفراج، فأخرج منها في لباس نومه وعاد إلى عمان مكتئباً، وكتب بخط يده عما لقيه من معاملة تركت في نفسه جرحاً غائراً، أقول حدثنا قبل هذه الفترة الصعبة فقال: التحقت بكلية الطب عام ١٩٣٢، وكان عمري إذ ذاك تسعة عشر عاماً، أي إنه من مواليد ١٩١٣م، فعرفت نفراً من الشباب جمعتني معهم مودة صادقة وأخوة في الله، فكنا نلتقي بصورة دائمة، وكانت سمعة هذه المجموعة عاطرة في الوسط الطلابي، فكان أبناء الجامعة يقدمونهم وينتخبونهم في اتحادات الطلاب، وقد تم الاتفاق فيما بينهم على عقد جلسات دورية في جامع الأحمدية في سوق

الحميدية، ضمت الجلسة الأولى: فايز المط من حماة، وعبد الوهاب ألتونجي وعبد الوهاب الأزرق من حلب، وصلاح الدين الشاش وصلاح الدين دعدوش وعبد الرؤوف أسطواني وسعيد الحلواني من دمشق، استمرت اللقاءات في إحدى غرف جامع الأحمدية حتى ضاقت بالوافدين عليها، بعد أن نما عددهم، وازداد حضورهم، فقرروا نقل مقرهم، أو الانتقال إلى جامع السباهية في سوق مدحت باشا، وعقد الجلسات في رحابه.

استمرت الاجتماعات الدورية عدة سنوات - كما يقول الدكتور فايز المط - دون أن يكون لهذه الاجتماعات طابع تنظيمي محدد، بل كان يغلب عليها الطابع الأخوي، وقد اختارت هذه المجموعة الدكتور فايز المط رئيساً لها، وأطلقت على نفسها اسم شباب محمد ﷺ كما ذكر الدكتور فايز في شهادته، لكنه رحمه الله ذكر للسيد حسني جرار في مقابلة أجراها معه في ٩-١١- ١٩٩٣ أن هذه المجموعة حملت اسم الشبان المسلمين، ولربما كان تفسير ذلك ما ورد آنفاً من أن هذه الجمعيات كانت تضيف إلى أسمائها عبارة - شباب محمد ﷺ، فتقول: الشبان المسلمون - شباب محمد، الإخوان المسلمون، الرابطة الدينية، دار الأرقم، دار الأنصار، في حماة وحمص وحلب ودير الزور، وبجانبها شباب محمد ﷺ.

لقد اختلطت على بعض الأساتذة الذين كتبوا عن الشيخ السباعي وعن الإخوان المسلمين ونشأتهم في سوريا التسميات والمؤتمرات والتواريخ جراء الاعتماد على سماع الأخبار وعلى الشهادات التي

تعتمد على الذاكرة، وتفتقر إلى التحقيق والتدقيق والتوثيق من مصادر أخرى، ومن شخصيات عرفوا بالدقة وقوة الذاكرة، فمن الكتاب من ذكر عن السباعي أنه ساهم في بداية الأمر في تأسيس وقيادة عدد من الجمعيات الإسلامية في حمص وفي غيرها، ومنها الرابطة الدينية لحمص، وشباب محمد ﷺ والشبان المسلمين في دمشق، وظل يعمل للإسلام عن طريقها إلى أن سافر إلى مصر عام ١٩٣٣م؟ فمتى أسس هذه الجمعيات وهو دون الثامنة عشرة من عمره؟ ومتى ظهرت هذه الجمعيات قبل عام ١٩٣٣؟. وإذا كانت بعض هذه الجمعيات قد ظهر في النصف الأول من الأربعينيات، فكيف عمل الشيخ عن طريقها في مطلع الثلاثينيات؟، كما ذكر بعض الكتاب أن هذه الجمعيات عقدت اجتماعات عدة في منتصف الثلاثينيات، وبعضها لم يظهر إلى الوجود إلا في الأربعينيات؟ ومنهم من ذكر أن معركة الدستور عام ١٩٥٠ قد كسبها الشيخ السباعي وثبت في الدستور أن دين الدولة الإسلام، مع أن هذا لم يحدث، ثم تناقل الذين كتبوا عن السباعي هذه الأخطاء وكرروها في كتبهم، والمعركة حول النص على أن دين الدولة الإسلام في الدستور تعاظمت واستعرت حتى كادت أن تجر البلاد إلى فتنة عمياء وحرب داخلية، فتمت التسوية على وضع نصوص بالدستور تعوض عن عبارة دين الدولة الإسلام، فاتفقوا على عدة نصوص منها:

دين رئيسها الإسلام، والفقه الإسلامي مصدر أساسي في التشريع، وذكروا في المقدمة أن سوريا تعلن استمساكها بالإسلام،

وفي مكان آخر ورد نص خاص بالتربية ينص على أن التعليم في سوريا يهدف إلى إنشاء جيل مؤمن بالله متحل بالأخلاق، معتز بالتراث، هذا غيض من فيض من أخطاء متفشية في كتب عن السباعي وعن الإخوان ظهرت خلال السنوات العشر الماضية، أقول: ليت هؤلاء الإخوان يأخذون بالأسباب التي تمكنهم من القيام بعمل مفيد في النشر يجنبهم الأخطاء الفادحة في اللغة والتاريخ والفكر السياسي مع تحري الدقة في الأحداث والشخصيات والمواقف التي شكلت محطات كبرى في نشوء الجماعة وفي سيرتها.

لقد عرفت هؤلاء الإخوة الذين كتبوا عن تاريخ الجماعة، وعرفت فيهم الإخلاص والغيرة والصدق، ولكن هذا لا يعني أن تترك الأمور على عواهنها، فيكون الكاتب كحاطب ليل، يسجّل كل ما يسمعه دونما تدقيق ولا تمحيص، لقد ذكر أخ فاضل في شهادته أن تكوين الإخوان في حماة كان في أوائل الأربعينيات وأن الدكتور نورس عبد الرزاق كان رئيساً لها، والواقع أن الإخوان المسلمين في حماة رأت النور وظهرت إلى الوجود عام ١٩٣٨م، وأن أول رئيس لها كان الأستاذ عبد الغني الحامد شقيق الشيخ محمد الحامد والأستاذ بدر الدين الحامد، أما الدكتور نورس عبد الرزاق فجاء إلى رئاسة الجماعة بعد ذلك، فكان الرئيس الثاني في تاريخ الإخوان في مدينة حماة، وهكذا صادفت في مطالعة الكتب التي صدرت عن جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، وعن الشخصيات التي كان لها دور في تأسيسها وقيادتها اضطراباً وتناقضاً ونقصاً في المعلومات وأخطاءً

تاريخية تقتضي من الذين بذلوا جهودهم أن يعيدوا النظر ويسعوا إلى تحري المعلومات في الاستماع إلى أكثر من شاهد في الموضوع الواحد وفي الأحداث الكبيرة في تاريخ الجماعة وفي إنجازاتها.

أعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن الشبان المسلمين في دمشق، وإلى شهادة الدكتور فايز المط عن تكوين الشبان المسلمين فيها. يقول الدكتور فايز: حددت هذه النواة برنامجاً لنشاطهم وتحركهم تضمن ما يلي:

١- تربية الشباب تربية إسلامية صحيحة، والتأكيد على روح الجهاد فيما بينهم. - كانت فرنسا تحتل سورية -

٢- التأكيد على وحدة المسلمين.

٣- الجهاد ضد فرنسا المستعمرة - لتحرير سوريا من سيطرتها -

ثم انضم إليهم في مطلع الأربعينيات الإخوة: أحمد بنقسلي، وشاكر الفحام، وأبو الخير الخطيب، كما ذكر الدكتور المط أن الأستاذ محمد المبارك ترأس جمعية الشبان المسلمين بعد أن كان فايز المط رئيساً لها من قبل(١)، وذكر أن أفراد العمل التأسيسي عادوا إلى بلدانهم بعد التخرج والانتهاء من الدراسة ليؤسس كل واحد منهم في بلده جمعية إسلامية أو يلتحق بجمعية أو يشترك مع غيره في تأسيسها، كما حدث مع الشيخ عبد الوهاب ألتونحي الذي قام هو

---

(١) مصطفى السباعي للسيد حسني جرار: ٥١ .

ولفيف من إخوانه بتأسس دار الأرقم في حلب عاصمة الشمال.

ذكر آخرون غير الدكتور المط أن سوريا شهدت في الثلاثينيات ظهور جمعيات إسلامية في عدد من المدن السورية، كانت النواة لقيام جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، كان من أبرزها: جمعية الشبان المسلمين في دمشق، وكان من أشهر مؤسسيها: الأستاذ محمد المبارك وكاظم نصري، وصلاح الدين الشاش، وصلاح الدين رجب، ومحمد خير الجلاد، وأبو الخير الخطيب، وفايز المط، وكامل حتاحت، وأبو الخير عرقسوسي، وعبد الكريم الرفاعي الذي تركهم وبدأ يعمل منفرداً متفرغاً لنشر العلم وتأسيس حلقات علمية في المساجد بالتفسير والحديث والفقه وفروع العلوم الشرعية الأخرى.

بيد أن الذي نهض بالشبان المسلمين في دمشق نهوضاً أهلها لتكون قطب الرحى في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سوريا هو الأستاذ المفكر الداعية محمد المبارك طيب الله ثراه، لقد تخرج المبارك في كلية الحقوق السورية عام ١٩٣٥م، وكان الأول في مسابقة أجرتها وزارة المعارف إذ ذاك للإيفاد إلى فرنسا في نفس العام، فأمضى أستاذنا المبارك في باريس ثلاث سنين، التحق خلالها بكلية الآداب في جامعة السوربون. وحمل منها ثلاث شهادات، في الأدب العربي الإسلامي، وفي الأدب الفرنسي، وفي علم الاجتماع والأخلاق(١)، ليضيف إلى ثقافته العربية الإسلامية التي تلقاها من

---

(١) محمد المبارك لحسني جرار: ٣٤ .

والده الشيخ عبد القادر المبارك عضو المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية الآن) في دمشق، ومن أستاذه الأثير لديه محدث الشام الشيخ بدر الدين الحسني، ومن علماء آخرين، ثقافة الغرب، والاطلاع على نهضته وأفكاره ومناهجه في التفكير والتخطيط والبحث.

لم يلبث الأستاذ المبارك بعد عودته من باريس عام ١٩٣٨م أن انخرط في العمل الدؤوب في جمعية الشبان المسلمين مع أصدقاء له سابقين كانوا ضمن المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين، فأمسى عضواً دائماً في إدارتها حيناً، ورئيساً لها أحياناً [(١)]. لا يفتر عن إلقاء المحاضرات وعقد الندوات الرامية إلى بناء جيل واع مؤمن مدرك لرسالة الإسلام.

نستطيع القول بثقة تامة: إن الأستاذ المبارك، أحسن الله إليه، يعتبر المؤسس الحقيقي لجمعية الشبان المسلمين في دمشق، وهو الذي قادها، تعاونه ثلة من المخلصين على طريق تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سوريا بالتنسيق واللقاءات والحوار والتعاون مع ممثلي الجمعيات الإسلامية في حمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور في النصف الأول من الأربعينيات في القرن العشرين، عبر المؤتمرات التي عقدوها، وبعضها كان في نهاية عقد الثلاثينيات - كما سيأتي لاحقاً - فنجحوا في تأسس كبرى الحركات الإسلامية

---

(١) محمد المبارك لحسني جرار: ٣٤ .

في بلاد الشـام، لترى النور على أيـديهم ، وليشهـد عام ١٩٤٥ ولادة جماعـة الإخوان المسلمين فـي سوريا، بل وفي بلاد الشام كـلها التي تشمل سوريا ولـبنان والأردن وفلسطين، كالذي شهده العـراق الشقيق من ولادة جـمـاعة الإخـوان المـسلمـين فـي أرض الرافـدين علـى يد الداعية المجاهد محمد محمود الصواف طيب الله ثراه.

جمعية دار الأرقم في حلب

عاد الشيـخ عبد الوهاب ألتونـجي إلى حلب بعد أن أكمـل دراسته في كلية الحقوق بدمشق، وكان عـضواً في المجموعة الأولى أو النواة التي تشكلت في الجامعة السورية كما مر آنفاً، فلم يتوان أو يتراخ في العمل والـنشاط للدعوة الإسـلامية ونشـرها في ربوع حلب الشـهباء، وسرعـان ما قـام بتأسـيس دار الأرقم بـالتعـاون مع نخـبة من الـرجال الفضلاء المخلصين أمثال المحامي الكـبير عبد القادر السبسبي، وعبد الحـميـد الأصيل، ويوسـف الصقـال، وعبـد الحمـيد مـيري، وعـبد الوهاب ألتونـجي، وعمر بهاء الدين الأمـيري، ثم لحق بهم فيـما بعد الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وسـامي الأصيل، وعادل كنعان، وغيرهم أجزل الله مثـوبتهم، ولم يكن العدد بادئ ذي بدء يزيـد على الأربعين في دار الأرقم، غير أن هؤلاء المؤسسيـن والسابقين تمكنوا من جذب أعداد كبيرة إليهم من أبناء المديـنة وشيوخها وطلابها، ومن أبناء ريف حلب بـما أحدثوه مـن أنشطة، وبمـا طرحوه مـن برامج ومشـروعات ولوائح وتحرك مبدع، ومن ذلك:

- إنشاء مكتبـة ثرية وعامرة بصنوف الكتب المتنوعـة، شدت إليها

المثقفين والطلاب والراغبين في المطالعة، فأقبلوا على دار الأرقم إقبالاً شديداً.

- شكلوا فرقاً كشفية ورياضية، وافتتحوا لها أندية، جذبت الناشئة والجيل الصاعد من كل الفئات، وقد رعى هذا النشاط الأستاذ عبد الحميد الأصيل رحمه الله، الرجل الذي عرفه إخوانه بالخلق الرفيع، والصمت الطويل، والعمل المنتج الكثير، وقد استعان في تنفيذ هذا النشاط بإخوة مخلصين من أمثال الدكتور فوزي حمد وأخيه سامي الأصيل.

- وضع برنامج ثقافي حافل يشمل الدروس والمحاضرات الأسبوعية والنشرات الثقافية والتوجيه الروحي والخلقي (في المقر وفي المساجد) بالمناسبات التاريخية والوطنية، ودعوة كبار العلماء والمفكرين والأساتذة من داخل سوريا وخارجها للمشاركة في التثقيف والتعليم والتوجيه والتوعية الإسلامية والوطنية، فكانت محصلة ذلك إقبالاً تجاوز كل التوقعات والطموحات، وارتفع عدد الملتحقين بدار الأرقم من العشرات إلى المئات ثم إلى الألوف، ليزيد العدد على بضعة عشر ألف منتسب خلال ثلاث سنوات مرت على تأسيس دار الأرقم كما يشهد بذلك الدكتور فوزي حمد، رحمه الله تعالى وأثابه(١).

في هذه الفترة زحفت الشيوعية على شعوب أوربا الشرقية، وخصوا

(١) من شهادة الدكتور فوزي حمد المسجلة بصوته على شريط أفرغه إخوانه في كراس احتوى تفصيلات كثيرة.

المسلمين في يوغو سلافيا ورومانيا وبلغاريا والبانيا في حمامات دم ومجازر رهيبة ألجأت الكثيرين للهجرة إلى البلاد العربية، فجاء عدد منهم إلى حلب، فأحسن أبناء دار الأرقم استقبالهم، وأجملوا استضافتهم وإكرامهم، واستفادوا من خبراتهم في تدريب الفتيان والشباب على الفتوة والنظام، إذ كان الفرنسيون يحكمون قبضتهم على سوريا في ظل حكومة فيشي أثناء الحرب العالمية الثانية.

- أنشأت دار الأرقم مدارس مسائية وليلية للعمال الذين فاتهم قطار التعليم، ولم تمكنهم ظروفهم من الانتساب إلى المدارس النهارية، فالتحق لفيف كبير من مختلف الأعمار، فتحرروا من ربقة الأمية، وحملوا الشهادات الابتدائية والمتوسطة والثانوية، والتحق عدد منهم بالدراسات الجامعية، واستطاع بعضهم إكمال تحصيله العالي، وحمل شهادة الدكتوراه التي أهلتهم للعمل أساتذة في الجامعات العربية والسورية، فكانوا رديفاً للحركة الإسلامية وظهيراً قوياً في فترات لاحقة.

- أسس الأرقميون شركات صناعية وتجارية شارك فيها أعداد كبيرة من المساهمين من أعضاء الجمعية، كان منها شركات النسيج والبناء والعقارات وغيرها، فحققت نجاحاً كبيراً. ومن الجدير ذكره أن إدارة جمعية دار الأرقم أنشأت لجاناً غطت بها كل مناحي النشاط، ومنها اللجان التربوية والرياضية والطلابية والعمالية والمالية وغيرها، بموجب لوائح ونظم تضبط تحركها، فكانت دار الأرقم سباقة

للجمعيات الإسلامية الأخرى في المحافظات السورية بحكم سبقها وقيامها بالأعمال الدعوية قبل غيرها[1].

عندما اشتعلت الثورة العسكرية والشعبية في العراق ضد الإنكليز بقيادة رشيد عالي الكيلاني كانت دار الأرقم في حلب أول من استجاب للنداء لدعم المجاهدين في العراق، إذ شكلت مجموعة مقاتلة من شباب وطلاب جمعية دار الأرقم عام ١٩٤١، وبعثت بهم إلى العراق ليشاركوا أبناءه في مقاومة الإنكليز المستعمرين بقيادة الأخ الدكتور فوزي حمد، يعاونه الأخ سامي الأصيل، فاستقبلوا على أرض الرافدين استقبالاً لائقاً، وكان لحضورهم وهم في ريعان الشباب أثر كبير في معنويات المجاهدين العراقيين، كما أعجبوا بانضباطهم وكفاءتهم، فمنحوا رئيسهم فوزي حمد رتبة عسكرية كبيرة، وصاروا ينادونه بالعقيد، لكن الثورة لم يحالفها التوفيق، فاضطر أبناء دار الأرقم إلى العودة إلى سوريا، يرافقهم مجاهدون فلسطينيون من أنصار الحاج أمين الحسيني المطلوبين بشدة من الإنكليز، فآواهم الإخوان في حلب، وأبعدوهم عن أنظار الرقباء ريثما يجدون الملاذ الآمن، وحتى يعمل الحاج أمين على ترحيلهم وتدريبهم، تمهيداً للالتحاق بالمجاهدين في فلسطين.

---

(١) كانت جمعية الشبان المسلمين في دمشق، وجمعية دار الأرقم في حلب تليها جمعية الإخوان المسلمين في حماة أسبق الجمعيات في سورية في الولادة والظهور، وكذا الحال في مدينة ابن الوليد حمص.

واللافت للنظر أن معظم قادة الأحزاب في سوريا التحقت بدار الأرقم لفترة أو لأخرى، ثم شعرت بثقل الالتزامات الدينية والأدبية من أداء الطاعات واجتناب المحرمات، فانسحبت والتحقت بحركات سياسية أخرى كالبعثيين والناصريين واليساريين وأمثالهم في أوقات تالية ومتباينة.

* * *

جمعية الإخوان المسلمين في حماة

كان من أبرز رجال حماة في الثلاثينيات وفي مطلع الأربعينيات من القرن الماضي: مفتى حماة العلامة الشيخ سعيد النعسان الوردي الذي اشتهر بالخلق الرفيع، والعمل الدؤوب في خدمة المجتمع، والتسامح مع الآخرين، ولا سيما مع رجال الدين المسيحي في المدينة، وفي مقدمتهم المطران حريكة الذي كانت تربطه به صداقة وتبادل زيارات في المناسبات، وكذا الشيخ محمود العثمان المدرس في مدرسة العلم والتربية أول مدرسة حديثة نشأت في حماة برعاية الملك فيصل الأول، وخرجت جيلاً من الساسة والقادة من أمثال رئيف الملقي وأكرم الحوراني وكثير غيرهما، وقد عرف عن الشيخ محمود الشدة بالحق، والجرأة في مواجهة الباطل، والحماسة للقضايا الوطنية، والتصدي لسلطات الانتداب الفرنسية، وقد تناهت أخباره ومواقفه إلى الإمام حسن البنا، فكاتبه وأرسل إليه ما يشجعه على المضي في هذا الدرب، ويشد على يده ويشكره على مواقفه، وقد

حدثني ولده الأخ الدكتور عبد الكريم العثمان رفيق العمر والذي كان من خيرة الشباب في جماعة الإخوان المسلمين في حماة، التي التحق بها في وقت مبكر في الشهر الذي أعلن فيه عن ولادتها، في سوريا عام ١٩٤٥، قال: عندما كنت أفتش في أوراق والدي بعد وفاته رحمه الله عثرت على رسالة من الإمام حسن البنا رحمه الله مرسلة إلى والدي، وربما كان الشيخ محمد الحامد قدم للإمام تعريفاً بالشيخ محمود العثمان وأعماله الجليلة ومواقفه التي اشتهر بها.

ومن الشخصيات التي ملأت فراغاً كبيراً في التوجيه والإرشاد في مدينة حماة، وذاع صيتها، والتف المواطنون حولها، الشيخ سعيد الجابي الذي شغلته الدعوة السلفية والمعارضة الشديدة للفرنسيين، فكان مصلحاً دينياً وقائداً وطنياً، وكان له تأثير كبير في أوساط المثقفين وفي العامة جميعاً، لولا اشتداده في الصدام مع الصوفية وعدد من العلماء ذوي الاتجاهات الفقهية والصوفية، رحم الله الجميع رحمة واسعة.

هؤلاء وأمثالهم من الدعاة والمصلحين والمجاهدين كانوا شيوخ الدين وزعماء الوطنية في الوقت ذاته، لقد أدوا دوراً كبيراً في التوجيه الديني وفي الكفاح الوطني، وفي الإصلاح الاجتماعي، وفي العمل على إسعاف الفقراء ومساعدة الضعفاء، وفي إنشاء المدارس ونشر العلم ومحاربة الجهل وبناء دور العجزة، كالتي سعى في إنشائها المفتي الشيخ سعيد النعسان رحمه الله وطيب ثراه، كما برز علماء فحول ودعاة كبار في هذه الفترة من أمثال الشيخ محمود عبد الرحمن

الشقـفة الذي أمـضى حياته فـي نشر الدعـوة وبناء المدارس وتـخريج طلاب الـعلم الـذين التـحـقـوا بالمـدارس التـي أنشـأها، ثـم أكمـلوا تحصيلهـم في الأزهر وفي معاهد أخرى، كذلك أنـجب آل المراد ثلة طيبة من العلماء والدعاة من أمثال الـشيخ محمد علي المراد، والشيخ بشير المراد، وكل هؤلاء نحوا منحى صوفيـاً استغرقهم الذكر والتزكية وتربيـة النفـوس، ومعـظمهم قـضى شـهيداً فـي سبـيل الله ودعـوته، والتزامهم بالإسلام، منهجاً وفقهاً وتربية وسلوكاً.

في أعـقاب هذا التـحرك الذي تـرك أثره في من حـمل الراية بـعد ذلك، تنـادت ثلة من أهل الـفضل والعـلم والغـيرة الدينـية من أمـثال الشيوخ: منير لطفي، ومنير الـحوراني، وعبد الله الحلاق، والأساتذة عبـد الغنـي الحامـد، وعبـد الغني الـساعـاتي وآخريـن، فعـقدوا أول اجتـماعاتـهم في أعقـاب عام ١٩٣٨م، وعزمـوا على تأسيـس جمعـية إسلاميـة، تضطلع بالواجـبات الشرعيـة والدعوة الإسلامـية والإصلاح الاجـتمـاعي، وباشـروا بوضع المـبادئ والأهـداف واللوائح وشـروط العضوية ومـا إلى ذلك، ثم شرعوا بالبحث عن الاسـم المناسب لهذه الجمعية، إذ حـضر إبان ذلك من القاهرة الشيخ محمد الـحامد لقضاء الإجازة الصيـفية من دراسته في الأزهـر الشريـف، فاستشـاره الأعضاء بالتـسميـة، فأجاب علـى الفور: الإخوان الـمسلمـون، أسوة بجمـاعة الإخوان المسلـمين في مصر التي أسـسها ويقودها الشيـخ حسن البنا، فوافق الجـميع على ذلك، فـبادر الشيخ الحـامد إلى إرسال برقـية إلى الأستاذ الـبنا يبشره فـيها بافـتتاح أول شعـبة للإخوان خارج مـصر في

مدينة حماة، فأجاب الإمام رحمه الله تعالى بالتهنئة والتبريك.

باشر المؤسسون بتنفيذ الخطوات، وقاموا بتوزيع المسؤوليات على الأعضاء كما يلي: عبد الغني الحامد رئيساً، وعبد الغني الساعاتي أميناً للسر، والشيخ عبد الله الحلاق أميناً للصندوق، وأما الشيخ الحامد فكان بمثابة الأب الروحي، والمرشد للإخوان المسلمين في مدينة حماة، وعندما سعت إدارة الجمعية للحصول على الترخيص واجهتهم عقبة كأداء، إذ إن الترخيص لا يمنح للموظفين، والكل مرتبط بوظائف حكومية، باستثناء الشيخ عبد الله الحلاق، فتوجه المؤسسون إلى طبيب العيون الدكتور نورس عبد الرزاق، والصيدلي عبد الحميد عدي، وعرضوا الأمر عليهما، فرحبا ووافقا شريطة أن لا يكلفا بأي أعباء إدارية لانشغالهما، وهكذا حاز المؤسسون على الترخيص، واستأجروا أول مقر للجمعية في جورة حوّى - حي في حماة - لتكون أول مركز للإخوان المسلمين في حماة عام ١٩٣٩م.

أقام المؤسسون حفلاً كبيراً للافتتاح إيذاناً بميلاد جمعية الإخوان في حماة، دعوا إليه عدداً كبيراً من وجهاء المدينة وعلمائها، فغص المركز والشوارع المحيطة به بالوافدين، وكان المتحدث رئيس الجمعية الأستاذ عبد الغني الحامد، فرحب بالحاضرين، وشرح لهم مبادئ الجمعية وأهدافها والأسس التي قامت عليها، وحدد طريقة الانتساب إليها، فكانت كلمة عصماء من الأدب الرفيع والبيان

الساحر، ثم تزاحم القوم في تقديم طلبات الانتساب من كل شرائح المجتمع ووجوه المدينة.

أعقب ذلك أيام حافلة بالنشاط الثقافي وتوعية المواطنين بحقيقة الإسلام، وأنه السبيل لخلاص الأمة مما أصابها من تخلف وجهل وفرقة انتهت بها إلى الوقوع بين براثن الأعداء والمستعمرين، ثم افتتح المركز نادياً رياضياً للشباب، وفوجاً كشفياً للفتيان، وأقام مخيمات سنوية، وأنشأ مدارس ليلية ونهارية، وكان حديث الجمعة دورياً وأسبوعياً يعتلي منبره العلماء من حماة ومن المدن الأخرى السورية كحلب ودمشق، ومن الوطن العربي والعالم الإسلامي من أمثال أبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، وسعيد رمضان، وعبد الحكيم عابدين، ومحمد المبارك، والشيخ مصطفى السباعي وغيرهم.

كان السوريون في تلكم الأيام منشغلين بالصراع مع المستعمر، وكانوا في صدام دائم معه عن طريق المظاهرات والإضرابات وعقد المؤتمرات الحاشدة في الجوامع الكبيرة، وقد تميزت الجماعة بتعبئة المواطنين ضد الوجود الفرنسي، فسقط من الشعب شهداء، وكان منهم معتقلون، وعندما حل العام ١٩٤٥م انفجرت ثورة شعبية مسلحة في حماة، حشد لها الفرنسيون قوات ضخمة من المصفحات والدبابات والطائرات، غير أن المجاهدين من أبناء مدينة أبي الفداء شكلوا جيشاً زاد على عشرين ألفاً من أبناء المدينة، ومن أهل الريف وسكان البادية، ومن أبناء سلمية، ومن الجنود الذين شكلوا فراراً من

الجيش الفرنسي، مثل الضابط صلاح الشيشكلي الذي تولى قيادة المجاهدين في هذه الملحمة الكبرى بين جيش المجاهدين وجيش المستعمرين المعتدين.

خاض المجاهدون معركة تاريخية استمرت ثلاثة أيام انكشفت عن نصر حاسم للمجاهدين، وعن هزيمة منكرة للمعتدين، فاحتل المقاتلون الموقع الفرنسي داخل المدينة - خان الشعبة - ثم زحفوا على الثكنة الكبرى التي تتربع على أعلى المرتفعات - غربي المدينة - التي تحيط بحماة التي تقبع في وادي العاصي، وتسمى ثكنة الشرفة، فدخلوها مهللين مكبرين، وكان الشيخ محمد الحامد على رأس الداخلين وفي مقدمتهم، فرفع صوته بالأذان مجلجلاً في أرجاء الثكنة، وسرعان ما امتد لهيب الثورة إلى جميع المحافظات الأخرى، فارتكب الفرنسيون مذابح رهيبة ومجازر وحشية، ولا سيما في دمشق العاصمة، عندما دكوا مبنى البرلمان، وقتلوا حاميته من الدرك السوري، كما قتلوا ثلة من الدرك في حماة كانت قد انضمت إلى المجاهدين في المعركة الكبرى التي مر ذكرها[1]، الأمر الذي

(١) من شهادة الشيخ عبدالله الحلاق - في معظم ما جاء فيها - أحد المؤسسين الأول للإخوان المسلمين في حماة، ورئيس مركزها لفترة طويلة، وقد أجرى اللقاء الأخ الداعية أحمد فارس جواد في منزل الشيخ سعيد العبد الله في مكة المكرمة بمناسبة موسم الحج لعام ١٤٠٠هـ الموافق لشهر تشرين الثاني - ديسمبر - من عام ١٩٨١، عاد بعدها الشيخ عبدالله وقد أدى فريضة الحج إلى بلدته حماه، ليستشهد بعد أربعة أشهر من عودته إليها عندما قتله الظالمون بأحداث حماة ومأساتها الكبرى في مطلع العام ١٩٨٢م.

استدعى دخول الجيش البريطاني الثامن لإيقاف المجزرة، فقال المؤرخون والسياسيون في مذكراتهم: دخل البريطانيون لتخليص المدن السورية من الفرنسيين، وتخليص الفرنسيين من المجاهدين في محافظة حماة، كما ذكر ذلك قائد الجيش البريطاني الجنرال سبيرس(١).

ومن المفيد والمناسب أن نسجل نبذة عن حياة الشيخ عبد الله الحلاق لتداخلها بنشأة الإخوان في حماة منذ الساعات الأولى لتأسيسها، علماً بأن جزءاً كبيراً من هذه المعلومات عن نشأة مركز حماة أخذت من شهادته التي أدلى بها إلى الأخ أحمد جواد.

كان الشيخ عبد الله الحلاق - أبو صالح - عرافة حماة وعالم أنسابها، فقل أن تسأله عن إنسان إلا ويقدم لك نبذة عن حياته، وتعود هذه المعرفة الواسعة إلى كونه من أعضاء الرعيل الأول في تأسيس الجماعة، وإلى نشاطه الاجتماعي، وعمله في تجارة الكتب والقرطاسية، فهو صاحب مكتبة النهضة التي كانت من أشهر مكتبات المدينة، كما كان مديراً - فترة طويلة - لدار العلوم الشرعية التي خرجت أعداداً كبيرة أكملوا تحصيلهم بعد ذلك في الكليات الشرعية خارج المدينة، وكان كذلك رحمه الله عضواً في جمعية علماء المدينة، وكان المحرك الأول فيها، عضواً أو أمين سر أو رئيساً لها في فترات مختلفة، وكان كذلك مسؤولاً عن الفوج الكشفي الرابع

---

(١) انظر مذكرات أكرم الحوراني.

- فوج اليرموك - الذي كان يضم نخبة من فتيان الجماعة وشبابها الذين شارك بعضهم في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، ولم يتوقف - رحمه الله - عن خطبة الجمعة في جامع الأشقر بسوق الطويل، وكان يلقيها بجرأة وشجاعة، منددأً بالمفاسد الاجتماعية المتفشية، ومنبهاً على الأخطار التي تحيق بالأمة، وبالمؤامرات التي تحاك ضدها، وترمي إلى تحطيمها، وقد كلفته جرأته الكثير من العنت والضنك والاضطهاد.

لقد كان رحمه الله وثيق الصلة بعلماء المدينة ووجهائها وشيوخها، ولا سيما بالعارف بالله الشيخ محمد الحامد الذي ما كان يبرم أمراً خاصاً أو عاماً إلا بعد استشارة الشيخ عبد الله قائلاً له: - كما كنا نسمعه - «أنت أعرف منا يا شيخ عبد الله بشؤون المجتمع وأحوال الناس» ولما انتقل الشيخ محمد إلى جوار ربه حزن عليه الشيخ عبدالله أشد الحزن، وظل وفياً له من بعده عِبر الاهتمام بعائلته وأبنائه حتى غادر الدنيا راضياً مرضياً، وقضى شهيداً، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له، وعفا عنه، وأعلى مقامه في عليين.

وقبل أن نغادر الحديث عن الشيخ عبد الله الحلاق طيب الله ثراه، نعرج على حدث ذي أهمية بالغة، ذكره الشيخ ضمن شهادته التي نقلها عنه الأخ الدكتور أحمد جواد عام ١٩٨١ فقال: في صيف ١٩٤٧ توجه وفد كبير من إخوان سوريا إلى مصر، وقد ضم الوفد الشيوخ: مصطفى السباعي، ومحمد الحامد، وعبد الله الحلاق،

والأستاذ عمر بهاء الأميري، فكان استقبال الإمام البنا لهم حافلاً في المركز العام، وكانت كلمة الإمام في هذه المناسبة قد أخذت بمجامع القلوب، وألهبت المشاعر، وأججت العواطف، وحلقت بالحاضرين في سماء الأخوة الصادقة وأجواء الحب في الله، ثم أعقبه الشيخ السباعي بكلمة مماثلة زادت الحاضرين تأثراً وشجوناً، وعندما اعتلى الشيخ الحامد المنبر - وهو الخل الوفي للإمام البنا ولكثير من الرعيل الأول في جماعة الإخوان المسلمين في مصر من أمثال عبد المعز عبد الستار وعبد البديع صقر - نحا بكلامه منحى آخر، وراح يطلق النكات والفكاهات، فغمر الجميع جو من الأنس والمرح، بمن فيهم الإمام البنا والشيخ السباعي، وعندما سئل عن ذلك، قال: أشفقت على الإخوة مما كانوا فيه من فرط التأثر، فرأيت أن أنتقل بهم إلى جو يبعدهم عما كانوا فيه من الأحزان والأشجان، وفي أعقاب هذه الزيارة الميمونة بايع وفد الإخوان المسلمين السوريين المرشد العام الإمام حسن البنا بيعة السمع والطاعة والالتحاق الكامل مع الجماعة الأم، والتأكيد على اختيار الشيخ مصطفى السباعي مراقباً عاماً للإخوان المسلمين في سوريا في جو مفعم بالعزيمة والتصميم على متابعة الجهاد والكفاح حتى تتحرر الأقطار العربية والإسلامية كافة، وتقوم دولة الإيمان ومجتمع الإسلام.

وبعد الحديث عن أحداث حماة ومقاومة الفرنسيين والانتصار عليهم في مدينة حماة، وجهود علمائها ولا سيما الشيخ محمد الحامد

الذي كـان أول الداخـلين إلـى الثكـنة العـسـكرية بـعد تـطهيرهـا من الفرنـسيين ورفع الأذان في أرجـائها، أذكر حـديثين عن المـدينة أدلى بهما شخصيتان كبيرتان مشهورتان، أولهما الدكتور طه حسين، فعندما مر بحماة في طريـقه إلى معرة النعمان للمشاركـة في إحياء ذكرى أبي العلاء الألـفية، وقف عـلى أعتاب فـندق أبي الفداء الـكبير الـحكومي وقال وهـو يصعـد درجات الفنـدق: إني أشم رائحـة العروبـة في هذه المديـنة كما سمـعت ذلك من أحد الحـضور الأستاذ جـميل الشقـفة، وثانيـهما دولة الأسـتاذ فارس الخوري الـذي ترأس البرلمـان السوري مرات، وشكل الوزارة مرات كـذلك، قال معجباً بصمـود أبناء المدينة المـجاهدة فـي مقـاومة الفـرنسيين، وإجبـارهم علـى الانسحـاب من المدينة وتسليمها للمجاهدين من أبنائها قال:

حـماة بهـا عز الـعروبة والـندى   لها فـي مضاميـر الجهاد مفـاخر
بها مـن أطاع الشعب نال كـرامة   وفيها على العاصي تدور الدوائر

❋ ❋ ❋

الرابطة الدينية في حمص

برز النشاط الإسلامي في مدينة حمص في وقت مبكر لأسباب عدة؛ منها، أنها مدينة الشيخ السباعي الذي باشر العمل الدعوي منذ حداثته ونعومة أظفاره، ومنها وجود ثلة من العلماء العاملين الذين لهم تأثير ملموس في تشكيل رأي عام يناصر الدعوة الإسلامية وإذكاء النشاط الذي يظاهر الإسلام ويناصره، ومنها التحدي الذي واجهته الدعوة بوجود تيار شيوعي كبير استقطب شرائح عدة، من ضمنها أبناء المذهب الأرثوذوكي: وهم الذين يشكلون معظم المسيحيين في حمص، وهؤلاء مرتبطون بالكنيسة التي كان مركزها موسكو، ويجدون رعاية من الكنيسة الأم في الدولة الروسية.

ظهرت جمعية الرابطة الدينية لشباب محمد ﷺ في عام ١٩٣٤[١] بتأسيس ورئاسة الشيخ أبو السعود عبد السلام الذي كانت تربطه

(١) الحركات الإسلامية في سوريا تأليف يوهانس رايسنر، الطبعة الأولى تموز ٢٠٠٥: ١٢٨ .

علاقات وثيقة وتعاون جاد مع جمعية العلماء والجمعيات الإسلامية الأخرى، وكان يتحدث باسمها، ويشير إليها في الرسائل التي يرفعها للمسؤولين في الحكومة ناصحاً ومنكراً لبعض المفاسد ومحتجاً على بعض تصرفات المسؤولين، ففي السابع من شباط عام ١٩٣٩ وجه خطاباً إلى رئيس الجمهورية، وإلى رئيس الوزراء، وإلى المندوب السامي الفرنسي باسم جمعية العلماء وجمعية الشبان المسلمين يحتج بها على نظام الطوائف، وإقحام النفوذ الأجنبي في الأمور الدينية، وعلى اعتماد كتب لتدريس التاريخ في المدارس الفرنسية تحوي على انتقادات لشخصية الرسول ﷺ. وقد أخبر محافظ حمص وزير الداخلية في ٢٧-٢-١٩٣٩ عن الرسالة التي بعث بها الشيخ أبو السعود وبما تضمنته من احتجاج(١).

وهذا ما جعل المؤلف يوهانس يؤكد أن أبا السعود كان لديه ارتباط، في ذات الوقت، مع شباب محمد والشبان المسلمين وجمعية العلماء، وكانت جمعية التمدن الإسلامي بدمشق قد تقدمت باحتجاج عام ١٩٣٦ إلى رئيس الوزراء ذكرت فيه أن كتاب التاريخ أورد في الصفحة ١٨ أن العرب كانوا يتبعون ديناً كاذباً دعا إليه محمد ﷺ(٢).

تابع المؤسسون للرابطة الدينية والجمعيات نشاطهم بالتصدي

---

(١) المرجع السابق: ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق: ١٣٠ نقلاً عن مجلة التمدن الإسلامي.

للمفاسد وللمسؤولين الذين يروجون لها، ففي الثاني من شهر أيلول عام ١٩٤٨ رعى المحافظ حفلة راقصة تعرض فيها بكلمة إلى الرجعية والتقدم، وإلى الجمود والتحرر، وإلى الصعود والهبوط، ونال فيها من النشاط الإسلامي، فكانت الإجابة خطاباً مفتوحاً إلى المحافظ جاء فيه: نعم. إنني أعرف الحياة مثلك أيها السيد، وأدرك أيضاً ضرورة التقدم والتحرر والارتقاء، إلا أنني أعرف أيضاً أن التطور لا يعني تحلل الأخلاق، وأن تحرير الذات لا يعني تبذير الأموال العامة، وأن الصعود لا يعني الصعود إلى الشيطان.. إلخ الكتاب[١].

كانت الرابطة الدينية في حمص ذات نشاط ملحوظ، غطت به ساحات في الثقافة والتعليم والسياسة، فقد أنشأت مكتبة عامرة هي المكتبة الإسلامية العامة التي أسسها شباب محمد ﷺ عام ١٩٤١، وافتتحت مدرسة نهارية تقوم بالتدريس حتى المرحلة المتوسطة، وتستقبل فيها الراغبين من العمال في التحصيل[٢].

إن أخطر ما عانته الجمعية في حمص هو الاعتداء المتكرر من الشيوعيين على أعضاء الجمعية، بلغ حد الاعتداء المسلح وقتل الأخ مصطفى الحراكي الذي سمّاه إخوانه الذين عرفوا صدقه وصلاحه: شهيد الإخوان المسلمين[٣]، لم تتوقف الصدامات في حمص بين

(١) المرجع السابق: ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٢) المرجع السابق: ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق: ٢٣١ .

الشيوعيين وبين أبناء الحركة الإسلامية، بل استمرت زهاء ثلاث سنوات (١٩٤٤ - ١٩٤٧) فقد جاء في جريدة المنار في ٣٠ أيلول عام ١٩٤٧ عن فتنة أثارها الشيوعيون إثر محاضرة ألقاها الشيخ السباعي في نادي الثقافة للإخوان في حمص، فخرجت حمص في مظاهرة شعبية أضربت فيها المدينة بأجمعها في ١/٩/١٩٤٧[1].

استمرت الحركة الإسلامية في حمص بسيرها المعتاد تحت تسميات الرابطة والإخوان وشباب محمد ﷺ حتى عودة الشيخ السباعي من القاهرة إلى مدينة حمص عام ١٩٤١، فنهض بها نهضة كبيرة ظهر أثرها في جميع الميادين الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية، لتثبت الحركة وجودها وتؤكد حضورها بعد أن أعطاها الشيخ من روحه وفؤاده مدداً قوياً، لأن الشيخ رحمه الله من الإخوان القلائل الذين لديهم المقدرة على عرض الفكرة الأساسية، أي صلاحية الإسلام في جميع مرافق الحياة، بالطريقة المناسبة لأي وضع، وضمن الإطار التاريخي المناسب[2].

ربما كان السباعي أقدر الخطباء والمتحدثين والقادة على تعبئة الأمة وتحريك الجماهير وإثارة العواطف النبيلة بين أفراد الشعب أياً كان انتماؤهم، ففي كلمة ألقاها في حلب في شباط ١٩٤٨ قال فيها: قد يظن البعض أن الثورة تتم بالسلاح، فليطمئن رجال الأمن

---

(١) المرجع السابق: ٢٣٧ نقلاً عن جريدة المنار.

(٢) المرجع السابق: ٢٢١ .

وحكوماتهم كل الاطمئنان، فسنقوم بثورة لنشر الرسالة وتعميم الإخلاص والأمانة، وسنقوم بثورة حتى لا يبقى في الأمة بائس أو جائع أو متكبر أو ظالم أو جاهل أو ضعيف أو مريض أو ملحد أو فاجر، وسنقوم بثورة لنشر الحق والعدالة إلى أن تمتلئ كل البطون، ويعالج كل مريض، حتى يصبح مجتمعنا أفضل المجتمعات في هذه الدنيا، وإلى أن تعود أمتنا إلى ما وصفها به الله رب العالمين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران الآية ١١٠[١].

أعود إلى التحرك الإسلامي في حمص وصعوده بعد عودة الشيخ إليه في أعقاب دراسته بالأزهر الشريف، لقد اضطلع المركز بمسؤولياته في بناء حركة الإخوان المسلمين، وشارك بقوة وبفاعلية كبيرة في المؤتمرات التي سبقت ظهور الإخوان وأدت إلى ميلادها كحركة واحدة في سوريا تمتد إلى لبنان والأردن، ويكون لها أثر ملموس في الأقطار المجاورة الأخرى كالعراق وفلسطين. وقد برزت شخصيات إسلامية قامت بجهد مشكور، وأدت واجبها في قيادة جمعية الرابطة الإسلامية في محافظة حمص، وفي جمعية أو جماعة الإخوان فيما بعد، كان من أبرزهم وعلى رأسهم الشيخ السباعي الذي اختاره إخوانه من جميع مراكز المحافظات الأخرى مراقباً عاماً للجماعة فيما بعد، وشقيق الشيخ مصطفى الأستاذ نصوح السباعي،

---

(١) المرجع السابق: ٢٩٤ .

وعبد المعطي شمسي باشا، وجاسم الديك، ومصطفى خوجه، ومحمود الطرشة، وقبلهم وفي مقدمتهم أبو السعود عبد السلام الذي يعتبر أول المؤسسين، وفي طليعة العاملين للدعوة الإسلامية في مدينة حمص، مدينة خالد بن الوليد، رحم الله الجميع وأجزل مثوبتهم، وتقبلهم برحمته في عباده الصالحين.

❋ ❋ ❋

جمعية دار الأنصار في دير الزور

اضطلعت دار الأنصار في دير الزور بمسؤولية كبيرة ربما فاقت ما قامت به الجمعيات الإسلامية في المحافظات الأخرى، لأنها كانت مسؤولة عن الدعوة الإسلامية في بقعة واسعة في سوريا ربما كانت تساوي ثلث مساحة القطر السوري، لقد كانت البوكمال والميادين والرقة - قبل أن يتحول قضاء الرقة إلى محافظة - تابعة لمركز دير الزور، كذلك كلف المركز بالإشراف على النشاط الإسلامي في محافظة الجزيرة التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من سوريا، والتي تضم مدناً وبلدات مترامية المساحة، كالحسكة والقامشلي ورأس العين والدرباسية وغيرها، وعندما قمت بزيارة المنطقة الشرقية تبعاً لخطة موضوعة وخاضعة لجدول زيارات المحافظات السورية عام ١٩٧٧ مع عدد من أعضاء المكتب التنفيذي، سمعنا من سكان الجزيرة في القامشلي وغيرها أن المراقب العام الشيخ السباعي رحمه زارهم مرة واحدة خلال ربع قرن، وهكذا حالت مسؤوليات الشيخ الكثيرة والكبيرة عن إعطاء الجزيرة ما تستحق من اهتمام، فالأكراد

يشكلون طيفاً واسعاً في المحافظة، وهم ركن ركين في بناء الحركة الإسلامية والدعوة إلى الإسلام، فتركوا نهباً للأفكار الوافدة من قومية شوفينية - متعصبة - ومبادئ شيوعية ويسارية غرست في أوساط الكرد دعايات منحرفة لتشويه صورة الإسلام المشرقة، كما ضاعت الفرصة للاهتمام بالعشائر البدوية الأصيلة التي تسكن محافظة الجزيرة، وتمتد بأعدادها الهائلة إلى خارج القطر لتنتشر في العراق والجزيرة العربية وغيرها.

أعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن نشوء مركز الأنصار في دير الزور كما رواها بعض الإخوة وعلى رأسهم الدكتور حسن هويدي حفظه الله لإخوانه من أمثال الأخ فارس ملي كما سجلها بقلمه من فم الدكتور حسن الذي قال: أنشئت جمعية دار الأنصار في مطلع الأربعينيات، وبالتحديد في عام ١٩٤١ على الأرجح، وكان أول رئيس لها هو الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ حسين رمضان، ثم خلفه في رئاسة الجمعية الدكتور عز الدين جوالة، ثم أسندت رئاسة الجمعية بعده إلى الدكتور حسن هويدي، لتضيف اسم شباب محمد ﷺ إلى اسم دار الأنصار أسوة بما حدث في الجمعيات الإسلامية الأخرى في المحافظات السورية التي نشأت فيها الجمعيات مثل حلب وحماة وحمص ودمشق.

وكان من ضمن المؤسسين: الأستاذ أمين شاكر، والأستاذ أحمد صالح ملا عيسى، والشيخ عبد الجليل نقشبندي، الذي تحول في

عمله الـدعوي من دار الأنصار إلى تكيـة أهله، تكية الشـيخ ويس في دير الزور، ثم برز من الجيـل الثاني في نشاط الجمعيـة الأستاذ أحمد الياغي والأستاذ حسين السحل.

كانت جـمعيـة الأنصار إحدى الركـائز التي تشكلـت منها جمـاعة الإخوان المسلمـين في سوريا ولبنان، فعندما بدأت الـلقاءات بين قادة الجمـعيات للبـحث في دمجـها، وإنشاء الجـماعة الواحـدة، مَثَّل دار الأنصار لأول مرة في اللقـاء الذي عقد في دار الأرقم - والأرجح أنه كان فـي عام ١٩٤٤ - الشـيخ عـبد الرزاق رمـضان والدكـتور حـسن هويدي، وكـانت القضيـة الفلسطينـية تمر في أخـطر مراحلها، فـألقى قصيدة في ذاك اللقاء الدكتور عبد الرزاق يخاطب فيها القدس فقال:

لا تجزعن وإن جلت مآسينا   فالله في الملأ الأعلى يعزينا

وقد حضر هذا اللقاء الأستاذ سعيد رمضان مبعوثاً من الإمام حسن البـنا، والبـعض يشـير أن الأسـتاذ سـعيد رمـضان حـضر الاجـتمـاع التمهيدي لقيام جماعة الإخوان في سوريا عام ١٩٤٢ .

قدَّم الأسـتاذ الأميري في هذا الحفـل أو ذاك اللقاء الأستاذ سـعيد رمضـان فألـقى كلمـة بليـغة تـركت أثراً طيـباً فـي نفوس الـحاضـرين المؤتمرين.

قـامت إدارة الأنصـار في دير الزور بـأنشطة نـافعـة في المـجتـمع امتدت إلى مدن المحافظات الشرقية، ومنها:

١- نشر الدعوة بالوعظ والإرشاد وعقد الاجتماعات وإلقاء الكلمات بالمناسبات الدينية والتاريخية، ومن خلال المهرجانات والتجمعات في المسجد والأماكن الأخرى، ولا سيما في مقر جمعية الأنصار.

٢- الاهتمام بالفقراء والضعفاء والمحتاجين، وتأمين المساعدات والإسعافات لهم ولعائلاتهم.

٣- العناية بالأنشطة الرياضية للفتيان والشباب، وقد افتتح مركز الجمعية عدداً كبيراً من الأندية في الدير والميادين والبوكمال والقامشلي والرقة، قبل اندماج الجمعيات في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

٤- اهتمت الجمعية بالمساجد في كل الفروع، وأعادت الحياة إلى مساجد كانت متروكة، أو كانت العناية بها ضئيلة، وأسندت العمل بها إلى إخوة دعاة، وكان مسجد أبي عابد في دير الزور من نصيب الدكتور حسن هويدي، ثم تحول المسجد بعد ذلك إلى مقر لجمعية الأنصار وإدارتها في دير الزور.

كان إلى جانب جمعية الأنصار في دير الزور في مطلع الأربعينيات مدرستان فكريتان متباعدتان، أو بالأحرى متخاصمتان، كان على رأس المدرسة الأولى العالم الكبير العارف بالله الشيخ حسين رمضان الذي ترك أثراً كبيراً في نفوس تلامذته وأبناء جيله في التربية والتوجيه والفقه والتمسك بأهداب الإسلام وأحكامه، وكان على رأس المدرسة

الثانية سعيد العرفي الذي ادعى بادئ ذي بدء السلفية، وشرع يدعو إلى المذهب الجعفري، ثم بدأ يجنح إلى التشيع، ويتقرب إلى الشيعة، وينزل ضيفاً عليهم في بغداد إذا زارها، وضيفاً على الزيديين في اليمن إذا قصدها، ثم كشف أبناؤه بوضوح وجلاء عن وجهته بعد أن وصل النصيريون إلى الحكم عن طريق العسكر في سوريا، فوجدوا لديهم الحماية والرعاية ضد كل من يناوئهم أو يمسهم، فصار لهم أتباع في دير الزور دون أن يكون لهم وزن أو ثقل أو تقدير.

* * *

جمعية الشبان المسلمين في اللاذقية

في اللاذقية كبرى مدن الساحل السوري تحرك ذوو الغيرة الدينية للدفاع عن الإسلام والدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى الخير، وحث المواطنين على العودة إلى رحاب الإسلام، والالتزام بأحكامه وآدابه، ومنذ وقت مبكر ظهرت حركة إسلامية دعا إليها عز الدين القسام في عام ١٩١١ ضمت إلى صفوفها عدداً من الشخصيات الإسلامية أمثال الشيخ مصطفى ضاما، والشيخ محمد أديب القسام، والشيخ يعقوب آغا، والشيخ محمد حاج إبراهيم، ومحمد المثبوت، وأحمد إدريس، وغيرهم. وكان من إنجازاتها الوطنية (مضافة إلى دعوتها المواطنين إلى التمسك بالإسلام) تعبئة الجمهور من أجل الدفاع عن ليبيا ضد الغزو الإيطالي، وتجنيد الشباب للتطوع والسفر إلى طرابلس الغرب لمشاركة الليبيين في جهادهم ضد الغزاة عبر ميناء الإسكندرون، لولا أن الاتحاديين خذلوهم ونكثوا بوعودهم لهم بتسهيل سفرهم، فعادو إلى اللاذقية وكانوا زهاء مئة مجاهد[1].

(١) من شهادة الأستاذ عدنان سعيد بن الوجيه السيد بدر الدين أحد رؤساء مركز الإخوان المسلمين في اللاذقية.

وعندما احتلت فرنسا سوريا وفرضت عليها الانتداب كان عز الدين القسام على رأس الرافضين للاحتلال، والمقاومين إياه، فتعرض لمضايقات اضطرته إلى النزوح من بلدته جبلة والانتقال إلى الحفة، وهناك حمل السلاح في وجه الفرنسيين المستعمرين، فقصف الفرنسيون القرية التي وصل إليها، بالطائرة وحُكم عليه بالإعدام، فتوجه إلى فلسطين، واستقر في مدينة حيفا، وأسس فيها حركة المقاومة المسلحة ضد الانتداب البريطاني والهجرة الصهيونية.

في مطلع الأربعينيات ظهرت في اللاذقية جمعيات إسلامية مثل جمعية مكارم الأخلاق وغيرها لم يكتب لها الاستمرار، وعندما عاد الأستاذ محمد المبارك من باريس عام ١٩٣٨ بعد إكماله الدراسة تم تعيينه مفتشاً للغة العربية والتربية الإسلامية في سوريا، فكان يطوف المدن السورية ويلتقي مدرسي اللغة والدين، عبر مهمته الوظيفية وعلاقاته الشخصية، مما أتاح له أن ينشئ جمعية إسلامية في مدينة اللاذقية في مطلع الأربعينيات من القرن الماضي حملت اسم جمعية الشبان المسلمين، وهو اسم الجمعية التي كان المبارك من أبرز مؤسسيها في دمشق.

ملأت جمعية الشبان المسلمين في اللاذقية وفي مدن الساحل فراغاً كبيراً في حقل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلقيت قبولاً كبيراً لدى المواطنين بما بذلته من أنشطة ثقافية كإلقاء محاضرات أسبوعية كانت تدعو لها شخصيات إسلامية بارزة من

المدن السورية الأخرى أمثال الشيخ محمد الحامد والشيخ بشير المراد من حماة، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة من حلب، والشيخ مصطفى السباعي من حمص، بالإضافة إلى شيوخ الساحل أمثال الشيخ محمد أديب القسام لإلقاء المحاضرات الأسبوعية في مقر الجمعية في اللاذقية.

تناوب على رئاسة مركز الشبان المسلمين في اللاذقية شيوخ فضلاء وشخصيات مرموقة ذات سمعة طيبة وذكر حسن منهم:

١ - الشيخ صلاح الأزهري خريج الأزهر وزميل الشيخ محمد الحامد والشيخ محمد علي المراد اللذين جمعتهما إلى الشيخ صلاح الدراسة في الأزهر، ثم المصاهرة مع آل المراد.

٢ - التاجر الكبير أحد وجهاء مدينة اللاذقية بدر الدين سعيد والد الأخ عدنان سعيد حفظه الله.

٣ - عبد الرحمن الصوفي المهندس الزراعي ورئيس دائرة الزراعة في مدينة اللاذقية، وهو من أوائل المؤسسين للجمعية ولحركة الإخوان المسلمين فيما بعد، وقد تولى - رحمه الله - رئاسة المركز أكثر من مرة، وكان بجانبه في الإدارة، الإخوة:

سمير الصوفي، وجمال المفتي، رحمهما الله.

٤ - الأستاذ المحامي اللامع عبد الله محمودي.

٥ - الأستاذ محمد المجذوب الأديب الكبير والشاعر المرموق،

وأحد رجال الرعيل الأول في العمل الإسلامي في مدن الساحل السوري، وكانت نشأته الأولى في مدينة طرطوس، ثم انتقل إلى اللاذقية وترأس مركز الجمعية فيها، ثم انتقل إلى المدينة المنورة وأمضى بقية حياته بجوار مسجدها النبوي، وكان يسكن في مواجهة مسجد قباء، ثم عاد إلى وطنه، وأدركته المنية في مدينة اللاذقية رحمه الله ورحم إخوانه رحمة واسعة وأدخلهم في رحاب عفوه ونعيمه.

أسس مركز اللاذقية فروعاً في المحافظة وفي مدن الساحل منها: فرع جبلة برئاسة الأخ محمد بدرة، وكان الفاعل الحقيقي في هذا الفرع الشيخ محمد أديب القسام، وفرع الحفة برئاسة عبد الباقي الشريقي يعاونه محمد الصباغ، وأنشأ المركز فرعاً في منطقة الجنجيل برئاسة الشيخ أحمد شاكوش خطيب جامع الجنجيل رحمه الله، وكان من أبرز فروع اللاذقية فرع بانياس برئاسة الشيخ التقي الورع عبد الستار عيروط يعضده ويشد من أزره الأخ الشيخ الصالح مصطفى الأعسر رحمة الله عليهم جميعاً.

من أهم الأعمال والأنشطة التي اضطلعت بها جميعة الشبان في اللاذقية إنشاء جمعية البر والخدمات الاجتماعية التي كانت تعنى بالأسر الفقيرة والشؤون الاجتماعية، وتأسيس ناد رياضي اهتم بتدريب الشباب على الفنون الرياضية، ولا سيما المصارعة والملاكمة[1]. كما

---

(١) من شهادة الأستاذ رشدي المفتي الذي انتسب إلى الجمعية عام ١٩٤٥م والذي يرجح أن تأسيس الجمعية كان في عام ١٩٤٢م أو في عام ١٩٤٣م.

أنشأت الجمعية في اللاذقـية مدرسة خاصة بهم[1]، ومن الأسماء التي شاركت في التـأسيس والنشاط والأعمـال الدعوية في تلك الفـترة وما أعقبها الإخوة: علي الحاج بكري، وعدنان قواف، ونبيل الطويل.

❋ ❋ ❋

من هذه المـراكز الستـة: الشبان المـسلمون في دمشـق، والرابطة الدينيـة في حمص، والإخوان المـسلمون في حـماة، ودار الأرقم في حلب، ودار الأنصار في دير الزور، والشبان الـمسلمون في اللاذقية، تشكلت جـماعة الإخوان المـسلمين في سوريـا بعد خمسة مـؤتمرات عقدتهـا منذ منتصف الثـلاثينيات، وحضـرتها بعض هذه الجمـعيات، لأن البـعض الآخـر لم يـكن مـولوداً ولا مـوجوداً، وحـتى مـنتـصف الأربعينيـات إذ شاركت فيه الجمعـيات التي تم التنويه عنـها، فظهرت جماعة الإخوان في جميع المـحافظات السورية، وأدت دوراً كبيراً في التـأكيـد علـى الهويـة العـربية الإسـلامـية للـسوريـين، وشاركـت في الأحداث السياسية والثـقافية والاجتماعية مشاركة فاعـلة، كان لها كبير الأثر في حياة العـرب والمسلمين، ليس في سوريـا وحدها، وإنما في الأقطار المجاورة لها في لبنان والأردن وفلسطين كما سوف يأتي ذكره في صفحات آتية وأحداث مقبلة.

❋ ❋ ❋

(١) الحركة الإسلامية في سوريا لمؤلفه يوهانس: ١٣٦ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

مراكز أخرى للإخوان بعد التأسيس

انتشرت دعوة الإخوان المسلمين في جميع المحافظات السورية وفي الأقضية وبعض النواحي والقرى الكبيرة، ونشأت مراكز جديدة سرعان ما التحق ممثلون عنها بمجالس الشورى وبالقيادات العليا، وكان من أشهرها: مراكز إدلب وحوران، والجزيرة التي استمرت على ارتباطها بمركز الإخوان المسلمين في دير الزور.

١ - **مركز إدلب**: عندما تشكلت جماعة الإخوان عام ١٩٤٥ بعد اتصالات، وحوارات مستمرة تحت اسم الإخوان المسلمين بقيادة واحدة وأمير للجماعة، هو المراقب العام فضيلة الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله، لم تكن محافظة إدلب موجودة، بل كانت قضاء تابعاً لمحافظة حلب شأن الأقضية الأخرى، كالباب وحارم ومنبج وطرابلس وجسر الشغور وعين العرب ومعرة النعمان وإعزاز وعفرين وغيرها، لكنها أضحت محافظة مستقلة عن محافظة حلب إدارياً، فتشكل فيها مركز للإخوان الذين كانوا يراعون التقسيمات الإدارية للدولة في تشكيلاتهم، وتأتي أهمية إدلب من

كـونها تـقع في وسط سـهل كـبيـر مزدهـر مغطـى بالحـقول الخـصبـة والأشجار المـثمرة، ولا سيمـا أشجار الزيتون والكرز والـفستق، وأن الملكـية فيـها تتراوح بـين الصغـيرة والمتـوسطة، وهي السـائدة، وأن سكانها جميعـاً تقريباً يتبعون مذهب أهل السنة والجمـاعة، وفيها جبل الزاوية الذي اتخذ منـه القائد المجاهد إبراهيم هنانـو ملاذاً وحصناً في مقـاومته لـلاستعـمار الفـرنسي، وأن بلدات الـمحافـظة كبيرة وكثـيرة ومـزدهرة، مـثل سراقـب وأرمناز، وسـلقـين وكـفر تخـاريم، وخـان شيخون ومعرتمصرين وتفتناز وأريحا، كما ضم إليها عدد من الأقضية (حيـن صدر المـرسوم بجـعلها مـحافظـة) مثل مـعرة النعـمان وجـسر الشغور، هذه الـمواصفات والمزايا التـي خصت بها المحافـظة جعلت منها مركزاً أو قـاعدة عريضة لدعوة الإخوان المسلمـين، فانتشرت في كل أنحـائها، وبرز فيـها دعاة وقادة وعلـماء كان في مـقدمتهم الـشيخ نافع شامـية الذي ترأس مركز إدلب لفـترات طويلة وكان زعيمـاً وطنياً بالإضـافة إلى كـونه داعيـة إسلامـياً ومـصلحاً، وبـرز كذلك مـن قادة المـركز إخـوة دعاة من أمـثال: فـاضل رشيـد، وحسـن كيـالي مفـتي إدلب، ومحمد حكمت معلم، ووحـيد السم، ووجيه دويدري، وعبد الحمـيد سيد عيـسى، وأحمد قطيع وعـادل سفلو، ووحيد جـحا، ثم ظهر فـيما بـعد وفي وقت لاحق في الـخمسـينيات ومطلـع الستيـنيات مـجمـوعـات أدت دوراً فـاعلاً فـي النـشاط الإخـواني فـي الأقـضيـة والنواحي، أمثال الأديـب الكاتب إبراهيم عاصي رحمه الـله في جسر الشغـور، وعبد القـادر البيطار في مـعرتمصـرين، وعبد الـله نزال في

سراقب وأديب الآمنة ومحمد أديب الجاجي وأحمد العمري ومحمد حيدر في معرة النعمان، ويونس قرط في أرمناز، ويوسف السعدون في سلقين، وسعيد مبيض في إدلب وأريحا، ومحمد عبد الفتاح، وراجي بكور، ومصطفى الواحدي، وأحمد قطيع، في إدلب، وغيرهم، ذكرنا بعضهم على سبيل المثال لا الحصر، منهم من قضى نحبه في السجون والمعتقلات والاغتيالات شأن إخوانهم في المحافظات الأخرى، ومنهم من ينتظر، نسأل الله لهم جميعاً الثبات والأجر ورعاية المولى لمن استمر في السير على طريق الدعاة والعاملين.

٢ - مركز حوران: منذ بدء التنظيم الإداري في عهد الانتداب كانت حوران محافظة تتبع الحكومة المركزية في دمشق مباشرة، وكانت وما زالت درعا مركز المحافظة تتبعه أقضية ونواحي عدة مثل: قضاء بصرى وإذرع وصلخد، وناحية الشيخ مسكين، والصنمين وغيرها.

أما من الناحية الدعوية فإن حوران كانت مرتبطة بدمشق ارتباطاً مباشراً، وذلك لقربها من العاصمة والتحاق أبنائها بالمدارس والمعاهد الشرعية وكليات الجامعة، وكان الشيخ علي الدقر أحد الرواد الأوائل في النهوض بالعمل الإسلامي، والدعوة إلى الله، في بث العلوم الشرعية في دمشق وخارجها. لقد أنشأ الشيخ علي رحمه الله معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء في دمشق فخرجت أفواجاً من طلاب العلم الشرعي الذين وفدوا عليها من كل المحافظات السورية،

وبرز منهم شيوخ أجلاء تابعوا تحصيلهم، وأكملوا دراساتهم العليا، وأسندت إليهم مهمات التدريس في الجامعة، كما عني الشيخ بمحافظة حوران عناية خاصة، وجعلها ضمن برنامجه ونشاطه، فكان يزورها ولا ينقطع عنها، وقد أحضر عدداً من أبنائها إلى دمشق ليلتحقوا بالجمعية الغراء مع الطلاب الوافدين في الأقسام الداخلية التي تؤمن للطلاب السكن وأسباب المعيشة الأخرى، فتخرج عدد من أبناء حوران وصاروا شيوخاً، فعاد بعضهم إلى حوران فكانوا شيوخها المبجلين وقادتها الدعويين، وكان من أبرزهم الشيخ عبد العزيز أبا زيد، والشيخ سليم المصري، رحمهما الله، وأقام بعضهم في دمشق، وقام بالتدريس في مدارسها ولا سيما في الجمعية الغراء التي تخرج منها، أمثال نايف عباس، وعبد الرحمن الزعبي، وخالد جباوي، وأحمد المنصور المقداد (الشافعي الصغير)، كما مر معنا في صفحات سابقة من هذه الذكريات.

إن دعوة الإخوان التي ظهرت في حوران في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين قد سدت فراغاً كبيراً، وملأت ساحة مهمة في ثغر من ثغور سوريا في بلاد الشام، ومن خصائص هذه المحافظة أنها قريبة من العاصمة، وأن تأثرها بها وتأثيرها فيها دائم ومستمر، وأنها معبر رئيسي وأساسي إلى المملكة الأردنية الهاشمية، ومن ثم إلى فلسطين، وأخيراً فإنها تجاور وتلاصق جبل العرب - جبل الدروز - أي محافظة السويداء التي يغلب على سكانها اتّباع المذهب الدرزي باستثناء قلة من أهل السنة والجماعة التي امتدت إليها دعوة الإخوان

المسلمين بحيث لم تبق محافظة في سوريا، إلا وبلغتها الدعوة واستقرت على أرضها، وأينعت تربية وتزكية وسلوكاً.

٣ - محافظة الجزيرة: تقع في الركن الشمالي الشرقي من سوريا، وتجاور العراق وتركيا بحدود مشتركة تسكنها عشائر عربية أصيلة كالجبور وشمر وغيرهما، كما يسكنها الأكراد بأعداد كبيرة، لكن هذا المركز بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين ظل مرتبطاً بمركز دير الزور وتابعاً له، فلم يأخذ هذا المركز في التحرك الدعوي مداه.

وهكذا قصرت قيادة الجماعة في إعطاء هذه المحافظة حقها من الرعاية والاهتمام الدعويين، فخسرنا جمهوراً واسعاً من الأكراد الذين تُركوا نهباً للدعوات الشوفينية المتطرفة وللأفكار الماركسية، مع أن مكانهم الطبيعي - كأكراد مسلمين - هو في رحاب جماعة الإخوان المسلمين دون سواها من الحركات القومية أو العرقية، وكذلك كان حالنا مع العشائر في محافظة الجزيرة.

عود على بدء

جاء في بدايات هذه المذكرات والذكريات أن الحلفاء الغربيين الذين هزموا السلطنة العثمانية، وتقاسموا تركة الرجل المريض كما كانوا يطلقون على السلطنة في آخر عهدها، دخلوا بلادنا بروح التفوق والاستعلاء، بل بروح حاقدة تنم عن الرغبة في الانتقام والثأر لأجدادهم الذين هزمتهم أمتنا بعد الحملات الصليبية التي استمرت أكثر من أربعة قرون. - ١٠٩٨ - ١٥٢٢م، لقد وقف الجنرال غورو

قائد الجيش الفرنسي أمام قبر صلاح الدين قائلاً: ها نحن عدنا يا صلاح الدين، وقال الجنرال اللنبي قائد الجيش الإنكليزي بعد احتلاله القدس عام ١٩١٧: الآن انتهت الحروب الصليبية.

في أربعينيات القرن الماضي انتشرت كتب ساطع الحصري عن القومية والوطنية، فوجهنا البعض لقراءتها، فقرأتها أو قرأت بعضها مثل العروبة أولاً، وآراء في القومية والوطنية، ولقد لفت نظري وأنا في صفوف الإعدادية أن الحصري يرد على أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي هاجم العروبة باعتبارها عودة إلى الإسلام من الباب الخلفي، أو باعتبارها غطاء للدعوة إلى الإسلام فقال: لقد عادت الرجعية المحمدية بثوب جديد، ألا وهو العروبة، فرد الحصري مُطَمْئِناً بأن العروبة التي يدعو إليها لا صلة لها بالأديان ولا بالإسلام من قريب أو من بعيد. واستطراداً فيما جاء به أنطون سعادة في كتابه نشوء الأمم: إلى أن المسيحية الشرقية (ينتمي سعادة إلى طائفة اليونان الأرثوذكس) هي هوية الأمة السورية التي لم تحسن الدفاع عن نفسها أمام غزو - الجزيريين - أي العرب المسلمين الفاتحين، وربما كانت الرسالة الحقيقية للحزب إعادة هذه الأمة إلى تلك الهوية، أو إعادة تلك الهوية إليها مرة أخرى. يقول حازم صاغية: تحسّر سعادة على هزيمة سوريا أمام العرب في اليرموك[1].

---

(١) مصطفى السباعي: الداعية المجاهد والفقيه المجدد للدكتور عدنان زرزور - الدار الشامية: ٧٢ .

ساطع الحصري الذي يبالغ كثيراً بعلمانيته في دعوته إلى العروبة، يذكر في كتابه (يوم ميسلون) أن الجنرال - غوابه - الذي قاد الحملة على دمشق يوم ميسلون بأمر الجنرال غورو كتب: أنا في دمشق، إن هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً عندما كنت أقرأ في سجلات عائلتي، وأنا في سن الطفولة: أن جان مونغوليه الجد البعيد لجدتي من جهة أمي - جان لويز - كان قد وقع في الأسر خلال الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م، ونقل إلى دمشق، إنه كان من السواد الأعظم - أي من الجنود وليس من القادة - ولذلك لم يعامله السراقون - المسلمون من جنود صلاح الدين- المعاملة الحسنة التي كانوا يخصون بها الفرسان اللامعين، فجعلوا منه عبداً يشتغل في أحد مصانع الورق التي يصنع فيها الورق من القطن، فاشتغل جان المسكين هناك شغلاً شاقاً ثلاث سنين، وبعد ذلك فر من دمشق، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي، بعد اجتياز آلاف المخاطر، وعندما عاد إلى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنين، أسس أولى طواحين الورق التي عرفتها أوربا.

هذه هي الخلفية التي انطلقت منها فرنسا في احتلالها لسورية بعد معركة ميسلون في ٢٤ - ٧ - ١٩٢٠[١].

فهل يحتاج كلام الجنرال الذي غزا سوريا يوم ميسلون إلى تعليق؟ فجده لأمه كان في الجيش الذي جاء إلى بلاد الشام غازياً وأن جيش

---

(١) المرجع السابق: ٥٢ .

صلاح الدين كان يعامل قادة الصليبيين الأسرى معاملة كريمة، وأن جده الجندي لم يقتله المسلمون الذين غزاهم في عقر دارهم، بل وضعوه في معمل الورق يشتغل به ثلاث سنين، حتى إذا تعلم المهنة نقلها إلى أوروبا وأسس أولى طواحين الورق التي عرفتها بلاده، ومع هذا يسمي نائب غورو (الذي قتل جيشه الغازي يوسف العظمة والمدافعين عن سوريا ضد الغزو الفرنسي) جيش صلاح الدين الذي تصدى للزحف الصليبي باللصوص، يا للسفاهة ويا للحقد، ويا للإفك والافتراء.

بعد احتلال الفرنسيين لسوريا، فتح الباب على مصراعيه لكل ناعق يرفع عقيرته ضد الإسلام، ويعلن الحرب عليه، فقد تألف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان من حزبي: الشعب اللبناني وحزب البلشفيين الأرمن - عصبة سبارتكوس - وكان سكرتير الحزب الشيوعي العام آكوب بيتر، وهو يهودي روسي قدم من فلسطين إلى بيروت باسم الرفيق شامي[١]. وظهر الحزب القومي بآرائه التي تمت الإشارة إليها آنفاً، وبرز الأرسوزي بدعوته التي اعتبر فيها العصر الجاهلي هو العصر الذهبي للشعب العربي، وشرعت الأحزاب السياسية بالدعوة إلى الوطنية والاستقلال بعيداً عن الإسلام، بل إن أبرز الزعماء الوطنيين في تلك الفترة، وهو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هوّن في مقالة له من شأن الرابطة الدينية، وأشاد بأتاتورك،

(١) الدكتور السباعي للدكتور عدنان زرزور: ٥١ .

وأبدى إعجابه الشديد بشخصيته وخطواته الجريئة في تحرير أمته من قيود الرجعية!!

بل إن الحركة الصهيونية في أواخر العهد العثماني توصلت إلى إيجاد التعاون في بعض المناطق بين ممثلي القوميتين أو الحركتين: الصهيونية والعربية، وإلى قبول المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ بحضور ممثل الحركة الصهيونية حيث نجح في إقناع المؤتمرين بعدم التعرض للهجرة اليهودية إلى فلسطين(١).

هكذا كانت الحالة السائدة في بلاد الشام قبيل الاحتلال الفرنسي، وبعد أن بسطت فرنسا نفوذها على سوريا ولبنان، فالأحزاب يغلب عليها الطابع العلماني، وبعضها يجهر بكره الإسلام ويناصبه العداء، والذين لا يعادونه لا يقيمون له وزناً، ولا يدخلونه في حسابهم أو في برامجهم السياسية ومناهجهم الفكرية والتربوية، لذلك لم نصادف حزباً سياسياً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار قد أقام للإسلام أي وزن في أعماله وأنشطته بل وحتى في صراعه الوطني ضد سلطات الاحتلال، وفي هذا الجو البائس والإحباط اليائس استيقظ المواطنون على أصوات بدأت خافتة، ثم ما لبثت تعلو وتدوي حتى سمعها القاصي والداني (عبر جمعيات رأت النور هنا وهنالك) تُذكر الناس بدينهم وقرآنهم وشريعتهم وأخلاقهم وتاريخهم وأمجادهم، وتدعو إلى الرجوع إلى الله، وإلى العودة إلى رحاب الإسلام ليفوزوا

(١) نقلاً عن كتاب: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار للدكتور قرقوط: ٤٦ .

بالداريـن ولينقذوا أمـتهم ووطـنهم من كـيد الكائـدين، ومـن حـقـد الغـزاة والمـستـعمـرين، ومن سـار بـركـبهم وانـضم إليـهم، والتـحق بمـعسكرهم، وتـبنى ضلالاتـهم وأفكارهـم الـشاذة وعداءهـم لـلإسلام والمسلمين.

كان الشـيخ السباعي رحـمه الله يرسل صيـحات مدوية عبـر قلمه وخطبه، رغم حداثة سنة، وهو في السادسة عشرة من عمره الميمون، كتب رسالة إلى الشيخ محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح التي كان السباعي يراسلها وهو ابن اثنتـي عشرة سنة، قال فيها، وذلك في ٥ - ٩ - ١٩٣١ : إن بوادر النـهوض بالمـسلميـن قد بدأت والحـمد لله، ففي سـوريا مثلاً نرى أن الجـمعيات الإسلاميـة قد كثر تأليـفها، والرجال الـعاملين قـد كثروا، فـفي دمشق قـد تألفت جمـعية الـهداية الإسلامية حـديثاً، وفي بيروت ثلاث جمـعيات إسلامية هي: جـمعية اتحاد الـشبيبـة الإسلامية، وجـمعيـة المقاصد الإسـلامية، والمـجلس الإسلامي. وفي طرابلس جـمعية التعاون الخيـري، وفي حلب تألفت جمعية البر والأخلاق الإسلامية، وفي حماة تألف فرع لجمعية الهداية الإسلامـية بـدمشق وهـا إننا نسـعى الآن في حـمص لإنشـاء جمـعيـة إسلامية، وعسى أن يكلل مشروعنا بالنجاح، وقد كان لهذه الجمعيات المذكورة فضل كبير في إيقاظ الشـعور الإسلامي وتنبيه المسلمين إلى ما يجري في طرابلس الغرب[١].

---

(١) كانت الحرب مستعرة بين الطليان وبين الليبيين.

وفي وقت لاحق كتب السباعي في مجلة الفتح نداء إلى الشباب يحثهم على العمل، ويجسد فيهم الأمل، ليبثوا في الأمة روح اليقظة والحمية والعزة، ثم قال: وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت دار الأرقم في حلب، وجمعية الشبان المسلمين في دمشق وجمعية الرابطة الدينية في حمص، وجمعية مكارم الأخلاق في بيروت، وجمعيات عديدة في القدس ولندن وباريس وكلها تنضوي تحت راية شباب محمد ﷺ(١).

وسبب تسمية شباب محمد ﷺ حكاية رواها الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله كما مر آنفاً، إلا أن رواية أخرى وردت على لسان الشيخ عبد الوهاب الألتونجي والأستاذ الأميري في مقالة بعنوان رابطة شباب محمد ﷺ، نشرت في مجلة الفتح في عددها الصادر بتاريخ، شعبان ١٣٥٦هـ الموافق ٧/ ١٠/ ١٩٣٧ قالا فيها: قبل ثلاث سنوات خلت، شعر بعض طلاب الجامعة السورية بحالة البلاد المنحطة من الناحية الخلقية والدينية، وكيف أن الدين لم يبق منه عند الجمهور غير مظاهر فارغة ليست من جوهر الإسلام في شيء، وتنبهوا إلى تقصيرهم في هذا المضمار، وعرفوا أن عليهم واجبات نحو أنفسهم والبلاد، أجلها وأعظمها صيانة الأخلاق، فقاموا فيما بينهم بتأسيس حلقات يجتمعون فيها لتهذيب النفس، وتقوية روابط الأخوة، وأضافا: وكانت مناسبة رأى فيها أفراد الحلقة ضرورة مقابلة

---

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور: ١٥٢، ١٥٣ الطبعة الثانية.

أحد كبار الزعماء في سوريا، ومباحثته في بعض الأمور الإسلامية، وفيما هم يتحدثون مع ذلك الزعيم سألهم عن اسم الرابطة التي تجمع هؤلاء الشبان، فأجاب أحدهم على البداهة: نحن شباب محمد ﷺ، فانتشر هذا الإسلام في الأوساط انتشاراً سريعاً، وأصبح له دوي في الآذان، مما دعا لجعله اسماً عاماً يطلق على مجموع الحلقات في جميع الجهات(١).

وسواء أكان سبب تسمية شباب محمد ﷺ ما جاء على لسان الأستاذ الأميري في الشهادة التي سجلها له إخوانه في جدة بتاريخ ١٩٨٧ الموافق ٢٢/١/١٤٠٨هـ، أم ما ورد على لسانه ولسان أخيه الشيخ الألتونجي في المقالة التي نشرتها مجلة الفتح ونقلها الدكتور عدنان زرزور في كتابه عن الشيخ السباعي، فإن كلمة شباب محمد ﷺ صارت مرادفة لأسماء الجمعيات في المحافظات السورية كما مر معنا وسبق ذكرها.

❋ ❋ ❋

---

(١) المرجع السابق: ١٥٤ .

مؤتمرات مهدت لقيام الجماعة

لم تنشأ جماعة الإخوان المسلمين في سوريا من تنظيم واحد، ظهر في إحدى المدن السورية، ثم انتشر ليشمل جميع المحافظات، وإنما ظهر بعد اندماج عدة جمعيات إسلامية في عدد من المحافظات، وذلك بعد لقاءات وحوارات على مدى ثماني سنوات بين هذه الجمعيات التي عقدت خمسة مؤتمرات تمخضت في الخامس منها عن قيام جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، تتبعها فروع في لبنان والأردن في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، وقد تحدث عدد ممن كتبوا سيرة الإخوان المسلمين ونشأتها في سوريا عن الجماعة، فجاءت كتابات الأستاذ إسحاق موسى الحسيني أدقها وأقربها إلى الحقيقة، قال الحسيني: أخذت هذه الجمعيات - الإسلامية - تعقد مؤتمرات، فعقد أولها في مدينة حمص عام ١٩٣٧، وكذا عقد ثانيها في العام نفسه في حمص أيضاً، ثم عقد المؤتمر الثالث في دمشق عام ١٩٣٨، ثم جاءت الحرب

العالمية الثانية فتعذر عقد المؤتمرات، فاكتُفي بقيام المركز الرئيسي - في حلب - بمهمته - بالنيابة عنها - وأن يتصل أمناء سر الجمعيات بعضهم ببعض، وفي سنة ١٩٤٣ عقد مؤتمر رابع في حمص، اشترك فيه ممثلو المراكز في سوريا ولبنان، وأقر بقاء دار الأرقم في حلب مركزاً رئيسياً، وفي عام ١٩٤٤ عقد المؤتمر الخامس في حلب، وقرر إلغاء المركز الرئيسي في حلب وتأليف لجنة عليا في دمشق، مشكلة من ممثل عن كل مركز، لها مكتب دائم، (وعلى رأسها مراقب عام هو الشيخ السباعي) تعقد اجتماعات دورية، وقد حضر هذا المؤتمر مندوب عن الإخوان في مصر[١]، وتم الاتفاق على توحيد أسماء الجمعيات باسم: الإخوان المسلمين، وعلى توحيد النظم، وفي سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر السادس في يبرود حضره قادة الإخوان في سوريا ولبنان على هامش إقامة معسكر تدريب للفتوة، واتخذت الجماعة في هذا المؤتمر السادس قرارات، أهمها:

١- إرسال بعثات علمية إلى مصر وأوربا.

٢- توسيع نطاق الحركة الرياضية والفتوة.

٣- تأليف لجنة تعنى بشؤون العالمين، العربي والإسلامي، ولجنة خاصة بقضية فلسطين.

٤- تأليف لجنة لاتخاذ الطريق العملية للنهوض بالفلاحين والعمال.

---

(١) الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة للدكتور إسحاق موسى الحسيني، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر: ١٢٤ .

ثم حدد المؤتمر أهداف الجماعة بما يلي:

١- تحرير الأمة وتوحيدها وحفظ عقيدتها، وبناء نظمها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس الإسلام.

٢- محاربة الاستعمار بكل أشكاله.

٣- التعاون بين أبناء الأمة كلها لا فرق بين مذهب ومذهب، وينكرون كل محاولة ترمي إلى تفريق الصفوف، ويعتبرونها حركة هدامة تخدم مآرب الاستعمار.

٤- إصلاح جهاز الدولة، والعناية بالتعليم والأخلاق والاقتصاد والزراعة والصناعة[١].

باستثناء القرارات التي أوردها الحسيني في حديثه عن المؤتمر السادس فإنه لم يأت بأي تفصيلات عن المؤتمرات بالنسبة للحاضرين وللمراكز التي تمثلت فيها، لأن عدداً منها لم تكن قد ظهرت للوجود عام ١٩٣٧ الذي شهد عقد مؤتمرين في مدينة حمص، لذا نرجح أن هذين المؤتمرين وكذا المؤتمر الثالث لم يشارك فيها إلا جمعيات دار الأرقم في حلب، والشبان المسلمين في دمشق والرابطة الدينية في حمص، لأن جمعية الأنصار في الدير، والإخوان في حماة، والشبان في اللاذقية قد ظهرت عام ١٩٣٨ فما بعد.

ومن مراجع أخرى نرى أن مؤتمر عام ١٩٣٨ كان من أهمها

---

(١) المرجع السابق: ١٢٥ - ١٢٦ .

وأعظمها جدوى، فالشيخ السباعي الذي حضر من القاهرة حيث يتابع الدراسة في أزهرها إلى دمشق في زيارة استمرت أشهراً، شهد مؤتمرين عظيمين، أولهما مؤتمر العلماء الذي دعا إليه الشيخ محمد كامل القصاب وحضره مائة شخصية من علماء سوريا ولبنان، وتم انعقاده بتاريخ ١١ - ١٣ رجب ١٣٥٨ الموافق ٦ - ٨ أيلول ١٩٣٨، وكان الشيخ القصاب قد رأى في تفرق العلماء وسكوتهم ما يُؤذن بخطر كبير، فعمل على تأليف جمعية تضم صفوفهم، وتدافع عن كرامتهم، وتسعى إلى رفع كلمة الله، وإبلاغ صوت الدين إلى القلوب[1]، وقبل انعقاد هذا المؤتمر كتب السباعي في مجلة الفتح في مطلع عام ١٩٣٨ مقالاً ندد فيه بعجز العلماء وتخاذلهم وقعودهم عن نصرة الحق والدين، وتخليهم عن المسؤولية، وقبوعهم في المساجد والبيوت، وسكوتهم عن الإباحية والفوضى تجوس خلال الديار، ثم قال: وبقي الأمر على هذا حتى عاد إلى دمشق فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل القصاب، فراعه وآلمه تفرق الشيوخ، فعمل على تأليف جمعية للعلماء تضم صفوفهم، وقد شهد الشيخ السباعي بأن مؤتمر الشيخ القصاب قد نجح نجاحاً كبيراً، ثم وصف السباعي فضيلة الشيخ القصاب بأنه أمة وحده، يعمل فلا يكل، ويهاجم فلا يتراجع، ويدعو فلا يسكت، ويجاهد فلا يفتخر، وهو في كل هذا يبذل من حرّ ماله في سبيل الله ما يضن عن بذل أقله

(١) مصطفى السباعي - آلام وآمال: ٥٧ .

كثير من الأغنياء المعاصرين[1].

أما المؤتمر الثاني الذي حضره الشيخ السباعي فهو مؤتمر شباب محمد ﷺ الذي انعقد في شعبان بعد خمسة أسابيع من انعقاد مؤتمر العلماء، وتمخض عن توحيد المراكز المتعددة لجمعيات شباب محمد ﷺ واتخاذ مركز رئيسي لها هو دار الأرقم في مدينة حلب الشهباء[2].

عبر الدراسة الشاملة عن التحرك الإسلامي في سوريا، وظهور الجمعيات المختلفة في المدن السورية، الصغيرة منها والكبيرة، ولاسيما جمعيات العلماء نلحظ أن للسباعي رحمه الله باعاً طويلة وجهوداً كبيرة في تفعيلها واستنهاض همم القائمين عليها، كان يعتب على المقصرين والقاعدين واليائسين، ويشجع العاملين والمخلصين والمثقفين، كما كان همزة الوصل بين الجمعيات من جهة، وبينها وبين الجمعيات التي تشكلت منها الجماعة فيما بعد من جهة أخرى، وكان في مسعاه وتحركه ذا همة لا تعرف الكلالة، وعزيمة لا يعتريها الملالة، وإرادة صلبة لا تنال منها المصاعب، وشجاعة لا تخشى سطوة الجبارين، ولا بطش الطغاة، وكان تأثيره فيمن يستمع إلى أحاديثه أو يُصغي إلى خطبه أو يقرأ مقالاته هائلاً، وقد شهد له في ذلك القريب والبعيد، وعرف عنه الباحثون من المسلمين ومن

---

(١) المرجع السابق: ٥٨ .

(٢) المرجع السابق: ٦٢ فما بعدها.

الغربيين المنصفين، ذكر أحد الباحثين أن السباعي كان أقدر الخطباء والمتحدثين والقادة على تعبئة الأمة وتحريك الجماهير، وإثارة العواطف النبيلة بين أفراد الشعب أياً كان انتماؤهم[1].

بهذه الروح العجيبة كان السباعي عاملاً حاسماً في التحرك الإسلامي، وفي تنشيط الجمعيات الإسلامية، وفي نشوء جماعة الإخوان المسلمين خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، فلم يكن لشباب محمد ﷺ في حمص إلا نفوذ ضئيل حتى عودة السباعي إلى حمص عام ١٩٤١[2]، كما أن مركز الشبان المسلمين في دمشق لم يشهد الانتشار الواسع والتأثير الكبير إلا بعد عودة الأستاذ المبارك رحمه الله من باريس بعد إكمال دراساته في جامعة السوربون عام ١٩٣٨م.

تاريخ تأسيس الجماعة في سوريا:

بالرغم من أن عدداً ممن عاصروا ميلاد جماعة الإخوان المسلمين في سوريا لا يزالون على قيد الحياة، وكاتب هذه السطور واحد منهم - فإن خلافاً كبيراً حدث بين الباحثين والمؤرخين والذين كتبوا عن نشأة الإخوان المسلمين في سوريا، فالدكتور عدنان زرزور في كتابه العتيد عن الشيخ المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله سجل في ثلاثة مواضع أرقاماً متباينة عن تاريخ النشأة، ففي الصفحة ١٦٢ من الطبعة

---

(١) الحركات الإسلامية لمؤلفه يوهانس: ٢٢١، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

(٢) المرجع السابق: ١٣١ .

الثانية قال: أما اسم الإخوان المسلمين الذي غلب على هذه الجمعيات، وعلى الحركة الدينية الإسلامية في سوريا آخر الأمر، فقد تم فيما يبدو في صيف عام ١٩٤٦ بعد جلاء الاستعمار الفرنسي عن بلاد الشام، ويؤكد على هذا التاريخ في الصفحة ١٦٤ ثم يذكر في الصفحة ١٩٧ وعلى لسان الشيخ السباعي ما يلي: إن الإخوان المسلمين ساهموا بقسطهم من النضال الوطني حين وقوع العدوان الفرنسي على سوريا، بعيد نشأتهم أو تجمعهم المذكور، فقد وقفوا وقفة رائعة أثناء حوادثه في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها من المدن السورية، وهو العدوان الذي بدأ في ٢٩-٥-١٩٤٥، فكانت فتوتهم تحمل الطعام والسلاح إلى جنود الدرك، وتنقذ الجرحى من الدرك والمساجين، وتحملهم إلى مقراتها تحت وابل الرصاص والقنابل، كما كانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير في مقاومة العدوان الفرنسي، وكان أعضاؤهم في مقدمة المناضلين من أبناء الشعب، فاستشهد منهم من استشهد، وجرح من جرح.

بعد هذا الذي سجّله الدكتور عدنان زرزور عن تاريخ النشأة على لسان قائد الجماعة نقلاً عن كتاب (دروس في دعوة الإخوان المسلمين) والذي لا يدع مجالاً للشك في أن نشأة الجماعة كانت في مطلع ١٩٤٥م عاد في الصفحة ١٦٥ يؤكد على لسان الأستاذ عادل كنعان أن الارتباط التنظيمي وتغيير العنوان تم في العام التالي عام ١٩٤٧، علماً بأن أياً من الباحثين في نشأة الجماعة لم يقل ذلك، لأن

الإخـوان فـي عـام ١٩٤٧ كـانوا مـلء السـمـع والبـصـر فـي خـوض الانتخابات والمشاركة في الحكم وفي إصدار جريدة المنار لسان حال دعـوة: الحق والـقوة والـحريـة التي صـدرت في شـهر حـزيران عـام ١٩٤٦، وفي فتح المـدارس الليلية وإقامة مـعسكرات الفتوة التـدريبية ونشر الدعـوة الإسلامية في المدن والأرياف، وكـل ذلك كان في ظل جماعة الإخـوان التي انبثقت من دمج الـجمعيات الإسلامـية في حلب ودمشق وحـماة وحمص والدير والـلاذقية، ولذا فإن عـام ١٩٤٧ ليس وارداً ولم يقل به أحد في نشأة جماعة الإخوان المسلمين.

أما الـذين أكدوا عـلى عام ١٩٤٥ في نـشأة الجـماعة فـهم كـثر، منهم: الأستاذ حسـني جرار في كتابه (الدكتور مصطفـى السباعي قائد جيل ورائد أمة) قال: في عام ١٩٤٥ أصـبح السباعي أول مراقب عام للإخوان المسلمين[١].

ذكر الذي أورد سيرة حياة السبـاعي في مجلة حضارة الإسلام رقم ٦،٥،٤ لعام ١٩٦٤صفحة: ٤٩٧ أن تاريخ إعلان الإخوان في سوريا كان عام ١٩٤٥، فـفي ٣ شباط ١٩٤٥ وجه وزير الداخليـة خطاباً إلى رئيس الشـبان المسلمـين في دمشق، يطلـب إعادة تسجيـل أحد فروع الإخوان عـوضاً عن تـسمـية الشـبان المـسلمـين، ومن بيـان الإخوان المسلمـين (أهدافنا ومبادئنـا) التي لم تصدر إلا في عام ١٩٤٥م يـتبين

(١) الدكتور مصطفى السباعي لحسني أدهم جرار: ٥٠ .

أن تأسيس الإخوان المسلمين كان عام ١٩٤٥[١] كما ذكر السيد محمد السيد الوكيل في كتابه (كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر) أن جماعة الإخوان المسلمين في سورية تأسست عام ١٩٤٥[٢].

إن أفضل الدراسات التي تناولت نشأة الإخوان المسلمين في سوريا ما صدر عن الدكتور إسحاق موسى الحسيني في كتابه (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) الذي تحدث فيه عن مؤتمرات خمس مهدت لقيام الجماعة، وذكر أن المؤتمر الخامس عقد في حلب، وقرر إلغاء المركز الرئيسي فيها عام ١٩٤٤، وتأليف لجنة مركزية عليا في دمشق مشكلة من ممثل عن كل مركز، لها مكتب دائم، وعلى رأسها مراقب عام هو الشيخ مصطفى السباعي، تعقد اجتماعات دورية، وقد حضر هذا المؤتمر مندوب عن الإخوان في مصر[٣]، وتم الاتفاق على توحيد أسماء الجمعيات باسم الإخوان المسلمين، وعلى توحيد النظم (لوائح الجمعيات في لائحة موحدة)[٤]، وفي عام ١٩٤٦ عقد المؤتمر السادس في يبرود لمراكز الإخوان في سوريا ولبنان على هامش معسكر أقيم لتدريب الفتوة، وقد أصدر هذا المؤتمر أربعة قرارات ذات طابع ثقافي ورياضي

(١) الحركات الإسلامية لمؤلفه يوهانس رايسنر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

(٢) كتاب كبرى الحركات الإسلامية للدكتور محمد السيد الوكيل: ٢٦٣ الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

(٣) الإخوان المسلمون للدكتور الحسيني الطبعة الأولى: ١٢٣ .

(٤) كان هذا المؤتمر في أعقاب ١٩٤٤ ومطلع عام ١٩٤٥ .

وسياسي واجتماعي، كما حدد المؤتمر للجماعة أهدافاً أربعة، غلب عليها الطابع الفكري والعقدي والكفاحي والإصلاحي والاجتماعي، والدعوة إلى نبذ التفرقة المذهبية والطائفية، والعمل على إصلاح أجهزة الدولة، ولاسيما أجهزة التعليم والاقتصاد، والاهتمام بالزراعة والصناعة وغيرها.

والذي يمعن النظر في تلك القرارات وهذه المبادئ يلمس تداخلاً بيناً بين بنودها وموادها، الأمر الذي يشعرنا أن الجماعة كانت في باكورة حياتها ونشأتها وأولى خطواتها السياسية والاجتماعية والتنظيمية تفتقر إلى النضج الذي استكملته في سنواتها اللاحقة من عمرها المديد.

ولقد جاء ذكر هذه القرارات والمبادئ تفصيلاً في الفقرة (مؤتمرات مهدت لقيام الجماعة) في ثماني فقرات، أربعة خاصة بالمقررات، وأربعة أخرى خاصة بالمبادئ، ليرجع إليها من وجد حاجة لذلك[1].

لقد التبس على بعض الباحثين تاريخ نشأة الجماعة، فحسبوا أنها حدثت بعد مؤتمر يبرود عام ١٩٤٦، وظنوا أن القرارات الصادرة عنه إنما هي المبادئ التي قام عليها التنظيم، مع أنها لم تكن أكثر من قرارات أكدت على ما جاء في إعلان الجماعة الذي صدر عام ١٩٤٥

(١) المرجع السابق: ١٢٥ – ١٢٦، وأرجح أن هذه القرارات والأهداف صادرة عن الهيئة التأسيسية التي تتشكل من مندوبي المراكز الإخوانية في سورية.

تحت عنوان (أهدافنا ومبادئنا) فأرخوا لقيام الإخوان في سوريا عام ١٩٤٦، مع أن الجماعة كان قد مر على تأسيسها قبل هذا التاريخ عام وبعض عام.

انتقل الشيخ السباعي من حمص إلى دمشق ليزاول مهماته كمراقب عام للجماعة، وتراجع له الأستاذ المبارك وآثره وعمل معه وشد من أزره طوال حياتيهما الميمونتين، كما عمل الشيخ مديراً للمعهد العربي الإسلامي[١] الذي تم تأسيسه رداً على المدارس التبشيرية التي بدأت ترسخ أقدامها في سوريا.

ولم يدخل عام ١٩٤٦ حتى تم إنشاء أكثر من عشرين مركزاً وعشرين مؤسسة في المحافظات، وزاد عدد المنتسبين للجماعة على مائة ألف في السنوات الأولى[٢] وكان أول مركز افتتحه الإخوان في دمشق عام ١٩٤٦ في السنجقدار، ثم افتتحوا مركز باب الجابية للشباب والفتوة، يتبع المركز العام، ثم افتتحوا مركز الشهداء عام ١٩٥٤، وفي عام ١٩٥٧ ثم نقل المركز العام إلى الروضة، ثم أغلق عام ١٩٥٨ بعد إعلان الوحدة بين مصر وسورية وحل الأحزاب، أما يوهانس رايسنر فيقول: كان المركز العام في دمشق بالسنجقدار، وكان له مراكز أخرى (شُعب وفروع) موجودة في باب الجابية، ودنكز وقبر عاتكة والقيمرية والميدان والمهاجرين والصالحية، بالإضافة إلى

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص: ١٢٨ .

(٢) مصطفى السباعي لحسني جرار: ٥٠ - ٥١ .

الفروع في ريف محافظة دمشق، ويقول: كانت الصحف الأجنبية مثل النيويورك تايمس تقدر عددهم - الإخوان - بـ ١٢ ألف عضو[١].

أهداف الجماعة كما حددها المراقب العام:

بالإضافة إلى أهداف الجماعة ومبادئها التي نص عليها نظام الجماعة بعد نشأتها بوقت قصير، وإلى القرارات والمبادئ التي أقرتها الجماعة في مؤتمر يبرود ١٩٤٦ فإن قائد الجماعة ومؤسسها ومراقبها العام قد حدد ولخص أهداف الجماعة وغاياتها ومراميها في وثيقة احتواها كتاب: (دروس في دعوة الإخوان المسلمين) جاء في مقدمتها أو المدخل إليها: يعتقد الإخوان المسلمون اعتقاداً جازماً أن في الإسلام كل عناصر النهضة المرجوة، وأنه جاء بمنهج شامل للإصلاح هو الذي قذف بأمتنا في الماضي إلى ميادين الخلود، وبوأها قيادة ركب الإنسانية بضعة قرون، وهو بما فيه من خصائص المرونة والتطور قادر على أن يحمل أمتنا من جديد إلى ميادين الخلود مرة أخرى، وأن يبوئها مكانة جديرة بقيادتها لركب الإنسانية، وتوجيه حضارتها نحو الأمن والرفاهية والاستقرار[٢].

ثم حدد رحمه الله الخطوط العريضة للإصلاح بخمسة أهداف:

أولاً: إصلاح الفرد، وذلك بتطهير عقيدته من الفساد، وقلبه من

---

(١) إشارة إلى أن الدوائر الأجنبية كانت تتابع وتراقب تحرك الجماعة لما رأوا من أثرها في مصر دون أن تفطن الجماعة في البداية لمثل هذه المراقبة.

(٢) دروس في دعوة الإخوان المسلمين الصادر عن مكتب الطلاب في الجماعة: ١١ .

الزيغ، ونفسه من الشهوة، وخلقه من الضعف، وروحه من العزلة، حتى يكون في المجتمع بنّاء، يعمل بروح الأبرار، ويكافح بعزيمة المناضلين، ويفكر بعقل العلماء والحكماء.

ثانياً: إصلاح الأسرة، إذ هي الخلية الأولى في المجتمع، واستقامة شؤونها، وتماسك بنيانها هما السبيل إلى تماسك بنيان المجتمع، ويتم ذلك بتربية المرأة وتعليمها تعليماً يهيئها لتنهض برسالتها كزوجة مخلصة توفر لزوجها وأطفالها الراحة والسعادة، وكأم مربية فاضلة، تمد الأمة بأكرم نشء وأقومه أخلاقاً، وأصلبه عوداً.

ثالثاً: إصلاح المجتمع، بإقامة نظم عادلة بين الأفراد والجماعات على أساس التوازن بين الحقوق والواجبات، فيقيم الإسلام بناء المجتمع على الأسس التالية:

١- التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة.

٢- الجمع بين القوة والرحمة، وبين العدالة والتسامح، ينتفي (في المجتمع) طغيان الفرد وميوعة الجماعة، (وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله).

٣- حفظ الأمة من داخل المجتمع، وصد العدوان عن حدوده، ومحاربة الظلم والطغيان أينما كان، ومد يد الإنقاذ لكل مضطهد مظلوم.

رابعاً: كفاح الاستعمار، حتى تتحرر الأمة جمعاء من كل آثاره

العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية، وهم - الإخوان - لا يرون استعماراً أولى بالمهادنة من استعمار، فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وكرامتهم وأموالهم يجب محاربته بكل وسيلة حتى تبقى مقدّراتهم في أيديهم، ويرى الإخوان أن كفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين هو كفاح للاستعمار ذاته لا يهادنون فيه أحداً، كما يرى الإخوان كفاح الاستعمار وأعوانه عبادة يتقربون به إلى الله، ويفتح لهم الطريق إلى الجنة، فالجهاد ضد المستعمرين في حكم الإسلام كالصلاة والصوم والعبادات الأخرى.

خامساً: توحيد العرب والمسلمين، فالوطن العربي الكبير واحد في جغرافيته ولغته وتاريخه وخصائصه، فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي، والإخوان يعملون لتوحيد الأمة العربية كيلا تبقى مجزأة مبعثرة كما يريد لها الاستعمار، فتكون لقمة سائغة لمطامعه وعدوانه.

ويؤمن الإخوان بتكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي، وفي إطار من التعاون الذي يجعل منهم قوة مرهوبة الجانب، تلعب دوراً كبيراً في صيانة السلام في العالم، إن تعاون العرب مع العالم الإسلامي يجعلهم في مكان القيادة لهذا العالم الفسيح، وهي قيادة لا يستهين بها إلا من جهل قدر نفسه وأمته[1].

قد يتساءل أو يقول قائل: وما الفارق بين هذه الوثيقة وما تضمنته من مقاصد، وبين مبادئ الجماعة وأهدافها وغاياتها التي نصت عليها

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين: ١١ - ١٢ .

نظمها؟ فأسارع إلى القول: إذا كانت نظم الجماعة هي الدستور والقانون والكيان للجماعة، فإن وثيقة الشيخ بمثابة روحها وإكسيرها وفلسفتها، فجزاه الله الخير وأعلى مقامه.

وهكذا.. وبعد مخاض طال أمده تمت ولادة جماعة الإخوان المسلمين في سوريا من رحم الأحداث الكبيرة التي شهدتها المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية، لتؤدي دوراً عظيماً في مسيرة الأمة والوطن، إذ أوقفت المدّ الإلحادي والتغريبي، وأعادت لأبناء أمتنا الثقة بالذات، والإيمان بصلاح الإسلام وقدرته على الإصلاح والنهوض، وردت أجيالاً إلى حظيرة الإيمان، فرأينا الناس يعودون إلى دين الله آحاداً وأفواجاً، بعد أن كانوا في العشرينيات وبعض الثلاثينيات يخجلون من انتمائهم، ويتكتمون على أداء عباداتهم، فظهر جيل يحمل عشرات الألوف منهم المصحف قائلين دون تردد ولا وجل: القرآن دستورنا، وامتلأت ردهات المدارس الثانوية والمعاهد العلمية والكليات الجامعية بأفواج المؤمنين وسرايا الدعاة إلى الله بالعقل والفكر والحكمة والقول اللين، لقد ملأت الجماعة بجهود دعاتها وأبنائها وبناتها الساحة، وأدت دورها الكبير على كل الصعد الإيمانية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والتربوية والتعليمية والرياضية الجهادية حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من الواقع في بلاد الشام، ومن تاريخ سوريا الحديث، فإلى تاريخ الجماعة المباركة لرصده وتسجيله قدر ما تسعف الذاكرة وتحفظه الذكريات، وتدعمه المراجع والمصادر المتاحة، وبالله المستعان، وعليه التكلان.

انتمائي للإخوان المسلمين

ذات أمسية من أماسي صيف ١٩٤٥، قال أحد أبناء الحي في ساحة الجامع الشرقي الذي كان بعض المصلين يتلاقون فيه بعيد صلاة المغرب: يقيم الإخوان المسلمون حفلاً بمناسبة دينية - أرجح أنها كانت ذكرى المولد النبوي الشريف - في جامع السلطان - فهل ترغبون في الحضور؟ فوافقنا في الحال، وذهبنا لنحضر صلاة العشاء، ونستمع إلى حفل كبير، أحضره لأول مرة في حياتي. ولم أكد أرى أضواء الزينة والأعلام الحريرية ذات اللون الأخضر، وعليها كتابات تحمل اسم الإخوان المسلمين - شباب محمد ﷺ - وعبارات التعظيم والتبجيل لصاحب الذكرى التي تحتفل الجماعة بإحيائها، وتذكير الناس بمعانيها الجليلة، حتى تملكتني الدهشة، وطغى على مشاعري الانبهار من الذي رأت عيني، وسمعت أذني، ولا سيما كلمات الخطباء التي كان المحاضرون يلقونها مرتجلين الآي الكريمة والأحاديث الشريفة والشعر والنثر، مما لم أكن سمعت من

قبل مثيله.

في ساعات لاحقة لم أتردد في ملء استمارة الانتساب إلى الجماعة والتوقيع عليها بتاريخ ٥-٧- ١٩٤٥ .

منذ ذلك اليوم ودعت مرحلة في حياتي، وانتقلت إلى مرحلة أخرى تغاير الأولى وتختلف عنها، فلقد ملأت صلتي بالجماعة أوقاتي كلها أو معظمها خارج الدوام المدرسي، أُرَغِّبُ الطلاب بالانتساب للجماعة، وأشارك باللجان الطلابية والأنشطة الثقافية، وأحرص على أن لا تفوتني أحاديث الجمعة وكلمات الضيوف الوافدين على المركز، وجميع الأنشطة الأخرى.

توثقت صلتي بأعضاء المركز ممن هم في مثل عمري، أمثال الأخ عبد الكريم عثمان - رحمه الله - والأخ مصطفى الصيرفي، فقد كنا - نحن الثلاثة - في سن واحدة، وكنا نلتقي، ولا نكاد نفترق، وشاء القدر أن نضطلع - نحن الثلاثة - بمسؤوليات توجيهية وتثقيفية ودعوية، والإشراف على عدد من الأسر التي تضم مجموعات الطلاب والعمال، وإلقاء الكلمات والخطب في المساجد والأحياء والنقابات وأبناء الريف في زيارات للقرى، فكانت الاستجابة من وجهاء الأحياء، ومن أبناء جيلنا كبيرة.

أضحت الجماعة كل شيء في حياتي، وغلبت الصلة بها، والاندماج في مؤسساتها والمشاركة في أنشطتها على أفكاري ومشاعري، فعوضتني عن اليتم الذي ذقت مرارته، وعن جفوة

الأرحام في بيئاتنا التي تفتقر إلى الكثير من معاني التراحم والتكافل ورعاية المستضعفين. والأهم من ذلك كله أن جماعة الإخوان التي قيضها المولى جل شأنه بفضله للناشئة وأبناء الجيل قد انتشلتنا من بيئات يغلب عليها اللهو والضياع، فالمراهقون يتسابقون إلى دور السينما لمشاهدة الأفلام التي يغلب على أكثرها الفساد، ويتعاطون التدخين في سن مبكرة، وينشغلون بالمغنين والمغنيات ويحملون صورهم، ويتخذونهم مثلاً لهم، والخمر والموبقات متفشية بين الشباب، ولا ينجو من شرورها إلا من نجاه الله وأنقذه بوالدين صالحين وشيوخ ومربين صادقين.

لقد كان انخراطنا في الجماعة بمثابة السفينة التي عصمنا الله بها من العواصف الهوج والأمواج العاتية، وإلا أدركنا الغرق والخسران، كما أدرك أتراباً وقرناء رأينا انحرافهم وشهدنا سوء مصيرهم. ولذا لا يمكن لذي وفاء أكرمه الله عز وجل بالالتحاق بالجماعة أن ينسى ما للإخوان عليه من فضل في إنقاذه وحفظه، وفي تربيته وتوجيهه والسير به على طريق الدعاة والمصلحين.

كان أول محاضرة سمعتها في أول عهدي بالجماعة ألقاها مندوب مركز حماة إلى قيادة الجماعة والمشاركة في قراراتها، والعودة إلى المركز يشرح ويذكر اختيار وتشكيل قيادة الإخوان من شخصيات قيادية مرموقة كان على رأسها المراقب العام الشيخ مصطفى السباعي ومحمد المبارك وعمر بهاء الدين الأميري، وكان ذلك في منتصف

عام ١٩٤٥م وهو العام الذي تم في بدايته اندماج الجمعيات بجماعة واحدة، هي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

قلت إن كل شيء تبدل في حياتي بعد انتمائي للإخوان المسلمين، من عكوف على مطالعة الكتب الثقافية والإسلامية لكبار الكتاب والدعاة من سوريا ولبنان ومصر وباكستان والهند وغيرها، ومن دوام على حديث الجمعة الأسبوعي، وعلى توجيه الأسر التي كلفت بالإشراف عليها، ومن حرص شديد على حضور الاجتماعات الأسبوعية والإصغاء إلى كبار العلماء الذين كانوا يمرون بمراكز الإخوان ويلقون فيها الدروس النافعة، من أمثال الهضيبي والندوي والمودودي وسعيد رمضان ومصطفى مؤمن وعبد الحكيم عابدين ومحمد المبارك والشيخ مصطفى السباعي والشيخ محمد الحامد، رحمهم الله جميعاً، وألحقنا بهم في الصالحين.

بالإضافة إلى المشاركة في لجان المركز، ولا سيما لجنة الطلاب، وكتابة الكلمات، وإلقاء المقالات، ودخول المسابقات.

فلم يمض على التحاقي بالجماعة أربع سنوات حتى ألقيت محاضرة الجمعة ارتجالاً في الاجتماع الأسبوعي الذي يحضره أعضاء الجماعة والمداومون على اجتماعاتها الدورية بعنوان: مشكلة الرق وكيف عالجها الإسلام، وكان ذلك في عام ١٩٤٩م.

صادفت في أول عهدي بالجماعة أمراً لم أقو على احتماله، بل خلف في نفسي عقدة صاحبتني أكثر من ثلاثة عقود، وما زالت

رواسب في النفس باقية عنها، ففي ذات يوم قرع الباب فخرجت للتو فإذا بنصف إدارة المركز في مواجهتي، لم أستطع أن أدعوهم إلى المنزل الذي ليس مؤهلاً لاستقبال الضيوف، ولو كانوا من أترابي، بله الكبار الذين كنا ننظر إليهم كقادة لمركز الجماعة في المدينة، رحبت بهم، ووقفت معهم، فأدركوا ما وقعت فيه من حرج، فاكتفوا بالوقوف، ثم السير ببطء معاً في زقاق الحي، كان موضوعهم الذي أتوا من أجله، هو الحديث عن خلاف حاد بين أعضاء الإدارة، وعن الأخطاء الفادحة التي أسندوها إلى الفريق الآخر، ووجوب التكتل ضد أعضائه للتخلص منهم، شعرت بالخجل والارتباك، وضاقت نفسي بما سمعت، فأنا ما زلت في سن تجعلني أخجل من النظر في وجوه هؤلاء وأولئك (كنت ما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة)، واستمر الحديث زهاء ٣٠ - ٤٠ دقيقة، ثم توادعنا وانصرفوا، عدت إلى المنزل وأنا في حالة تشوش واضطراب، لم أتحدث لأحدٍ من المركز ولا سيما أعضاء الشق الآخر بالذي جرى، بل تابعت مسيرتي الإخوانية بقلق وترقب، ولم تمض أسابيع أو أشهر حتى انفصل هذا الفريق عن الجماعة بعد أن حضر مندوبون من المكتب التنفيذي إلى حماة - أذكر منهم الأستاذ المبارك - لحل الخلاف، وما زلت أذكر أسماءهم وأشكالهم، فقد التحق بعضهم بأحزاب وجمعيات أخرى، وبعضهم انشغل بعمله التجاري وشؤونه الخاصة، وبعضهم عاد بعد فترة طويلة إلى صفوف الجماعة.

هذا الحديث جعلني شديد الحساسية من أي عمل إداري، فكنت

أبتعد عنه ولا أشارك فيه، وإذا فرض علي أعتذر عنه، فقد صادف أن إدارة المركز نجحت بالتزكية، وكان مسؤولو المركز قد وضعوا اسمي ضمن المرشحين، فلم ألبث في اليوم التالي أن تقدمت باستقالتي مصراً على قبولها، وظللت على ذلك ثلاثين سنة - من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٧٥ - عندما طلبني إخوة في القيادة ليتحدثوا معي عن ترشيحهم لي لمسؤولية المراقب العام، وإلا فإن الجماعة سوف ينفرط عقدها، فالشيخ المراقب العام مصر على الترك، لتعارض منصب المراقب العام لديه مع عمله وإقامته في الرياض، والمرشح البديل رفض ترشيحه بديلاً عن الشيخ، وكان أن حُمِلْتُ على القبول بعد جدل استمر أياماً، وتفصيل ذلك وذكر ظروفه وملابساته في مكان آخر من هذه الصفحات.

كانت السنوات التي سبقت استقلال سوريا وأعقبته حتى انقلاب حسني الزعيم في ٣٠- ٣- ١٩٤٩ مليئة بالأحداث وذات أهمية بالغة، أختار منها ما أرجح أن له صلة بالأوضاع العامة أو بما يخص الجماعة، وما يتعلق بها. أذكر منها بإيجاز شديد ما أراه جديراً بتسجيله والكتابة عنه.

١- جرت مباراة بكرة القدم على ملعب يقع في وسط مدينة حماة بين فريق من المدينة وآخر من الساحل، واشتدت الحماسة، ثم تحولت إلى نزاع فصدام، وأخذت الحمية أحد المتفرجين، فتسلق السارية وأنزل العلم الفرنسي من فوقها، فداسه الجمهور بالأقدام

وأحرقوه، فكان ذلك إيذاناً باشتعال الثورة في حماة فدمشق فالمدن السورية الأخرى. لست بصدد الحديث عن تفصيلات الصراع بين الوطنيين والفرنسيين، فلذلك موضعه، لكن الذي يعنينا من هذا الحدث الكبير استنفار المدينة والريف والبادية، فقد توافد على حماة رجال العشائر الذين كانت فرنسا تسمح لهم بحمل السلاح، فدخلوا المدينة مدججين بالرشاشات والبنادق، ونظمت الأحياء رجالها وسلحت غير القادرين على شراء السلاح، فبلغ عدد المقاتلين زهاء عشرين ألفاً، قام على تنظيمهم ضباط فروا من الجيش الذي كانت فرنسا تسيطر عليه، والتحقوا بالمجاهدين، كان في مقدمتهم صلاح الشيشكلي، وكانت حماة منقسمة إلى فريقين متخاصمين، فريق الكتلة الوطنية في حماة، وفريق الملاكين الكبار، أو ما يطلق عليهم صفة الإقطاعيين، وكان العداء بين الفريقين على أشده لسنوات طويلة، ولما نشب القتال بين أبناء حماة ومن تجحفل معهم من سلمية والمعرة والريف وأبناء العشائر وبين الفرنسيين، اختفى النزاع، وزالت العداوة، وصارت جبهة المجاهدين صفاً واحداً، وكتلة متراصة، يحمل الجميع السلاح، ويجلس في الخندق الواحد أبناء هذا الفريق أو ذاك، فلا يتخاصمون، ولا يحقد بعضهم على البعض الآخر، بل يقاتلون العدو إخواناً متعاونين متحابين، وكأن العداء لم يحدث بينهم قط في سابق الزمان، وكان هذا التلاحم من أسباب انتصار محافظة حماة على فرنسا، وإلحاق الهزيمة بجيشها، واحتلال ثكناتها ومواقعها العسكرية، وتطهير المدينة وما حولها من فلولها.

٢- كان الجدل على أشده بين الطلاب حـول الانتماءات الحزبية، كل فـريق يروج لمبـادئ الحزب الذي يـنتمي إلـيه، وكان ثمـة طلاب وشباب ينتسبون إلى الحزب القومي السوري الاجتـماعي الذي أسسه أنطون سـعادة، وكـان أتباعـه يتـباهون بشـخصـية الزعـيم وعبـقريـته، ويدينـون له بالولاء المـطلق، ويروجـون لأفكاره وللمـبادئ التـي أقام عليها بـنيانه الحزبي، ويحفظـون له أقواله وكأنها إنجـيل منزل، مثل: الحـياة مـوقف عز، وإنـما النـيات بالأعـمال عـلى عكس مـا ورد في الحديث الشريف: إنما الأعمال بالنيات.

حضر الزعيم ذات يوم إلى حماة وعقد مجلساً في منزل أحد أفراد الحزب، فحضرت هذا اللقاء بدعوة من بعض أفراد الحزب، ودخلت قاعـة كبيرة مـربعة تتسع لـحوالي سبعـين حزبياً ومـدعواً ملؤوا مقـاعد المـكان. أمسـك أنطون سـعـادة كرة أرضـية، وشـرع يشـرح المـوقع الجغرافي لسوريا، مشيراً إلى مـا يحيط بها من جبال طوروس شمالاً، وجبـال زاغروس شـرقاً، والبـحر الأبيض الـمتوسـط غرباً، وصـحـراء النفـوذ جنوباً، وكـذا سينـاء، فسوريـا مع العـراق كالهـلال، ونجمـته قـبرص، لـذلك لا يـنبـغي حـسب تعـبيـر سعـادة أن نضـيـع أوقاتـنا باجتماعات الجامعة العربية دون جدوى، ثم وبعد حديث طويل حول الطـبيـعة الـجغـرافـية لسـوريا، سـأل الحـاضريـن: هل من سـؤال أو استفسـار؟ فرفعت يدي، فقال: تـعال إلى هنا، فاقتربـت منه، فقال: ماذا تريد؟ قلت: حينما كانت وسيلة السفر والاتصال بين الأمم الخيل

والبغال كانت مصر في قلب الدولة العربية الإسلامية، بل كانت أقرب أقاليم الدولة إلى عاصمتها، وعندما صارت الطائرة التي تحملنا إلى القاهرة بساعتين وسيلة التنقل، صار من الصعب أن نشكل - نحن أبناء الشام - معها دولة واحدة؟ قال: أنت تذكرني بشاب في بلادنا عزم على أن يخطب فتاة تقيم في أمريكا، فتحدث معها بالهاتف، واتفق معها على الزواج، لكنه بقي هنا وبقيت هناك، وشكلا عائلة وهمية. شعرت وشعر الحاضرون من غير أفراد الحزب الذين حضروا هذا اللقاء أن الإجابة لم تكن مقنعة، وأنها هروب إلى الأمام وتمييع للحوار، وكأنه شعر هو أيضاً بذلك، فاستدرك قائلاً: طالما أنت متحمس للوحدة مع مصر، فسوف نعينك سفيراً في القاهرة بعد نشوء الهلال الخصيب وبناء دولته!!!

٣- في عام ١٩٤٧ رشح العلماء والإخوان وغيرهم في حماة الشيخ محمود الشقفة لعضوية مجلس النواب (وكنت إذ ذاك طالباً في مدرسة المحمدية الشرعية التي أسسها الشيخ محمود رحمه الله) ضمن برنامج سياسي في سوريا للاشتراك في الانتخابات النيابية سيأتي تفصيله في صفحات لاحقة. ومن عادة المرشحين أن يرسلوا مندوبين عنهم لمراكز الاقتراع، وكانوا يختارون ممثليهم الأكفياء للمراكز التي يؤملون دعم الناخبين فيها لهم، أما المراكز التي يكون أملهم فيها ضعيفاً فكانوا يرسلون إليها مندوبين صغاراً في السن، أو ممن ليسوا من ذوي الشوكة. كان نصيبي في مركز الاقتراع بالحي المسيحي في

المدينة، وكانت الكنيسة مقراً أو مركزاً للانتخاب، مكثت طيلة ساعات النهار حتى أوشك الوقت المخصص للانتخاب على النفاد، تعرفت على مندوب الأستاذ خليل كلاس المرشح في قائمة الأستاذ أكرم الحوراني عن الكرسي المسيحي في المدينة، وكان الحوراني يشجع ترشيح الشيخ محمود الشقفة لأسباب من أهمها أن يحجب به مرشح الذوات الأستاذ عبد الرحمن العظم في منطقته. لفت نظري أن قائمة الناخبين التي تضم حوالي ١٢٠٠ ناخب، لم يحضر منها حتى الساعة الأخيرة من الوقت المخصص للاقتراع إلا زهاء مائتين وأربعين ناخباً، مع أن المعركة كانت على أشدها، فهمس مندوب الأستاذ الكلاس - وكان أحد إخوته - في أذني وفي جو التعاطف بين المرشحين اللذين جئنا مندوبين عنهما قائلاً: معظم هؤلاء الناخبين من الذين هاجروا إلى القارة الأمريكية، أو ممن طواهم الموت، وعلمت بعد ذلك أن قانون الانتخابات الذي وضعته فرنسا إبان فترة الانتداب ينص على أن كل نائب يمثل ستة آلاف من الناخبين - وليس عدد السكان - وأن القانون قد وزع المقاعد على أساس المذهب، وليس على أساس الدين، فالمسلمون موزعون إلى سنة وعلويين ودروز.. إلخ والمسيحيون إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، وأن لكل طائفة نواباً بحسب عددها، وأن أي طائفة إذا بلغ عدد ناخبيها نصف العدد زائداً واحداً، أي أكثر من ثلاثة آلاف مثلها نائب في البرلمان، فإذا بلغ عدد ثلاث طوائف تسعة أو عشرة آلاف، ولكل طائفة أكثر من ثلاثة آلاف، مثلهم ثلاثة نواب، وليس

واحداً، ليزيد عدد ممثلي الأقليات في البرلمان من الديانتين الإسلامية والمسيحية إلى الضعف، ولما كان عدد المسيحيين في حماة دون ثلاثة آلاف، وهم يتجمعون في حي المدينة وثلاث قرى هي: كفربو والسقيلبية ومحردة - صارت ناحية فيما بعد - عمدت سلطات الانتداب الفرنسية إلى عدم إسقاط المهاجرين والأموات حتى يرتفع عدد الناخبين إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف يحق لهم أن يمثلوا بنائب في البرلمان عن مقعد مسيحي في المحافظة، وبهذا الصدد أشير وأؤكد أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين كانت في حماة ومنذ قرون على أفضل ما تكون وداً وتواصلاً وبرّاً.

٤- عزمت الحكومة الوطنية في سوريا بعد نيلها الاستقلال أن تجري إحصاءً عاماً للسكان في عام ١٩٤٧، وانتدبت لذلك موظفين وأعضاء من الفرق الكشفية يساعدون المختصين في عملية الإحصاء في جميع المحافظات، وقد كنت ضمن المجموعة الكشفية التي قدمها فوج سعيد العاص في مدينة حماة لتشارك في هذا الواجب، فكلفنا القائمون على الإحصاء بالتوجه إلى شمالي المحافظة لترقيم المساكن في سبع قرى كبيرة، مثل مورك وطيبة الإمام وصوران ومعردس وغيرها تمهيداً لإحصاء عدد سكانها من قبل فريق آخر مختص بالعملية الإحصائية، وعدنا إلى بيوتنا بعد إتمام عملية الترقيم التي استغرقت قرابة أسبوع، وانتظرنا الإعلان عن إحصاء عدد سكان سوريا شهراً فشهراً، وسنة فسنة دون أن نسمع عن نتيجة الإحصاء حساً ولا ركزاً، فسألنا وتساءلنا، واستمر تساؤلنا عن السبب حتى طال

علينا الأمد، فعلـمنا بعد ذلك أن حكومة جميل مردم قـد فوجئت بعد أن تمـت عمـليـة الإحصـاء أن عـدد الأقـليات هـو نصف أو أقـل من الأعداد الـمثبـتة في جداول الأحـوال المدنـية، فَخَـشِيَتْ أن تتـهم من الدوائـر الغربـية بالـتضـييـق على الأقـليات وحـرمانـهم من حـقوقـهم المكتسبة بعـيد نيلها الاستقلال، فحملها الـخوف إلى إهمال الإحصاء وإلغائه وصرف النظر عنه ووأده إلى الأبد.

٥- في الـعـام الدراسـي ٤٧- ١٩٤٨ دخلت مـسـابـقة لاخـتـيـار المعلمين، فصدر تعييني في مـحافظة الفرات، فحملت من إدارة مركز حمـاة رسالتين إلى رجـلين من رجال القـضاء يعمـلان في دير الزور، وقد عرف الـناس عنهما الـنزاهة والاستقامـة وحسن الخلق، أحـدهما عبد الوهاب الأزرق، وثانيـهما عبد الحسيب عـدي، فلم يكد الأستاذ عبد الحـسيب يقرأ الرسالة حـتى انتصب واقفاً، وتناول سـترته، وأخذ بيدي إلى دائرة المعارف، ودخل على مـديرها الأستاذ عوض العامري من مواليد قرية جاسم في حوران التي ولد فيها الشاعر الفذ أبو تمام، رحب العامري به قائلاً: هذه الأماكن الشاغرة، فليختر واحداً منها في قضاء البوكمال، فصدر تعيـيـني في هجين، وهي قرية كبيرة، تقع على شاطئ الفرات الشرقي، ثم تَحَوَّلْتُ إلى ناحـية فيما بعد، توجهت بعد فترة إلى البوكمال مركز القضاء، وتعرفت على فرع الإخوان المسلمين فيهـا، وعرفت الحاج عبد الـله الدبس رئيس الفرع، وكـان أحد تجار البوكـمال المعـروفين، وكان هـمي ينحصـر في افتتـاح شعبة فـي قرية هجين، فجـمعت عدداً من سكان القرية وأقـنعتهم بالالتحاق بـجماعة

الإخوان، ورفعت أسماءهم وطلباتهم إلى إدارة الفرع في البوكمال، والذي عرفته بعد تعرفي على أحوال القضاء أن سكان القضاء هم مزيج من الديريين والراويين والعانيين، وأن عدد الديريين يبلغ ربع البلدة، وكذلك سكان راوة، أما العانيون فكانوا يشكلون نصف سكان القضاء. كان قائمقام البوكمال الأستاذ سعيد السيد - شقيق جلال السيد - وكان السكان يعرفون عنه الشهامة العربية والأخلاق العالية، والذي يعنيني في هذا السياق أن أي مواطن يستطيع دون أن يحمل جواز سفر أن يذهب إلى قرية (الحصيبة) العراقية التي تفصلها عن البوكمال مسافة قصيرة تقدر بسبعة كيلو مترات إذا حمل ورقة من القائمقام - مدير المنطقة - ويذهب إلى داخل العراق، بل يستطيع بعد اجتيازه الحدود أن يصل بيسر وسهولة إلى بغداد أو إلى أي بقعة داخل العراق دون أي عقبة تصادفه في سفره، وليس لديه إلا توصية من مدير المنطقة التي تقع على الحدود السورية العراقية، وكان العراق لا يزال تحت سلطة الانتداب البريطاني!! فأين هذا مما بلغ به الحال من جفاء ونزاع وخصومة ومحاصرة وقطع مياه الفرات وعداء مستحكم بين القطرين العربيين الجارين الشقيقين في ظل حكم الحزب الواحد بعد تحرير العراق من قبضة الانتداب البريطاني في العراق، ومن سيطرة الانتداب الفرنسي في سوريا؟ أليس من العار أن تكون العلاقة بين القطرين في ظل الانتداب الأجنبي أفضل منها في ظل الحكم الوطني؟!! فأي حكم وطني هذا الذي شهدته بلادنا منذ فجر الاستقلال في عدد من الدول العربية في آسيا وفي إفريقيا؟!!!

المرحلة الأولى

الإخوان المسلمون في سوريا
منذ عام التأسيس ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٤٩

منذ عام ١٩٤٥ أكدت جماعة الإخوان المسلمين حضورها على مستوى القطر وبلاد الشام الأخرى، وفرضت على المجتمع، وعلى القوى السياسية الأخرى وجودها، وأضحت جزءاً من النسيج الاجتماعي والسياسي لا يمكن تجاهله أو تجاوزه في كل الأحداث التي تمر بها سوريا على جميع الصعد وفي الميادين كافة.

كانت هذه المرحلة التي امتدت من عام التأسيس وحتى الانقلاب العسكري الأول الذي قام به حسني الزعيم في ٣٠-٣-١٩٤٩ بتخطيط من المخابرات الأمريكية كما أثبتت فيما بعد الدراسات الموثقة، كانت على قصرها من أخطر المراحل في تاريخ الإخوان المسلمين في سوريا تأثيراً في الاتجاهات الفكرية والفلسفية - الأيديولوجية - وفي المجالات السياسية والإعلامية، وفي الأنشطة الاجتماعية، وفي الحقل التربوي، والدعوة إلى القيم الأخلاقية، والتأكيد القوي عليها

لانتشال النشء من الموجات التغريبية والتحللية التي كانت التيارات الفكرية والسياسية والثقافية تدعو إليها وتتحمس لها، وتدفع الجيل إلى الانغماس بها، وصبغ الحياة العامة بها دفعاً شديداً.

ومن المفيد كي تتضح الصورة، وتوضع النقاط على الحروف في الإنجازات التي حققتها جماعة الإخوان المسلمين أن نعرض لها وأن نتناولها بالبحث والدراسة والتحري الأمين في كل مجالاتها وساحاتها.

أولاً: الأهداف والمبادئ: سارعت الجماعة منذ الأيام الأولى لنشأتها إلى تحديد الغايات والأهداف التي تنطلق منها الجماعة، وتلتزم بها، وتسعى جاهدة إلى نشرها وتحقيقها، كما سجلت مبادئ الإصلاح التي تعمل على تطبيقها، وعلى صياغة المجتمع على مستوى الفرد والدولة بمقتضاها، ونشرت في عام ١٩٤٥ عام التأسيس هذا المنهاج في رسالة ضمّنتها كل ذلك تحت عنوان: أهدافنا ومبادئنا. هكذا انطلقت الجماعة منذ ساعات ظهورها الأولى، وكتابها بيمينها، ليكون المواطن على بينة من أمرها، تأييداً لها والتحاماً معها، أو مخالفاً لها، ونائياً عنها.

بعد عام وبعض عام على ظهور الجماعة ونشرها رسالة: أهدافنا ومبادئنا، عقد الإخوان مؤتمرهم السادس في يبرود بتاريخ ١١-١٥ شوال ١٣٦٥ الموافق ٧-١١ أيلول ١٩٤٦، وأقروا فيه النظام الأساسي للجماعة، وكذا النظام الداخلي عبر ممثلي جميع المراكز في

سوريا الذين ضمنوا النظام الأساسي المواد التالية:

مادة ١- إن ممثلي مراكز الإخوان المسلمين في سوريا قد اتفقوا في مؤتمرهم السادس المنعقد في يبرود بتاريخ ١١-١٥ شوال ١٣٦٥ الموافق ٧-١١ أيلول ١٩٤٦ على اتخاذ نظام موحد لمراكز الجماعة مبين فيما يلي:

مادة ٢- لهذه الجماعة لجنة مركزية عليا في دمشق تشرف على شؤون الجماعة وفق نظامها الخاص.

مادة ٣- لهذه الجماعة حق إنشاء المراكز والفروع في سائر المحافظات السورية والبلاد العربية والإسلامية.

مادة ٤- يدير شؤون الجماعة في كل مركز أو فرع مجلس إدارة منتخب وفق النظام الداخلي.

مادة ٥- تقرر الإدارات المالية لكل مركز جهة صرف وتمليك موجودات المركز وفروعه حال حله على أن تصرف إلى جهة خيرية.

مادة ٦- جماعة الإخوان المسلمين جماعة إسلامية عربية تعمل على سعادة الفرد، وترمي إلى تحرير الأمة وتوحيدها وحفظ عقيدتها، وبناء نظمها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس الإسلام، وبعثها بعثاً جديداً قوياً يهيئها لأداء رسالتها العالمية الخالدة.

مادة ٧- غاية الجماعة هي ما جاء في تعريفها مجملاً، وتفصيله فيما يلي:

أ- التوجيه الإسلامي

عرض رسالة القرآن الكريم، وإبرازها للناس على أنها أقوى رسالة وأكملها وأتمها، وشرحها شرحاً كافياً مبيناً لأهداف الإسلام وغاياته، كاشفاً عن جماله وحقيقته، كرسالة للأمة يحقق لها الرفعة والسيادة والكمال والرقي، وكرسالة لأبناء الوطن يربط بين قلوبهم برباط وثيق من التعاون على المصلحة العامة، والاشتراك في بناء نهضة الأمة، وكرسالة للإنسانية يحقق لها الأمن والسلام والسعادة، ويعالج لها ما تضطرب فيه من مشاكل وأزمات.

ب- التوجيه الوطني

١- العمل على تحرير البلاد العربية والإسلامية من جميع أنواع الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وتقوية الشعور بالكرامة، وتحرير النفوس من الضعف واليأس، والتفكك الوطني والاجتماعي والأخلاقي.

٢- العمل لوحدة البلاد العربية وحدة تامة شاملة قائمة على الاعتزاز بأمجاد السلف، والاستفادة من تراثهم وحضارتهم، والاحتفاظ بروح الإيمان والسمو والعز في نفوس أبناء الأمة العربية، والتمشي مع مقتضيات الزمن وفق تلك الروح.

ج- التوجيه الأخلاقي

تقوية الرجولة والاستقامة والنبل في نفوس أبناء الأمة ومكافحة عوامل الضعف والفساد والميوعة ووهن الإرادة وكل ما يضعف نفسية

الأمة، ويوهن من عزائمها. وترويضها على محاربة أهوائها وشهواتها، وتنبيه ملكات الخير والشعور بالمسؤولية فيها، والاهتمام بتهذيب النفس، وبتذكيرها بيوم الحساب عن طريق العبادة وذكر الله ومحاسبة النفس.

د- توحيد جهود الأمة، ومكافحة التفرقة والتحزب الضيق، والاستفادة من مختلف العناصر الصالحة، وتكوين الجيل الجديد الذي يؤدي واجبه، ويعتز برسالته، ويكون طابعه العام: النظام والطاعة والشعور بالتّبعة، والعمل على تنظيم المؤسسات الخادمة للمصالح الشعبية وتشجيعها، ومكافحة الجهل والفقر والمرض والرذيلة.

هـ- التوجيه الاقتصادي

العمل على تنمية ثروة الأمة وحمايتها، وتحريرها من كل استعمار اقتصادي لأية أمة من الأمم الطامعة، والعمل على رفع مستوى المعيشة لأبناء الأمة كافة، والسعي لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الأفراد والفئات عن طريق الإخاء والتعاون دون إثارة الفتن والأحقاد بين الطبقات، والعمل على تحقيق التأمين الاجتماعي لجميع المواطنين، وتأليف الشركات التعاونية لمختلف الأفراد والمكلفين، وذلك بتطبيق النظام المالي في الإسلام.

و- التوجيه التشريعي

السعي لإصلاح الأنظمة والقوانين والمحاكم بما يتفق مع روح

الإسلام، ويـؤمن العدالة بـين الناس، ويوجـه الحكم توجـيهاً شـورياً يحقق سيادة الأمة.

ز- التوجيه التعليمي

١- نشـر العلم بين مـختلـف طبقات الأمـة، ومحـو الأمية بتـاتاً، والاتجاه بـالتعليـم وجهة تحـفظ العقيـدة، وتصون الأخـلاق، وتقوي روح الاعتـزاز بالثقـافة العـربية والتـاريخ الإسلامي المـجيد، وتـكفل للوطن اختصاصيين في شتى فروع الحياة.

٢- السعـي لنشر التـعليم الصناعـي والزراعي والعمل فـي البلاد، وإنشاء مدارس خاصة بذلك، تفي بالحاجة الماسة.

مادة ٨- تعـتـمد الـجمـاعـة في تحـقـيق غـاياتهـا علـى الوسـائل المشروعة، وأهمها:

أ- تبـليغ الـدعوة بـطرق المـحاضـرات والنـشر والـطبع والإذاعـة لمختلف الرسائل والنشرات والصـحف والمجلات العامة أو الخاصة، وتنظيم إصدار الكتب التوجيهيـة والمطبوعات وإرسال الوفود والبعوث ونشر الدعوة وتفقدها في أنحاء البلاد.

ب- التـربيـة الفـردية والـجمـاعيـة بطـبع كـافة الأفـراد علـى هذه المبادئ، وتمكيـن التدين العملي لا القولي في أنفـسهم أفراداً وأسراً، وتكوينهم تكـويناً إسلامياً صالحـاً، بدنياً بالرياضة، وروحيـاً بالعبادة، وعقـلياً بالـعلم، وتعـاملاً بتـثبيـت معنى الأخـوة الصادقـة، والتعـامل

والتضامن التام حتى ينشأ الجيل الجديد الصالح.

جـ- المشاريع والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية، كالمعاهد والملاجئ والمشافي وتنظيم الزكاة وأعمال البر، وإصلاح ذات البين، ومكافحة المنكرات والآفات الاجتماعية والعادات الضارة، وإرشاد الشباب إلى طرق الاستقامة، وصرف أوقات الفراغ في كل ما يعود بالخير على الأمة والجماعة، وإنشاء المزارع والمعامل التعاونية التي تنهض بالأيدي العاملة فيها روحياً واجتماعياً.

د- العناية بتنظيم شؤون الفلاحين والعمال واتخاذ كل الوسائل المؤدية إلى رفع مستوى الأرياف وإنعاش القرى، والأخذ بيد الفقراء والمستضعفين.

مادة ٩- تنهج الجماعة في تحقيق هذه الغايات بالوسائل المذكورة سنن التطور والتدرج والعمل المثمر بالتعاون مع كل محب لرسالة الحق والخير.

هذا ما ورد في النظام الأساسي الذي مضى على إقراره في مؤتمر يبرود ستون عاماً بالكمال والتمام. وقد تضمن توجيهات راقية في إصلاح الفرد والجماعة، ومرافق الحياة كافة، وفي الدعوة والاتجاهات الوطنية والقيم الأخلاقية والتوجيه الاجتماعي والاقتصادي والتشريعي والتعليمي. وبالرغم مما يؤخذ على مواد هذا النظام الأساسي من ضعف في البنية اللغوية والسبك القانوني والترتيب

النظامي، فإنني أوردته نصاً وحرفاً التزاماً بالأمانة العلمية والتاريخية.

النظام الداخلي

أما النظام الداخلي للجماعة، والذي تم نشره مع النظام الأساسي في كتيب واحد، فإنه احتوى مواد كثيرة قاربت المائة والخمسين مادة. وبما أن النظام الداخلي عرضة للتغيير والتعديل فليس من الضروري إيراد مواده كاملة، بل أقتصر على إيراد خلاصة عنه، هي جوهره وأساسه:

تحدث النظام الداخلي عن أنواع العضوية وهي: مشترك ومؤازر وعامل وشرف، وشروط كل عضو وصفاته والتزاماته. كما تحدث عن تشكيل الإدارات في المراكز، وكيفية انتخاب أعضاء المركز، الذين يتراوح عددهم ما بين سبعة واثني عشر عضواً، وشروط العضوية والصلاحيات التي يزاولها، ثم يقسم العضو القسم التالي الذي ما يزال بمجمله سارياً حتى يومنا هذا، ونصه:

«أقسم بالله العظيم أن أكون حارساً أميناً لمبادئ الإخوان المسلمين، وأن لا أجعل من دعوتهم وسيلة إلى منفعة شخصية، وأن أجتهد في نصح إخواني والدفاع عنهم، وأن أتحرى مصلحة الجماعة، وأكتم أسرارها، وأنفذ قراراتها ولو خالفت رأيي، والله على ما أقول وكيل».

ثم حدد النظام الداخلي أسماء اللجان وعددها، وصلاحية كل لجنة منها، وذكر أسماء أربع عشرة لجنة تغطي مرافق العمل وألوان

النشاط الذي ترمي الجماعة إلى تحقيقه وإنجازه.

وتحدث النظام عن الفروع وتشكيلها وصلاحياتها، وعن الشُّعب التي تتفرع عن المركز في المدينة الواحدة، وكان النظام يسمي الأسرة بالرهط، والكتيبة بالسَّرِيَّة التي تضم عدة أرهاط، كما تسمي الأنظمة الداخلية اللاحقة، الرهط بالأسرة، والسرية بالكتيبة التي تضم عدة أسرة.

ثم ذكر النظام تفصيلات واسعة عن واجبات الأرهاط والسرايا من حيث التنظيم والتقسيمات والأنشطة التي تضطلع بها، والواجبات الكبيرة المنوطة بها، والموضوعات الثقافية التي يثقف بها الأعضاء، وتحصينهم من الأفكار الوافدة التي تعارض مبادئ الإسلام وعقيدته، وغرس القيم الأخلاقية (التي هي سر نجاح الأمم) في نفوس أعضاء الجماعة، والتركيز على دراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وعلى روح التآلف والمحبة بين أفراد الرهط - الأسرة - والسرية - الكتيبة -.

عني النظام الداخلي بمنظمة الفتوة، وعممه على جميع المراكز والشعب والفروع، وذلك لتدريب الشباب على حياة الخشونة بالتهذيب الروحي، وتنمية الجسم تمهيداً للاضطلاع بشعيرة الجهاد دفاعاً عن العقيدة والأوطان المهددة أو المغزوة من أعداء الأمة، وأكد نظام الفتوة على تثقيف أفراد الفتوة بالعلوم الدينية والأحداث التاريخية والمواقع الجغرافية المفيدة والإسعافات الأولية، والتدريبات الرياضية القوية، وأن يلم بصورة موجزة بالوضع الاجتماعي والأخلاقي في

سوريا والمواقع الأثرية الهامة فيها، ونبذة عن تاريخها، إلى آخر التفصيلات التي ملأت ست عشرة صفحة من صفحات النظام الداخلي.

وأخيراً حدد النظام الداخلي لائحة في فصله الثامن للجنة المركزية التي قررها المؤتمر الخامس (الذي وحد الجمعيات في جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٤٥).

نصت على اختيار اللجنة المركزية في كل مؤتمر دوري، تجتمع في كل أربعة أشهر برئاسة المراقب العام، وللجنة مكتب دائم مقره دمشق، يتألف من أعضاء اللجنة المركزية المقيمين في دمشق، وهم: المراقب العام، وأمين السر، ونائب عنه، وخازن، ومحاسب، والبقية أعضاء يمثلون الإخوان المسلمين في سوريا ولبنان، وتشارك فيها جميع مراكز الجماعة.

ومن صلاحيات اللجنة المركزية العليا: توجيه الخطة العامة وفقاً لمبادئها المقررة في نظمها، وتنفيذ مقررات المؤتمر العام، وتمثيل الجماعة لدى المراجع الرسمية والهيئات المختلفة، والنظر في اقتراحات المراكز، وإبرام ما تراه صالحاً منها، وحق افتتاح المراكز الجديدة، والدعوة إلى عقد مؤتمرات طارئة حسب الظروف الداعية لذلك، وتأليف لجان تابعة لها تغطي بها الأعمال الضرورية للجماعة وتحقق أهدافها. والمكتب الدائم يتمتع بجميع صلاحيات اللجنة المركزية، وعليه أن ينفذ قراراتها.

هذه لمحة موجزة عن بنود النظام الداخلي للجماعة، وخلاصة

عن أهم نقاطه، ولولا التطويل لسجلت بنوده كاملة، لأنه جدير بالتأمل والدراسة لما احتواه من شروح وتفصيلات ولجان، بعد أن مر على وضعه وتطبيقه ستون عاماً بعد ظهور جماعة الإخوان المسلمين بحوالي سبعة عشر شهراً.

ثانياً: في التربية والتكوين

بالرغم من أن الجمعيات كانت تقوم بجهود مشكورة في حقل التربية والتوجيه في مراكزها، فإن الجماعة بعد اندماج الجمعيات الإسلامية من ست محافظات في جماعة موحدة هي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا عام ١٩٤٥م، قد تحولت فيها المراكز والشعب والفروع إلى مثل خلايا النحل في توجيه الشباب وتربيتهم وتكوينهم وإعدادهم وتعليمهم أحكام دينهم، وترغيبهم في الحلال والمباحات، وترهيبهم من الحرام والمحظورات، بطرق وأساليب ووسائل أضحت من تقاليد الجماعة في سوريا، بل وفي الأقطار العربية والإسلامية جمعاء، ومن ذلك:

١- **الأسرة**: وهي الوحدة الأساسية والخلية الأولى في نظام الجماعة منذ نشأتها، والأسرة عادة تتألف من عدد يتراوح بين خمسة وعشرة أعضاء، يراعى في تشكيلهم التجانس في العمر والثقافة والمهن ودرجة التحصيل والمكان، ويشرف عليها نقيب يتقدم أفراد الأسرة في سبقه بالانتماء إلى الجماعة، وبالمستوى الفكري والثقافي، فيرعى أفرادها، ويقوم على اجتماع أسبوعي لهم على الأقل، يلزمهم

ونفسه ببرنامج يقدمه قسم الأسر تبعاً للمرحلة التي يمر بها الإخوة في الأسرة، بدءاً من برنامج الأسرة المبتدئة، إلى برنامج الأسرة للمنتسبين، إلى برنامج الإخوة العاملين، إلى برنامج الإخوة النقباء.

ومن المألوف والمعروف أن برنامج الأسر يشمل آياتٍ أو سوراً أو أجزاءً من القرآن الكريم، وعدداً من الأحاديث النبوية الشريفة، وأبواباً من الفقه، وفصولاً من السيرة النبوية، وعدداً آخر من الموضوعات التي تُعنى بواقع المسلمين وأحوالهم، وبالفكر الإسلامي، وغير ذلك حسب المستوى الذي تكون عليه الأسرة، كما يكلف أعضاء الأسرة ببعض عبادات التطوع، كصيام النافلة، وقيام الليل، وقراءة القرآن في ورد يومي، والالتزام بالأذكار المأثورة في اليوم والليلة كالتي جمعها الإمام الشهيد حسن البنا في رسالة المأثورات، والحث على التصدق وإغاثة الملهوف، وطاعة الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن المعاملة مع الجيران، والتمسك بمكارم الأخلاق، كتحري الصدق، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغض الطرف عن المحرمات، والبعد عن الشبهات، والحرص على صلاة الجماعة، وغير ذلك من الفروض والسنن والنوافل والمندوبات، وهكذا يمضي الأخ أيامه في الجماعة، ملتزماً بمنهاج الأسرة، حتى يتم إتقانه، فينتقل إلى مرحلة أخرى بعد نجاحه في امتحان تشرف عليه لجنة مختصة في قسم الأسر، لتقرر ترفيعه أو تحويله إلى مرحلة أخرى، كالذي ينتقل من أسرة المنتسبين إلى أسرة العاملين، أو من أسرة العاملين إلى أسرة النقباء، وكل درجة تؤهل الأخ إلى عدد من الأعمال في الجماعة، مثل توجيه الأسر، أو

المشاركة في الانتخابات، أو الترشيح لعضوية الإدارة، أو إلى قيادة الجماعة، أو إلى منصب المراقب العام وهكذا، وللأسرة أنشطة يقوم النقيب على تنفيذها مثل: الرحلة، والقيام بتدريبات رياضية، وتعليم الخطابة، وصلاة الفجر جماعة، وغير ذلك من التكاليف والالتزامات والأعباء التي تؤهله أن يكون في عداد الدعاة العاملين.

٢- **الكتيبة**: تضم الكتيبة عدداً من الأسر، يعقدون اجتماعاً شهرياً، يتدارسون فيه كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ وفصولاً من كتاب ذي أهمية كبيرة، وغالباً ما يصومون النهار، ويفطرون معاً على طعام يغلب عليه التقشف، وبعد صلاة العشاء يؤدي أفراد الكتيبة صلاة قيام الليل أو صلاة التهجد إذا قرروا النوم لبعض الوقت، بعد أن يكون المشرف على الكتيبة قد ألقى عليهم حديثاً دعوياً أو فكرياً أو فقهياً أو سياسياً كان قد أعده ليوم الكتيبة.

٣- **أحاديث الجمعة**: في مساء كل خميس يتوجه الأعضاء في الجماعة وضيوفهم وأنصارهم والمرشحون لعضوية الجماعة إلى مقراتها في المراكز والفروع ليستمعوا إلى محاضرة الأسبوع الدائمة التي تبدأ بتلاوة مباركة من القرآن الكريم، ثم يتقدم المحاضر الذي يكون من العلماء أو الفقهاء، أو رجال الفكر أو الدعاة من أبناء بلد المركز أو بلد الفرع، أو من الضيوف الكبار الذين يطوفون في البلدان لتبليغ الدعوة، أو ممن توجه إدارة المركز الدعوة لهم، فيحضر من مدن سورية أو من أقطار عربية أو إسلامية، فيزدحم أبناء الجماعة والمواطنون لسماعه في مركز الجماعة أو أحد مساجد المدينة، وكثيراً

ما يبلغ عدد الحاضرين ألوفاً عندما يكون المحاضر ذا شهرة علمية ودعوية كبيرة من أمثال الأستاذ محمد المبارك أو الشيخ مصطفى السباعي أو مصطفى مؤمن وعبد الحكيم عابدين وسعيد رمضان من مصر، أو الشيخ أبو الحسن الندوي من الهند، أو أبو الأعلى المودودي من باكستان، أو علاّل الفاسي من المغرب، وقد حضر كل هؤلاء إلى مراكز الجماعة، وحاضروا، واستمعنا لهم، واستفدنا من علومهم وتوجيههم عندما كنا يافعين وشباباً وكهولاً في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

هكذا صار منبر الجمعة مدرسة إخوانية عتيدة، أسهمت أيما إسهام في النهضة الإسلامية، وفي تهيئة الجيل الذي عاصر الدعاة واستمع إليهم للاضطلاع بمسؤولية العمل، وتبليغ الدعوة، ونشر مبادئ الرسالة الإسلامية العظيمة.

٤- **الكتاب الإسلامي**: شرع الدعاة أقلامهم، فسطروا صفحات غراً في مختلف القضايا الإسلامية، وأثروا المكتبة بالمؤلفات والأسفار، وبرز كتاب كبار في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، وزودوا جماهير الفتيان والشباب والشابات وطلاب العلم بذوب أفكارهم، وعصارة آرائهم، وروائع بحوثهم في جميع التخصصات، وكان رائد هذه النهضة الإمام المجدد حسن البنا في رسائله التي تعتبر كالمتون في نظريات العمل الإسلامي، وفي الموضوعات المتنوعة، في العقائد والاقتصاد والسياسة وغيرها، ثم

انطلقت أقلام الكتاب الدعاة، فمنهم من كتب في التزكية كالأستاذ البهي الخولي، أو في الفقه كالشيخ سيد سابق، أو في الفكر والدعوة والسياسة والاجتماع كالشيخ محمد الغزالي وبالتفسير والاقتصاد والأيديولوجيات كالأستاذ سيد قطب، وبالأحوال الشخصية والمرأة والحضارة الإسلامية كالشيخ مصطفى السباعي، وهكذا رأينا وعاصرنا الكتاب الكبار في مصر، كالإمام البنا وعبد القادر عودة والغزالي وسيد قطب ومحمد قطب وسيد سابق والبهي الخولي، وفي سوريا كالشيخ السباعي والأستاذ المبارك وعبد الفتاح أبو غدة، والشيخ محمد المجذوب، وسعيد حوّى، وفي الجزائر كمالك بن نبي، وفي الهند أبو الحسن الندوي، وفي باكستان أبو الأعلى المودودي. وهؤلاء نماذج وأمثلة من مئات الكتاب والمؤلفين والباحثين الذين زودوا أبناء الجيل الذي عاصرهم بالأفكار والنظريات والآراء التي واجهوا بها الغزو الثقافي ودعاة التغريب والعلمانيين وذوي النظريات المادية والإلحادية، فأوقفوا مدّها وزحفها، واضطروها إلى التراجع والانكفاء والإياب، بعد أن كانت تعمل بدأب وعناء على مناهضة الرسالة الإسلامية، وتشويه مبادئها السامية، وأحكامها العادلة، ويصر أتباعها على إطفاء نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

٥- **الاحتفالات الكبرى**: دأبت الجماعة على إحياء عدد من المناسبات الدينية والتاريخية، لا على أنها فرض أو سنة أو مندوب، بل للتذكير بمبادئ الإسلام، وأمجاد المسلمين، كوسيلة من وسائل

الدعوة ونشرها بين المواطنين، وكان من أشهر هذه المناسبات: رأس السنة الهجرية، ومعركة بدر، وحادثة الإسراء والمعراج، ومولد فخر الكائنات محمد بن عبد الله ﷺ إذ كانت إدارات المراكز والفروع في جميع المحافظات توجه الدعوة إلى جميع المواطنين للاجتماع في أوسع المساجد مساحة، فيلقي أحد الدعاة خطاباً جامعاً يلامس به قلوب الحاضرين، ويخاطب عقولهم، ويحرك هممهم، ويذكرهم أمجاد أمتهم وتاريخها التليد، وكان من أشهر الدعاة وأعظم الخطباء في عصره الشيخ مصطفى السباعي الذي أوتي قدرة بيانية عجيبة، وموهبة خطابية فريدة، يستطيع بهما أن يحرك ويعبئ آلاف المواطنين، ويستنهض هممهم حتى لو قادهم إلى معركة لأجابوه، رحمه الله وأعلى مقامه، وأجزل له ولإخوانه الدعاة الأجر والمثوبة.

هكذا استطاعت الجماعة بمناهجها التربوية وبرامجها التوجيهية المبدعة بوسائل متعددة ومتنوعة، كالأسرة والكتيبة ومنبر الجمعة ونشر الكتاب الإسلامي، وإنشاء المكتبات، وإحياء المناسبات الدينية والتاريخية والوطنية أن تكسر موجات التغريب والإلحاد والانحلال، والأفكار المناهضة لرسالة الإسلام، وأن توقف زحفها، فإذا بالعلمانيين ومن لف لفهم يوقفون هجومهم، ويعدّلون من لهجتهم، بل صار بعضهم أو معظمهم يجاملون ويداهنون، ويتملقون جماهير الشعب المؤمن، ولاسيما في أيام الانتخابات، وعند الترشيح إلى عضوية المجالس النيابية، وكي تكون الصورة واضحة جلية للأجيال التي لم تشهد تلك الحقب أو العقود من القرن الماضي، بين ما كان

عليه النشء في الثلاثينيات وحتى منتصف الأربعينيات، وما صاروا إليه في نهاية عقد الأربعينيات، وما أعقبه من عقود، من تحول كبير في الأفكار والتصورات، بل وفي المعتقدات.

كان الجدل على أشده بين الطلاب حول الانتماءات الحزبية، والشخصيات السياسية، والبرامج الإصلاحية التي تروج لها الأحزاب، ويحاول أعضاؤها أن يقتنع الناس بها، وكان كل طالب يدعو الآخرين إلى الالتحاق بالحزب الذي ينتمي إليه. قال لي صديق كنت دائم الحوار معه، وكان من اتباع أكرم الحوراني:

- أذكر لي شخصية سياسية واحدة أو مثقفاً كبيراً ينتمي إلى الإخوان المسلمين.

لأن الإخوان في نظره جمعية دينية يقودها مشايخ وتجار ومحسنون، وليس في قيادتهم سياسي كبير كالحوراني والبيطار وخالد العظم والقوتلي ورئيف الملقي... إلخ، وبعد تفكير أسعفتني الذاكرة، فذكرت له الأستاذ عمر بهاء الأميري والأستاذ محمد المبارك، وكلاهما متخرج في جامعة السوربون في باريس، تخصص الأول في القانون، وتخصص الثاني في الأدب وعلم الاجتماع.

هكذا كانت الحالة في منتصف عقد الأربعينيات من القرن العشرين، ولم تمض على هذه الصورة القاتمة فترة وجيزة لا تتجاوز العامين حتى ظهرت بوادر نهضة إسلامية تجلت بواكيرها في انتخابات ١٩٤٧ التي كشفت عن بروز تكتل إسلامي ضم العلماء والإخوان

وذوي العواطف والتوجهات الإسلامية في المدن الرئيسة السورية دمشق وحماة وحمص وحلب حين ترشح للانتخابات النيابية في كل مدينة من خاض الانتخابات بتوجيه من المرشد حسن البنا - كما سيأتي تفصيلاً في فقرات لاحقة - ولم يكن العقد الأربعيني يشرف على نهايته، وفي التحديد عام ١٩٤٩، وفي ظل الانتخابات للهيئة التأسيسية بعد انهيار حكم حسني الزعيم، حتى كان التيار الإسلامي يفرض وجوده في عاصمة الأمويين التي أعطت الولاء كاملاً لمرشحي الإخوان وحلفائهم، وانتخبت قائمتهم بنجاح ساحق وأصوات بزت جميع المرشحين من أحزاب اليمين واليسار على حد سواء.

هكذا ظهر جيل من الدعاة، من أعضاء الجماعة، ومن المناصرين للدعوة الإسلامية. جيل مؤمن بالله، متحل بالأخلاق، معتز بالتراث العربي والإسلامي. جيل يعتقد أن الإسلام دين ودولة، وتشريع وقانون، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأن شريعته بما أوتيت من شمول ومرانة قادرة على تنظيم شؤون الفرد والجماعة والدولة، وعلى هضم الأمور الحياتية المستجدة والمستحدثة، وأنها أي شريعة الإسلام الربانية تحق الحق، وتبطل الباطل، وتنشر مبادئ العدل والمساواة لكل الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وأنها تصون الحريات بنصوص قطعية وليس باجتهادات سياسية تتغير وتتبدل حسب الظروف والمصالح والأهواء، وأن أحكام الشريعة تكفل للناس، ولكل فرد منهم، أياً كان معتقده وانتماؤه، الحرية في الدين، وفي الحياة الشخصية والعيش الكريم، وفي الكرامة الإنسانية، كما

كانت الحال في ظل ازدهار الدولة الإسلامية على مدى أربعة عشر قرناً. لقد ظهر الجيل الذي يفتدي الإسلام بروحه ودمه وأبنائه، ويتطلع لنيل الشهادة في سبيل الله، دفاعاً عن عقيدته وأمته ووطنه، ولقد ظهر ذلك جلياً في حرب فلسطين والاستشهاد في ساحة قدسها، وعلى رباها وبطاحها، مما سيأتي تفصيلاً في هذه المرحلة الأولى من تاريخ الإخوان المسلمين.

انتشرت مبادئ الجماعة، وعم تنظيمها في المجتمع، وفي كل الأوساط والفئات، ولا سيما في صفوف المتعلمين والمثقفين والطلاب، وصارت قوائمهم في الانتخابات الطلابية في الثانويات والكليات تتقدم على غيرها، وكذا في نقابات المعلمين والمهندسين والأطباء والنقابات العلمية الأخرى، ولم يعد يوجد من يتساءل عن المتعلمين والمثقفين في صفوف الجماعة، بل صار أعضاء الجماعة يتلون بكل ثقة ويقين قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(١). أما دعاة التغريب والالتحاق بالغرب فقد تلاشت أحزابهم، فاختفى بعضها من حياة الأمة، وضعف بعضها حتى لم يبق منه إلا الرسوم والأطلال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾(٢). هذه هي محصلة جهود الإخوان وجهادهم في بضع سنين دأباً، وجهود جهابذة

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٨.

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣.

العلماء في تلك الفترة في سوريا من أمثال الشيخ محمد النبهاني في حلب، والشيخ محمد الحامد في حماة، والشيخ عبد العزيز عيون السود في حمص، والشيخ أبو الخير الميداني وسيد الكتاني وحسن حبنكه وعبد الكريم الرفاعي وغيرهم في دمشق، وحسين رمضان وولده عبد الرزاق في ديرالزور والأستاذ محمد المجذوب والشيخ عبد الستار عيروط في الساحل السوري وغيرهم كثير، قاموا بجهود يصعب حصرها، نسأل الله سبحانه أن يجزل لهم الأجر والمثوبة.

هكذا أثمرت جهود العاملين والدعاة من الإخوان والعلماء وأنصارهم تياراً إسلامياً عارماً اتسعت دائرته حتى شملت بلاد الشام، وعم جميع الفئات والشرائح الاجتماعية والثقافية، وبلغ أعماق المجتمع في المدن والأرياف والبوادي، فتيقظ الأعداء في الداخل والخارج، وشرعوا في رصد هذا التحرك الإسلامي الواسع، ووضع الخطط للحد من انتشاره، والكيد له، والتهجم عليه، سياسياً وفكرياً وإعلامياً، وعندما زار الأستاذ الهضيبي سوريا في عام ١٩٥٤م، وحظي باستقبالات في جميع المدن السورية، لفتت أنظار المراقبين والمتربصين، وكنت ممن كلفه إخوانه بتنظيم استقبال المرشد الهضيبي رحمه الله في مدينة حماة، وكان ممن جاء لمركز الإخوان لتحيته والسلام عليه مطران المدينة ومرافقوه ضمن الوفود من وجهاء المدينة، وبمناسبة هذه الزيارة كتب الأستاذ محمود رياض سفير مصر في دمشق إلى جمال عبد الناصر تعقيباً على زيارة الهضيبي إلى

سوريا: إذا استمر صعود الإخوان المسلمين كما هو الآن، فسوف يستلمون الحكم في سوريا بعد خمس سنين.

ومن الجدير ذكره، والواجب إثباته أن الجماعة استمرت على النهج التربوي الذي بدأته في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات والسبعينيات، ثم بدأ الضعف ينتابها، والتراجع يظهر جلياً في مجال التزكية والسلوك والتوجيه والتربية على سيرها، وفي الطابع العام لمعظم أفرادها، بل غلب عليها في أنشطتها، الطابع السياسي والثقافي، ولا سيما في الثمانينيات والتسعينيات، وفي مطلع القرن الحادي والعشرين، وكان ذلك على حساب الجانب الروحي والتعبدي، الأمر الذي دعاني لرصد هذه الظاهرة، والعكوف على دراستها، وتشخيص هذه الحالة، ووضع منهاج لعلاج هذا التراجع تحت عنوان (في التزكية والسلوك) صدر في مطلع العام ٢٠٠٦ ويقع في خمسمئة وأربعين صفحة، ويحتوي على منهج مستقى من آراء وتوجيهات وتجارب أرباب التزكية والسلوك من ذوي القلوب الكبيرة، بدءاً من الحسن البصري، وامتداداً إلى حسن البنا بالضوابط القرآنية والنبوية التي لا يختلف عليها أهل السلف والخلف جميعاً، ولله الحمد الذي تفضل فأعان، فله الحمد والمنة حتى يتجلى بالرضا والقبول.

ثالثاً – الإخوان والنشاط الإعلامي

١ – التبليغ والإعلام يهدفان إلى توصيل المعتقدات والأفكار

والآراء والمواقف إلى الآخرين،وفي كل عصر تظهر وسيلة للتبليغ والإعلام تطغى على ما سواها، ففي عصور اليونان والرومان والعرب قبل ظهور الإسلام كان الشاعر لسان القبيلة والمجتمع الذي ينتمي إليه، ينافح دونهما، ويدافع عنهما، ويرد سهام الأعداء المصوبة إليهما، وبعد نزول الإسلام ظل الشاعر السيف المشرع في الدفاع عن قبيلته، وعن الموروث الذي ألفه قومه.

٢ - هكذا كان عرب الجاهلية في مواجهة الرسالة الإسلامية والتصدي لمبادئها في أيامها الأولى، وقد أجاز الرسول ﷺ لشعراء الدعوة الإسلامية من أمثال حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم أن يردوا سهام شعراء الجاهلية عن رسول الله والذين آمنوا معه، بل كان يشجعهم ويرفع من معنوياتهم ويقول لحسان: اهجهم وروح القدس معك. وبعد أن استتب الحال للإسلام وانتشر في جزيرة العرب، ثم امتد إلى الأقطار الأخرى ظهر دعاة كبار، برعوا في تبليغ مبادئ الإسلام بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وإظهار محاسن الإسلام، فكان لهم تأثير كبير على مئات الألوف من المسلمين، أو من الذين التحقوا بالإسلام، كان من أشهرهم الحسن البصري وتلاميذه في التربية والتزكية والسلوك. وعلى مدى القرون التي تلت ذاع صيت المحاسبي والقشيري والغزالي وابن الجوزي والكيلاني وابن القيم والعز بن عبد السلام، فقد كان يحضر دروس ابن الجوزي ما يزيد على مائة ألف، وكان يسقط بعضهم من

فرط التأثر من مواعظ ابن الجوزي.

أما الشيخ عبد القادر الكيلاني فحدث عن قدراته في الوعظ والتوجيه، وأثره في مئات الألوف من المسلمين ولا حرج، فقد امتد أثره إلى جميع البلاد العربية والإسلامية، وكان لمريديه وتلاميذه تأثير كبير في مجريات الأحداث، ومطاردة الفساد، وهداية الناس، ومواجهة الحملات الصليبية الغازية، وإلحاق الهزائم المنكرة بها تحت قيادة القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي طيب الله ثراه.

٣- وعندما أطلت القرون الحديثة، ولا سيما الثلاثة الأخيرة منها - الثامن عشر والتاسع عشر والعشرون - كانت الصحافة أقوى وسائل الإعلام في طرح الأفكار، وتوصيل الآراء والمواقف باسم الأحزاب والجمعيات والجماعات التي تصدرها، بل صارت تقود المعارك الكلامية والفكرية ضد المحتلين والمناوئين وأعداء البلاد، وعلى صفحاتها تتجلى قدرات وعبقريات الكتاب والشعراء والدعاة، فترسخت مواقف الذين يملكون الصحف الكبيرة، ويحشدون لها الكتاب الكبار، وينفقون عليها الأموال الطائلة، فصار الآخرون يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب.

٤ - أقدم مطبعة عرفها الشرق العربي هي المطبعة التي جلبها رهبان الطائفة المارونية من إيطاليا عام ١٦١٠، وأقاموها في دير قزحيّا بلبنان، وهذه لم تكن بحروف عربية. غير أن أول مطبعة عربية في الشرق العربي كانت تلك التي جلبها من بخارست البطريرق إثناسيوس

الدباس إثر رحلته إلى تلك الديار، وأقامها في حلب سنة ١٧٠٦، وإن أول كتاب طبع فيها هو كتاب المزامير.

وبهذا تكون حلب سباقة في الشرق العربي إلى شرف الطباعة باللغة العربية. تلت مطبعة حلب مطبعة دير الشوير التي أسسها الشماس عبد الله زاخر سنة ١٧٣٣، ثم مطبعة القديس جاور جيوس للروم الأرثوذوكس في بيروت عام ١٧٥١، ثم تعددت المطابع فيما بعد بلبنان عامة، وفي بيروت خاصة، أما في مصر فإن أقدم مطبعة عرفتها بعد مطبعة الحملة الفرنسية هي مطبعة بولاق التي أسسها الخديوي محمد علي سنة ١٨٢١، وبهذا جاءت مصر متأخرة عن بلاد الشام في معرفة الطباعة حوالي قرنين من الزمان(١).

أ - كان عهد السلطان عبد العزيز عهد ولادة الصحافة السورية، إذ عرفت كل من حلب ودمشق صحيفتها الأولى، وهي صحيفة سورية الرسمية بعد صدور قانون المطبوعات العثماني بثلاثة أشهر في عام ١٨٥٦، ثم تلتها بعد عامين في حلب صيحفة غدير الفرات.

ثم جاء مدحت باشا فشجع إصدار الصحافة في سورية، ولم تكن في دمشق سوى صحيفتين هما: سورية الرسمية، وصحيفة دمشق لصحابها أحمد عزت باشا العابد، فشجعه مدحت باشا على استئنافها بعد توقف دام ثلاث سنين. وبذلك أغنى مدحت باشا الصحيفتين

---

(١) الصفحة ١٣ - ١٤ من كتاب تطور الصحافة السورية في مئة عام (١٨٦٥ - ١٩٦٥) لمؤلفه جوزيف إلياس، الجزء الأول من الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٢، طباعة دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع.

بموضوعات لم تعرفاها من قبل[1].

ثم جاء عبد الرحمن الكواكبي، فدبج المقالات، وحرر الزوايا في صحيفة فرات الرسمية، ثم أصدر الكواكبي صحيفته الشهباء، وبعد تعطيلها أصدر الكواكبي صحيفته الثانية - الاعتدال - وكان في صراع مع الولاة، كما كان ناقداً لاذعاً، وثائراً على الجور العثماني، وداعية كبيراً من دعاة الإصلاح.

كان صدور الشهباء أسبوعية، وظهر العدد الأول منها في ١٠ - ٥ - ١٨٧٧، فكانت أول صحيفة شعبية في سورية[2]، أما الاعتدال فقد صدر العدد الأول منها في ٢٠ - ٧ - ١٨٩٧، باللغتين العربية والتركية، وكانت أسبوعية سياسية. أما في دمشق فكانت صحيفة سورية الرسمية عام ١٨٧٨ .

ب - تتالى بعد ذلك صدور الصحف، فظهرت في دمشق جريدة المقتبس، أصدرها الأديب والصحافي محمد كرد علي في١٧-٢-١٩٠٨ وفي حلب صدرت جريدة التقدم في ١٥-١٠-١٩٠٨، ثم ازداد عددها في سورية لتصل إلى ١٥ صحيفة بلغات أجنبية و٣٢٥ جريدة يومية وأسبوعية تصدر بالعربية، وبإحدى اللغات الأجنبية[3].

(١) المرجع السابق: ٤٦ - ٤٧ .

(٢) المرجع السابق: ٦٦ .

(٣) المرجع السابق: ٣٤٢جـ٢ .

جـ - كانت أول صحيفة صدرت في سورية بعد زوال الحكم العثماني هي جريدة الاستقلال العربي في دمشق عام ١٩١٨، تلتها جريدة لسان العرب، فجريدة سورية، وكلتاهما في دمشق، ثم تتالى صدور الصحف في كل من دمشق وحلب، وتبعتهما بقية المدن السورية، فكان في دمشق ١٣ صحيفة، وست في حلب، وأربع في حماة، وواحدة في اللاذقية(١).

أما مجموع ما صدر من الصحف السورية اعتبارا من ١٩١٨ وحتى عام ١٩٦٥، فبلغ ١٨٦ جريدة في دمشق، و١٣٩ جريدة في بقية المدن السورية، ٦٢ منها في حلب، و٣٢ في اللاذقية، وعشرون في حمص، و١٠ في حماة، و٥ في أنطاكية، و٣ في الإسكندرونة، و٢ في القامشلي، وواحدة في جبلة، ومثلها في دير الزور، وأخرى في القنيطرة(٢).

د - أول مجلة بعد ارتحال الأتراك عام ١٩١٨ كانت مجلة العروس التي ظهرت في العهد العثماني عام ١٩١٠، ثم توارت وظهرت من جديد عام ١٩١٨، ثم تلتها مجلة أخرى في دمشق هي مجلة العلم العربي عام ١٩١٩، ثم تتالى صدور المجلات بكثرة في أرجاء المدن السورية كافة(٣).

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٥جـ٢ .

(٢) المرجع السابق: ٣٤٦ .

(٣) المرجع السابق: ٣٨٥ .

ومنذ عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٦٥ بلغ عـدد المجلات في سورية ٣٣٧ مـجـلة، مـنـهـا ٢١٢ فـي دمـشق، و٧٣ فـي حـلـب، و١٢ فـي حمص، و٩ في حماة، و٥ في القامـشلي، و٢ في الحسكة، وواحدة في كل من صافيتا وأنطاكية ودير الزور والسلمية والقدموس[١].

هـ - أدرك الإخوان منذ وقت مبكر ما للإعلام من أهمية بالغة، وما للصحافة من أثر كبير في نشـر مبادئ الجماعة بين المواطنين ومن تفـنيد الاتـهامـات والافـتراءات الـتي تُرمى بـها جـماعـة الإخـوان من خصومها والمـتربصين بها في داخل البلاد ومن خـارجها، ومن فضح المؤامرات التي تحاك للنيل منها ومن قادتها ورموزها.

لم يكـن الشيخ الـسباعي خـطيبـاً مفوهـاً وكاتباً بـارعاً وقائـداً فذاً وسياسـياً محنكاً فحـسب، بل كان أيضاً إعـلامياً بفطرته ومنـذ نشأته، مارس الكتابـة وهو ابن اثنتي عشرة سنة، إذ كـان يراسل ويكاتب وهو في حـجر والـده بحـمص جريـدة الفـتح في الـقاهرة، ويـبعـث إليهـا بالمقالات التي يلمس قراؤها نضجاً مبكراً لكاتبها. لذلك سارع الشيخ إلى الحصول على ترخيص في إصدار جـريدة يومية، ولما يمض على نشوء الجماعة في سورية عام وبعض عام.

أصدر الشـيخ طيب الله ثـراه جريدة المنار الـسياسيـة اليوميـة عام ١٩٤٥، وصـدر العـدد الأول مـنهـا فـي ٢٢ - ٦ - ١٩٤٦، وكـانت لسان حـال دعوة الحق والـقوة والحريـة، وقد اقتـبس رحمه الـله هذا

(١) المرجع السابق: ٣٨٨ - ٣٨٩ جـ٢ .

الاسم من الشيخ محمد رشيد رضا الذي أسس مجلة ومطبعة بهذا الاسم، بل كتب تفسيراً للقرآن الكريم يحمل اسم: تفسير المنار. ولاقتباس هذا الاسم دلالته، إذ كان السباعي يبدي إعجابه ودهشته مما كتبه الشيخ رشيد رضا عن تاريخ الإمام محمد عبده، ويبدو أن هناك تشابهاً في غزارة المادة وقوة العرض كان يجمع بين الأستاذ السباعي والشيخ رشيد، وربما كان السبب في أن السباعي لم يختر اسم الفتح الذي أشاد به أيما إشادة في وقت سابق، أنه عدَّ المنار طوراً أعلى، أو يحتل مواقف أكثر تقدماً في حومة الصراع والصدام بين المناهج وطرق الإصلاح في ذلك الحين، يدل على ذلك أن الإمام حسن البنا نفسه عد مدرسته أو عمله استمراراً لمدرسة المنار ولو من بعض الوجوه[1].

أ- عرَّف جريدة المنار جوزيف إلياس في كتابه الموسوعي: تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥ - ١٩٦٥) في طبعته الأولى فقال: المنار جريدة يومية سياسية تصدر في دمشق، صاحب امتيازها مصطفى السباعي، ورئيس تحريرها أحمد قدامة، صدر العدد الأول من هذه الجريدة في ٢٢ - ٦ - ١٩٤٦، وقد استمرت تصدر يومية بانتظام مع بعض فترات التعطيل، حتى وقع الانقلاب الأول، فألغي امتيازها في ١٧ - ٥ - ١٩٤٩، ثم عادت إلى الظهور في تشرين أول ١٩٤٩ باسم المنار الجديد، واستمرت في الصدور، ثم كان قرار

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور الطبعة الثانية: ٢٤٧ .

الدمج، وبعد عام ونـيف عادت المنار إلى استقلالـها، وراحت تصدر من جديد عام ١٩٥٤، غير أنها لم تستمر طويلاً بعد ذلك، إذ توقفت قـبل إعلان الـوحدة مـع مصـر عام ١٩٥٨، وحـين عـادت الصـحف السـورية عـام ١٩٦٢ من جديـد، كانت الـمنار في عـدادها، إلا أنهـا توقفـت نهائيـاً بعد ثورة آذار ١٩٦٣، كـان يحرر افتـتاحيـتها مـصطفى السباعي وبـشير العوف وعمر بهـاء الأميري، وتتسم هذه الافتـتاحيات بالروح الإسلامـية الصرف، وبالعنف عـلى الأنظمة الحاكـمة، وتدعو إلى الإصلاح الجذري، وتدافع عن مصـالح الشعب، وترى في وحدة الأمة الإسـلاميـة طريق الـخلاص الوحـيد لـلعرب والـمسلـمين عـلى السواء[1].

عمـرت المنـار حوالي ثلاث عـشرة سـنة، غيـر أن حيـاتها كـانت حافلـة في هذا الزمن القصـير بالكفـاح من أجل الحزب الذي تمـثله، وبالدفاع عن القضية الفلسطينية، وبالدعوة إلى الجهاد الإسلامي[2].

ب- كان يحرر افتـتاحية المنار منذ البدء - كـما سبق ذكر ذلك - عمر بهاء الأميري الذي دبّج مجمـوعة من مقالات الجهاد اللاهبة في صيف ١٩٤٨، فحذفت الرقابة الكثير منها، من ذلك المقال الافتتاحي في عـدد ١٥ - ٥ - ١٩٤٨ عنوانه: يا أمـة العرب: لـقد دقت سـاعة العـمل فلبي نـداء الواجب لتـحرير فلسـطين، اذكروا خـالد بن الولـيد

(١) تطور الصحافة السورية لجوزيف الياس جـ٢: ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) المرجع السابق جـ٢: ٣١٨.

وطارق بن زياد وصلاح الدين، واذكروا يا شباب العرب القادسية واليرموك وحطين، وها أنتم اليوم على مفترق الطرق.. وفي آخر عام ١٩٤٨ بعد أن استتب الأمر للصهاينة جاء في افتتاحية المنار وعنوانها: هذه العروش الظالمة لا بد أن تثلها يد الأقدار العادلة(١).

جـ- رفعت جريدة المنار الثورة على الأنظمة، ودعت إلى إسقاط الحكومات العربية المهزومة، وتناولت فساد الإدارة في سورية، وسيطرة الطبقية والتخلف، ودعت أكثر من مرة إلى ثورة على الحكم، وانقلاب على النظام الإداري والاقتصادي المتعفن. كما شنت المنار حملة نارية على المستغلين، وعلى الأغنياء الجشعين فقالت: وعود كالسراب في مكافحة الغلاء والفقر، إلى متى تستمرون بإغناء الأغنياء وإفقار الفقراء؟ (العدد ٢- ٤-١٩٤٨). فاشتدت الرقابة الحكومية على المنار، حتى لنرى في معظم أعدادها مساحات بيضاء، كتب فيها كلمة مراقبة!!(٢).

د- وفي عام ١٩٥٠ ركزت المنار حملتها على الحزب الوطني لمواقفه المناوئة لدين الدولة، ولأن صحفه الكثيرة، وعلى رأسها القبس دعت لعلمنة الدستور، وإقصاء النص على أن الإسلام دين الدولة، وكادت هذه المعارك الكلامية والإعلامية أن تتحول إلى فتنة عمياء، لولا أن تدارك الشيخ السباعي رحمه الله الأمر بالاتفاق على

---

(١) المرجع السابق: جـ٢: ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) المرجع السابق: ٧٠ .

نصوص بديلة، تساوي في معناها ومرماها ما كانت تهدف إليه المادة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة.

هـ- لقد عايشت صدور جريدة المنار، ولمست أثرها الكبير في نفوسنا - نحن أبناء الجماعة - وفي جماهير السوريين، وكانت الصحف التي عاصرت المنار والمدعومة من الأحزاب والشركات تطبع أعداداً تتراوح ما بين ٤ آلاف و٥ آلاف، وثمة صحف أخرى لم تكن تطبع أو يوزع منها أكثر من ١٥٠٠ نسخة[١]، أما المنار فقد علمنا في حينه أنها كانت تطبع تسعة آلاف نسخة في اليوم، وكان جمهور عريض من الشعب ينتظر المنار كل صباح، وأن أعدادها تنفد في ساعة من ساعات الصباح الباكر، وأن بعض بائعي الصحف يغالي بثمنها في بعض الأحيان[٢].

لقد كانت المنار بالنسبة لنا غذاءً دائماً، وزاداً يومياً نتلقى منه التوجيه والتوعية والدروس والتعليمات، ونقرأ على صفحاته القرارات، ونحيط علماً بالنشاطات التي تضطلع بها الجماعة في كل مراكزها وفروعها، بل كنا نستمد منها شحنات روحية قوية، تدفع بنا إلى ساحات العمل والتنفيذ بكل جد ونشاط، وإن أنس، لا أنس ذلك العدد الخاص بمولد الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ الذي كتب افتتاحيته ومقالاته الرئيسة شيخنا أبو حسان (د. مصطفى السباعي)

---

(١) المرجع السابق: جـ٢: ٣٥٣.

(٢) مصطفى السباعي لعدنان زرزور: ٢٤٨.

والتي ما زلنا نعيش بنشوتها حتى كتابة هذه السطور، بالرغم من مضي زهاء ستين عاماً على تحبيرها، رحم الله كتّاب المنار من قادة الجماعة ومفكريها من أمثال السباعي والأميري وبشير العوف وأحمد قدامة وعدنان مصطفى وممدوح الحافظ وبديع لولو وإخوانهم، وتغمدهم برحماته وأسكنهم فسيح جناته.

رابعاً: الإخوان والانتخابات

بعد مرور عام واحد على استقلال سورية قررت الحكومة الوطنية إجراء انتخابات نيابية عامة حسب قانون جديد للانتخابات، جعل الاقتراع مباشرة في اختيار الناخب نائبه، بعد أن كان على درجتين في عام ١٩٤٣، فقرر الإخوان خوض المعركة الانتخابية ولما يمض على ظهور الجماعة سوى عامين اثنين، اقتناعاً من قيادة الجماعة أن المجلس النيابي الذي يسن القوانين، وينظم ميزانية الدولة بوارداتها ونفقاتها، ويراقب سلوك الحكومة وأداءها، ويحاسبها على تقصيرها، لا يجوز تركه للعلمانيين وللأحزاب التي تناوئ الإسلام، أو تعمل على إقصائه عن المجتمع وعن حياة المواطنين.

١- ربما كانت الحركة الإسلامية المكونة من جماعة الإخوان، ومن العلماء، ومن بعض الجمعيات الإسلامية في سورية أسبق من جميع الحركات والجماعات الإسلامية في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي بوجوب وضرورة خوض الانتخابات، ودفع قادة الجماعة إلى المجلس النيابي، فلم تبق جماعة إسلامية - بعدئذ - من جاكرتا

إلى الدار البيضاء إلا وخاضت تجربة الحياة النيابية، في أندونيسيا وبنغلادش وباكستان وماليزيا وأفغانستان (قبل الانقلاب الشيوعي) واليمن والكويت وتركيا وسوريا والأردن ومصر والسودان وتونس والجزائر والمغرب، وبعض هذه الأقطار دخلت الحياة النيابية بعد أربعين سنة من التجربة الرائدة في سوريا - الجزائر - وبعضها بعد زهاء خمسين سنة على تجربة الإخوان النيابية في سورية - المغرب -.

٢- والذي يلفت النظر، ويستحق التسجيل، أن الإخوان في سورية قرروا خوض انتخابات ١٩٤٧ بموافقة أو مباركة الإمام الشهيد حسن البنا، فقد أرسل رحمه الله مندوباً عنه هو الأستاذ عبد الحكيم عابدين سكرتير جماعة الإخوان في مصر إلى سوريا ليحمل توصية الإمام ورأيه في وجوب المشاركة البرلمانية، وقام عبد الحكيم رحمه الله بنشاط كبير في دعم المرشحين للجماعة، وألقى الخطب التي سحر بها قلوب الناخبين، فقد كان خطيباً مفوهاً يتدفق كالسيل، ويهز مشاعر المواطنين، ويؤثر فيهم، ويقنعهم في تبني مرشحي الجماعة واختيارهم نواباً في المجلس النيابي، وقد حضرت أحد المهرجانات الكبرى التي أقامها أبناء حماة لمرشحهم الشيخ محمود الشقفة رحمه الله، وتحدث فيه الأستاذ عبد الحكيم على مدى ثلاث ساعات متواصلة، فكان المستمعون ولاسيما المثقفون والمتعلمون يهزون رؤوسهم من فرط التأثر ببلاغة الخطيب.

لم يكتف الإمام بإرسال مندوب عنه إلى سورية في موضوع الانتخاب، بل وجه نداءً إلى الشعب السوري استهله بقوله:

«إن الشعوب العربية في مختلف أوطانها تنظر إلى الشعب السوري نظرة ممتازة، لأن سلفه حمل الأمانات الأولى إلى شعوب الأرض في زمن التابعين، ولأنه كان أصل النهضة العربية الحديثة، لبعث العروبة ودعوتها إلى استئناف رسالتها من جديد، وأضاف: وفي يوم الاثنين يدعى هذا الشعب النبيل لانتخاب نوابه الذين توضع بين أيديهم أمانة التشريع، وتوكل إليهم دفة السفينة، وتسير بدلالتهم القافلة، ويعلق بذمتهم مصير البلاد في معايشها وإدارتها ونهضتها وعمرانها، وفي سياستها الخارجية، وروابطها بدول الجامعة العربية، وتعاونها مع الحكومات الإسلامية».

وبعد أن أشار الإمام إلى أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر تحترم المرشحين جميعاً للنيابة عن الشعب السوري الشقيق، وأنها لا تتدخل في السياسة الداخلية لذلك القطر الحبيب قال:

«إن الثناء بالخير شهادة، والانتخاب ثناء عملي بالخير، فلينظر امرؤ على ماذا يشهد، وبماذا يشهد، ولمن يشهد».

ولم يفت الإمام أن يشير إلى غير المسلمين من أبناء الشعب السوري، ويذكرهم بأن الإسلام نظامهم القوي، فقال:

«نحن نعتقد أن المواطنين السوريين الفضلاء من غير المسلمين يرون في الإسلام وتعاليمه وشرائعه نظاماً قومياً يتصل بصميم مشاعرهم العربية وتقاليدهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم العرب الأمجاد، فتحدرت في عروقهم مع الدماء الذكية لهذا الشعب العربي

الكريم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف ٤٤)، وبخاصة أن الإسلام الحنيف كدين قد آخى بين الأنبياء والرسل، ووحّد بين الشرائع والكتب، وجعل من العقيدة الدينية سياجاً منيعاً للمصلحة القومية، فلا عجب أن يكون حضراتكم أول المناصرين لدعاته، والمبتهجين لفوزهم في معركة التنافس الشريف التي تدور رحاها الآن في كل نواحي القطر الشقيق[1]».

٣- رشح الإخوان والعلماء وأنصارهما أربعة من القيادات الإسلامية لخوض معركة الانتخابات في المدن السورية الكبيرة الأربع: الشيخ معروف الدواليبي عن حلب، وهو خريج المدرسة الشرعية - الخسروية - التي كانت تضارع وتساوي المدرسة الغراء الدمشقية في سمعتها وفي ثقلها العلمي، واستمر الدواليبي يلبس العمة البيضاء لفترة طويلة، والشيخ محمود الشقفة عن مدينة حماة، والشيخ القاضي أنيس الملوحي عن مدينة حمص، والأستاذ محمد المبارك عن مدينة دمشق، نجح الشيخ معروف والشيخ محمود والأستاذ المبارك من الجولة الأولى، أما الشيخ أنيس فلم يحالفه الحظ، بل خسر المعركة لأصوات قليلة جداً، وقد اتهم الإخوان وغيرهم الحكومة بالانحياز لمرشحيها من أعضاء الكتلة الوطنية، والقيام بعمليات تزوير واسعة أضافوا فيها لأنصارها آلاف الأوراق المزورة، وعملوا على إفشال عدد من المرشحين، كان منهم القاضي الشيخ

(١) مجلة الفتح العدد (٨٤٥) حزيران ١٩٤٧ كما نقلها الدكتور عدنان زرزور في صفحة ٢٦٠ من كتابه مصطفى السباعي الطبعة الثانية ٢٠٠٣ نشر دار القلم.

أنيس الملـوحي، فاتهم الأستـاذ السباعي فـي مقال حاد الحـكومة في هذه الانتـخابات بقـلب الحقـائق، وتشويـه الواقع، وتخريـب الذمم، وتزوير إرادة الشعب، واللجوء إلى أساليب المستعمرين[1]. كما أشار إلى هذا التـزوير الدكتور سامي الـجندي حين قال: إن الجـيش تدخّل في هذه الانتـخابات ضـد الإخوان المسلـمين لمـصلحة نظـام الرئيس القوتلي[2].

٤- دخل نواب الحـركة الإسلاميـة الثلاثة المـجلس النيابي، فـأما الشيخ الدواليبي فظل على صلة وثيقة بالإخوان تعاوناً وتفاهماً، ولكنه لم يرتبـط معهم تـنظيميـاً، بل عمل مـع تكتلات برلمـانية انتـهت إلى تشكيل حزب الشعب الذي كان الدواليـبي من أركانه، وباسمه ودعمه ترأس البـرلمـان وشكل الوزارة، وشـغل عدداً من مـقاعـد الوزارات، وأما الشيخ مـحمود الشقفة فلم يـكن فاعلاً في حياته البـرلمانية، لأن الشيخ يغلـب على حياته التصـوف والتعبد والنشاط الـدعوي، كما أن بعض أقربائه حاولوا النأي به عن جماعة الإخوان، إذ كان مركز حماة يلح في دعـوته لزيارة المركـز واللقاء بالأعضـاء، فلم تكن الاسـتجابة على المسـتوى الذي يتطلع إليـه الإخوان في حماة، وقد سـمعت من أحد إخـوته بأذني: أن الإخـوان وحدهم لا يـضمنـون له النجاح مرة أخرى، وأما الأستاذ محمد المبارك فقد مثل الإخوان المسلمين الذين ساهم بإنـشائهم منذ مطـلع الثلاثينيـات خير تمـثيل، وعبّر عـن آمالهم

---

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور: ٢٦١ .

(٢) البعث للدكتور سامي الجندي: ٥٠ دار النهار للنشر ١٩٦٩ بيروت.

وأمانيهم وأهدافهم وبرامجهم تحت قبة البرلمان، ودلل بفكره ونشاطه وأعماله النيابية أنه من أفضل الذين دخلوا البرلمان أو المجلس النيابي مما ستأتي الإشارة إليه والتدليل عليه في فقرة لاحقة.

٥- تظهر البرقية التي أرسلها الشيخ السباعي إلى الإمام البنا مدى أهمية هذا الفوز للإخوان المسلمين: انتهت الانتخابات لدينا بفوز ثلاثة من مرشحي الإخوان المسلمين هم: معروف الدواليبي ومحمد المبارك ومحمود الشقفة، وعلى هذا يكون الإخوان المسلمون السوريون في الدول العربية قاطبة هم أول من يطرح الفكرة الإسلامية بصفة قانونية أمام برلمان منتخب انتخاباً شرعياً، ومما يجدر ذكره أن الشيخ السباعي لم يخض المعركة الانتخابية في انتخابات ١٩٤٧، بل وقف بجانب إخوانه يساعدهم ويعاضدهم ويؤيد حملاتهم الانتخابية حتى ضمن نجاحهم ودخولهم إلى مبنى البرلمان.

لم يطل العهد بهذا المجلس المنتخب، فسرعان ما عاجله انقلاب عسكري قاده حسني الزعيم قائد الجيش السوري، فأطاح به وبالحياة الدستورية بكاملها، وأدخل سورية ومن ثم معظم البلاد العربية في دوامة الانقلابات العسكرية، التي أوقفت تقدمها وعطلت مسيرتها، ودمرت قرابة نصف قرن من تاريخ بلادنا الحديث، وكان ذلك في ٣٠-٣-١٩٤٩ أي بعد انتخاب برلمان ١٩٤٧ بعشرين شهراً مما سيأتي ذكره لاحقاً.

٦- كان الأستاذ المبارك هو الممثل الحقيقي لجماعة الإخوان

المسلمين في المجلس النيابي السوري، وإذا كان المجلس النيابي يتشكل من كتل حزبية مثل الحزب الوطني وحزب الشعب وريثي الكتلة الوطنية، وكتلة العشائر، وكتلة المستقلين وبعض البعثيين والاشتراكيين، فإن الشيخ المبارك كان بمفرده يعادل كتلة برلمانية تضم عشرات النواب، كان تأثيره وهو الفرد يفوق تأثير بعض الكتل النيابية، بل كان يتقدم عليها بطروحاته وأفكاره ومواقفه ومعالجته للعديد من القضايا السياسية والخارجية والداخلية على كل الصعد الاجتماعية والاقتصادية والزراعية وأحوال الفلاحين والعمال، وشؤون المصانع، ومحاربة الترف والبذخ وتبديد المال العام، والدفاع عن الفقراء، والإصرار على تأمين حاجاتهم الأساسية، وفي مقدمتها خبز الفقير، وكان شديد الحماسة لإقرار قانون التجنيد الإجباري وتسليح الجيش، وإعادة النظر في العلاقات مع الدول التي تقف من قضايانا ولاسيما قضية فلسطين موقف العداء، بالإضافة إلى معالجته للقضايا أو الأمور الفكرية ذات الحساسية البالغة مثل قضية المرأة، والعروبة والإسلام التي أصدر فيها كتاباً هو: الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، وهو من أهم المراجع في بابه.

نجح المبارك في دخول البرلمان ثلاث مرات، أولها عام ١٩٤٧، وهو الذي يعنينا في هذه المرحلة من تاريخ الجماعة (١٩٤٥-١٩٤٩) لنسجل فيه أهم الإنجازات النيابية التي تسجل لشيخنا الجليل الأستاذ محمد المبارك تغمده الله برحمته وغفرانه.

أ- كان المبارك هو أول الإخوان المسلمين الذين عبروا عن

تصورهم للإصلاحات الاجتماعية، ففي ١-٦-١٩٤٧ فوض القوتلي جميل مردم بتشكيل حكومة جديدة، وعدت بإجراء إصلاحات واسعة في تطوير التربية والتعليم، وتنظيم الاقتصاد، وتنشيط الصناعات المحلية، والإصلاح في المجال الزراعي، وفي إصلاح جهاز الدولة، إلا أن تلك المخططات تعرضت لانتقاد شديد من قبل محمد المبارك، الذي حدد السياسة الاقتصادية في ثلاث نقاط:

ا- تحديد الثروة.

ب- والضرائب التصاعدية.

ج- وتوزيع الأراضي التي لا يستفاد منها من قبل ملاّكها.

إن هذه المطالب الثلاثة التي عرضها محمد المبارك على البرلمان عام ١٩٤٧ كانت بمثابة المطالب الأساسية لسياسة الإصلاح الاقتصادي التي كان الإخوان المسلمون يطالبون بها، وأعلنوا عنها لاحقاً[١].

ب- طالب المبارك في المناقشة البرلمانية في ٣-١-١٩٤٨ بتقسيم الأراضي الزراعية من أملاك الدولة المتروكة والتي يمكن استصلاحها[٢].

جـ- عقد الإخوان مؤتمرات في الدير وحلب أصدروا بعدها مذكرة تطرقت للزراعة وأوضاع العمال وعدم اتخاذ الحكومة أية إجراءات لمعالجة الفقر، وإن عدم اهتمام الدولة بأمور الفلاحين دليل

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس رايسنر، الطبعة الأولى، تموز ٢٠٠٥: ٢٢٥ .

(٢) المرجع السابق: ٣٠٣ .

واضح على أن روح الطبقية ما زالت تسيطر على الحاكمين.

هذه التوجهات حيال الفلاحين والعمال تمثلها المبارك في معظم نقاشاته وأنشطته البرلمانية في مجلس ١٩٤٧، ولاسيما تركيزه على تقسيم أملاك الدولة وتوزيعها على الفلاحين، ولو أن البرلمان والحكومات المتعاقبة أخذت باقتراحات المبارك في موضوع الأرض وتمليك الفلاحين، لوفرت على سورية صراعاً طبقياً وفوضى عارمة، وقانوناً للإصلاح طبق (في ظل الانقلابات العسكرية والسيطرة الدكتاتورية) بروح الحقد والانتقام، فعطل الازدهار الزراعي، وتراجع في ظله الإنتاج، فخيم الركود على الحياة الزراعية والصناعية بعد قوانين التأميم فيما بعد، وهربت الأموال وهاجرت الخبرات والعقول، وعاشت سورية ظروفاً قاسية امتدت لعدة عقود.

د- من المسائل الهامة جداً كانت قضية الخبز، إذ أوجدت حكومة خالد العظم في عام ١٩٤١ أثناء الحرب العالمية الثانية ما أطلق عليه خبز الفقير بدعم حكومي، ثم أشيع بأن الحكومة التي كانت تعاني من نقص في الخزينة تطالب بإلغاء خبز الفقير، فردت المنار بشدة أدت إلى تعطيلها لمدة شهرين، وأعقب ذلك هجوم في البرلمان من الأستاذ المبارك على البذخ والإسراف بمناسبة مناقشة الموازنة قال في ختامها: إن الدولة ليست بحاجة إلى حدائق ومتنزّهات وعربات فاخرة للوزراء[1].

---

(١) المرجع السابق: نقلاً عن المنار الصادر في ١٥-١١-١٩٤٨، ٢٢٥ .

هـ- ولما كانت القضية الفلسطينية في أخطر مراحلها، وكان التآمر الصهيوني والدولي عليها قد بلغ غايته، وكان التفريط بها من بعض الحكام في سورية وغيرها قد ألحق بالأمة هزيمة نكراء مشينة، تحرك الإخوان والمخلصون في الوطن تحركاً مجزياً، ورفعوا أصواتهم على كل الصّعد، مطالبين بالتعبئة والثأر، والأخذ بالأسباب التي تعيد للأمة عزتها وكرامتها، مما سيأتي مفصلاً في مكانه، وكان من الأصوات المدوية صوت الأستاذ محمد المبارك في المجلس النيابي الذي يمثل الجماعة وينطق باسمها، فقد طالب بالتجنيد الإجباري وتسليح الجيش، وإعادة النظر في العلاقات الاقتصادية وغيرها مع الدول التي تُظاهر العدو، وتقف معه وتمده بالمال والسلاح والرجال في حربه معنا، وعدوانه علينا[1]، واتهم المبارك الحكومة بأنها لا تعمل سوى خطابات ووعود[2]. وفي أثناء جلسة الثقة تكلم المبارك، وطالب بالتعبئة العامة، وبأن تكون المسائل الداخلية للدولة مرتبطة بالسياسة الفلسطينية[3].

كان المبارك أمة في رجل، وكان أفضل من مثّل الجماعة في الحياة النيابية وفي الوزارات الائتلافية، وكان قد فرض على الحياة السياسية عبر المشروعات والمقترحات والمواقف البرلمانية للجماعة مكانة كبيرة، كما كان نزيهاً لم يُعرف عنه أي استغلال أو مصلحة شخصية جناها لنفسه من المواقع التي شغلها طيلة حياته السياسية في

(١) المرجع السابق: ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق: ٢٧٩ .

(٣) المرجع السابق: ٣٠٨، نقلاً عن المنار الصادر في ٦-٩-١٩٤٨ .

المجلس النيابي وفي مقاعد الوزارات التي شغلها، رحمه الله رحمة واسعة، ورفع مقامه في عليين على ما قدمه للإسلام وللدعوة الإسلامية طيلة حياته المديدة المباركة.

خامساً: الإخوان والمشاركة في الحكم

أثار موضوع المشاركة في الحكم جدلاً أكثر مما أثاره موضوع المشاركة في الانتخابات والحياة النيابية، إذ يرى فريق من الدعاة عدم جواز المشاركة في حكومة أو وزارة تحكم بشريعة غير شريعة الإسلام، مستشهدين بآيات من القرآن الكريم: مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وقوله ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.

هذه النصوص تدل على عدم جواز المشاركة في نظر الذين لا يجيزون الدخول في الحكم أو الوزارة التي لا تلتزم بأحكام الشريعة الإسلامية.

غير أن فريقاً آخر يرى أن الأمر بحاجة إلى دراسة معمقة وشاملة تأخذ في الاعتبار كثيراً من التفصيلات والظروف وأنواع الحكومات

قرباً وبعداً عن الحكم الشرعي، ونوع العمل الذي يُسند إلى المسلم المشارك وغير ذلك، الأمر الذي استدعى تشكيل لجنة من العلماء المتخصصين والموثوقين والأمناء على دعوتهم من قبل القيادة العليا للجماعة، فقدمت اللجنة بعد فترة كافية دراسة ضافية في الموضوع تقع في أكثر من ثلاثين صفحة من القطع الكبير، جاء فيها:

١- استمر المسلمون يحكمون بشرع الله قروناً حتى كانت المؤامرة الدولية الكبرى على الإسلام بإسقاط الخلافة، وتمزيق شعوبها وإقامة كيانات إقليمية ودويلات قومية - عرقية - وتيارات وأحزاب معادية للإسلام، وعاملة على تقويض ما تبقى من دعائمه ومراكز القوة فيه، فقامت حركات إسلامية تعمل على استئناف حياة إسلامية جديدة، ثم قامت الحركة الإسلامية المعاصرة تدعو للعودة إلى الإسلام، وتحكيم شريعته، غير أن أعداء الإسلام في الداخل والخارج ألقوا بكل ثقلهم وكل جهودهم للحيلولة دون الرجوع إلى الإسلام بما ألفوا من أحزاب علمانية، وأنشؤوا من أنظمة عسكرية مستبدة، أدت إلى اضطهاد الحركة الإسلامية فترة طويلة من الزمن، ومنعها من النشاط، ومن المشاركة في الحياة السياسية.

٢- أمام هذا الواقع كان لابد للحركة الإسلامية من أن تعيد النظر في خطواتها، وأن تصوغ أهدافها السياسية ضمن برنامج زمني محدد، يأخذ في الاعتبار المتغيرات الكثيرة التي طرأت على ساحة العمل السياسي في العالم الإسلامي، كما تأخذ في الاعتبار الخيارات

الممكنة للوصول إلى الحكم الإسلامي في ظل الظروف الصعبة التي تحيط بالعمل الإسلامي في كل الأقطار العربية والإسلامية.

كانت الدعوة الإسلامية الأولى تضم كل المسلمين، في حين تضم الحركة الإسلامية المعاصرة بعض المسلمين، إن عملية إدخال المسلمين جميعاً أو أغلبهم ضمن الحركة الإسلامية أمر بعيد المنال، وبهذا الوضع أصبحت الجماعة أشبه بالأحزاب السياسية المعاصرة التي تصل إلى الحكم عن طريق الحياة النيابية أو عن طريق الانقلاب العسكري، أو عن طريق الثورة الشعبية، وليس أمام الحركة الإسلامية طريق متاح إلا طريق العمل السياسي الحزبي الذي يؤدي إلى المشاركة في الحكم مع الآخرين، وقد لاحظ أعداء الإسلام أن البلاد الإسلامية التي تحكم بالديمقراطية البرلمانية ينتعش فيها الإسلام، وتقوى الحركة الإسلامية، وتفرض وجودها على الساحة كمنافس قوي للأحزاب المناوئة، ومن هنا حرص الأعداء الدوليون أن يُحكم العالم الإسلامي بالحديد والنار، فقامت الانقلابات العسكرية في معظم بلدان العالم الإسلامي من جاكرتا إلى الجزائر، وفرضت على شعوبها حكماً جبرياً يخلو من الرحمة والشفقة، يحصي على الناس أنفاسهم، ويتحكم في أرزاقهم وفي كل تفاصيل حياتهم، فرأى فريق من العلماء والفقهاء المعاصرين جواز المشاركة في الحكم غير الإسلامي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتغيير ما يمكن تغييره، ودفع أكبر الشرين بارتكاب أخفهما.

٣- إن أكبر ضربة وجهت للإسلام كانت إقصاءه عن الدولة والحكم، فإذا استطاع المسلمون التغلب على هذه المصيبة الكبرى بإعادة الإسلام إلى الحكم والدولة، استطاعوا أن يحلوا كل مشكلاتهم، وأن يوجهوا سير التاريخ مرة أخرى وجهته الإسلامية الصحيحة، وأمام هذا الهدف الكبير لا يمكن الاحتجاج عليه بأمور جزئية تتعارض معه، لأنه في حالة تعارض الجزئي مع الكلي، يكون الترجيح لجانب الكلي، والأمثلة على ذلك في الفقه أكثر من أن تحصى.

إن مرانة الشريعة الإسلامية وواقعيتها لا يمكن أن تحول دون تحقيق الأهداف الكبيرة بسبب معارضات جزئية.

وإذا كانت المشاركة في الحكم غير جائزة في الأصل، إذا كان الحكم بعيداً عن الشريعة، بل يُحكم بشريعة أخرى، فإن المشاركة، استثناءً من الأصل، تجوز بالأدلة التالية:

أ- مشاركة يوسف عليه السلام في الوزارة:

لاشك أن المجتمع الذي عاش فيه يوسف عليه السلام كان مجتمعاً لم يعرف الإسلام، ولم يخضع لقيمه، وأن عقيدة الشرك كانت هي المسيطرة عليه ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ

وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

هذه عقيدة المجتمع من كلام سيدنا يوسف، مجتمع مشرك غير موحد، لا يعرف شيئاً عن الإسلام ولا عن التوحيد، وعندما تمنّع يوسف عن الفحشاء، زجّ به في السجن مظلوماً، وبقي عليه السلام في السجن بضع سنين حتى هيأ الله تعالى له فرصة الخروج، وأعجب الملك بحسن تأويله للرؤيا، وتحقق من نزاهته، ودعاه ليستخلصه لنفسه، وأخبره بأنه أصبح عنده مكيناً أميناً، ويرى يوسف عليه السلام الفرصة مواتية لتحمل المسؤولية في تلك المرحلة المقبلة التي لا يستطيعها غيره، فقال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(٢)، فيجاب إلى طلبه، ويقوم بأعباء الوزارة التي أسندت إليه، وبذلك يشارك يوسف عليه السلام في حكم ذلك المجتمع الذي لم يكن قائماً على أساس الإيمان، وأن يوسف عليه السلام لم يغير شيئاً من نظام الملك الذي كان قائماً، ويرى ابن تيمية أن هذا المجتمع الجاهلي الكافر لابد أن يكون لهم عادة وسنة (نظام) في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته، ولا تكون جارية على سنّة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، بل فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال

---

(١) سورة يوسف من قسم من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٠ .

(٢) سورة يوسف الآية ٥٥ .

بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يمكن أن يناله من دون ذلك، وهذا داخل في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وعلى هذا أيضاً يرجح ما ذهب إليه الطبري في معنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، وما رجحه الطبري هو الذي أخذ به الأستاذ سيد قطب في كتابه الظلال حيث قال: يتبوأ منها حيث يشاء، يتخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد في مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود، ويقول الآلوسي: رب آتيتني من الملك: أي بعضاً عظيماً منه.

وخلاصة الكلام في قضية يوسف عليه السلام:

أن يوسف شارك في الحكم في مجتمع مشرك.

وأن مشاركته كانت بطلب منه لما رأى في نفسه الأهلية الكاملة لعمل معين محدد ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فهو لم يطلب الملك الكامل، وإنما طلب وزارة الخزينة أو المالية، نظراً لما يرجوه من دفع شر القحط الذي سيرهق العباد لسنوات عدة.

وأنه لم يطبق في حكمه شريعة أبيه يعقوب، وجدّه إبراهيم، إلا فيما يتعلق بإبقاء أخيه.

وأنه كان للملك نظام وقانون معين بدلالة قوله ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ وأنه لابد للملك من أن يكون له نظام معين في

التصرف في الأموال، وأن يوسف لا يملك التدخل في ذلك.

وأن نظام الملك لم يكن قائماً على العدل، بدلالة أن يوسف أُلقي في السجن مظلوماً، وأن هذا المجتمع استمر على شركه بعد يوسف عليه السلام.

وبناء على ذلك كله يظهر لنا جواز المشاركة في الحكم غير الإسلامي من خلال عرض قضية يوسف إذا كان يترتب على ذلك مصلحة كبرى، أو دفع شر مستطير، ولو لم يكن بإمكان المشارك أن يغير في الأوضاع تغييراً جذرياً.

ب- موقف النجاشي

الاستدلال على جواز إشراك المسلمين في الحكومات غير الإسلامية بموقف النجاشي يقوم على أمرين:

الأول: أن النجاشي كان مسلماً.

الثاني: أنه كان يقوم على نظام يحكم بغير شرع الله.

ودليل إسلام النجاشي أحاديث كثيرة رواها أصحاب الصحاح والسنن والمجاميع والمسانيد، منها ما رواه البخاري من حديث جابر ابن عبد الله الأنصاري، قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: مات اليوم رجل صالح، وروى البخاري عن جابر أيضاً أن النبي ﷺ صلى على النجاشي، فصفّنا وراءه، فكنت في الصف الثاني أو الثالث. وفي رواية أخرى عند البخاري عن جابر أن النبي ﷺ صلى على

أصحمة النجاشي فكبر أربعاً، وفي رواية أخرى أخرجها البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، وقال: استغفروا لأخيكم، وثمة أحاديث أخرى صحيحة رواها البخاري تؤكد إسلام النجاشي، وتتحدث عن صلاة النبي وأصحابه عليه.

إن دلالة هذه الأحاديث على إسلام النجاشي ظاهرة واضحة، فالرسول ﷺ أخبر أصحابه بموته، ووصفه بالصلاح، وأمر أصحابه بالصلاة عليه، وأمّهم عليه الصلاة والسلام بالصلاة عليه، وقال لأصحابه: صلوا على أخيكم، أي أنه أخ لهم، وأمرهم كذلك بالاستغفار له، قال ابن حجر: أسلم النجاشي على عهد النبي ﷺ ولم يهاجر إليه، وكان ردءاً للمسلمين نافعاً.

وكان النجاشي كتب رسالة إلى الرسول ﷺ قال فيها: سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما قلت تُغروقاً. . .، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وهناك رسالة ثانية كتبها النجاشي إلى الرسول ﷺ يؤكد فيها إسلامه، ويقول فيها: وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق. والأمر الثاني: كونه لم يحكم بشريعة الله، فإنه ظاهر من الحال التي كانت سائدة في دياره، ومن

العقبات التي كانت تعترض طريقه.

وإذا كانت هذه حال المجتمع الذي كان يحكمه النجاشي، فلا يجوز أن يطالب بأكثر مما يطيق، فالكثرة الكاثرة بقيت على نصرانيتها، وقد ثاروا على النجاشي عندما علموا بإسلامه، ولكن الله ثبّت ملكه.

لقد استقرى العلماء والفقهاء الشريعة، فهداهم استقراؤهم إلى أن الشريعة وُضعت لمصالح العباد في المعاش والمعاد كما يقول الشاطبي، وقد صدرت عن العلماء في مختلف العصور كلمات مضيئة تعبر عن هذه الحقيقة. يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام: الشريعة مصالح كلها، إما أن تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، ويقول تلميذه ابن القيم: الشريعة مبناها في الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ومصالح كلها.

وقد سئل ابن تيمية عمن يتولى الولايات والإقطاعات للحكام الظلمة، وهو يجاهد في تخفيف الظلم عن المسلمين، ولكنه لا يتمكن من رفعه كله، فهل له أن يستمر في ولايته، وهل يكون آثماً في ذلك؟ علماً بأن تركه للولاية أو الإقطاع قد يتسبب في مجيء شخص يشتط في الظلم، فأجاب الشيخ رحمه الله تعالى قائلاً: الحمد لله، نعم، إذا كان مجتهداً في العدل ورفع الظلم بحسب

إمكانه، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره، واستيلاؤه على الإقطاع خير من استيلاء غيره كما قد ذكر، فإنه يجوز له البقاء على الولاية والإقطاع ولا إثم عليه في ذلك، بل بقاؤه على ذلك أفضل من تركه إذا لم يشتغل إذا تركه بما هو أفضل منه. وقد يكون واجباً إذا لم يقم به غيره قادراً عليه، فنشر العدل بحسب الإمكان، ورفع الظلم بحسب الإمكان فرض على الكفاية، يقوم به إنسان بما قدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره في ذلك مقامه، ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم. وقد ضرب الشيخ مثلاً للذين يعترضون على هذا الفهم فقال: والذي ينهى عن ذلك لئلا يقع ظلم قليل، فلو قبل الناس منه تضاعف الظلم والفساد عليهم، فهو بمنزلة من كانوا في طريق، وخرج عليهم قطاع الطريق، فإن لم يرضوهم ببعض المال، أخذوا منهم أموالهم وقتلوهم، فمن قال لتلك القافلة: لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئاً من الأموال التي معكم للناس (قطاع الطريق) فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذي ينهى عن دفعه، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير، وسُلبوا مع ذلك، فهذا مما لا يشير به عاقل، فضلاً عن أن تأتي به الشرائع، فإن الله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

وفي المشاركة بالقضاء في دول معاصرة لا تحكم بشرع الله في قوانينها ثلاثة آراء أو مواقف أو دوائر:

الأولى: دائرة القضايا التي استمد حكمها من الشريعة الإسلامية،

وهي قوانين الأحوال الشخصية، وجملة القوانين المدنية والتجارية وغيرها مما هو مستمد من الشريعة، أو مستمد من غيرها ولا يناقضها، ولا يوجد ما يمنعه من الشريعة الإسلامية، فهذه كلها يجوز تولي القضاء فيها، وإصدار الحكم بناءً على ما ورد فيها من الشريعة أو عدم مصادمتها لها.

الثانية: دائرة القضايا التي تتطلبها حياة العصر، كقوانين المرور والبلديات، والقوانين الإدارية وما إليها، فهذا كله جائز تولي القضاء فيه، بناء على دخوله في مصالح العباد وحاجاتهم الدنيوية.

الثالثة: دائرة القضايا التي استمدت من غير الشريعة الإسلامية وهي مخالفة لها، كالقوانين الجنائية، وما إليها، أو القوانين المصادمة لنصوص الشريعة مما يبيح محرماً، كالحكم بالفائدة الربوية، فهذه وأمثالها لا يجوز تولي القضاء فيها إذا كان القاضي ملزماً أن يصدر الحكم المناقض والمصادم لحكم الشريعة الإسلامية، فهذا من الحكم بغير ما أنزل الله، ويشمله منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وأرى أن الدوائر أو التفصيلات التي قدمتها هذه الدراسة الرصينة عن القضاء يمكن أن نقيس عليها المشاركة في الحكم فيما هو مباح، وما هو محظور، وأن خلاصة هذا، هي جوهر البحث وزبدته ختم بها الفقهاء الأمناء موضوع المشاركة في الحكم جاء فيها: خلاصة القول أن في المشاركة في الحكم الجاهلي مفاسد كثيرة، والأصل الذي تدل

عليه النصوص الصريحة هو عدم جواز مشاركة الحركة - الجماعة - في هذا النوع من الحكم، فإذا خالفنا هذا الأصل لبعض الاعتبارات، فلابد أن تسبق هذا دراسة مستفيضة من قبل أصحاب الرأي في الحركة وأصحاب الحل والعقد فيها، لتبين ما إذا كانت الاعتبارات التي تدعو إلى المشاركة في الحكم قوية بما فيه الكفاية أم لا.

وعلى الجماعة بعد المشاركة أن تقوّم الوضع بين فترة وأخرى كي تتبيّن مدى صدق الدراسة التي أدت إلى المشاركة، فبعد الدخول في المحك العملي قد يتبيّن لها أن المصالح التي ظنّت أنها ستحققها من خلال المشاركة موهومة غير حقيقية، وأنها أخطأت الطريق، ولم يحالفها الصواب، وعليها أن لاتتردد في الانسحاب من المشاركة إذا وجدت ميزان الخسارة أعظم من ميزان الربح، ويحسن بالجماعة قبل أن تقدم على المشاركة أن يكون واضحاً في عقول قيادتها المعايير التي دفعت بهم للمشاركة، كما يجب عليهم أن يبلوروا المعايير التي تدفعهم إلى مفارقة الحكم وحل المشاركة. كما يجب أن يكون رائد الجميع تحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين ومصلحة الحركة الإسلامية، لا مصالح بعض الأفراد الذين قد يُغلّفون أهواءهم الخاصة بغلاف المصلحة العامة.

هذا أهم ما ورد في هذا البحث الذي قدمته لجنة من علماء الشريعة وفقهاء الجماعة بتكليف من قيادتها في وقت كثر فيه الجدل في موضوع المشاركة في الحكم، رأيت من الواجب أن أضعه بين

يدي الدعاة والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، كي تتضح لهم ضوابط المشاركة، ومتى تكون واجبة أو مباحة، أو متى تكون ضارة أو محظورة، وما هي الأعمال التي لا يأثم فيها المشاركون إذا اقتنعوا بتحقيق مصلحة ملموسة، وما هي الأعمال التي لا يجوز بالضوابط الشرعية مزاولتها أو المشاركة فيها، لأنها محرمة لذاتها كالعمل بالمؤسسات الربوية أو الترويج لمواد أو بضائع لا يجوز تملكها أو التعامل بها. مع الحذر البالغ من الانزلاق أو الانحراف أو ركوب الموجات، والتنازل عن الثوابت والضوابط الشرعية، والانغماس في المكاسب الشخصية بدعاوى وهمية تسيطر فيها هواجس النفس والتعلق بحب الدنيا، والحرص على الثروة والجاه، لا يعدم المنحرف أو الضال أن يجد لها مسوغاً - وزين لهم الشيطان أعمالهم - وكم رأينا إخوة كانوا في الصفوف المتقدمة من العمل الدعوي، ثم رشحهم إخوانهم وقدموهم للمشاركة في عمل كبير أو استلام وزارة، فدخلوا ولم يخرجوا، وتخلوا عن جماعتهم، وغيروا دربهم وطريق سيرهم، وانتهى بهم المطاف إلى الابتعاد عن الجماعة التي تربوا في رحابها، وترعرعوا في أحضانها، أو اضطرت الجماعة إلى مفاصلتهم بعد أن أمسوا جزءاً من النظام الذي كلفتهم الجماعة في المشاركة معه لإصلاحه وتقليل آثامه، فإذا بالنظام يبتلعهم ويذيبهم في بوتقته.

٣- كانت الحركة الإسلامية التي تضم الإخوان المسلمين، وعدداً من جهابذة العلماء الذين وردت أسماؤهم وجاء ذكرهم في صفحات

سابقة، من أسبق الحركات والجماعات الإسلامية في الوطن العربي والعالم الإسلامي في الإحاطة بشؤون العصر ومتطلباته، وفي إدراكهم لفقه الواقع في مجالات السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، فقرروا المشاركة بالحكم لدرء ما يمكنهم درؤه من المفاسد، وجلب ما يمكنهم جلبه من المصالح، ثم انتشر هذا الفقه لدى الجماعات الإسلامية في أندونيسيا وشبه القارة الهندية وماليزيا وتركيا والدول العربية، اقتناعاً منهم أن البعد كلياً عن الحكم وتركه صيداً سهلاً في أيدي العلمانيين والملحدين والمناوئين للرسالة الإسلامية خطأ فادح، وتفريط لا تحمد عقباه، بل ربما كان ذنباً وإثماً لا يغتفر.

قررت الجماعة في سورية الاشتراك بالحكم، كما قررت وباشرت خوض الانتخابات النيابية من قبل لولا أن الفترة القصيرة التي أعقبت دخولهم البرلمان لم تسعفهم، إذ الدول الكبرى التي كانت تراقب باهتمام كبير صعود الإخوان السوريين، وتقدمهم السريع بعد الاستقلال في الحقلين السياسي والاقتصادي، قررت تعطيل هذه المسيرة، وتحطيم تلك النهضة، فرسمت خططاً، وحاكت مؤامرات كلفت أجهزة مخابراتها بتنفيذها، فلجأت إلى تحريض الجيش على هدم الحياة الدستورية عبر ضباط طموحين لم يكن ولاؤهم لوطنهم خالصاً، إذ كانوا من جيش الانتداب الفرنسي لأكثر من عشرين عاماً، ثم اضطرت الحكومة الوطنية لتسليمهم قيادة الجيش الناشئ، فتعاونوا وتآمروا مع المخابرات الأمريكية - كما كشفت ذلك الدراسات اللاحقة - وقام حسني الزعيم قائد الجيش بانقلابه العسكري، وسجن

رئيس الجمهورية والحكومة الشرعية، وحل البرلمان الذي لم يمض على انتخابه واحد وعشرون شهراً، وباشر حكماً عسكرياً استبدادياً سوف تأتي تفصيلاته في بدء المرحلة الثانية من هذه الذكريات والمذكرات عن الإخوان المسلمين في سورية، فلم يتح لجماعة الإخوان أن تشارك في الحكم إلا في نهاية ١٩٤٩، بعد سقوط عهد الزعيم الذي لم يدم إلا أربعة أشهر، أعقبه انتخابات برلمانية لجمعية تأسيسية مهمتها وضع دستور جديد لسورية، فنجح فيها الإخوان نجاحاً باهراً، وفازوا بعشرة نواب من قادتهم، وشكلوا مع حلفائهم كتلة برلمانية كان لها تأثير كبير على مجرى الأحداث داخلياً وخارجياً على سورية في تاريخها الحديث، لكن الانقلابات توالت، والضغوط الدولية على سورية ازدادت، ودخلت سورية في دوامة من الأحداث المؤلمة ما تزال تعاني منها حتى يومنا هذا.

سادساً: الإخوان والإصلاح الاجتماعي

كانت التربية والتوجيه والتكوين والتنشئة الإيمانية والأخلاقية هي المرتكز الأساسي في مناهج جماعة الإخوان في سورية، يليها العمل السياسي في المشاركة البرلمانية والوزارات الائتلافية، والتصدي لأخطاء الساسة والوزراء والمسؤولين، وانتقادها وتصويبها عن طريق صحافتهم، وعبر ممثليهم في البرلمان، ومراجعة كبار رجال الدولة بدءاً من رئيس الجمهورية في كل العهود، غير أن الجماعة لم تهمل الجانب الاجتماعي في كل ساحاته ومجالاته، كالدفاع عن الفقراء

والعمل على إسعافهم، والاهتمام بأبناء الريف من الفلاحين والمزارعين، ومداواة المواطنين الفقراء في القرى والأحياء عن طريق لجان طبية متنقلة تقدم العلاج المجاني، وأحياناً الدواء بدون مقابل للمرضى من الفقراء، ولاسيما من أبناء القرى والعمال والأحياء الفقيرة.

١- لقد انحاز الشيخ السباعي في جميع مراحل حياته إلى الضعفاء والفقراء والمساكين، حتى إن في وسعنا أن نقول في وصفه: إنه كان رجل العدالة الاجتماعية الأول في سورية، كما وجّه الإخوان عنايتهم للقرية، وعملوا على رفع مستوى الفلاحين، وطالبوا بإنصاف الفلاح، ورفع مستواه، وتحقيق العدالة الاجتماعية[١]، ونظموا كذلك في عدد من المدن أياماً في السنة باسم الفقير، ألّفوا له لجاناً، طافت على الأسواق والأحياء لجمع التبرعات للفقراء في بدء مواسم الشتاء[٢].

٢- لقد تبنى الشيخ السباعي وإخوانه حركة العمال، وحملوا عبء الدفاع عن حقوقهم، وطالبوا برفع مستواهم المادي والاجتماعي والأخلاقي، وتبنوا مطالبهم في المجلس النيابي، والنص على حقوق العمال في الدستور السوري - في وقت لاحق - كما أنشأت الجماعة مدارس مسائية للعمال الذين فاتهم قطار التعليم، مما سيأتي تفصيلاً تحت عنوان آخر خاص بالحقل التعليمي والثقافي، كما طالبت الجماعة الحكومات بإيصال الكهرباء إلى جميع القرى النائية، وتوفير

---

(١) مجلة حضارة الإسلام - العدد الخاص بالسباعي: ١٥٧ .

(٢) المرجع السابق: ١٥٨ .

المياه والمدارس والخدمات الصحية لها[1].

٣- وفي ٣، ٤ حزيران من عام ١٩٤٨، عقد الإخوان مؤتمراً في محافظتي حلب ودير الزور ذكروا فيه أن الدولة أهملت الشأن الزراعي إهمالاً تستحق معه العقاب، وأنها تفتقر إلى الخبراء الزراعيين والمهندسين الذين يمتلكون الخبرة الكافية، ثم رفعوا مذكرة إلى الحكومة تعرضت لأوضاع الفلاحين الذين لا يتوجه إليهم السياسيون بالوعود إلا أثناء الانتخابات (دون تنفيذ) والفلاحون مثقلون بالقروض، ويتعرضون للاستغلال من قبل كبار الملاكين وبمساعدة من رجال الأمن، وإن عدم اهتمام الدولة بأمور الفلاحين دليل واضح على أن روح الطبقية ما زالت تسيطر على الحاكمين[2]، ثم اتسمت معارضة الإخوان المسلمين للضرائب وأسعار الخبز بشدة أكثر، إذ ابتدأ محمد المبارك بالتعرض لهذه المسألة بشكل عام اعتباراً من جلسة طرح الثقة بحكومة خالد العظم في ١١-١-١٩٤٩ اقترح في البرلمان ما يلي:

أ- تخفيض أسعار الخبز إلى ٣٥ قرشاً للنوع العادي، و٥٥ للنوع الجيد.

ب- تخفيض الضرائب غير المباشرة على السلع الغذائية كالسكر وغيره.

---

(١) المرجع السابق: ١٥٦ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس رايسنر: ٣٠٢ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

ج- تعديل الضرائب بحيث تُحوّل الضرائب المباشرة من الفقراء إلى الأغنياء، والضرائب غير المباشرة من المواد الأساسية إلى المواد الكمالية.

د- مراقبة أسعار المواد الأساسية ومعاقبة المخالفين بشدة.

هـ- وضع خطط للإنتاج، وتشجيع المنتوجات الزراعية، وتوظيف العاطلين عن العمل، وقد كانت تلك المطالب محقة، خصوصاً في ما يتعلق بأسعار الخبز والضرائب[1].

وفي شهر كانون الأول عام ١٩٤٨ خرجت مظاهرات تطالب بتخفيض أسعار الخبز، وتأمين المحروقات والكهرباء، وسارت باتجاه البرلمان، فخطب فيها بعض النواب، ومنهم الأستاذ محمد المبارك فقال: إننا لن ننتصر على أعدائنا مالم يكن لدينا سياسة ديمقراطية حقة، وطالب بحرية الكلام والصحافة والمحافظة على الدستور والقانون[2].

٤- ضاعف الشيخ السباعي وإخوانه من اهتمامهم بالريف، وطالبوا برفع مستواه، وطافوا الكثير من القرى، وعاشوا مع الفلاحين، وعرفوا مشاكلهم، وطالبوا بإنصافهم وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطهم، وقد رفعوا أصواتهم بذلك في المجلس

---

(١) المرجع السابق: ٣١٤ .

(٢) المرجع السابق: ٣٠٩ .

النيابي، وبادروا إلى تأليف لجان من الإخوان فيها أطباء وعلماء وموجهون يقومون برحلات أسبوعية إلى القرى، يزورون فيها الفلاحين، ويقدمون لهم الخدمات الصحية والتعليمية[1]، ومن ذلك توفير الثياب للفقراء، ولاسيما الأيتام، وكان للإخوان مستشفى خاص بهم في دمشق، وفي حلب قدموا خدمات طبية مجانية، وكان لهم دور إيجابي في مكافحة الكوليرا في شتاء ١٩٤٧، إذ وضعوا مراكزهم تحت تصرف وزارة الصحة من أجل التلقيح الوقائي، وجندوا أطباءهم وطلاب الطب والفتوة للقيام بهذا العمل، ودعت صحفهم الشعب للعلاج، وكلفوا خطباءهم بدعوة الشعب لأخذ التلقيح الوقائي، بالإضافة إلى لجان التعاون التي تساعد الفقراء بالأموال التي تتلقاها من التبرعات[2].

٥- وبالرغم من هذه الجهود الكبيرة التي بذلتها الجماعة على صعيد الإصلاح الاجتماعي، ولاسيما في أوساط العمال والفلاحين، فإن الجماعة لم تستطع صد التيار اليساري الذي تغلغل في الريف وفي صفوف العمال، حيث طرح الشيوعيون والاشتراكيون شعارات مستمدة من النظرية الماركسية التي تدعو إلى الصراع الطبقي، وتلح عليه، مثل: الأرض لمن يحرثها، والأنعام لمن يرعاها، والمصانع ينبغي تأميمها، وانتزاعها من أيدي مالكيها، وغير ذلك من المبادئ

---

(١) مجلة حضارة الإسلام - العدد الخاص بالسباعي: ١٥٧ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية لمؤلفه يوهانس رايسنر: ١٣٩ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

التي تـزرع الحقد، وتـشعل نار الـصراع بين فـئات المـجتمـع، وتبث الفوضى، مـما تأباه الشريعـة الإسلامية وترفـضه لما ينطوي عـليه من الإثم والظلم.

لقد أغرى الماركسيون ومن سار في ركـابهم طبقة العمال الثوريين - البروليتاريـا - في الانقضاض على الرأسماليين مـن ملاك المصانع، والعمل على تأميمها تمهـيداً لاستلام العمال الحكم، وهو الأمل الذي عاش عليه العمال دون أن يبلغوه، لأن جمـيع دول المنظومة الشيوعية لم تسلّم العمـال الحكم وإدارة شـؤونه طوال حكمـها، بدعـوى عدم تأهل الـطبقة الـعاملة لاسـتلام السلطـة، وعدم ظهور حـكومة العـمال الثورية، أو ديكتاتـورية البروليتاريا، وظل الحزب يستـأثر بالحكم منذ وصول الـشيوعـيين إلـى الحكم، وحـتى انهيـار الدول الشـيوعيـة في الاتحاد السوفيـاتي، وباقي دول المنظومة الشيوعيـة في أوربا الشرقية، كما تنهار كرات الثلج تحت أشعة الشمس الساطعة.

٦- أما في الـريف، فالأمر مـختلف، حـيث حافظ الإخـوان على حضورهم وقوتهم في المحافظات التي تنتشر فيها الملكيات الصغيرة، كمحافظة إدلب وريف دمشق الذي نجح فيه مرشح الإخوان المسلمين في سورية بالمـقعد النيابي الأستـاذ سعيد العبار رحمـه الله عن الريف الدمشـقي في مطلع الستـينيات من القـرن الماضي، وأما المـحافظات التي تنتشر فيـها الملكيات الكبيرة مثل محافظـتي حماة والجزيرة، فإن التيـارات اليسارية والاشـتراكية انتـشرت فيهـا انتشاراً واسعـاً، وتقلص

عنها المد الإخواني، وأمّا النقابات الحرفية في المدن، فإن الإخوان كان لهم رجحان على اليسار في دمشق وحلب وسائر المدن السورية، كما كان يظهر ذلك جلياً في الانتخابات النقابية والنيابية في مناسبات عدة، وقد ذكر بعض المراقبين الغربيين أن الإخوان حاولوا بسط نفوذهم على نقابات العمال والحرفيين، فكان ٧٠٪ من نقابات الغزل والنسيج في دمشق من الإخوان، وفي حمص كان رئيس نقابة عمال النسيج الآلي ونادي الفروسية من الإخوان، وكان في الوقت نفسه عضواً في الجماعة[١].

سابعاً: الإخوان والحياة التعليمية والثقافية

١- تحرك المبشرون الكاثوليك - من الفرنسيين في أوائل القرن التاسع عشر باتجاه بلاد الشام لبناء نظام تعليمي في سورية ولبنان، كما تحرك البروتستانت- الأمريكان في هذا الاتجاه، وأولوا اللغة العربية اهتمامهم كمدخل مرغوب فيه بالنسبة للمواطنين، وقام إبراهيم باشا ١٨٣١-١٩٤٠ بدعم نشاط المبشرين[٢]، ويعتبر تأسيس الكلية السورية البروتستانية - الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٦- والكلية اليسوعية في عام ١٨٧٥- جامعة القديس يوسف - ذروة نشاط المبشرين الأمريكيين واليسوعيين، وبالرغم من جهود العثمانيين منذ عهد السلطان محمود الثاني، وجهود السوريين، ولاسيما أبناء دمشق في إنشاء جهاز

(١) المرجع السابق: ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق: ٧٩ .

مدرسي، فإن النشاط التعليمي التبشيري ظل راجحاً[1].

٢- وعندما قامت الحرب العالمية الأولى، دخلت الحكومة العثمانية الحرب ضد الحلفاء، فاضطرت الدول الغربية إلى إغلاق المدارس التي كانت تشرف عليها، وقد تضررت المدارس الفرنسية خاصة من هذا القرار، إذ كان عدد الطلاب في المدارس الخاصة بها خمسين ألف -٥٠٠٠٠- من مجموع تسعين ألف -٩٠٠٠٠- تلميذ وتلميذة، ينتسبون إلى المدارس الابتدائية والمتوسطة في سورية ولبنان[2].

٣- في ظل الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، قامت فرنسا بتوجيه التدريس وجهة فرنسية خالصة، فجعلت اللغة الفرنسية مادة إجبارية في كل مراحل التعليم، وتم توحيد المواد التدريسية لجميع المدارس الحكومية حسب المناهج الفرنسية، وقامت دولة الانتداب - فرنسا - بالإشراف على جميع الامتحانات الرسمية وبتشجيع المدارس الخاصة، ودعمتها بقوة، ولم يأت عام ١٩٤٤ إلا وكانت المدارس الخاصة غير المسلمة ٢١٠ مدارس مقابل ٧٧ مدرسة خاصة مسلمة[3]، أما الدراسات الجامعية في سورية، فإن حكومة الانتداب لم تشجعها، ولم تساهم بأي مجهود فيها، لأن فرنسا كانت ترغب من وراء ذلك أن يتوجه الطلاب الجامعيون إلى باريس والمدن

---

(١) المرجع السابق: ٨٠ .

(٢) المرجع السابق: ٨٢ .

(٣) المرجع السابق: ٨٣ .

الفرنسية الأخرى لتلقي التحصيل في جامعاتها، وحمل شهاداتها، ثم العودة إلى سورية بتوجهات ثقافية فرنسية، فبقيت الجامعة السورية مقتصرة على كليتي الطب والحقوق اللتين تأسستا في عهد الدولة العثمانية، إذ نشأت كلية الطب عام ١٩٠١، ونشأت كلية الحقوق عام ١٩١٢[١].

استمر الحال على هذه الشاكلة لفترة أخرى طويلة، وكان من جراء هذه السياسة التعليمية الفرنسية في دعم المؤسسات المدرسية التبشيرية تفوق كبير للمسيحيين في انتشار المدارس الخاصة. فبينما كان عدد مدارس المسلمين في عام ٤٧ - ١٩٤٨ (٦٥) مدرسة إعدادية، كان عدد المدارس الكاثوليكية (١٠٠) مدرسة، وعدد مدارس الأرثوذوكس (١٠٧) مدارس، وكان للبروتستانت (٢٢) مدرسة، وبينما كان للمسلمين (١٣) مدرسة ثانوية، كان للنصارى (١٢) مدرسة ثانوية، و(٣٨) مدرسة إعدادية أجنبية، و(٥) مدارس ثانوية أجنبية[٢].

من الوجهة الثقافية فإن التطور التعليمي والثقافي في ظل سلطات الانتداب الفرنسي كان يرمي إلى الأخذ بالمُثُل والتصورات الغربية لبناء هيكل ثقافي حديث مع المحافظة على التميز الحضاري الغربي في آن واحد، ولقد كان للإسلام دور ضئيل في ذلك التطور، إذ لم توجد

---

(١) المرجع السابق: ٨٦ .

(٢) المرجع السابق: ٧٧ - ٨٨ .

سوى فئات قليلة تنادي بضرورة مشاركة الإسلام من أجل تربية صحيحة(١).

٤ - واجه العلماء والدعاة والجمعيات الإسلامية التي تشكلت منها جماعة الإخوان المسلمين فيما بعد عام ١٩٤٥ هذا الزحف التبشيري تحت مظلة التعليم والتطبيب على سورية ولبنان بخوف شديد وقلق مزعج، وتنادوا لمواجهته والوقوف أمام سيله العرم، فأنشؤوا عدداً من المدارس والمعاهد الدينية في المدن السورية واللبنانية الكبيرة، وظهرت المدارس الشرعية في حلب - الخسروية - وفي دمشق - مدارس الجمعية الغراء - وسواها، وفي حماة وحمص وغيرها.

في هذه الفترة تأسست جماعة الإخوان المسلمين في سورية وظهرت مكتملة عام ١٩٤٥، فراعها ما رأته ولمسته من انتشار المدارس الأجنبية والتبشيرية، ومن إقبال أبناء المسلمين عليها والالتحاق بها، وعزوفهم عن المدارس الأهلية والحكومية، ولاسيما أبناء الفئة الثرية، لما كانت عليه تلك المدارس الأجنبية والتبشيرية من تقدم ورقي في الوسائل والأساليب والأنشطة التربوية الأخرى، فأولت الجماعة هذا المرفق الكبير اهتمامها، وقررت مواجهته بما يكافئه من مدارس ومعاهد متطورة ومتقدمة يستغني بها أبناء المسلمين من المواطنين عن المدارس الأجنبية، وسرعان ما قرروا تأسيس المعهد

(١) المرجع السابق: ٦٩ .

العربي في دمشق بعيد العدوان الفرنسي على دمشق وعلى المدن السورية الأخرى في شهر مايس - مايو١٩٤٥، وفي أثناء الأشهر الأولى من ميلاد جماعة الإخوان المسلمين في سورية، ثم انضم إلى المعهد العربي فيما بعد مدرسة التمدن الإسلامي بناءً على اتفاق بين القائمين على المعهد وعلى مدرسة التمدن، فحمل المعهد الجديد اسم: المعهد العربي الإسلامي، وكان له بعد ذلك نظراء وفروع مماثلة في كل من درعا وحمص وإدلب وحلب وغيرها، تشمل الدراسة فيها مراحل التعليم كافة(١).

هكذا ظهرت المعاهد العتيدة التي أقنعت المواطنين بإرسال أبنائهم وبناتهم إليها، والانصراف إلى حد بعيد عن المدارس الأجنبية والتبشيرية، وصادف أن المراقب العام للجماعة قد قرر الانتقال إلى دمشق ليقود الجماعة من العاصمة، فكان أن أسندت إليه إدارة المعهد العربي الإسلامي ليغطي بذلك نفقات إقامته في دمشق، وليكون غطاء ومركزاً ومنطلقاً للاتصال بالمواطنين كإحدى ساحات العمل في عاصمة الأمويين، واستعان الشيخ السباعي بعدد من كبار المربين في النهوض التربوي في المعهد الذي انتشر صيته، واحتل مكانة مرموقة في أوساط المواطنين، فأقبلت جموع الطلاب على الالتحاق به والتنافس في الانتساب إليه، وبذلك استطاعت الجماعة أن تحقق واحداً من أهدافها الكبرى وآمالها العظيمة في الحقل التربوي للحد

---

(١) مجلة حضارة الإسلام - العدد الخاص بالسباعي: ١٢٨ و١٥٧ .

من جموح الموجة التبشيرية، وانتشار المدارس الخاصة الأجنبية، وتحرير التعليم من آثار الاستعمار وتوجيهه، بحيث يكون الهدف منه إنشاء جيل مؤمن قوي منتج يبني مجد أمته على أساس من الإيمان والعلم النافع، والأخلاق النبيلة وسرعان ما تأسس المعهد العربي الإسلامي في حمص بإدارة عبد المجيد الطرابلسي، وثانوية الصديق في حماة، بإدارة الأستاذ مصطفى الصيرفي نائب المراقب العام - كان الأستاذ عصام العطار مراقباً للجماعة - وثانوية الغزالي في حلب بإدارة الأستاذ عادل كنعان أحد أبرز قياديي الإخوان المسلمين في عاصمة الشمال، كما تأسست مدارس أخرى مماثلة في اللاذقية وإدلب ودرعا وغيرها كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل.

٥- بيد أن المعضلة التي واجهت الجماعة هي أن هذه المعاهد لابد من تسجيل ترخيصها باسم مديرها من أعضاء الجماعة، وبعد أن وقع الانقلاب العسكري الأول في سورية عام ١٩٤٩ الذي حل الأحزاب وضمنها جماعة الإخوان المسلمين، صار كل مدير معهد أمير نفسه، يتصرف بالمعهد حسبما يملي عليه وجدانه وضميره، ومن هنا تحركت نوازع النفس وأطماعها لدى البعض، فسولت له نفسه أن يسطو على المعهد المسجل باسمه طالما أن الجماعة بعد حلها لم تعد موجودة.

وكان المثل السيء لهذا الطمع والانحراف ما أقدم عليه مدير المعهد في حمص عبد المجيد الطرابلسي حين استعصى بهذه المؤسسة، واعتبرها من أملاكه الخاصة، والعجيب أن هذا الإنسان

كان في نشأته الأولى يعد من المقربين من الشيخ السباعي، وكأنه أحد أبنائه، لكن الشيطان زين له سوء عمله، ثم اتسعت زاوية انحرافه، فانتسب إلى الحزب الناصري، وعندما جاء حزب البعث بالقوة العسكرية إلى الحكم، التحق الطرابلسي بحزب البعث الذي تسيطر عليه الأقلية النصيرية، وأضحى من رجال الحكم فيها، فأسند له رأس النظام الطائفي حافظ أسد منصب وزير الأوقاف، واستمر فيه حتى وفاته، فنعاه رجال الحكم، ورثاه على قبره أعضاء الجبهة (الوطنية التقدمية) التي يغلب عليها الانتماءات الطائفية حين دفنه، وعندما كنت أشاهد هذا الحدث المذاع على شاشة التلفزيون، شعرت بالخوف يسكن أعماقي من سوء المصير، ولم يسعني إلا أن أردد دعاء سيدنا رسول الله ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك».

هكذا استطاعت جماعة الإخوان المسلمين بالتعاون مع جمعيات العلماء وكبار الشخصيات الإسلامية المرموقة، على سبيل المثال لا الحصر، من أمثال الشيخ حسن حبنكه في دمشق، والشيخ عبد العزيز عيون السود في حمص، والشيخ محمد الحامد في حماة، والشيخ محمد النبهاني في حلب، والشيخ حسين رمضان في دير الزور، والشيخ عبد الستار عيروط في اللاذقية أن تقف في وجه المد التبشيري، وأن توقف انتشاره، بعد استفحال خطره في ظل الانتداب الفرنسي، فتضاءل أثره بعد الجلاء عن سورية، واندحار فرنسا في معركتها أمام أبناء سورية المجاهدين.

٦- غير أن العمل التعليمي الكبير، الذي اضطلعت به جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وسبقت في ميدانه الآخرين، هو إنشاء مدارس ليلية في جميع المدن السورية الكبيرة، حيث أتاحت للألوف ممن لم تسعفهم ظروفهم في الالتحاق بالمدارس النهارية، (ففاتهم قطار التعليم، من العمال والحرفيين والموظفين الصغار)، أن يلتحقوا بالمئات ثم بالآلاف بمدارس الإخوان الليلية، وأقبلوا عليها إقبال المشرف على الغرق على سفينة تقترب منه، فتخرج في هذه المدارس حملة الشهادات الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ثم تابع قسم من هؤلاء دراساتهم الجامعية، بل إن فريقاً منهم التحق بالدراسات العليا، وحملوا شهادات الدكتوراه في مختلف التخصصات، وتسلموا مناصب التدريس في المعاهد والكليات الجامعية.

لقد قدر بعض الباحثين عدد الطلاب المسائيين من العمال الذين التحقوا بمدارس الإخوان المسلمين في سورية بخمسة آلاف، تلقوا تعليمهم بالمجان، أو بأقساط رمزية لتخفف بعض الأعباء عن مراكز الجماعة التي اضطلعت بهذا الواجب ضمن أنشطتها الكثيرة، من دعوية وسياسية واجتماعية وثقافية وغيرها في مسيرتها المباركة حتى امتدت إليها يد الظلم من القوى الغاشمة التي أرادت بالإسلام وأهله شراً، ولكن الله من ورائهم محيط.

ثامناً: موقف الإخوان المسلمين من الأحلاف الأجنبية

١- استطاعت سورية أن تنتزع استقلالها الكامل بتضحيات أبنائها

ودماء شـهدائها، وبظـروف دولية مواتيـة، فكانت أول قطر في الـعالم الثالث ينال استقلاله وحريته كاملين بعـيد الحرب العالمية الثانية. غير أن الدول الكبرى الـمنتصرة لم تدع سـورية تنعم بالراحة والاسـتقرار، ولو لفترة قـصيرة، إذ بدأ التنافس شـديداً بين أمريكا وإنكلتـرا وفرنسا على مد نفـوذها في سورية ولبنان، ثـم اقتصر الصراع بـعد ذلك على الأمريكان والإنجليـز، تود كل واحدة منهما أن يكون لـها موضع قدم في هذا الـقطر العربـي السوري الناشـئ. لقد شهـدت هذه الفتـرة من الأربعينيات التي أعقبت الاستقلال مشروعين مدعومين من الإنكليز:

أولهـما: مـشروع سـوريـة الكبـرى الذي يـشمـل سـورية ولبـنان وفلسطين والأردن، الذي رعـاه الملك عبد الله، ودعا إلى إقـامته في ظل التاج الهاشمي(١).

ثانيهـما: مشـروع الاتحاد مع العـراق، وهو المشـروع الذي أثار جدلاً مستفيضاً بين الأحزاب السورية والشخصيات السياسية والصحافة على مختلف اتجاهاتها، فقـد تحمس له عدد من الصحف مثل جريدة القبس (ذات الشهـرة الواسعة) التي أطلقت دعوتهـا عام ١٩٤٨ قائلة: لقد آن أوان اتحاد عسكري بين الدول الـعربية، وإذا كنا لا نستطيع أن نطلب هذا الاتحاد الـعسكري والخارجي بين الدول العربيـة كلها، فلا أقل من أن نطلقه بين الـعراق وسورية على الأقل(٢). وقد كانت خطة

---

(١) تطـور الـصحافـة السورية في مـائة عام ١٨٦٥ - ١٩٦٥ لمؤلـفه جوزيف الـياس جـ٢: ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق: ص١٦٢ .

نوري السعيد تطبق على مرحلتين، لتوحيد الهلال الخصيب، تبدأ الأولى بضم سورية ولبنان والأردن وفلسطين في مشروع سورية الكبرى، ويتبع ذلك في المرحلة الثانية ضم سورية الكبرى إلى العراق بشكل اتحاد عربي يمكن أن تنضم إليه فيما بعد بقية الدول العربية. ويعلق باتريك سيل على ذلك: إن الانقلابات في سورية عام ١٩٤٩ وما بعدها كانت مرتبطة مع تلك المحاولات من أجل الوحدة. لكن هذين المشروعين المدعومين من الإنكليز لقيا معارضة شديدة من الوطنيين السوريين، لأنهما يخضعان للنفوذ البريطاني.

٢- بادر الملك عبد الله في آب ١٩٤٧ إلى دعوة جميع[١] الأقاليم السورية لعمان لمناقشة مخططات الوحدة، فجاء الرد من رئيسي وزراء سورية ولبنان بعدم الاستجابة للدعوة، وبرفضهما للمشروع، كما جاء الرفض من المملكة العربية السعودية، ومن مصر، وكذلك من الهيئة العربية العليا ممثلة بمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، كما تحرك النواب السوريون، وكذا الجمعيات في سورية إلى الحكومة السورية مؤيدة لها في رفض مشروع سورية الكبرى، لأن الأردن - كما قالوا - لم ينل حريته حقاً - كاملة - بسبب المعاهدة البريطانية الأردنية، ولذا فإن هذه الوحدة في الحقيقة، إخلال بالاستقلال الذي توصلت إليه سورية منذ فترة قصيرة[٢].

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس: ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق: ٢٤٥ .

٣- وقف الإخوان المسلمون في وجه هذين المشروعين موقفاً صلباً، وقاوموا مشروع الهلال الخصيب ومشروع سورية الكبرى لوجود السيطرة البريطانية على العراق والأردن، وخالفوا الحزبين الكبيرين - الوطني والشعب - في البرلمان السوري، وكذا الحزب القومي السوري، التي كانت تدعو إلى الاتحاد مع العراق، وأيدوا الهيئة العربية العليا برئاسة أمين الحسيني، وتقاطع موقفهم مع موقف الحركات والأحزاب اليسارية في الحفاظ على النظام الجمهوري، ومقاومة الأحلاف والمشروعات التي تصب في مصالح الدول الكبرى الطامعة. وهذا التلاقي مع أحزاب يسارية من سمات الإخوان ومراقبهم العام الشيخ السباعي الذين كانوا مع المواقف الوطنية التي يعتقدون بصوابها وصحتها، ولو كانت صادرة أو مؤيدة من أحزاب داخلة في صراعات أيديولوجية وسياسية مع الإخوان المسلمين.

لقد عبر الإخوان في سياستهم هذه عن توجهات معظم السوريين الذين واجهوا الأحلاف وقاوموها، وكان على رأسهم وفي مقدمتهم الرئيس شكري القوتلي. كما قرروا أن يسجلوا موقفهم تجاه هذا الموضوع السياسي الخطير، ويقدموا دراسة تفصيلية شافية تعبر عن أفكارهم وسياساتهم الخارجية والعربية والدولية في مذكرة ذات شأن كبير وقعوها في ٥ أيلول عام ١٩٤٧ إلى رئيس الجمهورية في دمشق، وإلى الملك عبد الله في عمان، ولأهمية هذه المذكرة التي تعكس صورة دقيقة وصادقة عن فكر جماعة الإخوان المسلمين، وعن

مواقفهم المبدئية، وعن تحملهم المسؤولية مهما كان الثمن وكانت التضحيات، نورد نصها الكامل كما سجلتها جريدة المنار ٦-٩-١٩٤٧، ونقلتها عنها وسائل الإعلام.

«في هذه الأيام إذ عاد الحديث عن مشروع سورية الكبرى، وإعلان دعاة هذا المشروع بأنهم مصممون على تحقيقه، يرى الإخوان المسلمون أن من واجبهم أن يضعوا أمامكم هذه المذكرة، ليبينوا وجهة نظرهم لصدٍّ كارثة كبيرة عن الوطن السوري يمكن أن تحل به في تاريخه الحديث. **إن دعاة مشروع سورية الكبرى يستخدمون في دعاياتهم حججاً تاريخية وقومية وسياسية يلبسونها ثوب الحقيقة، ولكنهم يخفون التزوير والتحوير الذي لا يلبث أن يظهر للناقدين المتنورين»**.

١- وهكذا فإن الادعاء بأن المطالبة بسورية الكبرى سيحقق ما يسعى إليه السوريون منذ الحرب العالمية الأولى، وقد اتفق فيه جميع العاملين في الحقل السياسي، هو تلفيق مهين، إذ إن السوريين كانوا متفقين على مطلب سورية الطبيعية التي تحدها جبال طوروس من الشمال وشبه جزيرة سيناء في الجنوب، ومن الواضح أن منطقة الإسكندرون وأنطاكية تتبع لها، والتي اقتطعت من الوطن الأم سورية إثر تآمر فرنسا وبريطانيا ضد سورية، كما أنها تشمل دولة لبنان الحالية وفلسطين بأجمعها، إلا أن الذين ينادون اليوم بسورية الكبرى لا يشملون في الدولة التي يحلمون بها الإسكندرون وأنطاكية، بل إن

جلالة الملك عبد الله صرح أثناء زيارته للإسكندرون في طريقه لتركيا بأنه سعيد لوضع قدميه على أرض تركية، وكذلك فقد صرحوا بأنهم لن يتعرضوا لسيادة لبنان الحالي، وبأن الجزء من الأراضي الفلسطينية التي ستقدمها بريطانيا لليهود لن تتبع لتلك المملكة، لذا فإن سورية الكبرى التي يسعون لتحقيقها هي تشويه لسورية الطبيعية التي طالب بها الشعب السوري في تلك الأيام، وإن محاربة - مشروع - سورية الكبرى ليست محاربة للآمال الوطنية كما يدعي مؤيدو هذا المشروع.

٢- إن السوريين يطالبون الآن بوحدة سورية الطبيعية، إلا أنهم يريدون أن تتمتع بالحرية والاستقلال كاملاً، وأن لا يكون للإمبرياليين سلطة على أي جزء منها، إلا أن دعاة سورية الكبرى يعترفون بسلخ تركيا للواء الإسكندرون، وإقامة دولة يهودية على جزء كبير من أرض فلسطين، كما يعترفون بأن سورية الكبرى هي لعبة طيعة في أيدي الإمبرياليين البريطانيين، لتحقيق رغباتهم وأهدافهم، وأكبر برهان على ذلك هو موافقتهم على اتفاق لشرق الأردن بأن تخضع سورية الكبرى للنفوذ المباشر لبريطانيا. إنهم يرضون بجزء من سورية، ثم يوافقون على ربطه بسلاسل واتفاقات، وبأن يقف على رأس جيشه أهم رجالات بريطانيا، ولا شك بأنهم سوف يحاولون توسيع هذا الطوق ليشمل المناطق السورية التي يحاولون ضمها إلى ممتلكاتهم، فهل يتناسب ذلك مع مطلب السوريين لتحقيق وحدة طبيعية واستقلال كامل؟

هل هي لمصلحة سورية الصغرى التي تأخذ مكانة عالية في الساحة الدولية، بأن تنضم لسورية الكبرى لكي تتحول إلى قاعدة

للإمبريالية البريطانية مع خطر الالتفاف حول جميع الدول العربية؟

٣- إن سورية في حدودها الحالية تتمتع بنظامها الجمهوري، وتضع ثقتها به، وهي ترفض بشدة أن تتحول إلى نظام آخر تعتقد بأنه لا يتناسب مع تحقيق آمالها أو نفسيتها أو عقيدتها، إلا أن دعاة سورية الكبرى يتعلقون بشدة بنظام الملكية الوراثية، فكيف يصح الرأي بأن الدعوة لمشروع سورية الكبرى تتناسب مع آمال ورغبات السوريين؟

٤- إن سورية والدول العربية مجتمعة تتفق على محاربة تقسيم فلسطين بكل ما يملكونه، لأن في ذلك إقامة دولة أو كيان يشابه دولة لليهود في بعض مناطق فلسطين، ولو كان ذلك في قرية صغيرة من فلسطين، فإنه يشكل خطراً مباشراً على فلسطين وعلى جميع الدول العربية، إذ إن مشروع سورية الكبرى يعتمد على ضم المنطقة العربية من فلسطين مع التخلي عن المنطقة اليهودية، إذا تحقق مشروع التقسيم لا سمح الله تحت حكم اليهود والبريطانيين، ومن هنا فإن تحقيق المشروع هو ضربة مؤلمة للآمال العربية، وضرر دائم للقضية الفلسطينية.

٥- كان شرق الأردن في العهد العثماني جزءاً من ولاية سورية، يتبع لوالي دمشق، فإذا كانت هناك الآن رغبة أو اهتمام بالانضمام، يكون عندئذٍ من الضروري أن يعلن شرق الأردن انضمامه إلى سورية، وأن يترك للسوريين أمر اختيار وتعيين من يرأس هذه الدولة والنظام الذي يختاره الشعب من خلال استفتاء حر، ولكن عندما تحاول دولة

صغيرة التحكم في إرادة شعب مستقل له جمهوريته وبرلمانه لإرغامه على الاتحاد أو الانضمام لنظام لا يرغب به، يكون بذلك قد ابتعد كثيراً عن المنطق والقانون، لذا فإن المشروع يكون بعيداً جداً عن التنفيذ.

٦- إن بروتوكول الإسكندرية يعترف بالحدود الحالية لجميع الدول العربية الممثلة في جامعة الدول العربية، وذلك بالنظر للأوضاع الحالية التي تشمل الموافقة على الأوضاع السياسية للدول العربية كأساس للتعاون فيما بينها. إن هذه الظروف لم تتغير بعد، وما زالت مصلحة العرب تقتضي اليوم عدم إثارة مسائل من هذا القبيل، فإنه ليس من قبيل الغباء أو الإهمال موافقة قادة سورية على الحدود اللبنانية على الرغم من أنهم من المؤيدين المتحمسين للوحدة السورية، وذلك لأن المصلحة العربية تقتضي القبول بالأوضاع الحالية للمساهمة في إتمام التعاون العربي بين الشعوب العربية في جو لا يشوبه ولا يعكره أي اضطراب، فما هي دوافع مؤيدي سورية الكبرى للدعوة إلى تغيير المعطيات الجغرافية في بعض دول الجامعة العربية؟ ولحساب من يعود هذا النداء؟

٧- لدى العرب في أيامنا هذه قضايا تتطلب تعاضد كل الأيدي للتغلب عليها، مع العلم بأن الأمر يتعلق بكرامة الأمة العربية وشرفها وحريتها، وتقف على قمة هذه القضايا المسألة الفلسطينية والمشكلة المصرية والمغرب العربي، وقد رأينا كيف أغضب دعاة سورية

الكبرى سورية ولبنان والمملكة العربية السعودية، حين صرح قادة تلك الدول برفضهم بشدة تحقيق هذا المشروع، وإذا أصر الدعاة على تنفيذه بالقوة، فإن رجال تلك الدول لن يترددوا في الوقوف بجباههم بالقوة نفسها، فإذا تم التصادم لا قدر الله، فإن كل المؤشرات تدل على أن مصر واليمن والعراق ستنضم للدول الثلاث (سورية ولبنان والمملكة العربية السعودية)، إن ذلك سيعني انقسام الجامعة التي وضع العرب فيها آمالهم، وتحريضاً للفتنة والعداوة بين الدول العربية، ولن يفيد ذلك في الأوضاع الراهنة إلا العدو المتربص الذي يزعجه تآزر العرب في مسألتي مصر وفلسطين مؤازرة واعية تستدعي الإعجاب والتقدير. فإذا افترضنا أن المصلحة العامة هي التي ألهمت جلالة الملك عبد الله إعلان سورية الكبرى، فإن هذه المصلحة توجب عليه الآن التخلي عن هذا المشروع عندما يشعر بنفور الدول العربية، لأنه يعرض الجامعة العربية للانقسام، ويؤدي بها إلى الحرب الأهلية إذا أصر على تحقيق مشروع سورية الكبرى.

من أجل ذلك كله يعتقد الإخوان المسلمون في سورية بأن مشروع سورية الكبرى لا يحقق آمال السوريين، وليس في مصلحة أي من الدول العربية، بل إنه مشروع إمبريالي يهدد استقلال الدول العربية حيث يخول جيوش دولة أجنبية الإقامة فيها - أي في الدول العربية - كما أن ذلك المشروع يهدد الوحدة العربية بالانقسام، ويحول أذهان الدول العربية عن حل مشاكلهم الحساسة، على الرغم من ضرورة

العمل والتعاون بين بعضهم البعض. إن الإخوان المسلمين كجماعة تشمل الآلاف من المؤمنين الشبان الذين يعملون من أجل عروبتهم، تساندهم في ذلك بإخلاص جموع الأمة، يعلنون الآن، حيث تتكاثف في سماء الدول العربية غيوم ملبدة، بأنهم سيحاربون هذا المشروع بكل ما أوتوا من قوة، وبأنهم سيتعاونون مع جميع لجان المتطوعين والجمعيات والحكومات التي أعلنت رفضها لهذا المشروع، وإنها تضع شبابها مع قدراتهم وجمعياتهم تحت تصرف الوطن الغالي لصد هذه المؤامرة الخطيرة ضد استقلاله وحريته، نرجو من الله أن يكون النصر حليفكم في صد الظلم العاتي ضد استقلال البلاد، وأن يحفظ هذه الأمة من دسائس الإمبريالية ومكائدها[1].

المجلس الأعلى للإخوان المسلمين

المراقب العام: مصطفى السباعي

هذه المواقف الصلبة للإخوان المسلمين في شجب الأحلاف والمشروعات الأجنبية ومقارعتها، دعمتها الجماعة بتحسين الصلات والعلاقات مع الآخرين من الأحزاب والهيئات والشخصيات السياسية من ذوي الميول المتباينة، والوصول معهم عبر حوارات مستمرة إلى مواقف مشتركة لتعزيز الجبهة الداخلية في مواجهة المؤامرات والضغوط الأجنبية، وفي هذا السياق نرى المراقب العام الشيخ السباعي يدعو إلى الوحدة الوطنية، وإلى إشاعة المودة بين المسلمين

---

(١) المرجع السابق: ٤٥١ نقلاً عن جريدة المنار الصادرة في ٦-٩-١٩٤٧ .

والمسيحيين والأقليات الأخرى، فقد سافر إلى فلسطين على رأس فوج من المجاهدين الإخوان، تصحبه ثلة أخرى بقيادة ضابط مسيحي، وبات وهو في طريقه إلى داخل فلسطين باتجاه القدس في بلدة البيرة في منزل خوري البلدة (وراعي المسيحيين فيها)[١].

كما نرى الشيخ السباعي رحمه الله يدعو إلى توحيد العرب، لأن ذلك كان أحد أهداف الإخوان الكبرى في منهاج الجماعة، وفي فكر قائدها المراقب العام، يقول رحمه الله: هذا الوطن الكبير واحد في جغرافيته ولغته وعقائده وأخلاقه وتاريخه وخصائصه، فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي.

وهذا العالم الإسلامي الذي يضم ما يزيد على ٥٠٠ مليون - الآن تجاوز المليارين استناداً إلى مراجع أجنبية وعربية - ويحتل أخصب الأرض وأهمها في كل من آسيا وأفريقيا، يشكل وحدة عقائدية لا مثيل لها في الكيانات السياسية القائمة على وحدة العقيدة في عصرنا الحاضر، وهو في حد ذاته قوة كبرى للأمة العربية، يمنحها نفوذاً سياسياً واقتصادياً وفكرياً[٢].

فالجماعة تدعم مواقفها وسياساتها بتقوية الجبهة الداخلية، واستنهاض العرب والمسلمين للوقوف مع السوريين في دفاعهم عن وطنهم ضد المتآمرين والمعتدين.

---

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور: ١٨ .

(٢) المرجع السابق: ٣٦٢ .

تاسعاً: الإخوان والحركة الرياضية

١- منذ النشأة الأولى للإخوان المسلمين في سورية كان اهتمام الجماعة بالتربية الرياضية كاهتمامهم بالتربية الروحية - فالعقل السليم في الجسم السليم - وكان السباعي رحمه الله يشجع الشباب على ممارسة أنواع الرياضة والفتوة ليكون الشباب قوياً في جسمه وروحه، فساهم في تأسيس عدد من الأندية، ففي دمشق: نادي بدر لكرة السلة في كيوان، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي الفروسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية وغيرها. كما عمل السباعي رحمه الله على تربية الشباب تربية عسكرية خشنة، فأنشأ لهم نظام الفتوة، فانتظم الشباب في كتائب وفرق تعودوا فيها على النظام، ونشؤوا على الرجولة وتحمل المشاق والخشونة، وكان السباعي طيب الله ثراه القائد العام لفتوة الإخوان المسلمين، واستمر على ذلك حتى حل الشيشكلي هذه المنظمات وصادر أملاكها. وكان للفتوة دور كبير في المحافظة على النظام، وإضفاء هيبة الجماعة على الاحتفالات والمهرجانات العامة التي تقيمها. والذي يتابع تطور الحركة الرياضية لجماعة الإخوان في سورية، يرى أن جميع المراكز للجماعة ودون استثناء أخذت على عاتقها توجيه شبابها وأبنائها في إعداد أنفسهم، وتقوية أجسامهم، فهيأت لهم المناخ المناسب، وأعدت لهم ثلاثة مستويات في الحقل الرياضي:

أ- أنشأت الأندية الرياضية التي تعنى بجميع الألعاب الرياضية،

مثل كرة السلة وكرة الطاولة وكرة الشبكة وألعاب القوى والمصارعة والجري وغيرها، وكانت هذه الأندية كثيرة ومتعددة ومنتشرة في المحافظات مثل نادي الأشبال في مدينة حماة، وأندية أخرى في المحافظات السورية.

ب- شكلت الفرق الكشفية التي تحول بعضها إلى أفواج يزيد عدد الواحد منها على عدد أفراد الفرقة الكشفية، مثل فوج اليرموك في حماة، وكانت الأندية والفرق والأفواج نامية وقوية في جميع المدن، ولا سيما في مدينة حلب، وفي مدينة دمشق، وكانت الحركة الكشفية متقدمة على الأندية في أهدافها، فبالإضافة إلى النشاط الرياضي الذي يمارسه أعضاؤها، فإنها تدربهم على شؤون حياتية أخرى، وتزودهم بالخبرات والمهارات والاضطلاع بالمسؤوليات الاجتماعية والصحية، كإقامة المخيمات، والقيام برحلات طويلة سيراً على الأقدام، والتدريب على الإسعافات الأولية، والأخذ بيد الضعفاء والمسنين في محطات السير، وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية لمن يرونه بحاجة لها من المواطنين.

ج- أخذت الجماعة بنظام الفتوة التي كانت في مصر تعرف باسم الجوالة، وبما أن الكشفية مرحلة متوسطة بين الأندية الرياضية وبين الفتوة، فإن الفتوة مرحلة بين الكشفية والجيش أو الحياة العسكرية، يقوم على تدريبها ضباط من الجيش تنتدبهم قياداتهم للقيام بهذا الواجب، كما حدث في مخيم يبرود عام ١٩٤٦ إذ انتدب المسؤولون

في الجيش السوري عدداً من الضباط لتدريب فتوة الإخوان على النظام العسكري وبعض أنواع السلاح، وكان عددهم في يبرود حوالي ثلاثمئة فتى، وكان ذلك قبل أن تسيطر الأقلية الحاكمة على الجيش، وتجعل منه أداة قمع للمواطنين بدل الدفاع عن الحدود، والوقوف في وجه العدو الصهيوني على الجبهة التي استمرت في هدوء دائم، وفي شهر عسل أكثر من أربعين سنة على الحدود السورية الإسرائيلية، مما أتاح للعدو أن يبني قوته الهائلة التي صارت سورية تستجدي منها الصلح والتفاوض دون أن يعير العدو لترامي النظام الطائفي على الصهاينة بالاً.

٢- لقد استفحل أمر الفتوة في جماعة الإخوان في سورية وازداد عددهم زيادة كبيرة، وأضحوا هم حماة الجماعة وحراسها، وكان لباسهم يشبه لباس الجنود، كما كانوا يحملون العصي عوضاً عن البنادق، وارتفع عددهم في دمشق وحدها إلى حوالي ألفي فتى، وقاموا بدور رائد في الانتخابات التي جرت في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، مثل حماية المقرات ومراكز الاقتراع وأشخاص المرشحين، وحدوا من سطوة مرشحي الحكومة التي لجأت إلى التنكيل والتزوير كما مر معنا آنفاً.

٣- وقد وصف الأستاذ السباعي الفتوة بأنها العصب الحساس للدعوة، لأنها المدرسة التي تخرج للأمة جيلاً قوياً مؤمناً تملؤه الرجولة، وتشيع في جنباته روح التضحية والطاعة والنظام، وقال:

وفي كل مركز من مراكز الإخوان في المحافظات، وفي أكثر الفروع في القرى والأقضية فرق للفتوة تتدرب على الأعمال الرياضية، وتقوم بمختلف الرحلات، ولها في كل عام معسكر عام يجتمع فيه فتيان الإخوان أياماً متتالية. ويتحدث بعض من شهد هذه المعسكرات عن مدى نجاحها في تنمية مشاعر الأخوة والالتزام، وعن جو الإلفة والمحبة والحياة الروحية التي كان يعيشها الإخوة المشاركون، إلى جانب ما كانت تشهده هذه المعسكرات من أنشطة رياضية وثقافية متنوعة، حيث تلقى المحاضرات، وتقام التمثيليات ومسابقات الأدب والشعر، ولطالما أثار الحديث عن هذه المعسكرات شجون هؤلاء المتحدثين، وصورة الشيخ المهيب عادت لترتسم في أذهانهم بعد عقود وعقود، وليتذكروا معها أحاديثه المحببة ولهجته الآسرة، ومدى انفعالهم وتأثرهم بقراءته للقرآن وهو يؤمهم به في الصلاة، أو يراجعه مع بعضهم في وقت السحر أو في سائر الأوقات(١).

ومن الجدير ذكره أن هذه المعسكرات السنوية كانت تختتم أعمالها باستعراض شبه عسكري تطوف به فتوتها شوارع المدينة التي يقيم الإخوان معسكرهم في إحدى ضواحيها، وكان العرض يضم عدداً يتراوح بين خمسمئة وألف فتى، يجوبون الشوارع الرئيسية بشكل مهيب، وكأنهم قطعة عسكرية من جيش حديث التدريب. ولقد حضرت عدداً من هذه المعسكرات في حلب - عين التل - وفي

---

(١) المرجع السابق: ١٢٩ .

اللاذقية - لوقا - وفي حمص بضاحية المدينة، وفي حماة، وكان حضوري للمشاركة باللجان التي تعقد جلساتها على هامش المعسكر، وكنت أشارك باللجنة السياسية، كما شاهدت نماذج من عروضها العسكرية. وأستطيع الآن أن أسجل الانطباع والتحليل لهذه العروض بعد مرور أكثر من نصف قرن عليها، فأقول: لو أن الإخوان أدركوا في تلك الفترة ما تثيره هذه العروض في نفوس المشاهدين والمراقبين الذين يرصدون تحرك الجماعة ونشاطها وإنجازاتها من كيد وحسد وحقد، وما كانت دوائر الغرب ولا سيما مخابراته، وفي مقدمتها المخابرات الأمريكية وما تقوم به من تتبع دقيق ورصد عميق، وتسجيل لكل ما يصدر عن الجماعة من قرارات، وما تتخذه من مواقف، وما تحدثه من إنجازات على كل الصعد التربوية والسياسية والإعلامية وغيرها، كما دل على ذلك ما تحتويه مكتباتهم في بيروت والكونغرس، وما صدر عن مخابراتهم من تآمر وكيد وتحريض الحكومات المحلية والقيادات العسكرية على الجماعة في مصر وسورية وسائر الأقطار العربية والإسلامية، لو أدرك الإخوان منذ وقت مبكر مثل هذا لعزفوا عن استعراض عضلاتهم، وطواف وحداتهم من الفتوة في شوارع المدن الكبيرة في سورية، وللجؤوا إلى الهدوء، والبعد عن المظاهر المثيرة، ولاعتصموا بقول سيدنا وقدوتنا رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»، ولكن لا أظن أن الإخوان أو أي حزب سياسي في بلادنا كان يدرك ما كان يبيته العدو - منذ وقت مبكر - من مكر وكيد، وما كان يخطط له ويحوكه

ضد دولنا الناشئة وشعوبنا الضحية كما رأينا وقرأنا واطلعنا على ما صدر من كتب ودراسات مثل: كتاب حقيقة المخابرات الأمريكية، وكتاب لعبة الأمم، وكتاب الدولة الخفية، وعشرات الكتب والدراسات التي تظهر حجم الكيد الذي يبيته الأعداء بروح صهيونية لأمتنا وبلادنا، والكثير منا سادرون وغافلون، وثمة حدث كبير ذو دلالة كبيرة أرى أن تسجيله مفيد لأبناء الجماعة في مسيرتهم الدعوية، وما يصادفونه من صعوبات، ويعترض طريقهم من عقبات.

في عام ١٩٤٦ زار الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية الملك فاروق ملك مصر في القاهرة، وقد حضر استعراضاً عسكرياً هيأه الملك فاروق لضيفه، وجلسا معاً يشاهدان العرض، فمرت قطعات من الجيش المصري أمام المنصة أو الشرفة التي يجلس عليها الملكان، ولما انتهى عرض الجيش المصري، أعقبه في العرض وحدات تلفت النظر بدقة تنظيمها وسيرها، وحسن هندامها، فسأل الضيف الملك عبد العزيز مضيفه الملك فاروق: من هؤلاء الذين يفوقون من سبقوهم من أفراد الجيش مظهراً ومخبراً؟ أجابه الملك فاروق: هذه جوالة الإخوان المسلمين - وكان عددهم في مصر قد فاق العشرين ألفاً - فقال الملك عبد العزيز: أو تأمن على ملكك بوجود هؤلاء؟!!! هذا ما نقله الدكتور معروف الدواليبي عن هذا الحدث قائلاً: لقد قلت للشهيد حسن البنا: أتظن أن الدول الكبرى وأن الأعداء يتركونك بهذا الصعود دون أن يكيدوا لك كيداً؟ فهل فات الإمام الشهيد حسن البنا الرجل الملهم وصاحب الفراسة التي

كان ينظر فيها بنور الله مثل هذا الأمر الذي فطن له الشيخ معروف الدواليبي، الذي خبر الغربيين، وقرأ أفكارهم، وعرف الكثير من خفاياهم وخباياهم، وقد عاش بين أظهرهم في سنوات الحرب العالمية الثانية، وشاهد الكثير من ويلاتها، ومن مكائد اليهود في تزوير العملات الورقية، ومطاردة القيادات الإسلامية من أمثال الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وغيرهما من الذين فروا من بطش الصهاينة والإنكليز في فلسطين والعراق، ولجؤوا إلى ألمانيا وإلى دول أخرى.

لقد غاب عن ذهن الإمام الشهيد حسن البنا ما كان ينطوي عليه الغربيون من حقد، لأنه وأمثاله لا يريدون للبشرية إلا الخير، ويحسبون غيرهم كذلك.

وهذا ما واجهته الدعوة منذ انبثاق فجرها، فقد خدع المشركون رسول الله ﷺ يوم الرجيع، ويوم بئر معونة، عندما زعموا أن قبائلهم دخلوا في الإسلام، وأنهم يودون أن يبعث رسول الله ﷺ معهم من يقرئ قومهم القرآن، ولم يلبثوا بعد ابتعادهم عن المدينة أن غدروا بالقراء فقتلوا عشرة في ذات الرجيع، وسبعين في بئر معونة، كما غدر الهرمزان المجوسي بسيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين عندما ادعى الإسلام، وسكن المدينة، ولازم أمير المؤمنين في مجلسه، في الوقت الذي كان يحوك الخطة لاغتيال سيدنا عمر، عندما جهز أبا لؤلوة المجوسيّ، ودربه سراً، وهيأ له أدوات الجريمة، ونفذ فعلته الشنعاء كما ذكر ذلك تفصيلاً علي أحمد باكثير في رائعته - ملحمة عمر - تماماً كما فعل ذلك سفراء أمريكا وإنكلترا وفرنسا

عندما اجتمعوا في فايد - مركز القيادة البريطانية العسكرية في القنال - وقرروا تصفية جماعة الإخوان ومرشدها بقرار، نشرت وثيقته كما هي مصورة بالزنغوغراف، ونفذوا جريمتهم عن طريق عملائهم محترفي السياسة في مصر الذين كلفوا مخبرين بالاغتيال، وقد رأيتهم في قفص الاتهام بمحكمة الجزاء في باب الخلق، عندما قررت حكومة نجيب محاكمتهم في أول عهد انقلاب ٢٣-٧-١٩٥٢ - وكنت إذ ذاك طالباً بكلية الآداب بجامعة القاهرة - ثم لم تلبث حكومة جمال عبد الناصر أن أوقفت المحاكمة، وأطلقت سراحهم وهم: الأمير لاي محمود عبد المجيد مدير المباحث المصرية، وثلاثة من المخبرين الذين نفذوا جريمة الاغتيال، وهذه الأحداث الكبيرة والخطيرة التي حدثت في عهد النبي ﷺ وخلفائه، تأتي عزاء لمن يبتلون بالأشرار، تمدهم بطاقة من الصبر والثبات في مسيرتهم الحياتية ورسالتهم الدعوية التي جعل الله سبحانه الابتلاء شرطاً لها وجزءاً منها ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (سورة الملك - الآية ٢).

إن المكر الذي تلاقيه الدعوة، ويواجهه الدعاة جد خطير، يزلزل الجبال، ويهز الأرض من تحت أقدام المؤمنين، ولا يصمد له إلا الذين أخلصوا لله سبحانه، واشتروا الجنة والمغفرة بأموالهم وأنفسهم، وصدق الله العظيم، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ

وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ سورة إبراهيم الآيتان ٤٦، ٤٧ .

فعلى أبناء الدعوة أن يكونوا يقظين صامدين صابرين، إن الله لا يخذل الصادقين المتوكلين، وليأخذوا بسياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: لست بالخب، وليس الخب يخدعني، وليتعظوا بما لاقاه الإمام البنا وإخوانه، والإخوان في سورية وفي الأقطار الأخرى.

عاشراً: الإخوان والقضية الفلسطينية

أ - تشكل المسألة الفلسطينية أخطر المحطات في المرحلة الأولى من تاريخ الجماعة الذي يمتد من عام ١٩٤٥م وحتى حدوث الانقلاب العسكري الأول في سورية ٣٠-٣-١٩٤٩، كما أن رؤية جماعة الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية تختلف عن موقف الأحزاب والشخصيات السياسية تجاه القضية، فالأقصى هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهو مسرى رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك، ليتم الربط ما بين المسجدين قداسة ومصيراً إلى يوم القيامة، كما أنه منطلق رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ في معراجه ورحلته المباركة القدسية إلى السموات العلا، ومن هذا المفهوم الشرعي المطلق، فإن جماعة الإخوان المسلمين لا يمكنها التفريط بالأرض المقدسة أو التخلي عنها، أو المساومة عليها، تحت أي ظرف، كما هو حالهم تجاه العقائد والعبادات سواء بسواء، والمسجد الأقصى وما حوله وقف إسلامي لا يستطيع مخلوق على ظهر الأرض أن يفرط به، أو يتنازل

عن حفنة تراب من أرضه المباركة، أما البعد الثالث في منهاج الجماعة فهو الدفاع عن الشعب والأرض في موقف سياسي واضح معلن يشاركها فيه الأحزاب والجماعات الأخرى. وإذا ضعفت الأمة، ويئس زعماؤها، فعقدوا الصفقات مع العدو، واعترفوا بوجوده واحتلاله لشطر كبير أو صغير من أرضهم، فإن الجماعة لا تملك بكل المقاييس الآنفة الذكر، والتي ترتبط بالعقيدة، والالتزام بالحفاظ على الوقف، وبالموقف السياسي، أن تتراخى في الدفاع عن الأرض المباركة ولو كلفها ذلك أن يقدم أبناؤها دماءهم وحياتهم رخيصة في سبيل الله، دفاعاً عن بيت المقدس وعن مسجده الأقصى.

٢- والمؤامرة على سلب فلسطين ومسجدها بدأت منذ وقت مبكر، تسابق فيها الفرنسيون والإنكليز منذ حوالي قرنين، وقد كتب في ذلك الأستاذ محمد حسنين هيكل حديثاً مفصلاً، ليس من الوارد في هذه المذكرات عن الإخوان أن نستطرد، فنذهب بعيداً في ذكر تفاصيله. لننتقل سريعاً إلى التاريخ القريب الذي نشهد فيه التآمر على اغتصاب فلسطين في السنوات الأخيرة من العهد العثماني عبر ما سجلته الصحافة السورية فيما ذهب إليه الأتراك من عملية بيع الأراضي، وإلى مساعي الجمعيات الصهيونية للتملك في أرض فلسطين، غير أن صحافة الاتحاديين سخرت من الكتّاب السوريين قائلة: إن السلطات العثمانية غيورة على فلسطين أكثر من أبناء فلسطين.

وبعد الحرب العالمية الأولى ورحيل الأتراك عن سورية، شرعت

الصحـافة السورية من جـديد تنبه إلى هذا الخـطر المحدق وإلى تنـبيه الحكام والتـنديد بالسيـاسة البريطانـية، واستصـراخ الضمير الـعالمي، فكانت بحق منذ بـدء الانتداب وحتى قيام دولة إسرائيل سـجلاً حافلاً لكل الأحداث والمآسي التي عرفها الـوطن السليب، غير أنها نادراً ما كانت تسـمع مجيبـاً، بل كانت تعطل كـلما قست على الـحكام وعلى الإنكليز في موضوع فلسطين(١).

٣ - من أوائل الصـحف التي نبـهت إلى الخطر الـصهيونـي كانت جريـدة الأردن التي كتـبت تقـول في افتـتاحيـة عددها الأول: الـخطر الصهيوني الذي يهدد فلسطين، من يعصمنا نحن أبناء الغرب والشمال من شـره؟. وكـان ذلـك في ١٢ - ٩ - ١٩١٩، وفـي العـام الـتالي نشرت جـريدة الدفاع بـتاريخ ٢٠ - ٤ - ١٩٢٠ مقـالاً نبهت فـيه إلى الخطر الصهيوني في فلسطين، وإلى التـعصب القومي عند اليهود، بينما ترى العـرب يتنابـذون! وحين عـين هربرت صـموئيـل اليهـودي الأصل منـدوباً سامـيـاً في فلسـطين نـددت الصحـف السـورية بهـذا التـعيـين، وعارضت بشدة تقديم آلاف الدونمات من أملاك الدولة هدية إلى اليهود الجدد. بعد ذلك طالعتنا جريدة المقتبس بمقالة افتتاحية عنوانها:

كيف تحل مشكلة فلسطين؟ نبهت فيها إلى الخطر اليهودي، وإلى دور الإنكليز في دعـم المنظمات الصهيـونية، وفي ٢٢ - ٣ - ١٩٢٥ كتـبت مـقالاً افتـتاحـياً طالـبت فيـه بالاحـتـفاظ بـالأرض، ودعت إلى التعاون والاتحاد والـجد، ثم أشارت إلى إنشاء المستعـمرات اليهودية

---

(١) تطور الصحافة السورية في مئة عام ١٨٦٥ - ١٩٦٥: ٢/ ١٧٠ .

في فلسطين، وأن نجاح مشروع الدولة اليهودية أو فشله يتوقف على العرب أنفسهم، في هذه الأثناء جرت حادثة مهمة، وهي أن اللورد بلفور زار دمشق عام ١٩٢٥، فقالت جريدة المقتبس: إن بلفور وصل دمشق يوم الخميس في ٩-٤-١٩٢٥، بعد الظهر تجمهر الناس في تظاهرة احتجاجاً على وجوده في سورية، واصطدموا بالشرطة والدرك، فجرح منهم حوالي عشرين شخصاً، ولما تفاقمت الأمور في العاصمة، زار المفوض السامي الجنرال ساراي الوزير الإنجليزي في الفندق، وطلب منه مغادرة البلاد، فغادرها بعد أن أقام في دمشق تسع عشرة ساعة لم يبرح خلالها غرفته. وفي عدد لاحق نشرت المقتبس أخبار معركة دارت رحاها بين الطلاب السوريين وبين الطلاب الصهيونيين في باريس بتاريخ ١-٤-١٩٢٥ . وفي عدد آخر في المقتبس عام ١٩٢٦ قالت: الصهيونية تهدد حوران، جاء فيها: فيا أيها العرب: لقد ابتلعت الصهيونية بلادكم يوم ابتلعت فلسطين، ولو أنكم شاركتموها بجهادها وكفاحها والمسارعة في مؤازرتها لما رسخ للصهيونية قدم فيها، لقد تضافر الصهيونيون على هضمكم وتكالبوا على ازدراء بلادكم وإرغام أنوفكم، فإذا لم تبادروا لتوطيد دعائم الإلفة والتضامن، فالعاقبة وخيمة والمصير محفوف بالأخطار(١).

وتندد القبس بالسياسة الإنكليزية في فلسطين في افتتاحية لها بتاريخ ٢٩ - ١٢ - ١٩٢٩ فتقول: إما أن تعضدوا الصهيونية، وإما أن

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٧٠ -١٧٤ .

تذهبوا إلى السجون والقبور، هكذا يريد الإنكليز من سكان فلسطين.

وتشير جريدة الشعب في ١٣ - ٤ - ١٩٣٠ إلى الغليان الشديد الذي يجتاح فلسطين من أقصاها إلى أقصاها، وأنها على أبواب ثورات لاهبة بسبب أحكام الإعدام التي صدرت بحق عشرات الشباب العرب.

وفي ٢٩ - ١٠ - ١٩٣٠ أبدت جريدة التقدم الحلبية مخاوفها من أن الصهيونية تسعى لجعل سورية كلها وطناً قومياً لليهود.

وفي عام ١٩٣٤ كتبت جريدة الأيام بتاريخ ٢٧ - ١١ - ١٩٣٤: الاستعمار الصهيوني يمتد إلى الجبال ما بين يافا والقدس، وتتابع الأيام فتقول في ١٦ - ١٢ - ١٩٣٤: ذيول بيع امتياز الحولة، تقسو على أولئك المتنفذين الذين يغريهم الذهب، ويبيعون أراضيهم.

وفي ٨ - ١٢ - ١٩٣٥ تنبه القبس وتحذر من أن الخطر الصهيوني في امتداد، وأن الصهيونية تحلم بالوصول إلى الأردن[1].

وعندما وقعت مذابح عام ١٩٣٦ انتفضت الصحافة السورية بعنف، وهاجمت السياسة الإنكليزية بقسوة، ونددت بالحكومات العربية، وأهابت بها أن تتدخل لوقف المجازر، وطالبتها بمد الفلسطينيين بالسلاح، وناشدت الضمير العالمي التدخل لوقف المذابح ومنع إبادة العرب، فقالت القبس في ٢١ - ٨ - ١٩٣٦ عن مذابح وجرائم، الصهيونيين الوحشية وقتل الأطفال: إن منع التجول يمهد لليهود جرائمهم.

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٧٣ .

وفي ٢٢ - ٨ - ١٩٣٦ كتبت جريدة ألف باء: قافلة شهداء جديدة، أترى إبادة العرب داخلة في وعد بلفور؟.

في عام ١٩٣٧ نشرت جريدة النذير الحلبية عدة مقالات بقلم أحمد قنبر تناولت فيها المسألة الفلسطينية بالدرس والتحذير.

حتى إذا وصلنا إلى عام ١٩٤٤ نرى عنصراً طرأ على القضية الفلسطينية، وهو بروز دور أمريكا كسند للمشروع الصهيوني، فقالت القبس: كلهم صهيونيون؟ ما أرخص بلاد الضعيف على الأقوياء، لم يبق في أمريكا رئيس مسؤول ولا وزير ولا حاكم إلا وأعلن أنه يقدم فلسطين إلى الصهيونيين، ويهبها لهم هبة كاملة.

وفي عدد لاحق عرَّضت القبس بأمريكا، واتهمتها ببيع ضميرها من رؤوس الأموال اليهودية، وقال نجيب الريس بعنوان كم بيعت فلسطين؟ بـ ٤ ملايين ناخب، وأربعة مليارات دولار، ثم قال: إن أقدس مكان عند أصحاب الديانتين العظيمتين، المسيحية والإسلام قد بيع من دولتين، هما أعظم الدول المسيحية وأغناها في الدنيا، إننا لا نستطيع أن نفهم بأي ضمير وذمة ودين يقرر قضاة سياسيون أمريكيون وبريطانيون إباحة الهجرة إلى فلسطين بلا قيد ولا شرط، سبحان الله أيريدون أن يجعلوا من فلسطين دواء لآلام اليهود باسم المسيحية السمحاء...؟(١).

وتعود القبس لتنشر في ٣١-١-١٩٤٦ مقالة بقلم صاحبها نجيب الريس جاء فيها: إنقاذ دونم أرض خير من عشرين مظاهرة، وفي عام

---

(١) المرجع السابق: ١٧٤ -١٧٦ جـ٢ .

١٩٤٧ راحت القبس تدعو إلى أمر خطير، ألا وهو استخدام النفط ضد أمريكا، فقالت: ألغوا امتياز النفط في نجد، وامنعوا مروره من سورية، ولبنان، فشركات البترول أقوى في أمريكا من اليهود[١].

أما جريدة العلم فكانت من أعنف الصحف السورية في وصف الكارثة، وأشدها تنديداً ودعوة إلى القتال، قالت: هل ينتظرون مصرع فلسطين ليسيروا وراء النعش ذارفين دموع التماسيح؟

في عدد لاحق قالت: لقد أضحكتم منا العالم حتى الصهاينة، وحققتم ما قاله وايزمن: إن احتلال فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها لن يقابل من العرب إلا بالتظاهر والاحتجاج، ثم القبول بالأمر الواقع كما جرى في قضية إسكندرون (العلم ٢٧-٤-١٩٤٨).

وقد استمرت جريدة العلم طوال عام ١٩٤٨ تدعو إلى رفض الهدنة والوساطة والمفاوضات، وإلى استئناف القتال، لأنه الوحيد الذي يأتي بالحل المطلوب.

أما المنار فكان يحرر افتتاحياتها عمر بهاء الأميري في هذه الحقبة اللاهبة في صيف ١٩٤٨، فاضطرت الرقابة إلى أن تحذف الكثير منها، وفي ١٥-٥-١٩٤٨ وردت في هذه الجريدة مقالة افتتاحية عنوانها: يا أمة العرب، لقد دقت ساعة العمل فلبي نداء الواجب لتحرير فلسطين، وتدعو العرب للوقوف في وجه الغزو الذي يريد محو المسيحية والإسلام[٢].

---

(١) المرجع السابق: ١٧٦-١٧٧ جـ٢ .

(٢) المرجع السابق: ١٨١ جـ٢ .

لقد أسهبت في تتبع مواقف الصحافة السورية حيال القضية الفلسطينية لأنها ترسم صورة واضحة عن الحالة الشعبية والسياسية التي كانت تعيشها سورية وما حولها من البلدان الأخرى جراء المؤامرة الكبرى في اغتصاب فلسطين وتسليمها لشذاذ الآفاق بدعم دولي كانت تقوده بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد مر موقف الصحافة السورية من حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بثلاث مراحل:

الأولى هي مرحلة العنف والمطالبة باستمرار القتال.

والثانية مرحلة التأمل أو التفكير في ما ومن كان وراء الهزيمة، وتتمثل بهجمة عنيفة على الأنظمة العربية الحاكمة.

والثالثة هي مرحلة الانطلاق وشحذ الهمم، واعتبار المأساة درساً يجب أن يستفيد منه العرب (في جميع أقطارهم).

٤ - كان الإخوان المسلمون في سورية أسبق الأحزاب والحركات السياسية في موضوع فلسطين والدفاع عنها، واستنفار الجماهير والأقطار العربية والإسلامية لتبيان الأخطار المحدقة بها والمؤامرات التي تحاك ضدها، فعاشت مأساتها، وتصدت لأعدائها، وحملت راياتها، فكانت شغل الجماعة الشاغل في جميع برامجها، ولدى كل أعضائها، وكان الشيخ السباعي منذ مطلع شبابه أسبق الشخصيات والزعامات السياسية إلى رفع راية فلسطين، وحمل همومها في قلبه

وفي كل جوارحه، فمن مقالاته الأولى التي كتبها في العدد ٤٤٨ من مجلة الفتح بتاريخ ٥ ربيع الأول عام ١٣٥٤هـ الموافق ٦-٦-١٩٣٥، بعنوان: مأساة فلسطين. كانت فاتحة كتاباته، وكان عمره تسعة عشر عاماً، وقد استهلها بقوله: مأساة الأندلس تمثل مرة ثانية على مسرح الحياة في تاريخ العرب والإسلام، تلك هي مأساة فلسطين! ووصف فلسطين بأنها قلب العرب النابض، ومفتاح جزيرة العرب، وأن كل ذرة من أرضها امتزجت بقطرة من دماء أجدادنا الطاهرين(١).

وعندما رأى الشيخ احتدام الصراع بين الأحزاب والعائلات الفلسطينية قال: إن فلسطين ليست خاصة بهؤلاء الوجهاء يتصرفون بها كما يشاؤون، ولكنها قضية الفلسطينيين كلهم، وقضية العرب والمسلمين، بل هي قضية تخص كل مسلم ومسلمة على وجه الأرض، ثم قال: إن قضية فلسطين اليوم لعلى أشد ما تكون من الخطورة، إن المهاجرين اليهود يغزون فلسطين من البر والبحر سراً وعلانية، والسلطة تخرج من أيدي أصحاب البلاد يوماً بعد يوم، والأموال تضيع، والأراضي تباع، والأخلاق تنحط، ومشردو الدنيا يتحكمون اليوم في رقاب من كانوا بالأمس سادة الأرض(٢).

ثم خاطب الإنكليز قائلاً: إن صحفكم تقول لطمس الحقيقة:

إن حوادث فلسطين هي حوادث عصابات شريرة مجرمة، تود

---

(١) مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور: ٢٢١ الطبعة الثانية.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٢ - ٢٢٣ .

إراقة الدماء ونهب الأموال! لا يا هؤلاء فما في فلسطين أشرار ولا مجرمون، وإنما فيهم كل أبيّ وكل همام، إن من يطالب بحقه ويدافع عن كرامته ليس مجرماً، والذين يذودون عن بلادهم، ويريدون استخلاصها من أيدي مغتصبيها سيسميهم التاريخ أبطالاً مجاهدين. وأنتم سمّوا بما شئتم أولئك الذين يحاولون أن يبيدوا شعباً أبياً كريماً، ليقيموا مكانه شعباً طريداً شريداً. سموا بما شئتم أولئك الذين يسفكون دماء الأبرياء، ويهدمون بيوت الآمنين، ويسلبون أموال الناس بغير حق، ويمنعون المؤمنين من دخول أماكن العبادة.

وقال في مقالة مهمة بعنوان: موقف سورية من فلسطين: إن مؤتمر العلماء الذي انعقد في دمشق أيد الفتوى القائلة: إن جهاد فلسطين جهاد شرعي يجب على كل مسلم أن يشارك فيه، وهي الفتوى التي كان بعض العلماء قد أطلقها في خطبه على المنابر، فكان - كما قال السباعي - لهذه الفتاوى والخطب أثر كبير في نفوس العامة، فتطوع ألوف الشباب للجهاد في مختلف المحافظات، وتداعى الناس إلى بذل المال، وخصصوا يوم ٢٧ رجب لجمع الإعانات، وأطلقوا عليه - يوم فلسطين - ثم يقول الشيخ رحمه الله: وكان يوماً مشهوداً من أيام سورية الباسلة، لقد رأيت في ذلك اليوم من الأمثلة التي ضربها الفقراء في الجود والسخاء ما أسال عبرتي، وملأ قلبي إيماناً بأن هذه الأمة لن تموت أبداً[١].

---

(١) آلام وآمال: ٥٤ .

إثر خروج السباعي من السجن بعد اعتقال الإنكليز والفرنسيين له في مصر ولبنان وسورية، استأنف نشاطه في سبيل القضية الفلسطينية على الصعيدين الرسمي والشعبي، استكمالاً ومتابعة لنشاطه السابق في القاهرة، واستجابة للوضع الخطير الذي آلت إليه القضية الفلسطينية في أوساط الحرب العالمية الثانية. وعندما وصل الشيخ نمر الخطيب دمشق قادماً من حيفا عام ١٩٣٤ زاره الشيخ السباعي في فندق أمية، وتدارس معه أحوال فلسطين، فتحدث الشيخ نمر عن استفادة اليهود من الحرب العالمية الأولى، حيث شكلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدتهم بالأسلحة والذخائر، كما حدثه عن أساليب تهريب اليهود للسلاح، فقد وصلت إلى حيفا خلال سني الحرب صناديق كبيرة باسم بعض المحلات التجارية اليهودية على أنها تحمل أقمشة وسلعاً، فتحطم منها صندوق على الرصيف فإذا به يحتوي على مسدسات وبنادق سريعة الطلقات وغيرها، ثم قال الشيخ نمر الخطيب: إن الوضع في فلسطين خطير ونحن عرب فلسطين يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عما يبيت لفلسطين من شر، فهل لك - يقول للسباعي - أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟ يقول السباعي: وكان حديثاً دمعت له عينانا، وعاهدنا الله على أن نبدأ العمل[1].

انطلق السباعي بالعمل من مدينة دمشق، فألقى في مقر الشبان

---

(١) كامل الشريف ومصطفى السباعي - الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: ٢٢٣ - ٢٢٤ .

المسلمين - في باحة الدرويشية أول محاضرة عن فلسطين، وانتهت هذه المحاضرة - التي نشرتها جريدة القبس كاملة - بحماسة شديدة من الحاضرين، خرجوا على إثرها في مظاهرة ليلية كبرى تهتف لفلسطين، وتدعو إلى العمل من أجلها، حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفة نهر بردى خرج مدير الشرطة العام الدكتور عبد الكريم العائدي مبدياً دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية حيث كانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمعات ممنوعة بمناسبة الحرب، وحاول فض المظاهرة بالحسنى، فأبى الجمهور إلا أن تصل إلى فندق الشرق، حيث كان يقيم رئيس الوزراء السيد سعد الله الجابري رحمه الله، ولما وصلت المظاهرة إلى ساحة محطة الحجاز حيث فندق الشرق، أرسل رئيس الوزراء مدير الشرطة العام ليحمّله المتظاهرون مطالبهم(١).

ثم انتقل الشيخ السباعي بعد ذلك إلى جميع المدن السورية يشرح للجماهير خطورة الوضع الذي آلت إليه القضية الفلسطينية، والمخاوف التي تحيط بمستقبلها، حتى ظن الغافلون عن حقائق الأمور أن الشيخ يبالغ فيما يسرده من أمور خطيرة حول ما يحدث في فلسطين(٢).

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ انتظم عمل الإخوان المسلمين لفلسطين بقيادة الشيخ السباعي في ثلاثة ميادين:

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) المرجع نفسه: ٣٢٥ .

أ - الصعيد الرسمي: بتقديم المذكرات للحكومة وللجامعة العربية.

ب - الصعيد الشعبي: بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

جـ - الصعيد العملي: حيث أرسل الإخوان بعض شبابهم، ليزوروا فلسطين، ويطلعوا بأنفسهم على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس وكثيراً من المستعمرات اليهودية، ثم جاءت أخيراً التعبئة العسكرية على أرض فلسطين(١).

وجد الشيخ السباعي أنه لا بديل عن حمل السلاح، ولذا طالب الزعماء العرب باستبدال الأفعال بسياسة المؤتمرات العديمة الفائدة - المنار ٥ - ٩ - ١٩٤٧- وكان الشيخ يرمي إلى إدخال التجنيد الإجباري - في الحياة العسكرية - وكان المبارك ممثل الإخوان في البرلمان قد طالب به، وبتسليح الجيوش، وإعادة النظر في العلاقات الاقتصادية مع الدول العظمى المضطهدة - المعادية - غير أن أهم واجبات الشعب، هو الاستعداد للقتال(٢).

ثم أشار الشيخ إلى خيبة الأمل في هيئة الأمم التي أُسست حديثاً. ونظم الإخوان المسلمون اجتماعاً خاصاً بهم - احتفال شعبي - يوم الجمعة في ١٢-٩-١٩٤٧ في المسجد الأموي في دمشق، أقسم فيه الحاضرون على الميثاق الوطني الكبير الذي نص على المطالب

(١) المرجع السابق: ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس رايسنر: ٢٥٢ - ٢٥٣ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

السياسية للإخوان في ما يتعلق بالمسألة الفلسطينية كما يلي:

أ - المطالبة بإقامة دولة عربية مستقلة في فلسطين، ومحاربة الخطة التي تدعو للتقسيم أو الإخلال بالحكم العربي في فلسطين.

ب - إن جميع اليهود الذين هاجروا بعد الحرب العالمية الثانية بناء على تصريح بلفور، هم غرباء عن فلسطين، ومطالبون بالعودة إلى بلادهم، وعليهم إعادة أراضيهم وممتلكاتهم إلى العرب.

جـ - يعلن الميثاق عن فقدان ثقة العرب بعدالة الدول الغربية، وبأن عليهم الاعتماد على أنفسهم في سبيل تحرير دولة فلسطين.

د - التعهد بمحاربة كل دولة تساند العدو الصهيوني بغض النظر عن الطرق التي تتم بها تلك المساندة.

هـ - البدء بتكوين جيش التحرير لإنقاذ فلسطين، من الشباب السوري، وذلك لمساندة الجيوش الشعبية العربية الأخرى في كفاحها لتحرير فلسطين.

و - محاربة مشروع سورية الكبرى الإمبريالي، والمحافظة على نظام الدولة الجمهوري في سورية.

ز - إن هذا الميثاق يعتبر بمثابة ميثاق وطني عام، يجب على الحكام التمسك به والتصرف بمقتضاه.

وعندما قررت الهيئة العليا للإخوان المسلمين في مصر إعلان الجهاد المقدس من أجل فلسطين في أيلول سنة ١٩٤٧ واستنفرت

الدعـاة والخطبـاء مطالبـين بأداء البيـعة والاسـتعداد لـلجهـاد من أجل فلسـطين، اسـتجـاب الإخوان المـسلمـون في سـورية مبـاشرة لـذلك النداء، وشـكلوا مع الاتجـاهات الأخرى اللجـنة المؤقـتة للدفـاع عن فلسطين، والتي وجهت بدورها نداء إلى الـمواطنين من أجل عقد لقاء كبير في المسجد الأموي في يوم الـجمعة، وقد ضمت اللجنة السادة: منيـر المالكي، وصـلاح الدين البيـطار ومصطفـى السباعـي، والنائب زكي الخطيـب. فخرجت مظاهرة كـبيرة في دمشـق وحلب، وأرسلت البرقيات إلـى الأمم المتحدة، وإلى زعماء الدول العـربية، وأعلن عن بدء التـطوع طبقـاً لوجود لوائـح في شعب الإخـوان المسلـمين مـعدة للراغبين فـي الجهاد في فلسطين، وفي ٨ تشـرين الأول نشرت المنار أن الكتيبة الأولى للإخوان تقف جاهزة لخوض المعركة(١).

٥ - في ٢٩ -١١- ١٩٤٧ صوتت الجمعية الـعامة للأمم المتحدة بأغلبية تتـجاوز ثلثي الأصوات أي ٣٣ مقابل ١٣ صوتاً لصـالح تقسيم فلسطين إلى قسمين، واحد يهودي وآخر عربي، حصل اليهود بموجبه علـى ٧٥٪ من فلسـطين، وذلك بـضغـوط دولية مـارستـها الـولايات المتحـدة على الدول التي تخضع لها، مـثل الفلبين وليبيـريا وهاييتي، فأصدر الإخوان المسلمون تصريحاً رسمياً بتاريخ ٢-١١- ١٩٤٧ بينوا فيه موقفهم المبدئي من قرار التقسيم كما يلي:

أيهـا الشعب الكـريم: لقد وقـعت الكارثة، فـبأغلبـية قوامـها ٣٣

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية لـيوهانس رايسنر: ٢٥٢ - ٢٥٥ الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

مقابل ١٣ دولة أقرت الأمم المتحدة خطة تقسيم فلسطين، إن التقسيم قد أصبح حقيقة واقعة بالنسبة للدول الحاكمة، وقريباً سيسارعون بتنفيذ قرار التقسيم وإنهائه إذا لم يقف العرب وقفة واحدة ليقولوا: كلا، إن الحكومات والشعب العربي تساندها الشعوب المسلمة في الشرق والغرب صرحوا منذ زمن طويل بأنهم لن يوافقوا على قرار التقسيم، وبأنهم لن يسمحوا بتنفيذه، وبأنهم سيسعون بكل ما يمتلكونه لجعل قرار التقسيم الذي يخالف منطق وتفكير كل من خطط له، وسعى لتنفيذه باطل المفعول.

لقد حان الوقت كي يريهم العرب والمسلمون أن وعودهم وتهديداتهم ليست سوى أكاذيب، وأن يتصدوا لعبيد الدولار، الذين يمتصون دماء الشعوب، ويعبثون بأسس العدالة، فإن العرب أشد روحانية من الصهاينة، وأقوى منهم تمسكاً بالدين، وأشد منهم تضحية بالدم والمال والنفس والشهادة، فإن تلك المؤامرة التي تنم عن احتقار شديد لحقوق الشعوب واستهزاء بكرامتهم، ليست سوى حلقة من مسلسل تساندت فيه كل الدول العظمى الثلاث لأجل مصلحتها من خلاله، وكل منها أدت دورها.

إن بريطانيا هي التي أعطت وعد بلفور، وكانت بالتالي أولى الدول العظمى التي فكرت بتقسيم فلسطين، أما أمريكا فكانت أولى الدول التي منحت الصهاينة تلك الشهرة العالمية وذلك النفوذ، ودعمتها بالدولارات، أما روسيا، فكانت الدولة التي حولت فكرة

التقسيم إلى أمر واقع، وذلك من خلال الضغوط التي مارستها من أجل التنفيذ والحث على الإسراع بذلك لتحويل الخطة إلى حقيقة واقعة. وهكذا فإن بريطانيا وأمريكا وروسيا هي الدول التي أرست قواعد تلك المؤامرة، وتنكرت إلى أبسط مبادئ العدالة والإنسانية. إن هؤلاء الناس قد ألقوا الأقنعة عن وجوههم، ووقفوا في أماكنهم، ليعلنوا بصراحة عداءهم لكم. إنهم يبدون لزعمائكم مدى ازدرائهم لهم، واستهزائهم بإرادتكم، وإنهم لا يعرفون سوى المصلحة المادية، فعليك إذن أيها الشعب أن تريهم مدى رجولتك بالوقوف أمام مصالحهم من خلال محاربة خططهم، ومقاطعة منتجاتهم وثقافتهم، إن كل ما في إمكانك أن تفعله للإجابة عن تلك الصفعة الأليمة التي وجهت إلى دولتك ومقدساتك هو الحرب. أما من الناحية الفعلية فإن الأمة قد صرحت بأنها سوف تعيش كأي أمة أخرى أعلنت عليها حرب غير عادلة، فإنها لن تعرف الراحة أو الكلل أو اللهو حتى تخرج منتصرة من تلك المعركة، والنصر سيكون حليفنا بإذن الله مهما طالت المعركة.

لقد تجلد أجدادنا مئتي عام حينما تعرضوا إلى غزو غادر مشابه أثناء الحروب الصليبية الأولى، ثم كتب لهم النصر، وهكذا فإن الأمة تعاهد على حرب طويلة مضنية، ولا هوادة فيها، إلا أن النتيجة تكمن بها، والنصر سيكون حليفها بإذن الله[١].

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس نقلاً عن جريدة المنار في ٦-١٢-١٩٤٧: ٢٥٨.

لقد سبق للشيخ السباعي أن طالب بإعادة تقويم العلاقات الاقتصادية مع الدول الكبرى، كما طالب بالمقاطعة البترولية، والتوقف عن إعطاء تصاريح من أجل التنقيب، أو إغلاق أنابيب البترول لمدة سنة لحل المشكلة الفلسطينية وتبديد الأحلام الصهيونية. فإن الحفاظ على شرف وكرامة الأمة العربية يقتضي الرفض المطلق لمنح امتيازات لشركة التابلاين أو السماح لها بتمديد أنابيب ضمن دولتنا بسبب الموقف الذي اتخذته أمريكا من الأزمة الفلسطينية، وكذلك موقفها السافر والمناوئ للعرب. ثم قال الشيخ في ختام حديثه: أيها المسؤولون، هل ستستجيبون لنداء الضرورة؟[1].

ومما جاء في نداءات الشيخ السباعي على صفحات المنار، أن الدول الإمبريالية تهزأ بنا، وأن كرامة العرب قد جرحت في صميمها بسبب التقسيم، وأن الغرب لم يتنكر لمثالياته العامة من خلال التقسيم فحسب، بل إنه كما يرى الإخوان المسلمون تنكر أيضاً لما جاء في مقدمة ميثاق الأمم المتحدة من الإيمان بحقوق الإنسان وكرامته ومكانة الإنسان الشخصية، ثم قال السباعي رحمه الله:

إن هيئة الأمم المتحدة قد ماتت، ومما يؤكد لنا موت الأمم المتحدة أن الدولتين العظيمتين اللتين هما في الواقع معسكران متصارعان فيما بينهما من أجل النفوذ، قد تحولتا إلى حليفين يسيران جنباً إلى جنب خلف جثمان العدالة لمرافقته إلى مثواه الأخير[2].

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٩ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية ٢٦٠ - ٢٦١ نقلاً عن المنار ٣-١٢-١٩٤٧ .

رفع الإخوان بعد ذلك مذكرة إلى رئيس الجمهورية شكري القوتلي بتاريخ ٣١- ١٢-١٩٤٧ نشرتها المنار في ٤-١-١٩٤٨ تضمنت ما يلي:

أ - فرض ضرائب إضافية من أجل فلسطين.

ب - مراقبة اليهود في سورية بسبب تعاونهم مع الصهاينة.

جـ - نشر الوعي لدى الشعب، ولا سيما بين العمال والفلاحين عن طريق الراديو والصحافة والمناشير والأفلام والخطب والرحلات.

د - إدخال تاريخ فلسطين كمادة أساسية في مناهج التعليم.

هـ - تأسيس هيئة عليا من العلماء والمفكرين تتولى تطبيق هذه الاقتراحات، وتشرف على تنفيذها. ثم أكدت المذكرة في القضاء على مظاهر التحلل والفساد، وعلى مقاطعة البضائع الصهيونية ومحاربة قرار التقسيم، وعدم عقد اتفاق مع شركة التابلاين[(١)].

وحتى يتمكن الإخوان المسلمون من إعلان النفير العام فقد انضموا إلى جمعية تحرير فلسطين التي أُسست عقب إصدار قرار التقسيم، وعين لقيادتها السادة: الدكتور أمين رويحة، وشاكر العاص، ومنير المالكي، وعزت الطباع، والفلسطينيان: عزت دروزة ومحمود الهندي، وكان من مهماتها: الدعاية وجمع المال وتجنيد المتطوعين، وقد انتمى للجمعية الشيخ مصطفى السباعي نفسه.

---

(١) المرجع السابق: ٢٧٠ - ٢٧١ .

عقدت الجمعية لقاءات في جامعة دمشق لتعبئة الطلاب، وفي أوائل كانون الثاني - يناير - ١٩٤٨ قام نائب رئيس الجمعية: شاكر العاص والشيخ السباعي بجولة إلى حلب ومعرة النعمان وحماة وحمص، وافتتحوا في حلب فرعاً لجمعية تحرير فلسطين برئاسة عمر بهاء الدين الأميري، وفي أوائل آذار - مارس سافر مصطفى السباعي مرة أخرى بمفرده إلى حلب والقرى المجاورة لتعبئة الجماهير في سبيل القضية الفلسطينية[1].

٦ - بدأ التحضير لجهاد السلاح، وهب الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع للقتال. يقول الأستاذ السباعي: أقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب، ولكن الحكومة فاجأتنا بقرار يمنع أي هيئة من تسجيل المتطوعين، وكان واضحاً أننا نحن المقصودون بهذا القرار، إذ لم تكن هناك هيئة أعلنت عن قبول المتطوعين غير الإخوان[2] ويذكر الأستاذ السباعي أن الاتفاق تم مع طه الهاشمي - مسؤول جيش الإنقاذ - على أن تذهب كتيبة الإخوان للتدريب على أساليب القتال في معسكر قطنا قرب دمشق، وأن يكون المكان الذي يقاتلون فيه هو مدينة القدس التي كان القتال فيها من أخطر المعارك، لأنه كان بين بيت وبيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين العرب وبين الصهاينة

---

(١) الحركات الإسلامية: ٢٧٢ .

(٢) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: ٣٢٦ .

إلا شارع ضيق لا يزيد عرضه على بضعة أمتار[1].

لقد وصف الأستاذ مشهور حمّود حيمور تدريب الإخوان في قطنا، فقال: شهدته - السباعي- رحمه الله ورافقته وهو يتدرب في معسكر قطنا مع إخوانه المجاهدين عام ١٩٤٧ على فنون القتال، وعلى استعمال أنواع السلاح، وكان يخلط ذلك التدريب العملي بالشحن الروحي والشحذ الإيماني لنفوس شباب الجهاد من كتيبة الإخوان، ويربط العقيدة بالعزيمة، ويوثق الاندفاع إلى الجهاد بحب الاستشهاد.

اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمين في كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ فرفضت ذلك، مما دعا إخواننا إلى الاندماج في كتائب المتطوعين، ولكن ما سارت أفواج المتطوعين إلى فلسطين حتى جاءتنا رسائل الإخوان المتطوعين من كل مكان تستغيث من الجو الذي يعيشون فيه، ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصة بهم، ينسجمون فيها مع عقيدتهم وأخلاقهم[2].

يقول الشيخ السباعي رحمه الله: عدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصة بهم، فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة، فنحن لا نقدم لكم سلاحاً، بل يجب أن

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه: ٤٥٩ .

(٢) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: ٣٢٦ .

يكون سلاحكم منكم، فلم يكن امتناع المسؤولين عن إعطائنا السلاح إلا تحميلنا مالا نقدر عليه، فلم نجد بداً من عرض الأمر على الإخوان المتطوعين، فكان من حماستهم ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرع بثمن بندقية، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في ثمن بندقية، وقد رأيت بعضهم وكان على أهبة الزواج يبيع إحدى سجادتيه اللتين اشتراهما لزواجه. ورأيت من باع منهم بعض ثيابه، ورأيت من استدان، وهكذا[1].

بعد شهر ونصف من التدريب، التحقت الكتيبة بالمجاهدين العرب على أرض فلسطين على دفعتين، الأولى بقيادة الملازم عبد الرحمن الملوحي وصحبة البطل عبد القادر الحسيني، وقد حضر هذا الفوج معه معركة القسطل التي استشهد فيها رحمه الله، ثم سافر الفوج الثاني بقيادة الشيخ مصطفى السباعي، وهو الفوج الذي تحدث الأستاذ السباعي عن سيره فقال: ثم سافر الفوج الثاني، وكان معنا مقاتلون آخرون بقيادة ضابط مسيحي من أبناء فلسطين اسمه عيسى، فاجتزنا جسر اللنبي إلى فلسطين، وتقرر أن نتجه إلى أريحا قرب القدس، ثم ننتقل منها إلى القدس، ثم قال رحمه الله: وتوزعنا على بيوت قرية مجاورة - البيرة - وكان من نصيبي أن أبيت تلك الليلة في بيت خوري القرية - رجل الدين المسيحي فيها - وقد لقيت منه ومن أسرته كل ترحاب وإكرام.

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٩ .

قام السباعي بتوزيع الإخوان على مناطق القدس العربية التالية: الشيخ جراح، المصرارة، سعد وسعيد، القطمون. وكانت مسؤولية القيادة فيها موزعة على المجاهدين السادة: عدنان الدبس وزهير الشاويش وكامل حتاحت، وكان مقر السباعي في غرفة القيادة - بالروضة - المطلة على المسجد الأقصى مع الضابط فاضل عبد الله - العراقي - والملازمين عبد الرحمن الملوحي وجمال الصوفي[1].

٧- قال رحمه الله: كان من واجبنا أن نضيق الخناق على يهود القدس الحديثة والقديمة - الغربية والشرقية - وكان فريق من مجاهدي الإخوان المسلمين المصريين بإشراف الأخ محمود عبده، وقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز يرابطون في قرية صور باهر الواقعة جنوبي القدس، وكان فريق من إخواننا الأردنيين بقيادة الأخ الحاج عبد اللطيف أبو قورة يرابطون في عين كارم الواقعة غربي القدس، وقد استطاع المجاهدون الفلسطينيون قطع الطريق الموصل من تل أبيب إلى القدس بعد معارك طويلة عند باب الواد اشتركت فيها مدفعية جيش الإنقاذ، حضرنا جزءاً منها، وبذلك أصبح يهود القدس ومستعمراتها القريبة منا مطوقين تطويقاً تاماً، إذ كان العرب أيضاً يسيطرون على طريق القدس الشرقي، لأنه طريق أريحا وعمان، كما كانوا يسيطرون على طريق القدس الشمالي، إذ هو طريق نابلس، ويسيطر على مدخله حي الشيخ جراح العربي.

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٩ - ٣٣١ .

كانت المعارك بيننا وبين اليهود في أطراف القدس وداخلها مستمرة، لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة من ليل أو نهار من خلال نوافذ البيوت أو منعطفات الطرق، أو الهجمات المباغتة على مراكزهم أو هجماتهم على مراكزنا، وكثيراً ما كانت ترسل النجدات المتعددة في يوم واحد إلى مراكزنا من المجاهدين الاحتياطيين الموجودين في مقر القيادة.

اشتدت هذه المعارك بعد أن جلا الإنكليز عن فلسطين في ١٥ أيار - مايو - ١٩٤٨، تاركين مراكزهم التي كانوا يحتلونها في منطقة القدس لليهود، وكانت هذه المراكز حاجزاً بين جماهير العرب وجماهير اليهود، فأصبح وضع العرب في القدس محرجاً لقلة المقاتلين وقلة الذخيرة عندهم، وكان حي القطمون أهم هذه الأحياء، وقد اشترك الإخوان في الدفاع عنه مع المجاهدين الفلسطينيين المرابطين فيه بقيادة الشهيد البطل - أبو دية - رحمه الله، فاستشهد عدد منهم، وثبتوا فيه حتى اضطر المجاهد أبو دية للانسحاب منه بعد إصابته واستشهاد معظم إخوانه.

وعندما غادر الإنكليز القدس اشتدت هجمات المجاهدين العرب على الحي، كما اشتدت مقاومة اليهود، ثم اضطروا للتسليم بعد نفاد ذخيرتهم بعد وقوع معركة القدس الكبرى التي سوف يأتي الحديث عنها لاحقاً، وقد تولى السباعي رحمه الله المفاوضة مع الوفد اليهودي قبل أن يحضر قائد الجيش العربي، ويتولى أمور المفاوضات مع اليهود،

وقد تم أسر المقاتلين، فلم يتجاوزوا برأي القائد مئة، مع أن المقاتلين منهم كانوا يزيدون على خمس مئة، فقد أخرج منهم رجال الدين ولو كانوا شباناً، والنساء مع أنهن كنّ مقاتلات. يقول الشيخ السباعي: وانتقلنا إلى المستشفى فوجدناه مليئاً بمن يتظاهرون أنهم من الجرحى، إذ كانوا قد عصبوا أيديهم ورؤوسهم وأرجلهم بعصائب، فأبينا إلا أن نفتش عن كل واحد منهم، وكان معنا طبيب عربي، فتبين بعد الفحص أن أكثر عصاباتهم كانت تمويهات، فضممناهم إلى الأسرى من الشباب، ثم غادرنا الحي اليهودي والدمار قد حاق بأكثره، والحرائق التي أشعلها اليهود قبل مغادرتهم قد أتت على الباقي.

٨- عندما تم جلاء الإنكليز عن القدس، وكان الحي اليهودي لم يستسلم بعد، أدركنا حرج موقف حامياتنا في القدس الحديثة، وأن اليهود سيبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ اليهود المحاصرين في الحي اليهودي، وكانت الذخيرة عندنا قليلة، بل إن فوج اليرموك وكان فيه إخواننا، وعدده أكثر من خمس مئة مجاهد، كانت بنادقه ورشاشاته كلها من النموذج الألماني، ولم يبق لديهم من الذخيرة إلا نزر قليل جداً، مما حملني على أن أغادر القدس إلى دمشق طالباً من قيادة جيش الإنقاذ تزويدنا بما نحتاج إليه من الذخيرة، استعداداً للمعركة المرتقبة، وقابلت طه الهاشمي، وعرضت عليه ما جئت من أجله، ففاجأني بقوله: إن فوج اليرموك قد سُحب من القدس إلى مقر قيادة القاوقجي، فلماذا تطلب الذخيرة الألمانية؟ يقول الشيخ: وهنا أدركت مصير معركتنا التي وضعت بأيدي مثل هذا الرجل، فقلت له: ومتى

سحب فوج اليرموك؟ قال: منذ أسبوع، فقلت: إنك أرسلت برقية إلى قائد فوج اليرموك تطلب إليه أن يلتحق شخصياً بفوزي القاوقجي نظراً لتبرم المجاهدين من جهله وغباوته وجبنه، أما فوج اليرموك فلا يزال في القدس، وإخواننا فيه، وأنا الآن قادم من القدس، وبنادقنا خاوية من الذخيرة، فأجابني بكل صلف (ماكو عندنا ذخيرة ألمانية) أي لا يوجد، فخرجت من عنده إلى رئيس الجمهورية، وعرضت الأمر عليه، فاتصل بالهاشمي، وطلب منه أن يعطيني ذخيرة ألمانية، فلما عدت إلى الهاشمي، وجدته مربد الوجه، وخاطبني بقوله: كيف ننجح وكل شيء عندنا بالوساطات؟ قلت له: إنني لا أتوسط لوظيفة عندك، ولكن أتوسط لنموت في المعركة موت الشرفاء، فأجابني: إنني أمرت بإعطائك خمسة آلاف طلقة إكراماً لرئيس الجمهورية، فقلت له: هذه سينال منها كل بندقية عشر طلقات، ونحن في القدس نتناوش مع اليهود في كل ساعة، فماذا نستطيع أن نقاوم بهذه الرصاصات العشر؟ فألحّ في عناده، وخرجت من عنده مغضباً إلى وزير الدفاع، فعرضت الأمر عليه، فاعتذر بأنه ليس عندهم ذخيرة ألمانية، وفي نهاية الحديث قال وزير الدفاع: إنه سيتصل بالقيادة العربية العليا للجيوش العربية في عمان، ويطلب منها إجابتي إلى طلبي، وقبل مغادرتي دمشق اتصلت به هاتفياً، فأكد أنه اتصل بعمان، ووعدوه بإجابة طلبي، وذهبت إلى عمان في نفس اليوم، واتصلت بالقيادة العامة، فكانوا مدهوشين من دعوى وزير الدفاع اتصاله بهم، وقالوا: إنه يعلم أن ذخيرتنا كلها إنكليزية، فمن أين

نأتيك بالذخيرة الألمانية؟ ولما يئست منهم اتصلت بأعضاء لجنة الدفاع عن فلسطين في عمان، وكلهم من خيرة التجار السوريين والأردنيين في العاصمة، وعرضت الأمر عليهم، وطلبت منهم النجدة، فأسرعوا يشترون كل ما وجدوه في السوق من ذلك، وزادوا عليه عديداً من القنابل وبعض الأسلحة، فعدت إلى القدس، وقد حملت من عمان آلاف الطلقات التي تمكننا من الاستمرار في المعركة ساعات، وكان وصولي قبيل الغروب بدقائق، فوجدت معركة الحي اليهودي مشتدة في ذلك اليوم، وقد جرح فيها الملازم الملوحي، وما يزيد على أربعين من إخواننا، واستشهد فيها ما يزيد على سبعة من شهداء الإخوان، ووجدت القائد فاضل عبد الله مستلقياً على فراشه، مستغرقاً في نوم عميق من شدة الإعياء والسهر في الليالي الخمس المواضي، حتى إذا كان الوقت الساعة العاشرة ليلاً جاءتنا أنباء من جميع حامياتنا على أبواب مدينة القدس بأن اليهود قد شنوا هجوماً عاماً على مختلف الأبواب، وركزوا هجومهم على باب الخليل الملاصق للحي اليهودي، عندئذ بدأت أوزع الرصاص على المجاهدين، ولما اشتد الهجوم الذي شنّه اليهود على باب الخليل بما يقرب من عشر مصفحات وآلاف المقاتلين - حوالي ستة آلاف من الهستدروت - لم أجد بداً من الاستنجاد بإحدى العواصم القريبة، فطلبت كبار المسؤولين باسم قائد حامية القدس، ثم أيقظت القائد فاضل عبد الله، وأخبرته بخطورة الوضع، وأني قد طلبت كبار المسؤولين في العاصمة العربية باسمه، فتم الاتصال بينه وبين كبير

منهم، وأعلمه بخطورة الوضع في القدس، وطلب منه إرسال نجدة عسكرية على وجه السرعة، فاعتذر عن ذلك وقال له وأنا أسمع: إذا وجدتم أنفسكم في موقف حرج فانسحبوا من القدس، فأجابه القائد: إن في القدس عدا أهلها ما يزيد على عشرين ألفاً من اللاجئين إليها بعد مجزرة دير ياسين، فإذا احتلها اليهود فستكون مجزرة لم يسمع بها التاريخ، فأجابه المسؤول الكبير وهو يظن أن حامية القدس كلها من بلده: أنا آمرك بالانسحاب، وأنتم عندنا أغلى!!

يقول القائد المجاهد مصطفى السباعي: وهنا لم أتمالك من أن أقول له: إن الحامية تقسم أن لا يدخل اليهود القدس إلا على أشلائها، فإما أن تنجدونا، وإما أن نقاتل حتى نستشهد جميعاً، وهنا جاء من يقول لنا: إن اليهود قد اقتحموا باب الخليل، فتركنا الحديث مع العاصمة العربية، وأسرعنا إلى إخراج من كان في القيادة من الجنود حتى الجرحى، ووزعنا عليهم كل ما كنت استحضرته من الرصاص والذخيرة من عمان، وأسرعنا إلى باب الخليل، وشاع في البلدة أن اليهود قد اقتحموا باب الخليل، فخرج النساء والأطفال من بيوتهم، وكان تيار الكهرباء منقطعاً، وسمعنا منادياً يقول: يا أهل القدس، كل من عنده سلاح فليذهب إلى باب الخليل، وهُرع الشباب والمقاتلون إلى هناك، حيث تبين أن اليهود لم يستطيعوا اقتحام باب الخليل للدفاع البطولي الذي قامت به الحامية هناك، وتحصّن المجاهدون ومن هُرع من أهل القدس وراء المتاريس عند باب الخليل وفوق أسواره، وابتدأت المعركة الكبرى منذ الساعة الحادية عشرة ليلاً

حتى الخامسة صباحاً، كان فيها صوت الرصاص والقنابل والديناميت يضج في الآذان بلا انقطاع، فلما انبلج الصبح، انسحب اليهود، وردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وخلفوا وراءهم مصفحة قد دمرت، وبعض القتلى الذين لم يستطيعوا سحبهم معهم، وعاد المجاهدون إلى أماكنهم، والمقاتلون المقدسيون إلى بيوتهم. يضيف الشيخ المجاهد: عدنا إل مقر القيادة فوجدنا ذلك المسؤول العربي الكبير يتصل بنا هاتفياً ليسألنا عن أنباء المعركة، فأجابه قائد حامية القدس بأن الله نصرنا وأعاننا على صد هجوم اليهود، لكن ذخيرتنا قد نفدت، فإذا لم تصلنا نجدة عسكرية في هذا اليوم فإننا في خطر شديد إذا عاود اليهود الهجوم، وفي عصر ذلك اليوم وصلت قوة من المدفعية الصغيرة معها بعض الجنود، وبدأت تضرب الحي اليهودي من مشارف القدس، فارتفعت معنويات سكان القدس، ودب الهلع في قلوب المحاصرين، وبعد ثلاثة أيام استسلم الحي اليهودي كما أسلفنا من قبل.

عاد السباعي إلى دمشق، وقابل كبار المسؤولين، وحكى لهم قصة القدس، وبعد جدل وتحاور دلل فيه المسؤولون عن جهل أو تجاهل فيما يجري في فلسطين، اعترفوا بسوء الحالة التي كان قد أشار إليها صفوت باشا، فقال الأستاذ السباعي: إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود، فكيف أعددتم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين، وهو لا يزيد على أربعة آلاف غير مدربين تدريباً كافياً، وليس له قوة جوية ولا مدفعية

ثقيلة، مع أن في القدس وحدها عشـرة آلاف مقاتل يهودي؟ فأجابني: إننا لم نرسل جيش الإنقـاذ ليحارب، بل ليقوم بمهمات مـؤقتة، فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنـزه في مناطق عربية كنابلس، بينما حيفا ويافا وغـيرها تسقط بأيدي اليهود، وكانت مـجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره، فسكتوا جميعاً.

عـاد السباعي إلـى القدس، وبعـد أيـام وقعت الهدنـة المشؤومة - كما وصـفها السبـاعي رحمه اللـه- قال: وجاءتنا الأوامر مـن قيادة جيـش الإنقاذ بدمـشق بالانسـحاب من الـقدس، وتسـليمـها للجيـش العربي، بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية[1]، ورأى السباعي أن من واجبه أن يكشف للجماهير الحقائق الـتي تبيّنها بنفسه، فقام بإلقاء محاضـرات في كل من دمشق وحـمص وحماة وحلب واللاذقـية ودير الزور وغيـرها من المدن السـورية، لقد شعـر السباعي وهـو في قلب مـعارك القـدس أن هنـاك مؤامـرة تجـري في الصـعيد الدولـي، وفي أوساط السيـاسات العربية الرسـمية العليا لجـعل التقسيم أمراً مـفروغاً منه، ولجـعل القدس تخـرج من أيدي العـرب والمسلمـين، ثم أبدى بعد ذلك الملاحظات التالية:

أ- إن جيش الإنقاذ الذي شكـلته الجامعة العربيـة، ووكلت قيادته إلى فوزي القاوقـجي لم يكن إلا تسكيناً لشعور العـرب الهائج في كل

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: ٣٣٢ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٦ بتصرف قليل. والحركات الإسلامية في سـورية ليوهانس ٢٥٢ - ٢٦١ و٢٦٨ - ٢٧٩ بتصرف وتطور الصحافة السورية جـ٢ لجوزيف إلياس ١٦٩ - ١٨١ بتصرف.

بلد، وإنه لم يكن يقصد منه جدياً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود.

ب- كانت مهمة جيش الإنقاذ تحطيم منظمة الجهاد المقدس التي انخرط فيها شباب الفلسطينيين، وأبدوا فيها من البطولات ما سجله لهم التاريخ بإعجاب وإكبار، وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة العربية على السلاح فخاب مسعاه، وعندما جاء إلى قطنا ليأخذ الفوج الأول من الإخوان قال: طلبت منهم مدفعاً واحداً فرفضوا، وأعطوني مئة بندقية لا تصلح إلا لوقود النار.

ج- لم تخض قيادة جيش الإنقاذ معركة جدية واحدة في فلسطين، فالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس، وصفوت باشا وطه الهاشمي لم يدخلا فلسطين قط، بل كان مقر الهاشمي في دمشق، وكان صفوت باشا يتنقل بين القاهرة ودمشق[1].

هـ- في مقابلة صحفية تمت قبيل وفاة الشيخ المجاهد طيب الله ثراه، سأله المحرر قائلاً: بمناسبة الحديث عن فلسطين قد عرفناكم في طليعة الذين أبلوا في سبيل استعادتها بلاءً حسناً، إلا أننا نحب أن توضحوا لنا كيف تم تراجع العرب منهزمين أمام الصهاينة، والعرب أكبر منهم عدة وأكثر عدداً؟ فأجاب بقوله: لم أكن وإخواني الذين شرّفنا الله بالجهاد في أرض فلسطين، وشرّف بالشهادة أكرم شباب هذه

---

(١) المرجع السابق: ٣٤٨ .

الأمة، لم نكن إلا قائمين بما يوجبه الإسلام من جهاد في سبيل الله، أما الهزيمة فحسبي أن ألخصها لك بكلمة واحدة هي - الخيانة - وكان قد أشار إلى هذا في وقت سابق بمناسبة ما وصفه بالحملة المسعورة الظالمة على الهيئة العربية العليا، وعلى رئيسها المجاهد المؤمن الصابر الحاج أمين الحسيني، فقال في افتتاحية العدد السادس من السنة الثالثة من مجلته - حضارة الإسلام -: وهذا ما يدعونا ويدعو كل عاقل مخلص إلى الربط ما بين نشاط إسرائيل وحلفائها، وبين الهجوم والافتراء الرخيص على الهيئة العربية العليا ورئيسها، وبذلك سيثبت التاريخ مرة أخرى أن كارثة فلسطين ما كانت تقع، لولا ارتباط بعض المسؤولين في البلاد العربية بدول الاستعمار، وخضوعهم التام لها[1].

٩- في صباح ١٥-٥-١٩٤٨ دخلت القوات العربية إلى فلسطين معلنة ابتداء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، وانتهت الجولة الأولى من الحرب بإعلان الهدنة التي سرى مفعولها في ١١ حزيران/ يونيو دون أن تتمكن الدول العربية من تحقيق أي من أهدافها العسكرية، بل تفككت قيادتها العسكرية المشتركة، وساد الاعتقاد لدى فئات كثيرة من الشعب ولدى القيادة العربية بأن تلك الهدنة قد سلبت النصر من أيدي العرب، وكذلك كان الأمر لدى الإخوان المسلمين، وقد أشاع الشيخ السباعي ذلك الرأي في إحدى زياراته التفقدية التي قام بها ما بين ١١-١٥ حزيران/ يونيو لمراكز الإخوان، وبأنه لابد للعرب من متابعة القتال حتى يتحقق لهم النصر.

(١) الدكتور مصطفى السباعي - مقدمات حضارة الإسلام: ٧٧ .

في ٨ تموز/ يوليو ابتدأت الجولة الثانية من حرب فلسطين التي استمرت حتى ١٨ تموز/ يوليو، وقد استغل الجانبان الهدنة لإعادة تسليح أنفسهما، إلا أن إسرائيل تمكنت من ذلك بشكل أفضل بكثير، فقد وقف ٤٠٠٠٠ جندي عربي أمام ٦٠٠٠٠ جندي إسرائيلي، وانتهى القتال الذي استمر عشرة أيام لصالح إسرائيل، وبذلك انتهت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى بالنسبة لمعظم الدول العربية، إلا أن تلك النهاية لم تكن مقبولة لدى الإخوان المسلمين، ففي لقاء كبير في الجامع الأموي في دمشق، أرسلت البرقيات إلى رؤساء الدول العربية تطالب برفض قرارات مجلس الأمن، وبمتابعة القتال، وفي نهاية اللقاء خرجت مظاهرة في سوق الحميدية متجهة إلى البرلمان، يرأسها معروف الدواليبي ومحمد المبارك ومصطفى السباعي(١).

وقد أورد مصطفى السباعي المطالب السياسية الرئيسية التي تتعلق بالأزمة الفلسطينية في افتتاحية المنار في ٢٥-٧-١٩٤٨ باسم الإخوان بما يلي:

- **في السياسة الخارجية:**

أ- إلغاء الهدنة ومتابعة القتال دون تهاون أو تخاذل.

ب- مقاومة رغبات مجلس الأمن التعسفية الجائرة، وقراراته المتعلقة بالمقاطعة الاقتصادية.

ج- الانسحاب من الأمم المتحدة، كي يبقى المجال مفتوحاً

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس: ٢٨٠ .

للتحرك أمام الدول العربية، وغير مرتبط بميثاق الأمم المتحدة، فقد تمكنت دولة صغيرة مثل ألبانيا من الاستهزاء بمجلس الأمن ورفض رغباته دون أن يلحق بها أي ضرر من ذلك، إذ أنها ليست مقيدة بميثاق الأمم المتحدة.

هـ- تشكيل رابطة عربية إسلامية تتألف من الدول العربية والإسلامية، كي تقف سداً يحول دون التسلط الصهيوني من ناحية، ورغبات البريطانيين والأمريكيين من ناحية أخرى.

و- اتباع سياسة اقتصادية ثابتة تبعد البضائع والمستهلكات الغربية التي لا فائدة منها سوى تبديد ثرواتنا.

ز- مقاطعة بترولية لكل من بريطانيا والولايات المتحدة والدول التي تقف إلى جانب الدول المعتدية.

ح- التخلص نهائياً من نفوذ المعسكر البريطاني - الأمريكي، والاستفادة من المعسكر الروسي في حال أي صدام بين المعسكرين.

- في السياسة الداخلية:

أ- إعلان التجنيد الإجباري في جميع الدول العربية.

ب- إقامة مصانع للأسلحة للاستغناء عن استيراد الأسلحة من دول الغرب.

ج- إفهام الأمة أننا في حالة حرب، وتكريس جميع ثروات الأمة ووسائل النقل من أجل المعركة.

د- الاستمرار في تعبئة الجماهير في الاندفاع إلى القتال حتى يتحقق النصر.

هـ- إصلاح واقع الأمة في تحسين مستوى المعيشة، ونشر الثقافة، ومكافحة الأمراض للنهوض بالمواطنين اجتماعياً وفكرياً وأخلاقياً.

و- مكافحة جميع مظاهر الميوعة والتحلل والفساد داخل الأمة، إلى أن تعود مظاهر الرجولة والبطولة إلى الأجيال الصاعدة.

ز- إزاحة أولئك الزعامات التي تتعاون مع دول الإجرام بريطانيا وأمريكا، وإبعادها كلياً عن قيادة المعركة، كيلا تتكرر المأساة مرة أخرى[1].

ومما يجدر ذكره أن الشعب بالرغم مما كابده من هموم وآلام، وما أصابه من خيبة أمل في المنظمات الدولية، وفي مواقف الدول الكبرى، وما صدمه من مواقف الحكومات وتآمر بعضها، وخضوعهم لمشيئة النفوذ الأجنبي، بالرغم من ذلك كله فقد ظهرت بطولات عظيمة، وشجاعة مذهلة، وتضحيات تذكّر بأمجاد العظماء من تاريخ أمتنا المجيد، فقد رفضت اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية أعداداً من المتطوعين لصغر أعمارهم، على الرغم من أنهم كانوا قد أعدوا أنفسهم للجهاد من خلال تدريبات الفتوة، وتبين الحادثة التالية الروح التي كانت تسيطر على أذهان كثيرين من شبان الإخوان

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس٢٨١ - ٢٨٢ .

المسلمين، فقد رُفض قبول أحد الشبان البالغ من العمر ١٨ سنة لصغر سنه، إلا أن إجابته كانت جاهزة (هل كان أسامة بن زيد حين عيّنه رسول الله ﷺ قائداً للقوات المسلحة أكبر مني سناً؟ هل تناسيتم العبر التي لقّننا إياها؟ وكيف ترفضون شاباً مثلي، وتحرمونه من التمتع بشرف الجهاد في سبيل الله وشرف لقاء أسامة بن زيد وأبطال الإسلام الشبان من أمثاله في الجنة، وبُرر قرار الرفض بتحديد عدد المقبولين في جيش التحرير، إلا أن ذلك الشاب وقف متربصاً إلى جانب الطريق الرئيسي، إلى أن مرت القوات المتجهة إلى فلسطين، فقفز إلى إحدى الحافلات وذهب معهم[١].

١٠- كانت مواقف الإخوان وبطولاتهم في سوح القتال، وتضحياتهم مبعث إعجاب وإكبار لدى قادة الجهاد الفلسطيني من أعضاء اللجنة العربية العليا، ومن القادة الميدانيين، ومن المؤرخين لأحداث فلسطين، فقد جاء في كلمة الأستاذ أميل الخوري المقرب من الحاج أمين الحسيني ورفيق دربه لفترة طويلة، تحت عنوان: ذكريات من جهاد السباعي جاء فيها: في ليلة الثاني من مايس/ مايو عام ١٩٤٨، وفيما كانت طلائع المجاهدين تتقدم نحو مستعمرتي عطاروت ونفي يعقوب فوجئنا بقدوم عدد من الرجال المسلحين، أكد لنا الحرس أنهم من العرب، وأنهم يريدون المساهمة في الجهاد والانقضاض على المستعمرتين، فلما ذهبنا للاتصال بهم، وجدنا أنهم قوة سورية مؤلفة من ١٥٠ رجلاً، جلهم من الشبان، يتحرقون شوقاً

(١) الحركات الإسلامية في سورية ليوهانس: ٢٧٤ - ٢٧٥ .

لخوض غمار القتال، وكان على رأس هذه القوة المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في لباس الميدان متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله، فهلل المجاهدون وكبروا، ورحبوا بإخوانهم في الجهاد أجمل ترحيب، وقبيل خوض المعركة الخطيرة حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً لإقناع الشيخ بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة ومهمة، لكنه أبى ورفض، وأصر على خوض غمار المعركة مهما كلفه الأمر، ولما لم نستطع ثني الشيخ عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في الطليعة، فكان له ما أراد، وخاض الشيخ السباعي ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر.

انتقل الشيخ مصطفى ورفاقه بعد معركة المستعمرات في لواء القدس، وانضم إلى قوات الجهاد المقدس في المنطقة الوسطى، متعاوناً مع القائد المرحوم حسن سلامة، وظل يجاهد في فلسطين حتى وقعت كارثة ١٥-٥-١٩٤٨، فاضطر هو ورفاقه إلى الانسحاب من فلسطين تنفيذاً لأوامر القيادات العسكرية العربية النظامية وتعليماتها(١).

أما مؤرخ النكبة الأستاذ عارف العارف، فقد سجل جهاد السباعي وإخوانه في كتابه القيم - نكبة بيت المقدس - فقال: اشترك من الإخوان المسلمين السوريين في حرب فلسطين زهاء أربع مئة أخ،

---

(١) الدكتور مصطفى السباعي لحسني جرار: ٨٩ - ٩٠ .

منهم مئة بقيادة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي، وهو أستاذ في الجامعة السورية، والباقون انخرطوا في صفوف جيش الإنقاذ، وقد استشهد منهم أحد عشر شخصاً، وجرح زهاء خمسين، ثم قال المؤرخ عارف العارف عن هذه المجموعة من الإخوان المجاهدين: وجلّهم إن لم نقل كلهم من الأسر المرموقة، ومن حملة الشهادات المثقفين، اشتركوا في معارك الحي القديم، وفي القسطل والقطمون، وفي الحي الأخير استشهد منهم كثيرون.

بعد إعلان الهدنة التي فرضت على القيادات العربية، توقف القتال، وعادت كتائب الإخوان من فلسطين، وعاد السباعي إلى دمشق يحمل جراحات قلبه(١).

وعندما سُدّت جميع الطرق أمام الإخوان لمتابعة القتال على أرض فلسطين، تحركوا في ساحات أخرى لنصرة القضية المأساة، عن طريق المحاضرات والصحافة وإصدار النشرات والكتب والمجلات الأسبوعية والشهرية، والقيام بجولات على المدن والقرى لتعبئة المواطنين، وإدخال موضوع فلسطين في المناهج التعليمية، وتقديم المذكرات إلى الحكومات وجميع الجهات المعنية، وتخصيص أسبوع من كل عام لإحياء القضية الفلسطينية في النفوس والضمائر، وتأليف الجمعيات الخاصة بالدفاع عن فلسطين في بلاد الشام والعراق.

(١) المرجع السابق: ٩٢ .

كل هذا وغيره تابعه الشيخ السباعي وإخوانه في مراحل لاحقة من تاريخ الجماعة بعد انقضاء المرحلة الأولى التي امتدت من عام التأسيس عام ١٩٤٥ وحتى حدوث الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩، مما سيأتي الحديث عنه تفصيلاً.

الإخوان المسلمون يعتقدون اعتقاداً جازماً أن النصر في النهاية محتم بإذن الله في موضوع فلسطين، ولو خسرنا ألف معركة، استناداً إلى نصوص قطعية، وأحكام فقهية، وإلى منطق التاريخ الصارم في اندحار الظلم مهما طال أمده، وإلى ارتباط ذلك بأصول العقيدة المستندة إلى كتاب الله وسنة مصطفاه ﷺ بما لا يدع مجالاً لشك أو حيرة. بالإضافة إلى المبشرات التي طمأن بها رسول الله ﷺ أمته على مدار التاريخ أن النصر في المآل سيكون حليف أمة التوحيد والرسالة الربانية الخاتمة.

❋ ❋ ❋

المرحلة الثانية

الإخوان المسلمون والانقلابات العسكرية
من ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٤

أولاً: بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٤٧ اتصل السكرتير الأول في السفارة البريطانية في واشنطن المستر سيشل بالمستر لوي هندرسون مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى وإفريقيا، وطلب منه مقابلته لسبب هام، وفي تلك المقابلة سلمه رسالتين على جانب كبير من الأهمية، صادرتين عن القسم الأجنبي في السفارة البريطانية، وحتى يكون أمام موظفي وزارة الخارجية وقت كافٍ لدراسة الرسالتين وتقديم لمحة عن مضمونهما لوزير الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطاني صباح الاثنين، فقد كانت أخبار الرسالتين تشير إلى عزم بريطانيا على إنهاء وصايتها على بعض أرجاء العالم، ولهذا فإنها لن تتمكن من تحمل أعباء المد الشيوعي في كل من تركيا واليونان[1] وتخشى بريطانيا في الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان وعلى تركيا. وعلى

(١) كتاب لعبة الأمم لمؤلفه مايلز كوبلاند ترجمة مروان خير، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ص٥٧ .

الولايات المتحدة أن تبادر إلى سد هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي إليه.

إن الخطر الشيوعي في نظر هندرسون لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط، بل وعلى كل أوروبا الجنوبية، وعلى شمالي إفريقيا والشرق الأوسط، وهكذا فقد أشعلت الرسالتان الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعال في شؤون العالم، وفي مواجهة السوفيات الذين ربما فاق خطرهم ألمانيا النازية.

في شتاء ١٩٤٧ عانت بريطانيا من نقص فادح في موارد الفحم بسبب سوء الأحوال الجوية وتراكم الثلوج إلى حد أعاقت وسائل النقل كلياً، وتسببت في إتلاف محصول الشتاء من القمح، وتوقف معامل كثيرة عن العمل، وترك حوالي خمسة ملايين من العمال عاطلين مما جعلها أكثر اقتناعاً بتسليم أمريكا زمام القيادة العالمية.

ومن عجيب المفارقات أن وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال كان يلقي خطاباً في برينسون أمام حشد من الشباب الأمريكي يوضح فيه الدور الذي بات على أمريكا أن تلعبه في العالم بعد أن تغلغلت في كل أركانه، جغرافياً ومالياً وعسكرياً وعلمياً. ودعا الأمريكيين أن يرتفعوا إلى مستوى مسؤولياتهم لضمان وسلامة العالم. وقد انتهى الوزير من إلقاء خطابه في ٢١-٢-١٩٤٧ وهو لا يدري شيئاً عن مضمون تينك الرسالتين الدبلوماسيتين اللتين أرسلتا إلى وزارته في اليوم السابق(١).

(١) المرجع السابق: ٥٨ .

١ً- شرعت الولايات المتحدة في وضع أسس وأصول واستراتيجية سياستها الجديدة لبسط نفوذها على دول العالم، طبقاً لدراسة مركز التخطيط السياسي الأمريكي تتلخص في ما يلي:

أ- تجاوز الاعتبارات الشرعية والقانونية للدولة الدستورية التي تحد أو تعرقل برامجها وخططها، واللجوء إلى أسلوب آخر، أو التمسك بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان ظاهراً، والاعتماد على وسائل أخرى في السر والخفاء.

ب- عدم الالتفات إلى القواعد الأخلاقية - وأن الخير هو الخير، والشر هو الشر - التي يرددها رجال الكنيسة، ليس لها أي اعتبار في تخطيط السياسة الأمريكية(١).

جـ- إذا وقفت حكومة أو حاكم حجر عثرة في وجه المخططات أو المصالح الأمريكية في آسيا وإفريقيا، فإن الحكومة الأمريكية عبر أجهزتها لا تتردد في إزاحته مهما كانت فداحة المخالفات الأخلاقية(٢).

د- تبديل أو العمل على تبديل الحكومات العاجزة - ولو كانت تدور في فلك النفوذ الأمريكي - واستبدال آخرين بهم، يكونون أكثر انسجاماً مع الظروف الراهنة.

---

(١) المرجع السابق: ٤٤ .

(٢) المرجع السابق: ٥٢ .

هـ- إن أي فحص لوثائق الخارجية الأمريكية ووزارة الدفاع وأجهزة المخابرات تظهر مثالية السياسة الأمريكية في الظاهر، وانتهازيتها وميكيافيليتها في الحقيقة والباطن(١).

بدأ الأمريكيون - في سياق اهتمامهم بالبلاد العربية - بتعليم موظفيهم أو أحسن موظفيهم اللغة العربية، وقامت الخارجية بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط، وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة، واستدعي تشارلز فيركسون الخبير في التعليم السريع للغات - من جامعة هارفرد - ليبدأ فصولاً دراسية في اللغة العربية لبعض الدبلوماسيين الشباب، فكانت نتيجة هذه الفصول أن قارب عدد الدبلوماسيين الأمريكيين المتكلمين باللغة العربية عدد المتكلمين بها من البريطانيين، وأربعة أضعاف المتكلمين بها من الروس، وأصدرت وزارة الخارجية أمراً بتعيين ارتشيبالد روزفلت - حفيد الرئيس تيودور روزفلت - كمنسق لنشاطها السياسي الخاص، وأرسلته إلى بيروت، وكان روزفلت هذا قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية، وكان يتكلم اللغة العربية وبضع لغات أخرى، ولم تمض فترة حتى كان الأمريكان في السلك الدبلوماسي في الشرق الأوسط من خيرة ما بمقدور حكومتنا تقديمه(٢).

٢ - بدأت أمريكا في مغامراتها في التدخل بالشؤون الداخلية

(١) المرجع السابق: ٦٣ .

(٢) المرجع السابق: ٦٩ - ٧٠ .

للدول المستقلة في العالم الثالث، وشرع رجال المخابرات يضعون خططهم لتنفيذ هذه السياسة، وتساءلوا: من أين يبدؤون؟ أمن تركيا واليونان؟ فالبلدان حليفان، ويريدان ما نريد، كما أن إيران مستبعدة، لأن الانسجام والتفاهم كاملان مع السياسة الأمريكية، إذن أمامنا العالم العربي الذي بدأت رائحة العداء تفوح من جنباته بعد انكشاف السياسة الأمريكية تجاه العرب، ووقوفها المعادي لهم، ودعمها الكامل لدولة إسرائيل.

كان المفروض أن يكون العراق أول أهداف هذه السياسة الأمريكية، لكنها استبعدت ذلك، مراعاة للعلاقة الأمريكية البريطانية، ولذا وقع الاختيار على سورية، هذا القطر الذي فشل الحكم التركي والانتداب الفرنسي في ترويض شعبه وإخضاعه[1].

حاول رجال السفارة الأمريكية في دمشق إقناع القوتلي بوجود إسرائيل، فوجدوه - كما ذكروا - أصلب من الصخر، وكذلك وجدوا من حوله كذلك، فسرعان ما اقتنعت - يقول كوبلاند - أنني:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وعندما وصل رئيس بعثتنا جميس ميكائيل كيلي إلى دمشق، وهو برتبة وزير مفوض، رفعت له تقريراً أقنعه بالحقيقة المرة، وهي أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بدأت معالمه تلوح في الأفق لإصرار القوتلي وأعوانه على مواقفهم، فلم يبق أمامنا سوى طريقين، فإما

(١) المرجع السابق: ٧٢ .

ثورة مسلحة يقودها بعض الانتهازيين بدعم سري من السوفييت - شيوعية - أو حركة من الجيش السوري بدعم منا نحن الأمريكيين.

٣- كان انقلاب حسني الزعيم يوم ٣٠ آذار/ مارس ١٩٤٩ من إعدادنا وتخطيطنا، فقد قام فريق العمل السياسي بإدارة الميجر ميد - رجل التنفيذ - بإنشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم رئيس أركان الجيش السوري، ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري.

اضطلعنا - نحن في السفارة - بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفصيلات المعقدة، بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي إلى أن بدأت الروائح تفوح منه، وأخذت الألسن تتناقل: أن حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الأمريكان(١). لقد أكد حسني الزعيم مراراً وتكراراً أنه لا ينوي العودة بالبلاد إلى الحكم البرلماني، وأنه عازم على زج السياسيين الفاسدين في السجون، وعلى إعادة تنظيم جهاز الحكومة على أسس أكثر فاعلية، وعلى إجراء الإصلاحات الضرورية في مجال الاقتصاد، وأخيراً (وهذا هو المهم من حركة الانقلاب) اتخاذ بعض الإجراءات الإيجابية لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي.

في اليوم التالي للانقلاب، أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم، وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا في

---

(١) المرجع نفسه: ٧٣ .

مناصب دبلوماسية، ومن يجدر أن يكون سفيراً في لندن. إلا أنه اتضح لنا أننا قد أغفلنا أمراً ضرورياً جداً عند رسم خططنا، وهو البحث عن رجل آخر يحل محل حسني الزعيم الذي بدأ يقترب من نهايته.

وفي صبيحة الرابع عشر من شهر آب/أغسطس ١٩٤٩ قامت مجموعة من أصدقاء حسني الزعيم الضباط، بقيادة سامي الحناوي اسماً، وأديب الشيشكلي فعلاً، بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية، وقد أخبرني - يقول كوبلاند - الشيشكلي بعدها أنه كان لبقاً معنا، إذ عامل حسني الزعيم على أساس أنه عميل فرنسي، وليس عميلاً أمريكياً[١].

٤- لم يكد يجلو آخر جندي فرنسي عن سورية، ولم تكد تنتهي أفراح الجلاء حتى التفت كبار ساسة الدولة السورية ورجالات الحكم إلى توزيع المناصب والمغانم وتقريب الأتباع والمحاسيب، فصارت خيرات سورية نهباً بين جماعات المحتكرين والمنتهزين[٢].

فتحت الصحافة السورية وقادة الأحزاب النار على رجال السلطة، وتحدثوا عن مظاهر الفساد في الحكم، وعابوا عليها تقريب المحاسيب وتفشي الاختلاس والرشوة، فدعا جلال السيد في العدد

---

(١) المرجع السابق: ٧٥ -٧٦ .

(٢) تطور الصحافة السورية جـ٢ ص٦٥، نقلاً عن مذكرات محمد كرد علي جـ٣: ٩٠١ .

١٩ (تاريخ ٢٩-٧-١٩٤٦) من جريدة البعث إلى انقلاب جذري يجتث الفساد من جذوره، وهكذا كان حال الصحف الأخرى طوال عام ١٩٤٧، فقد رفعت جريدة المنار راية الثورة على الأنظمة، ودعت إلى إسقاط الحكومات العربية المهزومة، وكانت القبس أقوى الصحف وأعنفها في التنديد بالحكام العرب، ونعتهم بالخونة الذين لا يخجلون، وفي ٤-١-١٩٤٩ دعت القبس إلى استقالة الحكومات بعد الهزيمة في حرب فلسطين.

بلغت الأزمة ذروتها حين راحت الصحف تنشر فضيحة المقدم فؤاد مردم - ابن أخي رئيس الوزراء جميل مردم - وسير محاكمته، وكلها - أي الصحافة- تجمع على أنه أمد العدو بالسلاح وباع وطنه من أجل فتاة يهودية، وتوضح للرأي العام كيف وصلت صفقة السلاح إلى اليهود، بدلاً من وصولها إلى سورية بعد شرائها من إيطاليا، وتربط بين هذه الخيانة وانحراف الحكم وفساده. فكان هذا وغيره من العوامل والأسباب التي مهدت للانقلاب العسكري وشجعت عليه.

نفذ حسني الزعيم انقلابه في ٣٠-٣- ١٩٤٩، وأتبعه بسلسلة إجراءات مألوفة لدى الانقلابيين، منها: إقفال الحدود، وتعطيل الصحافة، وملاحقة أركان العهد السابق، وبذل العهود بأن الحاكم الجديد سيكون في خدمة الشعب.

عقد الزعيم مشاورات مع كبار السياسيين مثل: الأمير عادل أرسلان وناظم القدسي وسامي كبارة ومعروف الدواليبي وأحمد قنبر

وزكي الخطيب، ثم فارس الخوري في وقت لاحق لإجراء الاستشارات لتشكيل حكومة دستورية، وفي اليوم الثاني للانقلاب عقد مجلس النواب جلسة استثنائية في فندق أوريان بالاس بسبب احتلال الفرق العسكرية لمبنى البرلمان، فصوت أكثر من سبعين نائباً لصالح الوضع الجديد، ثم قرر المجلس تشكيل لجنة ضمت فارس الخوري وعادل أرسلان ومصطفى برمدا للتباحث مع الزعيم والخروج من المأزق بحل دستوري، ولما فشل اللقاء أصدر الزعيم في ٢-٤-١٩٤٩ مرسوماً بحل البرلمان، ومرسوماً اشتراعياً نصب فيه نفسه رئيساً للدولة، وحصر السلطتين التشريعية والتنفيذية في يده(١).

اتخذ الزعيم من مديرية الشرطة مقراً مؤقتاً، وكان يرافقه أكرم الحوراني منهمكاً في إعداد البيانات والبلاغات(٢). وتتالت برقيات التهنئة من كل أطراف البلاد، وحظي الانقلاب بدعم كبار السياسيين مثل هاشم الأتاسي وفارس الخوري وسلطان باشا الأطرش، وكان حزب البعث أول الأحزاب التي أيدت الانقلاب، وفعل ذلك الحزب الوطني، وكذلك صحيفة حزب الشعب (صحيفة الشعب) الناطقة باسم حزب الشعب في عددها ٣٥ بتاريخ ١٥-٤-١٩٤٩(٣). ولم يخرج الإخوان المسلمون على هذا الموقف من الانقلاب الذي يشبه الإجماع، بل

---

(١) دراسة في تاريخ سورية المعاصر للدكتورة أمل ميخائيل بشور: ١٤٠ الطبعة الأولى طرابلس ٢٠٠٣ .

(٢) المرجع السابق: ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق: ١٤١ - ١٤٢ .

قالوا: إن الانـقلاب كان ضرورياً لإزالة الخبائث الـقديمة حـين نوهوا: لقد سبق لنا ذلك قبل سنتين، وجاء في مكان آخر أن الانقلاب السوري كان ضرورة ملحة لو لم يقم به الجيش لقامت به الأمة[1].

هذا ما بلغته ردات الفعل لدى السوريين، ساسة وصحافة وشعباً، على الفساد الذي استشرى في ظل حكم الوطنيين أو الحزب الوطني، ولم ينـج الإخوان المسلمـون كمـا رأينا مـن الانجراف وراء انـقلاب حسني الزعيم، فهل كان الـسوريون على صواب في ذلك؟ وهل كانوا على درجة من الوعـي والإدراك وبعد النظر في اندفاعـهم وراء حسني الزعـيم فـي انقـلابه عـلى الحـيـاة الدسـتـورية والبـرلمـانيـة والـحيـاة المدنية؟!!! هذا ما تأتي الإجابة عليه لاحقاً وغير بعيد.

٥- أصدر حسني الزعـيم المرسـوم رقم ١٤٩ في ١٢-٤-١٩٤٩ ألغـى بموجبـه الصـحف التـاليـة: بردى والبلـد والفـيحـاء والكفـاح والاستـقلال العـربي والراديو والفـن، والنظام وفـتى العرب والأخـبار والأنباء.

ثم أتبـعه بالمرسـوم ١٥٧ ألغى فيه تـراخيص ٦٤ جريدة ومـجلة، ولم يبق من الـصحف التي استـمرت في الصدور إلا الأيـام والقبس، والمـنار، وألـف باء والـعلـم والنـصر والـنــذير والـنضـال والـشعـب والسوري الجـديـد، ثـم ألغى فـي ٨-٥-١٩٤٩ امتياز النضال، وفـي

---

(١) الحركـات الإسلامـيـة في سـورية: ٣٢٢ نـقلاً عـن جريـدة المنـار في ٢-٤-١٩٤٩ و٢٨-٤-١٩٤٩ .

١٧-٥-١٩٤٩ ألغى امتياز المنار والشعب، وفي ٢٩-٥- ١٩٤٩ ألغى امتياز النذير والسوري الجديد، وفي ١-٨- ١٩٤٩ ألغى امتياز جريدة صوت سورية - بالفرنسية[١] -، وهكذا توج الزعيم عهده الانقلابي بتكميم الأفواه وإغلاق الصحف وإسكات الألسنة والأقلام. ثم تتالت إنجازات العهد الجديد، فألغى حجاب المرأة، وألغى الوقف الذري - الأهلي[٢] -، ثم خطا الزعيم خطوة في طريق فصل الدين عن الدولة[٣]. ثم كشف الزعيم القناع عن سياسته الخارجية وعلاقاته الدولية، فوافق على الاتفاقية مع شركة التابلاين الأمريكية، ومنحها امتياز إنشاء خط النفط من السعودية إلى مرفأ صيدا اللبناني مروراً من سورية، كما صادق على الاتفاقية مع الشركة البريطانية لمد أنبوب النفط من عبدان والكويت حتى طرطوس، وإنشاء مصفاة طرطوس لتكرير النفط، وقد مرت هذه الاتفاقيات دون اعتراض يذكر[٤]، مع أن البرلمان السوري سبق له أن رفض التصديق على اتفاقية التابلاين، واتهم النواب حكومة العظم بالعمالة للأمريكان أصدقاء إسرائيل، كما صادق الزعيم على الاتفاق المالي مع فرنسا التي كانت المعارضة والنواب معترضين عليه[٥]. ثم وعد الزعيم الأمريكان بالقيام بخطوة

---

(١) تاريخ الصحافة السورية جـ٢: ٧٣ - ٧٥ .

(٢) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٢٦ .

(٣) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق: ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) المرجع السابق: ١٢٧ .

إيجابية تجاه إسرائيل، واتفق معهم على التخلي عن المناطق التي احتلها السوريون والتي أصبحت بموجب اتفاقية الهدنة مناطق مجردة من السلاح، مع أن الوفد السوري المفاوض المشكل من: فوزي سلو وعفيف البزرة ومحمد علي ناصر كان له موقف آخر قبل انقلاب الزعيم. ثم أعلن الزعيم عن ترحيبه بالانضمام إلى حلف عسكري شرق أوسطي، ورحب بخطة مارشال ومساعدات النقطة الرابعة، وجاهر من دون تحفظ بصداقته للفرنسيين[1]. ثم عزم على تقوية الجيش، فاستخدم أموال الأوقاف المصادرة وإيرادات شركات النفط، ورفع الضرائب وحول مخصصات الوزارات الأخرى لصالح وزارة الدفاع[2].

وأخيراً ضم جهاز الدرك والأمن العام إلى الجيش بدلاً من وزارة الداخلية، وشكل وزارة في ١٦-٤- ١٩٤٩ احتفظ منها لنفسه بحقيبتي الداخلية والدفاع، وأدخل فيها عادل أرسلان وفيضي الأتاسي وأسعد كوراني الذي ألغى مجلة الأحكام العدلية،(وأحل مكانها قانوناً مدنياً مستعاراً من القانون المدني الفرنسي) باعتباره وزيراً للعدل، وبعد ثلاثة أيام من تشكيل الوزارة استقال فيضي الأتاسي، فرد الزعيم على موقف حزب الشعب المعارض بسجن رشدي الكيخيا وناظم القدسي وفيضي الأتاسي[3].

(١) المرجع السابق: ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق: ١٤٥ .

(٣) المرجع السابق: ١٤٢ .

فمن هذا الزعيم الذي أزاح الحكومة، وعطل الدستور، وحل البرلمان، وسجن رجال الرعيل الأول، وعزم على قلب الحياة الاجتماعية رأساً على عقب، وأعطى الصهاينة أكثر مما يريدون، وصادق على الاتفاقيات الاقتصادية والبترولية التي طلبتها أمريكا دون أن يأبه لأحد، وألغى حجاب المرأة المسلمة، وألغى القانون الإسلامي، وجاء بالقانون الفرنسي، وكمم الأفواه، وصادر أموال الوقف... إلخ هذه الإجراءات التي لم يألفها المجتمع السوري ذو الطابع العربي الإسلامي في تقاليده وتمسكه بقيمه وصاحب النزعة الاستقلالية الحرة، والذي يتوجس من تغلغل النفوذ الأجنبي - الفرنسي والإنكليزي والأمريكي -.

من هو حسني الزعيم؟

ولد حسني الزعيم في حلب عام ١٨٩٤ من أصول كردية وشركسية، تلقى علومه العسكرية في تركيا، وتقلد رتبة ملازم ثان في الجيش العثماني، ثم عيّن عام ١٩١٧ في حامية المدينة المنورة، وأمضى نهاية الحرب العالمية الأولى في معتقل بريطاني في مصر، ثم التحق بالجيش الفرنسي، ورقي في نهاية ١٩٤١ إلى رتبة مقدم، وحارب قوات الحلفاء تحت إمرة ممثلي حكومة فيشي - الموالية للألمان - التي عهدت إليه بمهمة تنظيم نشاطات وفعاليات العصابات ضد جيوش الحلفاء. اختلس الزعيم مبلغاً من الأموال التي رصدت لهذه المهمة[١]، فألقي القبض عليه من قبل قوات فرنسا الحرة،

(١) قدرها محمد معروف في كتابه أيام عشتها بنصف مليون ليرة.

وحكم عليه بالسجن عشر سنين، وبعد عامين وربع أطلق سراحه شرط إقامته في لبنان، ثم سمح له بالعودة إلى سورية، فالتحق بالجيش السوري عام ١٩٤٦، وعين رئيساً للمحكمة العسكرية في دير الزور، وفي عام ١٩٤٧، عين مديراً عاماً للشرطة، ثم في عام ١٩٤٨ صار قائداً للجيش، ورقي إلى رتبة زعيم - عميد -.

هذا هو تاريخ حسني الزعيم، خدم الجيوش الأجنبية، وارتكب جريمة السرقة، وصدرت عليه أحكام قاسية تشير إلى ضخامة المبلغ الذي اختلسه[1]، بل إنه اتهم وهو قائد للجيش السوري باختلاسات ذكرها مؤرخو وكتاب تلك الفترة؟

فهل يليق أو يصح أن يسند إليه القوتلي أخطر المناصب ويسلمه القوة العسكرية بجندها وسلاحها في كل سورية؟

أليس لدى القوتلي علم بتاريخه؟

أليس لديه الفطنة في إسناد أخطر المواقع لمن يستحقها؟ وهو الذي جاهد وناضل أكثر من نصف قرن ضد طغيان الاتحاديين الأتراك، والمستعمرين الفرنسيين، وحكم عليه ثلاث مرات بالإعدام؟

هل يقبل من رجال الرعيل الأول أن يندفعوا بتأييد من هدم الحياة السياسية برمتها كرد فعل على فساد الحكم؟

هل يقبل من هاشم الأتاسي الرئيس الجليل كما كان يسميه الشيخ

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٣٧ .

السباعـي، ومن فيضي الأتاسي، ورجال الـحزب الوطني والمسـتقلين والمعـارضين أن يمنحـوا تأييدهم بحـماسة لحـسني الزعيم وكـأنهم لا يعلمون عن تاريخه وأخلاقه شيئاً؟

وهل يصح من الإخوان المسلمين أن يكونوا مثل الساسة الآخرين بالإعـراب عن تأييـدهم لانقلاب مـشبوه دون أن تـكون لديهم الـقراءة لدوافعه وللقوى التي خططت له، ودفعت به إلى هدم الحياة البرلمانية والسياسية في سورية ولما يمض على استقلالها إلا ثلاثة أعوام؟

نحن لا نستغرب تأييد ودعم الحـوراني لانقلاب الزعيم، ولجميع الانقـلابات التي تـلته، ثـم انقلابـه عليـها بعـد اختـلافه مـعهـا، وهو المعروف بمكيافيـليته في كل حياته السياسية كما وصـفه عدد كبير من المحللين والمراقبين العرب والغربيين. وأيضاً لا نستغرب تأييد أنطون سعادة، ورفع مـذكرة بذلك في ١٠ نيسان ١٩٤٩ عندمـا أعلن الزعيم فـصل الـدين عـن الدولـة وإلغـاء حـجـاب المـرأة وتطـبـيق الـقـانون المدني(١).

بيد أن الأحزاب أو الكثير منها شعرت أنها اندفعت على غير هدى في تأييـد الانقلاب بعـد أن بدأت تفوح منـه رائحة التدخـل الأجنبي، وأن الانقلاب من صنع أمريكي، فأصيبوا بخيبة أمل، وأدركوا أنهم قد تورطوا، أما الإخوان المسلمون فقد أدركوا قبل غيرهم، أو في مرحلة مبكرة كـما قال الباحث الألمانـي يوهانس دايسنر: لن يحصـدوا خيراً

(١) المرجع السابق: ١٥٧ .

من الحكومة الجديدة، إذ أن الزعيم صرح لجريدة أخبار اليوم المصرية بعد الانقلاب بأقل من أسبوعين:

سأخوض حرباً حتى الموت ضد الشيوعية، وعندما أنتهي من الشيوعيين فسأهتم بالإخوان المسلمين، إذ ليس باستطاعتي القتال على جبهتين مرة واحدة[1].

٦- لذا لم يمض على الانقلاب سوى عشرة أيام، ومن دون أن يربط الإخوان أنفسهم بمنتقديه إلا وسارعوا كما جاء في المنار بتاريخ ٩-٤- ١٩٤٩ إلى رفع مذكرة باسم جماعة الإخوان المسلمين إلى حسني الزعيم جاء فيها:

إلى القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة:

إن الإخوان المسلمين يدعون إلى تقدم الأمة ونهضتها التي تنبثق من الأسس الكامنة في روح الأمة ونهضتها ورسالتها الإنسانية المتمثلة بالإسلام. إنهم يعبرون عن شعور لدى عامة الشعب، وينبذون كل ما يسيء لرسالته في أي وقت كان، ويقرون الحق، وينادون من أجله، وينبذون الحزبية السياسية - الضيقة - والعصبية الحزبية العمياء، فكم من مرة حاولوا سابقاً تنبيه الذين تقلدوا زمام الحكم إلى انحسار التأييد لهم، وإلى الفوضى في المعاملات الإدارية وتحلل الأخلاق، ونبذهم لكل ما لا يساعد الأمة في تحقيق حياة حرة شريفة، وإلى الترفع عن حب الذات والأنانية والاهتمامات الفردية، وإلى مبادئ

(١) المرجع السابق: ٣٢٥ .

الشورى والعدالة والاعتراف بالمصلحة العامة إلى أن حلت الكوارث بالأمة العربية، فكان ما يجب أن يحصل، واعتماداً على هذه الأهداف، فإن الإخوان المسلمين يتقدمون إليك، يا سيادة الحاكم في بداية هذا العهد الجديد بهذه المذكرة القصيرة التي تتضمن بعض أمانيهم المتعلقة بالإصلاحات الشاملة لكل نواحي الحياة، لقيادة الدولة إلى وضع دستوري مستقر، يضمن للأمة حياة مستقرة مع المحافظة على سيادتها، ولهذا يتوجب تحقيق المطالب التالية:

أ- العمل بمبدأ الشورى، اقتداءً بما جاء في القرآن الكريم - وأمرهم شورى بينهم - والإسراع بتطبيق الحياة الدستورية على الأسس التي تعتمد على توجهات الأمة توجهاً صادقاً، وتتوافق مع عقائدها ومبادئها.

ب- معاقبة المسؤولين على ما حل بالدولة من كوارث وتبذير للأموال، وتطهير جهاز الدولة من عناصر الخيانة والفوضى والجهل، وتنحيتهم إن أمكن ذلك.

ج- تقوية الإيمان، وبث الأخلاق السامية لدى الأمة، وإدانة جميع المظاهر السيئة من التحلل والخنوثة.

د- تقوية ونشر أخلاق الرجولة، مما يتوجب على جميع أبناء الأمة الحصول على تربية عسكرية، وتعبئة الأمة في الناحيتين المادية والمعنوية لردع أي خطر - ضد الوطن -.

هـ- الاهتمام بالجيش وعُدده وتجهيزاته، وتحصينه بـالمثل العليا من الدين والأخلاق والجسارة.

و- توجيه الثقافة العامة والمجتمع بما يتناسب مع كرامة الأمة، متوافقاً مع ميراثها، ومع تطورات المدنية في العصر الحديث.

ز- تطوير نظام اقتصادي عادل، يضمن نمو ثروات الدولة وتطور طبقات الشعب.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطاكم، وأن يوفق كل من يسعى من أجل مصلحة الوطن والمصلحة العامة، وانتصار مبادئ الحق والأخلاق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السكرتير العام لجماعة الإخوان المسلمين

عمر بهاء الدين الأميري[1]

يقول مؤلف كتاب الحركات الإسلامية يوهانس رايسنر: إن الفترة التي سبقت عام ١٩٤٧ أي منذ التأسيس وحتى عام ١٩٤٩ إذ منع الزعيم جماعة الإخوان وحل تنظيمها هي فترة نجاح لسياسة الإخوان المسلمين الداخلية، ويقول: لقد تمكن الإخوان المسلمون - عبر مفهومهم الإسلامي - من إيجاد القبول من جانب فئة كبيرة من الشعب، لأن الإسلام كان يمثل للكثيرين القاعدة الوحيدة لبديهياتهم وشخصيتهم[2].

لم يكن الزعيم مؤهلاً للاستمرار في الإمساك بناصية الحكم في

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) المرجع السابق: ٢٣١ - ٢٣٢ .

سورية، فقد كان ذا رعونة ومزاج متقلب، وكان يحب الظهور والشهرة، حيث مال إلى مظاهر الأبهة والتمجيد الشخصي، وخاصم الهاشميين، ثم ترامى عليهم، ثم أرسل وفداً رسمياً إلى بغداد لإبرام اتفاق عسكري دفاعي، شكله من: فريد زين الدين وأسعد طلس وتوفيق بشور، ثم تراجع عن ذلك مخافة معارضة السعودية ومصر، ثم حضر نوري السعيد إلى دمشق في ١٦-٤-١٩٤٩، وعرض على الزعيم إقامة اتحاد فوري، فوعد بدراسة الموضوع، وفجأة زار الزعيم القاهرة، وبدأ بحملة ضد الملك عبد الله ونوري السعيد، وأغلق حدوده مع العراق في ٢٦-٤-١٩٤٩ .

كذلك تقرب من الفرنسيين، ولم يكن مر على جلاء فرنسا عن سورية إلا ثلاث سنوات، وتقرب من تركيا، واستدعى بعثة عسكرية لإعادة تنظيم الجيش وتدريبه، وكان ارتماؤه في أحضان الأمريكان بدأ يظهر للعيان كما بدأ ينكشف الدور الأمريكي في تدبير الانقلاب، وكان قد شجع أنطون سعادة على انقلاب في لبنان، واستقبله لاجئاً وضيفاً في دمشق، ولم يلبث أن سلمه إلى حكومة رياض الصلح، إذ أعدم في ٨-٧-١٩٤٩ بعد استلام الحكومة اللبنانية له بأربعة أيام، وكان تساهله مع اليهود وتسليمهم الأرض التي كان السوريون قد احتلوها من فلسطين، وعزمه على إبرام صلح معهم مصدر استفزاز للسوريين جيشاً وأحزاباً وشعباً، فإذا أضفنا استهتاره بمشاعر العلماء والجمعيات الإسلامية بشأن الوقف والحجاب وعلمنة المجتمع، فإن حكمه قد استنفد أسباب استمراره مما عجل الانقلاب عليه، والإقدام

على إعدامه بأسرع مما كان متوقعاً[1].

ففي ١٣-٨-١٩٤٩ خطط اللواء سامي الحناوي آمر اللواء الأول مع ضباط دروز وقوميين سوريين وأنصار الحوراني للانقلاب الثاني، فأحاطت مدرعات اللواء في الثانية والنصف من صباح ١٤-٨-١٩٤٩ بمكان إقامة حسني الزعيم، وبعد مقاومة ضئيلة استسلم حراسه، وألقي القبض عليه وعلى رئيس وزرائه ليمثلا أمام محكمة عسكرية برئاسة الحناوي، وليُحكما بالإعدام، وبذلك تكون قد انطوت صفحة قاتمة من تاريخ سورية الحديث، فتحت الباب لإفساد الحياة السياسية، وتسليط العسكر على البلاد والعباد لفترة لا يعلم إلا الله وحده مداها!!

٧- لم يطل عهد الحناوي أكثر من أربعة أشهر، شأن الزعيم الذي أمضى في السلطة أكثر من أربعة أشهر بقليل، وكأنّ مهمته اقتصرت:

أ- على تشكيل المجلس الحربي الأعلى، أو ما سمي بمجلس قيادة الثورة من عشرة ضباط هم: العقيد بهيج كلاس المدير الأسبق لمكتب حسني الزعيم، مسيحي من حماة، ومن المناصرين لأكرم الحوراني، والمقدم علم الدين قواص، علوي من إنطاكية، عمل في قوات الشرق الخاصة (جيش فرنسي) وحارب في فلسطين، وعُرف بولائه للعراقيين، والمقدم أمين أبو عساف درزي، عُرف بولائه

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٥٤ - ١٥٧ .

للملك عبد الله، شارك في مصرع الزعيم وفي كل الانقلابات منذ عام ١٩٤٩، والمقدم محمود الرفاعي، سنّي من دمشق، درس في ألمانيا هندسة السيارات والطائرات، وخاض حرب فلسطين تحت إمرة فوزي القاوقجي، ثم التحق بالقوى الجوية، والرؤساء - النقباء - عصام مريود وحسين الحكيم وخالد جاد ومحمود دياب.

ب- إعادة الحياة الدستورية، فقد أُعدّ قانون لانتخابات جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور جديد للبلاد من قبل لجنة مشكلة من: فيضي الأتاسي وعادل العظمة، وميشيل عفلق وأكرم الحوراني، كما أنشأ مجلس الوزراء مديرية عامة للدعاية والأنباء، عهد إلى أكرم الحوراني بالإشراف عليها وثبّت قانون الانتخابات الصادر في ١٣-٩-١٩٤٩ حق المرأة المتعلمة بالاقتراع، وحدد بالمرسوم رقم ٢٣٩ إجراء الانتخاب للجمعية التأسيسية في ١٥-١٠-١٩٤٩، قاطع الحزب الوطني الانتخاب، فأدى هذا إلى تغيير ميزان القوى لصالح حزب الشعب الذي خاض الانتخابات بقوائم مستقلة، وكذلك فعل حزب البعث، أما الإخوان المسلمون فقد شكلوا مع بعض الجماعات الإسلامية جبهة موحدة، خاضت الانتخابات تحت اسم: الجبهة الإسلامية الاشتراكية، وأعلنت في بيانها الانتخابي أنها سوف تعمل لتحقيق الاشتراكية - العدالة الاجتماعية - التي دعا إليها الإسلام، وإلى توثيق الروابط بين البلاد العربية، وحماية استقلالها ضد المؤامرات الإمبريالية، وقد نشط الإخوان المسلمون في سورية بعد

الانقلاب على الزعيم، وبرزوا - كما تقول د. أمل بشور - كقوة سياسية بسبب معارضتهم للنظام السابق في عهد الزعيم- كما ذكرت صحيفة المنار في العدد الخامس في ١١-١١- ١٩٤٩[١] .

٨ - كانت انتخابات ١٥-١٠-١٩٤٩ حدثاً هاماً في مسيرة الإخوان المسلمين السياسية، إن لم تكن منعطفاً كبيراً في الحياة السياسية للجماعة، فقد خاضوا معركة الانتخابات للهيئة التأسيسية بقائمة عن مدينة دمشق، وليس بمرشح واحد عن الجماعة هو الأستاذ محمد المبارك كما كان الحال في عام ١٩٤٧، وقد حملت القائمة اسم الجبهة الاشتراكية الإسلامية، وضمت عدداً من المرشحين جاؤوا إلى دمشق من المدن السورية الأخرى، فالسباعي من مدينة حمص، ولم يكن مرَّ على سكنه في دمشق إلا بضع سنين، والأستاذ المبارك من أصل جزائري، جاء جده إلى دمشق بعد ثورة الجزائر التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري، فرُزق مولوداً فيها سمّاه عبد القادر، هو والد الأستاذ محمد المبارك، والدكتور الطبيب عارف الطرقجي الذي حضر من حلب إلى دمشق ليدرّس في كلية الطب، والسيد صبحي العمري الذي تنقل بين دمشق وبغداد بعد هيمنة فرنسا على سورية، وإبعاد ملكها فيصل بن الحسين إلى خارجها، وكان العمري يلبس فيصلية - لباس الرأس - كالتي يلبسها رجالات العراق، وسعيد حيدر من شيعة بعلبك، وكان قد شارك بالثورة السورية، وأصيب في رجله

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٦٤ - ١٦٥ .

إصابة خلفت فيها عرجاً، فلم يفطن لانتمائه الطائفي، لبعده عن التعصب، وتحرره منه، ولما كان يتمتع به من سمعة طيبة، وصيت حسن، ورصيد وطني ثمين، وقد ضمت قائمة الجبهة مرشحين عن المقعدين المسيحيين هما الطبيب جورج شلهوب عن الكاثوليك، والمحامي قسطنطين مِنَسَّى عن الأرثوذكس، فكان لهذا التبني صدى في الخارج، إذ أوردت التايمز اللندنية في ٢١-١٢-١٩٤٩ ما يلي:

إن الإخوان المسلمين ليسوا منظمة عسكرية، بل مجموعة من الشرفاء المخلصين، وللتدليل على ذلك بشكل أكبر، فقد اتحد معهم النصارى[1].

أما في حلب حيث تم ترشيح معروف الدواليبي وعمر بهاء الدين الأميري كمرشح مستقل، فنجح الدواليبي باسم حزب الشعب ودعم من الإخوان المسلمين الذين لم تنقطع صلته بهم وتعاونه معهم.

حقق الإخوان المسلمون وأنصارهم وحلفاؤهم - الجبهة الاشتراكية الإسلامية - في انتخابات ١٥-١٠-١٩٤٩ فوزاً ساحقاً في العاصمة، ونالت قائمتهم أعلى الأصوات، باستثناء مرشح معارض مستقل واحد هو الأستاذ سامي كباره الذي زادت أصواته على الأصوات التي نالها الشيخ السباعي بحوالي مئتي صوت، فبرهنت دمشق أن ولاءها للإسلام يتقدم على كل ولاء، إقليمي أو أسري أو مادي، وأن الإخوان المسلمين الذين نالوا ثقتها - وهي قلب العروبة

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٦٥ .

النابض كما يسميها الساسة والمؤرخون - قد مثلوا عاصمة الأمويين بروحها الإسلامية وطابعها العروبي، أما مرشحو اليسار من بعثيين - ميشل عفلق - وشيوعيين - خالد بكداش - فقد فشلوا، ولم ينالوا سوى أصوات محدودة، غير أن المفاجأة كانت نجاح عصام المحايري عن الحزب السوري القومي غير المتوقع، لأن معركة الإخوان كانت مع اليسار، ولم تكن مع المحايري والمستقلين، ولو أن الإخوان توقعوا نجاحه لعملوا على تحويل الجمهور عن انتخابه، ومن ثم إسقاطه، كما سمعت ذلك من الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله.

شكل نواب الجبهة - الإخوان - تكتلاً مهماً بعد أن انضم إليه عدد من النواب وتعاونوا معهم، أمثال عبد الحميد الطباع مرشح الجمعية الغراء، وعبد السلام حيدر، والشيخ عبد الوهاب سكر عن منطقة الباب التابعة لمحافظة حلب، بالإضافة إلى تعاون الدواليبي مع الجبهة في كل الموضوعات ذات الأهمية، والدكتور جورج شلهوب والمحامي قسطنطين منسّى، ليكون العدد كما قالت جريدة الليموند الفرنسية في ٢٩-١-١٩٥٠ : قد بلغ عدد نواب الجبهة عشرة نواب[١]. وكان نواب الجبهة من العلماء الكبار، ومن قادة الفكر ورجال السياسة، وهذا يجعل تأثيرهم في المجلس يفوق عددهم، قياساً على الأعضاء الآخرين من العشائر والأحزاب والمستقلين، وبالإضافة إلى قوة الجبهة العددية والنوعية، فإنها طرحت برنامجاً شاملاً، كان عُدَّتَها في حياتها النيابية، وفي برامجها السياسية.

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٥٩ .

هذه هي مواده ومفرداته:

أ – في السياسة الخارجية.

– العمل من أجل تقوية الروابط بين الدول العربية في شتى المجالات، وإزالة العقبات فيما بينها، والتي تحول دون تحقيق الوحدة المطلوبة، وإن أي تقوية لتكتلات عربية هي في مصلحة الأمة العربية إذا كانت لا تخضع لتأثير السياسة الإمبريالية وسيطرة أعوانها في صفوف قادة ورؤساء الدول العربية.

– تعديل ميثاق جامعة الدول العربية بحيث تتحول إلى أداة قوية لتكون قائدة للأمة العربية، وليست أداة لبسط نفوذ أولئك الذين يتسلمون مناصب في داخلها.

– حل المشكلة الفلسطينية من خلال إخراج القوة الكامنة في نفوس العرب والمسلمين إلى النور، واستخدام جميع إمكانات الشعب من أجل تحرير الأرض المقدسة من مخالب الصهيونية وإزاحة أولئك السياسيين والعسكريين الذين هزموا في حرب فلسطين من قيادة المعركة القادمة، وحل مسألة اللاجئين بتأمين عودتهم إلى ديارهم.

– تقوية رابطة التعاون بين الدول الإسلامية في المجالات الثقافية والاقتصادية وغيرها.

– إيجاد روابط سياسية مع الدول الكبرى تستند إلى قاعدة من التكافؤ، على أن تشكل المحافظة على مصلحة البلاد وسيادتها

وضمان استقلالها القاعدة لأي تعاون بين الطرفين.

ب- في السياسة الداخلية

- حماية السياسة الداخلية من أي تدخل أجنبي، والمحافظة على النظام الجمهوري، مع المحافظة على التوازن بين السلطات ضمن حدود الدستور.

- على الدستور الجديد أن يتناسب مع شخصية الأمة، ويحقق آمالها في المحافظة عليها من خلال قوانين تُجاري العصر وتطوراته، حيث تضمن الحريات العامة، وتضرب على أيدي الذين يتلاعبون ويستهترون بحقوق الشعب وآماله واستقلاله وأمواله.

- نزاهة الحكومة وإقامتها على أسس دستورية تحول دون النزعة إلى التحكم، ويُعْتَرَفُ بها بتمثيل الشعب من خلال البرلمان الذي يتم انتخابه من قبل الشعب في انتخابات حرة، وبأن الشعب هو مصدر السلطات، وأعلى السلطات في تنفيذ سياسة الدولة وأمورها.

- إصلاح الإدارة الحكومية، وتنظيفها من الرشاوى والمحسوبيات، والتقليل من البيروقراطية من خلال تسريح غير الصالحين، والاقتصاد في الميزانية قدر الإمكان أثناء تعيين الموظفين الحكوميين وتحقيق العدالة ورعاية المصالح العامة.

- تقوية الجيش، معنوياً من خلال تقوية معتقداته الدينية وأخلاقه، ومادّياً، بتقوية أسلحته واستعداده، وإقامة مصانع للأسلحة والذخائر تضمن القوة لجيشنا أمام أي عدو، وتطبيق الخدمة العسكرية

الإجبارية لجميع أبناء الشعب، كي يشكل أبناء الأمة جيشاً احتياطياً، مستعداً للدفاع عن وطنه عند أي هجوم.

جـ - في إصلاح جهاز التربية والتعليم والنظام الاجتماعي

- من الضروري إقامة سياسة للإصلاح الداخلي على الأسس التالية: النظر إلى الحقائق، وليس إلى المظاهر، والبدء بالضروري قبل الكمالي، ويجب أن يشمل الإصلاح جميع أبناء الوطن دون تمييز بين أهالي المدن والقرى، أو الغني والفقير، ومراعاة صحة الفقراء قبل احتياجات الأغنياء.

- حماية العقائد من الإلحاد، واستلهام نظام الدولة وقوانينها من تشريعنا الإسلامي وإرثنا العربي، ونشر الروحانية والإباء والشجاعة في نفوس الأمة والمحافظة على أخلاقها من الميوعة، وتوجيه النشرات الإذاعية والسينمائية والصحافية نحو هذا الهدف.

- توحيد المناهج في المدارس الحكومية والمؤسسات الخاصة الأجنبية حسب قاعدتين متينتين: الإيمان بالله والتمسك بالأخلاق والفضيلة، لتتحول المؤسسات التعليمية إلى أدوات سليمة لإنشاء جيل يفهم رسالة وطنه، ويفتخر بآدابه، ويحقق مصلحة البلاد، حاملاً علامات التقدم والرجولة.

- على الدولة والشعب الأخذ بقانون التقشف الذي يحول دون الإسراف والتبذير وينمي أموال الدولة المخصصة للتسلح والتعليم والضمانات الاجتماعية وبرامج الإصلاح الضرورية.

- إيجاد سياسة مالية واقتصادية للدولة تعتمد على نمو الثروات الوطنية، وتحسين وسائل الإنتاج، وفتح الأسواق العالمية للمنتجات المحلية، وتنظيم الاستيراد والتصدير بحيث تتم حماية أموال الدولة، ومنع استيراد المواد الكمالية، وتخفيض عبء الضرائب عن عامة الشعب، وزيادة الضرائب التصاعدية على كبار الملاك والمتمولين.

- توزيع أراضي الدولة على صغار المزارعين وخريجي المعاهد الزراعية، وتحديد الملكية، وتحقيق العدالة الاجتماعية برفع المستوى المعيشي للشعب من خلال التعليم والصحة والتغذية، والأخذ بنظام الضمان الاجتماعي الذي يكفل لكل مواطن حق التعليم، والعناية الطبية، والمعيشية عند الشيخوخة والبطالة عن العمل.

- حماية حقوق العمال بضمان مصالحهم وزيادة إنتاجهم، وتحقيق التضامن بين العمال وأرباب العمل.

- الاهتمام بالقرى وطرقاتها، وتزويدها بالكهرباء وإمدادات المياه، والعمل في جميع القرى لإيجاد مكان لإقامة الشعائر الدينية ومدرسة ومكتبة ومركز صحي وطبيب مقيم أو متجول.

- رفع مستوى المرأة، وحماية أخلاقها وقيمها، والعناية بتربيتها فيما يجعلها أماً جيدة ومربية جيل ممتازة.

- تأميم الشركات الأجنبية المرخص لها، لتصبح ملكاً للدولة.

- تأسيس (مؤسسة للزكاة) لمكافحة الفقر والجهل والمرض، لرفع مستوى العائلات الفقيرة، ولتحقيق مخططات البناء التي تفيد

الفقراء بالدرجة الأولى، وتأسيس إدارات اجتماعية، للاجئين والعجزة والضعفاء والأيتام.

منذ البدء حسم الإخوان أمرهم في موضوع المشاركة في الحكم، ورجحوا المصلحة في ذلك على ما عداها، لكن ذلك لم يتح لهم بعد انتخابات ١٩٤٩ بسبب حل البرلمان بعد حوالي عشرين شهراً من انتخابه إثر الانقلاب العسكري الذي قام به حسني الزعيم، وأدى إلى تعليق الدستور وحل البرلمان ومباشرة الحكم الدكتاتوري. وعندما حدث الانقلاب الثاني بقيادة سامي الحناوي، وأنهى حكم الزعيم، ودعا إلى إجراء انتخابات نيابية لاختيار هيئة تأسيسية تضطلع بوضع دستور جديد، خاض الإخوان الانتخابات بنجاح باهر، وتشكلت حكومة ديمقراطية برئاسة خالد العظم في ٢٩-١٢-١٩٤٩، شارك الإخوان المسلمون فيها، وشغلوا حقيبة الأشغال العامة والمواصلات، التي أسندت للأستاذ محمد المبارك كممثل للإخوان المسلمين في وزارة العظم، وكما مثل المبارك الإخوان المسلمين في برلمان ١٩٤٧ بنجاح ملحوظ ومهارة فائقة، وكذلك في انتخابات ١٩٤٩، فإنه مثل الجماعة في الوزارة تمثيلاً لائقاً ومشرفاً، وحقق إنجازات كبيرة ما تزال آثارها مستمرة إلى يومنا هذا، وكان ميناء اللاذقية أحدها أو أهمها. فعندما قدمت السعودية قرضاً بستة ملايين دولار إلى سورية لبناء المرفأ، بادر وزير الأشغال العامة الأستاذ المبارك، وأنجز المخططات لبناء المرفأ في ١-١-١٩٥٠ قائلاً:

الدراسة الهندسية جاهزة، والتنفيذ المباشر بالعمل ممكن بالحال، وقد قوبل إرساء حجر الأساس في ١٩-٢-١٩٥٠ بترحيب الإخوان المسلمين كخطوة جادة في سبيل التوصل إلى تحقيق اقتصاد مستقل[١]. وعندما شكل حسن الحكيم وزارته في ٢٢-٨-١٩٥١ كان الأستاذ المبارك أحد أعضائها ليشغل وزارة الزراعة، ويولي اهتماماً كبيراً لأراضي الغاب التي تم تجفيفها في مشروع كبير استمر فترة طويلة، وكانت من أخصب الأراضي في سورية وفي غيرها، وحاول توزيعها على الفلاحين الذين لا يملكون الأرض، لكن نفوذ الحوراني المدعوم من الجيش تحكم في التوزيع، وخص المقربين في حزبه أمثال أخيه عدنان الحوراني وعلو الحريري وخالد محي الدين وغيرهم حصصاً من الأرض بواقع ألف وخمسمائة دونم لكل منهم، ولأمثالهم - كما كان معروفاً لدى أبناء مدينة حماة، ومع ذلك انتقد الحوراني -في إحدى جلسات البرلمان- التوزيع غير العادل للأرض على الفلاحين[٢].

ومما يحسب للأستاذ المبارك عندما كان وزيراً للأشغال في حكومة العظم تعاونه مع رئيس الوزراء - باعتباره وزيراً مختصاً - في التوصل إلى استقلالية اقتصادية، وذلك باتخاذ إجراءات حاسمة نحو شركات الكهرباء الأجنبية باعتبارها مسألة هامة في سياسة سورية الداخلية.

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق: ٤١٧ .

ففي منتصف كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢ عقد العظم والمبارك بصفته الوزير المسؤول محادثة مع المدير البلجيكي لشركة كهرباء دمشق والترامواي تعهدت الشركة بتزويد دمشق بالقدر الكافي من الكهرباء وبتمديد الكهرباء إلى قرى الغوطة ووادي بردى، وذلك بعد أن كانت تدعي عجزها عن ذلك حتى تلقت إنذاراً بوجوب قيامها بالالتزامات المنوطة بها، وبالرغم من ذلك الاتفاق حصلت أزمة حادة بين الحكومة وشركة الكهرباء سلمت الحكومة إثر ذلك مذكرة إنذار يطلب من الشركة الامتثال لتعهداتها خلال ستة أشهر، محملاً الشركة المسؤولية، وبأنها متقاعسة، وهدد الإنذار الشركة بسحب الامتياز.

إن هذا الموقف الصارم والحاسم من وزير الأشغال الأستاذ محمد المبارك مدعوماً من رئيس الوزراء يغاير مواقف الحكومات السابقة التي كانت تكتفي بالإنذارات الشفهية، ثم تقف عاجزة تجاه الشركات الأجنبية، ولم تكن شركة كهرباء دمشق هي الوحيدة التي واجهت هذا الموقف، فقد وجهت الحكومة بعد ذلك بأيام إنذارات لشركات وطنية بسحب تراخيصها إذا قصرت بتنفيذ ما تعهدت به، وكذا لشركات أجنبية، وهذا ما قوبل من الإخوان المسلمين بالتأييد والإيجاب[١].

في ٢٨-١١-١٩٥١ شكل الدواليبي وزارة عين فيها الأستاذ محمد المبارك وزيراً للزراعة - مرة أخرى - وعين نفسه وزيراً للدفاع فاعتقله الجيش، واعتقل معه أعضاء الوزارة، فمكث المبارك في

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٦٩-٣٧٠ .

السجن شهرين.

لقد أصبحت الجبهة الإسلامية الاشتراكية عاملاً مكملاً في السياسة السورية، وأصبح تصرفهم في السياسة الداخلية أكثر واقعية.

لقد تقلد المبارك الوزارة أربع مرات، تولى وزارة الأشغال العامة والمواصلات عام ١٩٥٠ - آخر أيام ١٩٤٩ - ثم وزارة الزراعة عام ١٩٥١[1]، ثم أسندت له وزارة الزراعة مرة أخرى، وعندما كان المبارك عضواً في وزارة حسن الحكيم أسند إليه رئيس الوزارة - قبل سقوطها في تشرين الأول عام ١٩٥١ - وزارة الاقتصاد لاحقاً كما يقول يوهانس رايسنر مؤلف كتاب الحركات الإسلامية في سورية من الأربعينيات وحتى نهاية عهد الشيشكلي. وربما التبس على المؤلف مقعد الوزارة الذي شغله الأستاذ المبارك، فذكر اسم وزارة الاقتصاد بدلاً من وزارة الزراعة كما أسند الدواليبي حقيبة وزراة الزراعة مرة أخرى للأستاذ محمد المبارك في وزارته التي لم تدم أكثر من بضع ساعات، إذ انقض عليها العسكر وأسقطوها وأودعوا رئيسها وبعض وزرائه في المعتقل. فكان هذا الحدث آخر العهد في مشاركة الإخوان المسلمين في الحكم في سورية.

إن أي تقويم موضوعي دقيق في هذه المشاركة التي سبق الإخوان السوريون بها جميع الحركات والجماعات الإسلامية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، استناداً إلى فقه الواقع والمصالح والمقاصد ودرء

(١) محمد المبارك العالم والمفكر والداعية لحسني جرار: ٨٠ .

المفاسد قدر الإمكان والطاقة (الذي أقرته دراسة فقهية - لاحقة - سبقت الإشارة إليها في هذه الصفحات بتكليف من القيادة العليا للجماعة) تدل على أن الجماعة في سورية سبقت عصرها، ومثيلاتها من الحركات الإسلامية في إدراك روح العصر، والاستجابة للدواعي السياسية التي تمليها مستجدات الحياة ومتطلباتها.

وكما كان الأستاذ محمد المبارك مثلاً طيباً في تمثيل الإخوان المسلمين في البرلمان السوري من حيث الأداء والإبداع وتقديم الدراسات والمشروعات والمقترحات، والتصدي للفساد والانحراف، والدفاع عن حقوق الفقراء والفلاحين والعمال والكسبة والحرفيين، والعمل الجاد على تعبئة الأمة وفرض التجنيد الإجباري على جميع المواطنين في مواجهة الغزو الصهيوني المدعوم من الدول الكبرى - شرقية وغربية على حد سواء - والطلب الملح في توزيع أملاك الدولة على المزارعين الذين ليس لهم أرض يملكونها، والوقوف في وجه المشروعات والمؤامرات والأحلاف الأجنبية لزج سورية في اتفاقيات عسكرية، تعرض استقلال الوطن للخطر، وتقضي على نظامه الجمهوري، مثل: مشروع سورية الكبرى والهلال الخصيب ومبدأ أيزنهاور والنقطة الرابعة وحلف بغداد... إلخ، إذ كان المبارك الصوت المدوي تحت قبة البرلمان، في جميع الدورات التي أحرز فيها ثقة أبناء العاصمة منذ عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٤ . كذلك كان في تمثيله لجماعة الإخوان المسلمين السورية في المشاركة في الحكم منذ آخر الأربعينيات وحتى العام ١٩٥٢ حين انقض العسكر على الحكومات

الدستورية، وألغوها، كما ألغوا البرلمان والأحزاب والدستور واستقلال القضاء! وحكموا البلاد بقبضة من حديد، كما سيأتي لاحقاً في هذه المرحلة الثانية من تاريخ الإخوان المسلمين في سورية.

كان الأستاذ محمد المبارك بارعاً في أدائه وفي نزاهته، ورغم ما يتعرض له الوزراء من إغراءات وأطماع، لم يسمع أحد عن المبارك ما يمس سمعته كوزير في إنجازاته وفي أمانته، بحيث من كان يعهد إليه بتشكيل الحكومة حريصاً على مشاركة الإخوان في الوزارات الائتلافية - عبر الأستاذ المبارك - أياً كان انتماء رئيس الوزراء الملكف السياسي، وأياً كانت سياسته، أو ميوله للشرق أو الغرب أو الحياد، كما كان حال خالد العظم، وفارس الخوري، وحسن الحكيم وناظم القدسي ومعروف الدواليبي، حتى ترسخ اقتناع لدى الساسة الكبار على اختلاف مشاربهم بأن مشاركة الإخوان - أياً كان حجم هذه المشاركة - مفيدة جداً للنزاهة والاستقرار ومواجهة الفساد. لقد جاء في كتاب محمد الفرحاني المطبوع في بيروت عام ١٩٦٥ بعنوان، فارس الخوري وأيام لا تنسى، ص٢٧٠: في النصيحة التي بعث بها فارس الخوري إلى المشير عبد الحكيم عامر، قال له حرفياً: من أجل مكافحة الأساليب الهدامة، أعتقد أن وجود الإخوان المسلمين في الحكم ضمان لتحقيق هذه النتائج، وتأمين الشعب على سلامة عقائده، ومن الخطأ القول: يجب على الإخوان الابتعاد عن المطالبة بالحكم، بل يجب أن نرجوهم، ونلح في الرجاء، ليقبلوا الاشتراك في الحكم، أنا شخصياً - ما زال الكلام للأستاذ فارس

الخـوري - كنت كلمـا دعيت إلى تـأليف وزارة، أسعـى جهد طاقـتي لإدخال واحد من الإخوان المسلمين في الحكم، ويمكن سؤال محمد المبارك كم رجـوته، وألحفت في الرجاء كي يقبل الاشـتراك معي في الحكم بوزارتي الأخيرة عام ١٩٥٤،أهـ.

بـهذا نسـتطيع القول بثقة واقـتناع أن مشاركة الإخـوان المـسلمين في الحـياة النيابـية، وفي الوزارات الائتلافـية كان ناجـحاً ونافعـاً بكل المقـاييس، ليس بالنسـبة لرأي الجمـاعة فحسب، بل بـرأي الآخرين الذين ينتمون إلى مدارس سياسية مختلفة، وإلى مشارب شتى.

لقد شـارك الإسلاميـون في وزارات ائتلافـية أخرى، فكـان الزرقا وزيراً للـعدل في وزارة صـبري العـسلي فـي ١٤-٦-١٩٥٦، وشارك الإخوان في عـهد الانفـصال في وزارة بشيـر العظمـة بثلاث وزارات، وكان أداؤهم جـيداً كالدكـتور نبيل الطـويل، وزير الصحة، والأسـتاذ عمر عـودة الخطيب، وزير التموين، والأسـتاذ أحمد مظهـر العظمة، وزير الزراعـة، لكن الجـميع لم يبـلغوا المـستوى الـذي بلغه الأسـتاذ محـمد المـبارك في تمـثيلـه للجمـاعة، رحـمه الله وأعلـى مقامـه في عليين.

ثانياً: ظلت دمشق عاصمـة الأمة الإسلامية تحمل الصبـغة العربية الإسلامـية منذ فجـر الإسلام وحتى يـومنا هذا، وفي زمن الـعثمانـيين الذي استمر في بـلاد الشام أربع مئة عام كان أبناء الشـام يشاركون في الحكم العثمـاني، ويشغلون مراكز ذات أهمية بـالغة في السلطة، دون

أن يشعروا بوطأة الترك أو بتسلطهم إلا بعد استلام الاتحاديين الحكم، وإقدامهم على جريمة نكراء، بحق العرب والإسلام عندما فرضوا اللغة التركية والقومية الطورانية على العرب ذوي الرسالة التي نزلت عليهم، وعلى القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، وبعد هزيمة حكومة الاتحاديين في الحرب العالمية الأولى، ودخول فرنسا إلى سورية ولبنان بقوتها العسكرية الغاشمة، وفرض الانتداب على السوريين، حاولت فرنسا بكل قدراتها أن تفرض على السوريين ثقافة جديدة، وطابعاً علمانياً، ومناهج تعليمية مستقاة من نظام التعليم الفرنسي، فهب العلماء والدعاة في وجه هذه الموجة العاتية، والتي وجدت من بعض أبناء سورية الذين تخرجوا في الجامعات الفرنسية، ومن بعض الأقليات الدينية والطائفية من يعاضدها ويساندها، ويرى فيها تقدماً ونهوضاً وازدهاراً.

احتدمت المعركة بين من يصمم على الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، ويؤكد على القيم الأصيلة التي تميزت بها أمتنا طيلة القرون الماضية بعد أن اختارها المولى سبحانه لحمل الرسالة وتبليغها إلى العالمين. وبين الذين حاولوا جهدهم إضفاء الصبغة الغربية في مفاهيمها وقيمها على الشعب، والانتقال به إلى حياة مغايرة في الفكر والثقافة والمناهج والعادات والتقاليد الاجتماعية، وفي التشريعات والقوانين والنظم، وبكلمة موجزة، إبعاد الأمة عن الإسلام، واللحوق بحضارة الغرب كالذي حدث للمسلمين في أقطار أخرى في آسيا وإفريقيا، سقطت بين براثن الغزاة والمعتدين، وقد رأينا كيف استطاع

حملة الإسلام أن يتصدوا لهذه الموجة، ويوقفوا زحفها، ويكسروا شوكتها.

١- عندما شرعت الجمعية التأسيسية بوضع دستور دائم لسورية، وطرح موضوع دين الدولة، كان ذلك كالشرارة التي فجرت الصدام بين التيارين المتصارعين: الإسلامي والعلماني، لتشهد سورية معركة حادة في ميادين العقيدة والفكرة والثقافة، لم يشهد السوريون من قبل ومن بعد مثلها. فقد بلغت التعبئة مداها لدى الفريقين، أما العلمانيون فقد استأسدوا، وكشروا عن أنياب لئيمة حاقدة، وصاروا يكيلون التهم الرخيصة جزافاً، وينعتون قادة الحركة الإسلامية بالعمالة والتخلف والرجعية، واستنفروا الأحزاب والكتاب والصحافة، وكان في مقدمة هؤلاء رجال الحزب الوطني وصحفه، كما كان في طليعة من رفض النص على أن دين الدولة الإسلام، أكرم الحوراني والشيوعيون، وبعض الغلاة ممن أشربوا في قلوبهم كره الإسلام والحقد على المسلمين، والافتتان بكل ما هو غربي وأجنبي، ينافي عقيدة الإسلام وأخلاقه وآدابه ومبادئ شريعته.

لقد حرض هؤلاء المناوئون رجال الدين المسيحي، ودفعوا بهم إلى عقد مؤتمرات للبطارقة ورجال الدين المسيحي ليرفعوا عقيرتهم معترضين رافضين لمادة دين الدولة الإسلام مهددين ومنذرين، لتسير المعركة في الدرب الوعر الذي كاد يفضي إلى صدام لا تحمد عقباه.

٢- كان شيخنا السباعي يؤثر أن يظل النقاش بين أعضاء اللجنة

والمجلس التأسيسي، وفي هذا السياق أقرت اللجنة الدستورية (التي اختارها المجلس من ٢٣ عضواً أن يكون دين الدولة الإسلام بأكثرية ١٣ مقابل ١٠ أصوات، وبما أن جماعة الإخوان المسلمين كانت المنظمة السياسية التي طالبت بأن يكون دين الدولة هو الإسلام، ولم يمثلها في اللجنة الدستورية سوى الشيخ مصطفى السباعي، فإن نتيجة التصويت تدل بوضوح على أنهم كانوا يعبرون في ذلك الصراع عما تكنه فئة كبيرة من الشعب - تأييداً لهم - غير أن الكتل البرلمانية قررت إلغاء المادة المتعلقة بدين الدولة، ولم تقر اللجنة الدستورية على ما اتخذته من قرار!؟[1].

لم يكتف المعارضون برفض المادة التي أوصت بها اللجنة، بل لجؤوا إلى نشر البيانات التي تعبر عن رفضهم لإقرار المادة المنوه عنها في الدستور، فوجد الشيخ نفسه مضطراً إلى أن يكتب بياناً يتوجه به إلى الأمة، وفي ذلك يقول شيخنا رحمه الله: لكنني قرأت أول أمس بياناً نشرته الصحف أو بعضها، لمن أسموا أنفسهم خريجي الجامعات العليا، وزعموا أنهم كلهم مسلمون، وقد خانتهم الجرأة والشجاعة، فلم يذكروا لنا اسماً من أسمائهم، لنعرف مبلغ الصدق فيما ادعوا من تخرجهم في الجامعات العليا، ومن انتسابهم إلى الدين الإسلامي، ثم قال: وقرأت أمس بياناً من بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق، كما قرأت مثله في معناه لبعض أحبار النصرانية في المدن

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٨٩ .

السورية، وحيث نزل أصحاب الرأي الثاني إلى الميدان الصحفي الشعبي يدلون بآرائهم وحججهم، أصبح من واجبنا أن ندلي بحججنا، وأن نطلع الرأي العام على حقيقة فكرتنا، إذ هو مصدر كل سلطة، وسيادته هي السيادة الحاكمة التي تتمثل في مجلسه التأسيسي وحكومته الدستورية.

كان الشيخ السباعي قد أوقف كل نشاط في الدعاية لموضوع دين الدولة، سواء في أوساط الجمهور أو الأندية العامة أو على صفحات الصحف، فاضطر الشيخ إلى إصدار بيان بتاريخ ٨-٢-١٩٥٠ يعد المرافعة المكتوبة التي قدمها السباعي للرأي العام السوري الذي ظل مشغولاً بهذه القضية أكثر من سبعة أشهر، وقد أوضح رحمه الله في هذه الوثيقة الأسباب التي تدعو إلى النص في الدستور على دين الدولة، ولماذا يجب أن يكون دين الدولة هو الإسلام[1]. ثم أبان عن ديمقراطية هذا النص، وعن المصلحة الداخلية والقومية والسياسية التي تدعو إليه، ثم ناقش اعتراضات الطوائف المسيحية والقوميين والعلمانيين وبعض الحقوقيين، وقام بشرح البيان في كثير من الخطب، ولا سيما في الجمعية التأسيسية عندما عقدت جلسة بتاريخ ٢٤-٧-١٩٥٠، وكان رده على نائب دمشق عن الروم الكاثوليك في دمشق موجعاً، لأن النائب اشتط وتطاول واتهم الذين ينادون بدين الدولة الإسلام بأنهم يعملون بوحي الأجنبي. جاء في رد السباعي

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه: ٣٨٦ .

على إلياس دمر، (والذي كان أقسى وأعتى من حمل ظلماً) أشد من وقع الحسام، فقال: إنه عبر عن معارضته بشكل بعيد عن الذوق واللياقة، إذ تعرض لزملائه تعرضاً غير جميل، ونعتهم بأنهم يعملون بوحي الأجنبي، وقال: أرجو أن يعتقد معي الزميل بأنه لم يكن موفقاً في موقفه هذا، وأنه كان أبعد الناس عن رعاية المصلحة العامة في هذه الجلسات التاريخية، ثم قال: إن الذين نادوا بمبدأ دين الدولة، ولي الشرف أن أكون أحدهم في هذا المجلس، لم يكونوا يستوحون إلهاماً أجنبياً، وإنما استوحوا الأكثرية الساحقة من هذا الشعب، الذي تجدون تصميمه على تسجيل هذه المادة في الدستور بآلاف العرائض والبرقيات والرسائل، هذا الشعب الذي تعلمون مقدار تمسكه بدينه، وخاصة في دمشق التي جعلت رجلاً كإلياس دمر لا يستطيع أن ينجح في الانتخابات إلا بعد أن تقرب إلى المسلمين فيها بأنه سمى نفسه - محمد إلياس دمر - وعندما قاطعه السيد دمر قائلاً: أنا لم أقل ذلك، وإنما الشعب هو الذي سماني بذلك، أجابه السباعي بقوله: بل أنت الذي كنت تقول ذلك، وقد قلت لي منذ شهر في غرفة المحاسبة بهذا المجلس بأنك لا تزال تسمى محمد إلياس دمّر، ولقد ذهبت في الانتخابات إلى أبعد من هذا، فكنت تقول للمسلمين بأنك رجل مسلم، وأنه لا يمنعك من إعلان إسلامك إلا خوفك من أذى المسيحيين، بل ذهبت إلى أبعد من هذا وذلك.

وأضاف الشيخ قائلاً: أما الزعم بأن النص على دين الدولة تفرقة

بين أبنـاء الشعب، وإثارة للنـعرات الطائفـية فهو زعم بـاطل، لأننا لا نريد بهذا النص تميـيز المسلمين عن غيرهم، ولا افتـئاتاً على حقـوق المـواطنين الـمسـيحيـين، وحـسبكم أن تـرجعـوا إلـى نص الـمادة - المقترحـة - كما جاءت في المشروع، لـتعلموا أنها كتبـت بروح نبيلة تشعـر بالإخاء بين المـواطنين، وليس القصـد منها إلا تحـقيق أهداف سيـاسية وقـومية واجتـماعيـة، هي في مصـلحة هذا الشـعب مسلمـيه ومسـيحيـيه على الـسواء، ولو كان الـنص على دين الدولـة يؤدي إلى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لما جاز لكثير من دول أوربية وأمريكية أن تنص عليه في دساتيرها.

وأما أن الغرب يسره أن نقيم دولتـنا على أساس الدين، فهذا وهم خاطـئ، وتجاهل لحـقيقـة موقف الـغرب من الإسلام!! إن أوربـا ما زالت تشن الحروب الفكرية والسياسيـة والأخلاقية لتبعدنا عن الإسلام وعـن أديانـنا. إن تـاريـخ الشـرق الحـديـث طـافح بـالـثـورات ضـد الاستـعمار، والغرب يـعلم تماماً أن مـبعث هذه الثـورات هو الإسلام الذي قامت ثـورته الكبرى على مـحاربة الظلم والـطغيان والاستـبداد، وحسبكم أن تعلموا أن المغـرب العربي، وأخص منه الجزائر، ما برح منذ مئة وعشـرين سنة يكافح الاستعمار الـفرنسي بروح الإسلام وروح محمد ﷺ والقرآن[1].

---

(١) حبذا العودة إلى البيان التاريخي للسباعي في كـتاب: مصطفى السباعي بأقلام محبيه: ٢٨٥ - ٣٩٧.

غير أن الاعتراض على المادة شمل الطوائف المسيحية التي حركتها وحرضتها الأحزاب السياسية، فعقد في دمشق مؤتمر مسيحي في ٢٠-٧-١٩٥٠، مثلت فيه جميع الطوائف، ورفع المؤتمرون مذكرة إلى رئيس الدولة تطالب أن لا يتضمن الدستور أي ذكر للدين[١]. ثم جاءت الاعتراضات على دين الدولة جراء الخوف من إثارة النعرات الطائفية، وإجهاض حقوق الأقليات الدينية خشية أن يحدث في سورية ما جرى في لبنان من حروب طائفية، والتي تعرض لها السباعي وفندها ذاكراً حرية الطوائف في القضاء بالنسبة للأحوال الشخصية، وفي قانون الانتخاب الذي أعطى الأقليات تمثيلاً برلمانياً حسب حجمهم[٢]. لقد ناقش الإخوان المسلمون مزاعم النصارى والبعثيين حول النص على دين الدولة بدعوى أنه يثير الروح الطائفية، ومن ثم لا بد من المطالبة بدولة علمانية متحررة باسم التقدمية، فأكد الإخوان أن التقدم دون الدين ليس ممكناً، كما دللوا على تسامح الإسلام الذي يعترف بالديانات السماوية الأخرى، وينص على ضمان حريات معتنقيها في الاعتقاد والعبادة وأحوالهم الشخصية، والحفاظ على كرامتهم وعلى احترامهم. وطالما أكد ألإخوان أن إعلان الإسلام ديناً للدولة لا علاقة له أبداً بالطائفية[٣] بل إن الهدف من تسمية دين

---

(١) دراسة في تاريخ سورية المعاصر: ١٩٣ للدكتورة أمل ميخائيل بشور.

(٢) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٨١ .

(٣) المرجع السابق: ٣٨٢ .

الدولة هو لمنحها مسحة روحية وأخلاقية تساعد في تحديد النظام والقانون عندنا، وفي التعاون مع إخواننا العرب وفي العالم الإسلامي[1]. واستشهدوا على ذلك باعتراف الهيئة التشريعية الدائمة في لاهاي في عام ١٩٣٧ بالقرآن مصدراً من مصادر التشريع[2] وأكثر ما استفز الإخوان وأنصارهم من الداعين إلى النص على دين الدولة الإسلام موقف بطريرك اليونان الأرثوذوكس، عندما أدلى في نيسان ١٩٥٠ بتصريح قال فيه: الشعب السوري منقسم إلى فئتين فيما يتعلق بدين الدولة، فئة تقدمية ترفض ذكر دين الدولة، وإليها تنتمي نخبة المفكرين والمثقفين من المواطنين المسلمين، فجاء الرد من الإخوان المسلمين على ما أدلى به البطريرك بنفس الوتيرة حين تساءلوا: هل يمكن اعتبار التقدميين بأنهم تقدميون لمجرد أنهم لا يعترفون بالدين؟ وهل أراد البطريرك بذلك التقدم التحريرية واللادينية؟ وهل يعلم البطريرك أن أولئك الذين سماهم تقدميين يعتبرونه رجعياً؟ ثم يعقب صاحب كتاب الحركات الإسلامية في سورية المستر يوهانس بقوله: لا شك أن الإخوان كانوا محقين في ذلك[3].

٣ - في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات ظهر في سورية

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٣ .

(٢) مصطفى السباعي - هذا هو الإسلام - المجموعة الأولى - الرسالة الثانية بعنوان: (الدين والدولة في الإسلام): ٦٦ .

(٣) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٨٨ .

رجال عظام في علمهم وجهادهم وإخلاصهم من أمثال الشيخ محمد كامل القصاب وآخرين في دمشق وحلب وحمص وحماة واللاذقية ودير الزور وغيرها، جاء ذكر عدد منهم في صفحات سابقة، استطاعوا أن يردوا أجيالاً إلى رحاب الإيمان، ويثبتوا في أفئدتهم روح الانتماء إلى العروبة والإسلام، بعد أن تعرض الناشئة لفتنة العلمانية والتغريب والافتتان بحضارة المحتلين الوافدين. غير أن الشيخ السباعي برّ هؤلاء الفضلاء بمقومات شخصية انفرد بها، فلم يكن له قرين أو شبيه في الأثر الكبير الذي تركه في تاريخ بلاد الشام ومصر في منتصف القرن العشرين، ولما يبلغ الخمسين من عمره المبارك.

كان السباعي رحمه الله موسوعي الثقافة، حاد الذكاء، حاضر البديهة، بعيد النظرة، عميق الفكرة، شجاعاً مقداماً لا يعرف الخوف إلى قلبه من سبيل، مهما كان حجم المخاوف وشديد المخاطر، وكان أليفاً يحبه من يعرفه ويلقاه، أو من يقرأ له، أو من يستمع إلى أحاديثه ومحاضراته. وبالجملة كان السباعي أمة في رجل، وتاريخاً في إنجازاته الضخمة على كل الصعد. فكان أوضح ما تجلت به شخصيته في موضوع دين الدولة عام ١٩٥٠، فلقد خاض معركتها في كل الميادين، وعلى جميع الجبهات، وتصدى للمناوئين الذين استماتوا في هذه المعركة المصيرية التي ستحدد الهوية والشخصية والانتماء لأبناء سورية، واستنفروا الأحزاب والكتّاب والصحافة

واليمين واليسار والصحافة، حتى ليخيل للذين تتبعوا طبيعة تلك المعركة، ورصدوا تفصيلات ذاك الصراع، أن لا قبل لأحد في مواجهتها، بيد أن الشيخ الكبير - اعتماداً على إيمانه الذي كان كالجبال بالله ودعوته، وتأييد العلماء والدعاة له - استخف بذلك كله، وتصدى له بروح الواثق بنصر الله، والمطمئن لتأييده، فخاطب كل فئة بمفاهيمها، وعلى قدر ثقافتها، مفنداً حججها، ومدللاً على تهافتها كما فعل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي من قبل. وأرى من الواجب في هذا السياق إيراد لمحات موجزة عن ردوده على الديمقراطيين والقوميين والسياسيين، والمواطنين المسيحيين والعلمانيين والحقوقيين، كل بلغته، وبقدر فهمه وثقافته:

أ - إن القواعد المتبعة في دساتير العالم وأنظمة الأحزاب ومداولات المجالس النيابية، بل في عرف الدنيا جميعاً أن رأي الأكثرية هو المتبع والمعمول به، فإذا قلنا: إن دين الدولة الإسلام، وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب، أنكون في هذا قد تجاوزنا الحق؟ وأهدرنا المنطق؟ وخالفنا الديمقراطية؟ وهذه هي الدول التي نصت دساتيرها على دين معين إنما اتخذت دين الأكثرية دينها الرسمي في كثير من الأحيان، فجمهورية الأرجنتين نصت في المادة الثانية من دستورها الصادر في ١٢-٣-١٩٤٩ أنها تدعم أو تؤيد أو تساند المذهب الكاثوليكي الرسولي الروماني، وهذه جمهورية إيرلندا تنص في دستورها الصادر في عام ١٩٣٧م أن

الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة المفضلة ذات الامتياز في الجمهورية، هذا عدا عن دساتير الدول العربية والإسلامية، وليس في الدنيا دولة لا يدين شعبها إلا بدين واحد، بل في كل دولة أكثرية في الدين وأقلية، فهل نكون قد أتينا ببدع من الأمر إذا مشينا على القاعدة التي تمشي عليها دول العالم؟

ب - والدولة السورية اليوم في وضع داخلي مؤلم لا ينكره أحد، وعبثاً تحاول النظم والقوانين أن تصلح روح أمة ما لم يكن معها وازع نفسي من دين وخلق، فإذا أردنا لهذا الشعب حياة كريمة وتعلقاً بالدولة، ودفاعاً عن الوطن، كان النص على دين الدولة الإسلام حافزاً للشعب - وهو في أكثريته الساحقة مسلم - أن ينفذ النظم التي تُسَنُّ له، والأوامر التي تصدر في مصلحته من حكوماته، إذ يرى في ذلك أمراً دينياً محتماً، لا يجوز التخلي عنه(١).

جـ - ونحن السوريين دعاة وحدة عربية، نعتبر أنفسنا جزءاً من الأمة العربية، ووطننا السوري جزءاً من الوطن العربي الأكبر، وجمهوريتنا هي اليوم عضو في الجامعة العربية، وستكون غداً بفضل الله جزءاً من الدولة العربية الواحدة، والعرب سبعون مليوناً على أقل تقدير، ثمانية وستون مليوناً منهم مسلمون، واثنان مسيحيون، ودول الجامعة - ما عدا لبنان لوضعه الخاص - تنص في دساتيرها على أن

---

(١) مصطفى السباعي - الدين والدولة في الإسلام - ننصح بقراءته كله، فقد ألمّ بالموضوع من كل جوانبه.

دين الدولة الإسلام، كما في مصر والعراق والأردن، أو يقوم واقعها على ذلك كالمملكة العربية السعودية واليمن، فالنص على دين الدولة الإسلام عامل قوي من عوامل الوحدة الشعبية بيننا وبين إخواننا العرب، فلماذا نهمل أقوى عامل من عوامل الوحدة العربية شعبية ورسمية، ولماذا نتجاهل الواقع الملموس؟(١)

د - ونحن العرب في واقعنا المؤلم، وفي حياتنا المقبلة لا بد لنا من ميدان نفوذ يساعدنا في الميادين الدولية، ويتصل بنا بعاطفة الحب أو الصداقة أو التعاون، وقد جعل الإسلام لنا في العالم الشرقي ميدان نفوذ يضم - أربعمئة مليون مسلم (عدد المسلمين عام ١٩٥٠) كلهم يحبون لغتنا وتراثنا وكتابنا وثقافتنا، حتى إن الباكستان قد قررت اعتبار اللغة العربية لغة رسمية لها، وقد رأيناها في هيئة الأمم تدافع عن حقنا في فلسطين دفاعاً حاراً قوياً استحق شكر الدول العربية وشعوبها، وقل مثل ذلك في أندونيسيا المجاهدة، وقد نصت هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان يبلغ عدد سكانهما مئة وخمسين مليوناً في مشروع دستوريهما على أن دينهما الإسلام (بلغ عدد سكانهما الآن ٤٠٠ مليون)، ألسنا نجد في هذه الشعوب ميدان نفوذ لشعبنا ودولتنا.

هـ - يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

- إن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه: ٣٩٠ .

المسلمين والمسيحيين، وهذا الفهم خاطئ من نواح عدة، أهمها: أن الإسلام يحترم المسيحية كدين سماوي، ويترك لأهلها حرية العقيدة والعبادة، دون أن يتدخل في شؤونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي حكم من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم وأحوالهم الشخصية، ونزيد على ذلك أنه مع احترامنا لكل ما ذكرناه، فقد اقترحنا أن ينص الدستور على احترام الأديان السماوية وقدسيتها، واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطراً على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟[1].

- إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وهذا خطأ بالغ أيضاً، فليس الإسلام ديناً معادياً للنصرانية حتى يكون النص عليه عداء لها، بل هو معترف بها، ومقدس لسيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية، وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعاً، ومنهم عيسى عليه السلام فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟ أو ليس النص على أن الإسلام

---

(١) المرجع السابق: ٣٩١ .

دين الدولة الرسمي، يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة، باعتبار الإسلام معترفاً بها ومحترماً لها؟[1].

و- ويعترض بعض القوميين بأن النص على دين معين للدولة ينفي الوحدة بين أبنائها، وأن سورية ذات أديان مختلفة، فلا يصح أن ينص على دين معين، إن الوحدة القومية بين العرب ليس باطراح عواطف ٨٦ مليوناً - عدد العرب الآن حوالي ٣٢٠ مليوناً - وإهمال هذا الرابط الديني بينهم، فالعرب يؤمنون بأن قوميتهم العربية لم تولد إلا في أحضان الإسلام، ولولاه لما كانت ذات وجود حي قائم[2].

ز - ويعترض دعاة العلمانية في بلادنا بأن الشعوب التي سبقتنا في ميدان الحضارة مرت في مرحلة الدين في التنظيم والحكم (حيث كان رجال الدين يسيرون أمور الدولة إلى مرحلة القومية، ثم هي تنتقل اليوم إلى مرحلة التنظيم على أساس التكتل السياسي والاقتصادي ذي الصبغة العالمية). ونحن نجيبهم بأن النص على دين الدولة ليس معناه أن يسير رجال الدين أمور الدولة، ولو كان كذلك لما وضعت هذه الامم التي سبقتنا في ميدان الحضارة في دساتيرها النص على دين الدولة. وفيما يلي بيان لبعض الدول الحديثة التي تنص في دساتيرها على دين معين: أسوج، نروج، دانيمارك، إنكلترا، بلغارية - قبل

---

(١) المرجع السابق: ٣٩٢ .

(٢) المرجع السابق: ٣٩٣ .

الحكم الشيوعي - بيرو، وكستاريكة، باناما، إسبانيا، بوليفية، الأرجنتين، إيرلندا، إيطاليا، اليونان - قبل الحرب الأخيرة - بولونيا - قبل الحكم الشيوعي: جميع دول شرقي أوربا - قبل النفوذ الشيوعي - مصر، العراق، الأردن، ليبيا، إيران، الأفغان، باكستان، أندونيسيا، إسرائيل المزعومة.

فما قول العلمانيين في صنيع هذه الدول الحديثة؟ ألا يدل على أن النص على دين الدولة لا يتنافى مع تطور الحضارة وتقدم المدنية؟ أم يعتبرونها دولاً رجعية لا تزال متأخرة؟

لماذا يرون من الأمور الطبيعية أن تتكتل بلغاريا وهنغارية وتشيكوسلوفاكية وألبانيا ورومانيا والمجر والصين وغيرها على أساس الشيوعية، وهي عقيدة حديثة لديهم، ولا يرون من الطبيعي أن تتكتل مصر وسورية والعراق واليمن والحجاز والأردن على أساس الإسلام وهو عقيدة هذه الأقطار[1].

ح - ويعترض بعض الحقوقيين بأن جعل دين الدولة الإسلام يلغي القوانين الحالية، ويضطرنا إلى تنفيذ الحدود الإسلامية من قطع يد السارق وجلد الزاني، وهذا قول خاطئ، فنحن لا نفكر قطعاً بالدعوة إلى تنفيذ الحد، لأن الإسلام نظام كامل لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع كامل، ومن كمال المجتمع أن يشبع كل بطن، ويكتسي كل جسم، ويتعلم كل إنسان، ويكتفي كل مواطن، فإذا وقعت السرقة

(١) المرجع السابق: ٣٩٤.

مثلاً بعد ذلك، وقعت شراً محضاً لا يقدم عليه إلا العريقون في الإجرام، والإسلام يريد أن يرهب هؤلاء الذين لم يردعهم العلم، ولا الشبع، ولا العيش الكريم عن الوقوع في الجريمة.

نقول للعلمانيين: نحن شعب نريد أن نرجع إلى الله، فلا تحولوا بيننا وبينه، ونريد أن نمد أيدينا إلى إخواننا العرب، فلا تحولوا بيننا وبينهم، ونريد أن نستند إلى أصدقاء - العالم الإسلامي - أقوياء فلا تحرمونا منهم، ونريد أن نتعاون مسلمين ومسيحيين، مستمعين إلى صوت السماء وتعاليم الإنجيل والقرآن فلا تملؤوا عقولنا بالباطل، ولا تصكوا أسماعنا بأغنية الشيطان ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
دمشق ٢١ ربيع ثاني ١٣٦٩، ٨ شباط ١٩٥٠[1].

كان هذا هو البيان أو موجز منه كما أذاعه الشيخ السباعي إلى الرأي العام في أخطر صراع حول هوية الأمة وشخصيتها وانتمائها والثبات على مبادئها وعلى عقيدتها ورسالتها الإسلامية الخاتمة.

٤ - بعد أن بلغ الصراع بين الإسلاميين والعلمانيين مداه في موضوع دين الدولة، وأوشك أن يؤدي ذلك إلى صراع مرير أو فتنة دامية، أو إلى حرب أهلية، بعد أن انقسم الشارع بشكل غير مسبوق، وبعد أن تسابق المواطنون إلى عقد اللقاءات وإقامة المهرجانات وكتابة المنشورات ورفع العرائض التي بلغت إحداها من مدينة حمص مترين

(١) المرجع السابق: ٣٩٥ - ٣٩٧ .

طولاً، حملت أكثر من اثني عشر ألف توقيع، وهذا ما حدث في جميع المدن والمناطق والنواحي... عندما انتهى الأمر إلى هذه الدرجة من الخطورة، ولما هم الشيخ السباعي وإخوانه أن ينسحبوا من الجمعية التأسيسية، ويتركوا هذا الموضوع إلى الشعب أو إلى الشارع، تنادى وجهاء البلاد وعقلاؤها إلى تطويق هذا الخطر، يلتمسون حلاً لهذه المعضلة، فأطلقوا يد الشيخ باختيار النصوص التي تلبي طموح العلماء والدعاة والجماهير وأعضاء البرلمان من ذوي الميول الإسلامية، لتكون بديلاً عن النص المختلف عليه، ولإقناع المناوئين بحل يحفظ لهم ماء الوجه، فتم الاتفاق على مقدمة للدستور تعتبر جزءاً لا يتجزأ منه، وعلى تثبيت نصوص على شكل مواد في صلب الدستور، انتهت إلى ما يلي في المقدمة:

أ - لما كانت غالبية الشعب تدين بالإسلام، فإن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا.

وقد عد الأستاذ السباعي هذا نصاً صريحاً في دين الدولة، لأن الاستمساك بالدين أقوى من الانتساب إليه، أي إن هذا النص مقدم على النص القائل: الإسلام دين الدولة، لأنه لا يكتفي بأن يلزم الدولة بالإسلام كدين تنسب إليه، بل يلزمها به كدين تتمسك بتعاليمه ومثله وشرائعه.

ب - وإننا نعلن أيضاً أن شعبنا عازم على توطيد أواصر التعاون بينه وبين شعوب العالم العربي والإسلامي.

جـ - وعلى بناء دولته الحديثة على أسس من الأخلاق القويمة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى.

د - وعلى مكافحة الإلحاد وانحلال الأخلاق.

أما المبادئ والنصوص الإسلامية في صلب الدستور، فقد تجلت في الموضوعات التالية:

أ - في التشريع:

نصت المادة الثالثة على ما يلي:

- دين رئيس الجمهورية الإسلام.
- الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع.
- حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم الأديان السماوية، وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام.
- الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

يقول الشيخ السباعي: إن النص على اعتبار الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع هو في نظر جميع المخلصين من حملة الإسلام أعظم انتصار للتشريع الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية في العصر الحديث.

ب - في التعليم:

نصت الفقرة الأولى من المادة الثامنة والعشرين على أن تعليم

الدين إلزامي في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والمهني، كما نصت الفقرة الثانية من المادة المذكورة على أهداف التعليم على النحو التالي:

يجب أن يهدف التعليم إلى إنشاء جيل قوي بجسمه وتفكيره، مؤمن بالله، متحل بالأخلاق الفاضلة، معتز بالتراث العربي، ويحظر كل تعليم ينافي هذه الأهداف.

جـ - في الأوقاف

نصت المادة الرابعة والثلاثون على أن الأوقاف الإسلامية ملك للمسلمين وهي مؤسسة من مؤسسات الدولة العامة، تتمتع باستقلال مالي وإداري.

قال السباعي: وفي هذا صيانة للأوقاف الإسلامية من أن تعتدي عليها حكومة من الحكومات، كما حصل في عهد الشيشكلي، فلقد حذف هذا النص من دستوره، وسن تشريعاً يجعل أملاك الخط الحجازي ملكاً للدولة، وهذا ما تعمله كل حكومة تنوي الشر للإسلام ومؤسساته الخيرية.

د - نصت المادة الثانية والستون بعد المئة على أن ينتخب مجلس النواب لجنة خاصة من أعضائه تستعين بعدد كاف من المختصين والخبراء لتقديم اقتراحات بالقوانين اللازمة **للتوفيق بين التشريع القائم وأحكام الدستور**، وجعلت لهذا العمل مدة لا تتجاوز سنتين منذ تنفيذ

الدستور، وهذا يعني أن قوانين الدولة يجب أن تنسجم مع أحكام الدستور، فما كان منها مخالفاً ألغي، وما كان يحتاج إلى تعديل عدل.

يقول الشيخ السباعي: ولقد نفذ المجلس النيابي هذه المادة، فألف لجنة لوضع قانون مدني مأخوذ من الفقه الإسلامي، وفقاً للفقرة الثانية من المادة الثالثة من الدستور، وبدأت اللجنة عملها، وسارت فيه شوطاً بعيداً، وجاء انقلاب الشيشكلي فأوقف هذا العمل العظيم.

رحم الله شيخنا السباعي بقدر إخلاصه للدعوة، وتفانيه في سبيلها، وحمله رايتها والذود عنها، والتصدي لخصومها، فقد كان، رابط الجأش قوي المراس لا تأخذه في الحق لومة لائم، يواجه العواصف غير هياب ولا مبال، بعقل راجح، وفكر ثاقب، ومنطق صارم، وإرادة لا تلين، استطاع بإيمانه وثباته أن يثبت لبلاد الشام هويتها، ويؤكد لها شخصيتها، ويحفظ لشعبها انتماءه العربي الإسلامي الذي عرفه التاريخ به منذ بزوغ فجر الإسلام، رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى مقامه في عليين.

ثالثاً - كانت الانقلابات العسكرية كارثة حلت في سورية، وعطلت مسيرتها، ومزقت صفها، وعرقلت تطورها وازدهارها، وصرفت الجيش عن واجبه الأساسي في مواجهة العدو الصهيوني على خط القتال في الجبهة، بل كانت الوحدات تترك الجبهة أحياناً، متجهة إلى دمشق لاحتلال مبنى الأركان ودار الإذاعة ومقرات

الحكم، ولزجِّ رجال السياسة وقادة الاستقلال في غياهب السجون.

١ - بعد الانقلاب الثاني أعاد قائد الانقلاب اللواء سامي الحناوي العقيد أديب الشيشكلي إلى الجيش بعد أن كان الزعيم قد سرحه منه، وأسند إليه قيادة اللواء الأول القريب من العاصمة، لينقض به على الحكم، ويسيطر على السلطة فيما بعد، وكان الشيشكلي طموحاً، يتطلع إلى حكم سورية، وقد نفذ ذلك على مراحل، فسيطر على قيادة الجيش بادئ ذي بدء، وأسند رئاسة الأركان إلى الزعيم فوزي سلو بعد الانقلاب على الحناوي في ١٨-١٢-١٩٤٩، ثم شرع بالتدخل في الشأن السياسي من وراء ستار، فعمل على إسقاط حكومة القدسي بعد تشكيلها بثلاث وعشرين ساعة، بدعوى سيطرة حزب الشعب على الوزارة، وأبقى على رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، ليحل خالد العظم في تشكيل الوزارة محل القدسي، ويسند وزارة الدفاع لأكرم الحوراني المتحالف مع الشيشكلي كما تحالف من قبل مع الحناوي والزعيم فنالت الوزارة الثقة، وأصدرت مرسوماً بإقالة الحناوي، وتعيين أنور بنود رئيساً للأركان في ٤-١-١٩٥٠، كما أصدرت مرسوماً بفصم عرى الوحدة الجمركية مع لبنان، وعملت على تقوية الجيش، ليصبح قادراً على حماية البلاد ضد التهديد الصهيوني، وبذلك لن تكون سورية بحاجة إلى الاتحاد مع العراق (كرد على الداعين للوحدة مع العراق)[1].

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٧٧ - ١٨٠ .

ومنذ أواخر نيسان بدا واضحاً أن الجيش قد سحب ثقته من حكومة العظم، وأن هناك بوادر تحول في اتجاهاته السياسية، ففي ٢٨-٤-١٩٥٠ قدم ممثل الجيش في الوزارة أكرم الحوراني استقالته، وعندما عاد العظم من جولته إلى القاهرة والرياض، وفشل في الحصول على دعم الجيش قدم استقالته في ٣٠-٥-١٩٥٠[(١)].

٢ - أحكم الشيشكلي قبضته على الجيش، ثم راح يخطو نحو السلطة المدنية. فقدم القدسي استقالته بعد أن بدت سورية في عهده كسفينة تائهة، تتقاذفها أمواج عاتية، فالجيش يلعب من وراء الستار لعبة الحامي للنظام، والحكومة تتغاضى عن تدخلاته، وأصوات من النواب تندد بتدخل الجيش، وآخرون يحملون لواءه.

قابل الشيشكلي الوزير المفوض البريطاني، وأبلغه أن سورية تثق بالضمانات البريطانية والأمريكية والفرنسية، وهذا يعني أنه وافق على البيان الثلاثي الذي أكد على الحفاظ على الوضع القائم (والمقصود من ذلك حماية إسرائيل)[(٢)].

في خريف ١٩٥٠ بدأت تلوح في الأفق بوادر صراع على السلطة، بين الحكومة وحزب الشعب، فمنذ العاشر من آذار وحتى الانقلاب الرابع ٢٩-١١-١٩٥٠ تعاقبت ثلاث وزارات برلمانية على السلطة، وشهدت البلاد أزمات حادة، وحالة من الفوضى السياسية،

(١) المرجع السابق: ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق: ١٩٦ - ١٩٨ .

وأصبح الجيش متحكماً بعمل الحكومة وتوجهات السياسيين السوريين، وبعد استقالة القدسي عاشت سورية أزمة وزارية استمرت ثمانية عشر يوماً حاول فيها العظم تشكيل وزارة ففشل، ثم شكل القدسي وزارة في ٢٤-٣-١٩٥٠، ثم أجبر على الاستقالة بعد أقل من ٢٤ ساعة، وفي ٢٨-٣-١٩٥١ شكل العظم وزارة احتفظ فيها فوزي سلو بوزارة الدفاع[١]. وفي ٢١-٤-١٩٥١ خطا الشيشكلي خطوة أوسع نحو السلطة، فعزل أنور بنود عن رئاسة الأركان، وتولى بنفسه هذا المنصب[٢].

٣ - شن حزب الشعب حملة ضد الحكومة داخل البرلمان وخارجه، ففي جلسة ٣٠-٧-١٩٥١ احتدم النقاش بين الحكومة والمعارضة، فقدم العظم استقالته في ٣١-٧-١٩٥١[٣]، فشكل حسن الحكيم وزارته نتيجة التفاهم بين حزب الشعب ورئيس الأركان، لكن الوزارة واجهت مشكلة حول أرض الغاب، وحول إعادة الدرك إلى وزارة الداخلية، فتراجع حزب الشعب عن تأييد الحكومة، وأعلن الكيخيا أن حزبه سينسحب من مجلس غير قادر على استخدام صلاحياته، ووقف الحزب الوطني إلى جانب حزب الشعب، وقادا حملة لإسقاط الحكومة[٤].

(١) دراسة في تاريخ سورية المعاصر: ٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق: ٢٠٤ .

(٣) المرجع السابق: ٢٠٧ .

(٤) المرجع السابق: ٢٠٨ - ٢٠٩ .

قدم الحكيم استقالته بعد خلافه مع وزير خارجيته فيضي الأتاسي، فكلف زكي الخطيب، ثم الدواليبي، ثم سعيد حيدر، ثم عبد الباقي نظام الدين والجميع فشلوا في تشكيل الوزارة بسبب إسناد وزارة الدفاع إلى عسكري، وعودة الدرك إلى وزارة الداخلية. وفي ٢٨-١١-١٩٥١ كلف الرئيس الأتاسي معروف الدواليبي بتشكيل الوزارة، فاحتفظ الدواليبي لنفسه بحقيبة وزارة الدفاع، فقال الشيشكلي: لا تلعبوا بالنار، وبعد ١٢ ساعة على تشكيل الوزارة قام الانقلاب الرابع في ٢٩-١١-١٩٥١، وأذيع البيان رقم (١) الصادر عن العقيد أديب الشيشكلي، وتم اعتقال الدواليبي وعدد من الوزراء، كان محمد المبارك ممثل الإخوان في الوزارة أحدهم، وشرع الشيشكلي بالتهجم على حزب الشعب، واتهامه بترك البلاد بدون ميزانية، وبتعطيل قانون توزيع أملاك الدولة، وبالانخراط بالتناحر الطبقي، مما حرم سورية من حياة الطمأنينة والاستقرار[١].

٤ – طبق الشيشكلي ديكتاتورية صارمة، وأقام نظام الحزب الواحد، وتلقى في الأشهر الأولى دعماً من الحزب القومي السوري، ومن حزب البعث، والحزب العربي الاشتراكي وزعيمه أكرم الحوراني الذي وصفه المراقبون والكتاب والصحفيون ومؤرخو تلك الفترة بأنه كان وراء جميع الانقلابات، وأن جميع البلاغات التي صدرت عن المجلس الحربي الأعلى من صياغة أكرم الحوراني، وأن الكثير من

---

(١) المرجع السابق: ٢١٣ – ٢١٥ .

البلاغات والمراسيم كانت بقلم الحوراني[1]. وأن حسني الزعيم قد حل المجلس النيابي بنصيحة من أكرم الحوراني، وأن أول بيان رقم (١) وما أعقبه من بلاغات في انقلاب الزعيم كانت من بنات أفكار أكرم الحوراني الذي اتخذ مكتباً له بالقرب من مكتب حسني الزعيم، وكان بمثابة مستشار له[2]. يقول الضابط محمد معروف في كتابه عن أسرار الانقلابات العسكرية من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٦٩: لم تبتل سورية طوال حياتها بزعيم كان وبالاً على الشعب وسبباً لتمزيقه كما ابتليت بأكرم الحوراني الذي أرسى طريق الفرقة والتباعد، وكان يرى في كل من يقف في وجه مصالحه خائناً ومارقاً، وكانت فاعليته وسمومه مركزة بصورة خاصة في صفوف الضباط وأنا منهم، وقد صدق المرحوم كامل مروة حين قال فيه في جريدة الحياة: إن أكرم الحوراني في كل انقلاب، ومع كل انقلاب، وضد كل انقلاب، لقد كان الحوراني في انقلاب حسني الزعيم ومعه، ثم وقف ضده، وكان في انقلاب سامي الحناوي، وعين وزيراً ثم نجح في الانتخابات بالتزوير وأنا مع الأسف من قام بذلك الفعل، ثم وقف ضد الحناوي، وكان في انقلاب الشيشكلي ومعه، ثم انقلب عليه، وكان من أنصار الوحدة وعبد الناصر، ثم انقلب عليهما معاً، ثم كان مع الانفصال، ولو طال الزمن قليلاً لفكر بالانقلاب عليه، وأخيراً كان مع صدام

---

(١) أيام عشتها للضابط محمد معروف الطبعة الأولى ٢٠٠٣: ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق: ١١٠ .

حسين، ولا أدري إذا كان قد أبعد أم اختار الابتعاد؟ لقد كان هذا الرجل أحد أسباب الانقلابات في سورية[1] ثم يقول محمد معروف: طلب مني اللواء سامي الحناوي الحضور إلى مكتبه، وكان في المكتب عصام مريود وخالد جادا، خاطبني الحناوي قائلاً: إن الانتخابات في حماة مغلقة لقائمة عبد الرحمن العظم وحسني البرازي، ويجب مؤازرة أكرم الحوراني، وقالا: أن لا أمل له في النجاح إلا إذا شعر الناخبون أن الحكومة تقف إلى جانبه، وأنه لا يجوز في هذا الوقت بالذات أن يكون الحوراني خارج المجلس، كنا جميعاً موافقين، فتقرر إرسال قوة عسكرية إلى حماة، وتعيين المقدم سليمان ناجي آمراً للمنطقة، وعين الملازم محمد كامل الصالح - وهو قريب لي - في الشرطة العسكرية هناك. جرت الانتخابات، ولم يتمكن سليمان ناجي من التأثير على أحد في مدينة حماة، وقد أعلمنا بأن لائحة عبد الرحمن العظم تكتسح الموقف، وكان الوضع مختلفاً في ريف حماة حيث الغالبية من العلويين، وكثير منهم من عشيرة محمد كامل صالح، فتمكن من التأثير على بعضهم، فانتخبوا الحوراني، وهكذا نجح أكرم الحوراني بفارق ١٢٨ صوتاً عن آخر مرشح في قائمة العظم، وهو الشاعر بد الدين الحامد[2]. ولم يحالف البعثيين الحظ في المناطق الأخرى، فلم ينجح منهم إلا جلال السيد

---

(١) المرجع السابق: ٩٥ - ٩٦ .

(٢) المرجع السابق: ١٥٧ .

بأصوات العشائر وأبناء بلدته في دير الزور لا بصفته الحزبية، ثم يقول الضابط محمد معروف الذي عاش أحداث الانقلابات ساعة فساعة منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٦٩، وسجلها في كتابه تحت عنوان: أيام عشتها: كان أكرم الحوراني من دعاة الحكومة العسكرية، ولا أدري السبب(١).

وهذا يذكرني بحديث جرى بيني وبين الأستاذ خالد محمد خالد الكاتب المصري الشهير، فقد كنت ألتقيه في مكتبة وهبه حسن وهبة في شارع الجمهورية القريب من قصر عابدين، لأن كلينا كان يعتمد على وهبة في تأمين الكتب التي نطلبها، وعندما سمع الأستاذ خالد كلامي علم أنني سوري، فطلب مني الجلوس معاً داخل المكتبة، فسألني: أتعرف أكرم الحوراني؟ قلت: لا أعرفه، ولكنني أعرف كل شيء عنه، قال: كيف يدعو إلى الحرية (من شعارات حزب البعث) ثم يلجأ إلى الانقلابات العسكرية؟ ثم جرت حوارات مع الأستاذ خالد محمد خالد، سوف أعرض لها في حينها لدى تحدثي عن الفترة التي أمضيتها في مصر طالباً في كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة فيما بعد -.

أعود بعد هذا الاستطراد المفيد إلى الحديث عن سياسات الشيشكلي التي لامست حياة الأحزاب والجماعات، ولا سيما مصير جماعة الإخوان المسلمين في سورية.

---

(١) المرجع السابق: ١٣٦ .

٥ - شكل الشيشكلي وزارة برئاسة فوزي سلو من مهنيين ورجال أعمال يتمتعون بالخبرة والكفاءة. وبالرغم من الإصلاحات التي أنجزها عهد الشيشكلي في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية والمصرفية والنقدية والتعليمية والعسكرية[1]، فإن الشيشكلي اتجه نحو قمع النشاط السياسي، فأصدر في ١٤-١-١٩٥٢ قراراً بحل المنظمات الحزبية شبه العسكرية مبتدئاً بالحملة ضد الشيوعيين، ثم التفت إلى الأحزاب، وكان الإخوان المسلمون أول المستهدفين، إذ أصدرت الحكومة في ١٧-١-١٩٥٢ قراراً بإغلاق مراكز الإخوان في كل سورية، ثم زج بقادتها في السجون، وفي ١٩-١-١٩٥٢ تظاهر طلاب الجامعة لمساندة مصر، فاتهم الإخوان بأنهم وراء المظاهرة، فلم يتردد الشيشكلي في استخدام السلاح لتفريق المتظاهرين، ولما تلتها مظاهرة طلابية في حلب، قمعت بقسوة شديدة، فسقط ٣٧ قتيلاً و٨٧ جريحاً، وصدر مرسوم يحظر على الطلاب ممارسة أي نشاط سياسي، أو القيام بأي إضراب أو تظاهر. ثم بدأت تظهر من الشيشكلي إشارات واضحة أنه لا يريد التعاون مع الأحزاب، ولا إشراكها في السلطة، فابتعد الحوراني عنه تدريجياً، وفي السادس من نيسان عام ١٩٥٢ صدر مرسوم تشريعي رقم ١٩٧ قضى بحل الأحزاب السياسية، وراح الشيشكلي يدير الدولة وكأنها ثكنة عسكرية، وكان أول من طرح فكرة الحزب الواحد، ثم طبقت في

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ٢١٧ - ٢٢٠ .

مصر وفي غيرها[1]. وأخيراً حاول الشيشكلي بضغط دولي وضرورات داخلية أن يضفي على نظامه طابعاً ديمقراطياً، فطرح على الشعب دستوراً - آخذاً بالنظام الرئاسي - وأجرى عليه استفتاء، فأعلنت الجماعات الإسلامية أن أسس هذا الدستور بعيدة عن الإسلام، واعترض عليه بعض المحامين ووصفوه بأنه شكل من نظام قيصري، كما وجهت بعض الفعاليات السياسية مذكرة إلى الشيشكلي أعربوا فيها عن رفضهم للدستور، لكن الشيشكلي تقدم للشعب بترشيح نفسه للرئاسة، وقدم دستوره للاستفتاء، معلناً في ١١-٧-١٩٥٣ نتيجة الاستفتاء الذي شارك فيه ٤١٧ر٩٩٥، فوافق عليه ٤٢٥ر٨٦٤ ليصبح الدستور نافذاً، وليكون أديب الشيشكلي رئيساً للجمهورية[2]. شكل الشيشكلي حكومة جديدة، وأحال فوزي سلو على التقاعد، وأطلق سراح المعتقلين في سجن المزة، وأجرى انتخابات برلمانية في ٩-١٠-١٩٥٣، وسمح باستعادة النظام الحزبي بشروط محددة، وأعاد للصحافة هامشاً من الحرية، فظهرت انتقادات علنية للنظام. حاول الشيشكلي التفاهم مع المعارضة، فرفضت التعاون معه، وشكلت تحالفاً ضم اليمين واليسار (باستثناء الحزب القومي السوري والحزب التعاوني الاشتراكي)، ثم عقدت مؤتمراً في ٩-١٠-١٩٥٣ برعاية هاشم الأتاسي في حمص، أعلنت فيه عن

---

(١) موجز في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ٢٣١ -٢٣٣ .

(٢) المرجع السابق: ٢٣٨ - ٢٤٠ .

ميثاق وطني يهدف إلى العودة للحياة الديمقراطية التي سبقت انقلاب الشيشكلي[1]. وفي ظل هذه الحرية المتاحة عاد الحوراني وعفلق والبيطار إلى سورية. وشكل الشيشكلي مجلساً للنواب بانتخابات شارك فيها ٢٠٪ من الناخبين، سيطر فيها الحزب الحاكم على المجلس[2].

٦ - في سياق المحاولة التي قام بها الشيشكلي للتفاهم مع المعارضة، دعا الشيخ السباعي لمقابلته، وكانت هذه المقابلة على النحو التالي:

قال الشيشكلي: يؤسفني يا أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة نحوك، وأنا الذي أقدر جهادك، وأثق بإخلاصك ومن معك، وقد كان الأحرى بنا أن نأتلف بدلاً من أن نختصم ونختلف، ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً، لذلك فلننس الماضي ولنتعاون.

قال السباعي: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي.

قال الشيشكلي: ولم لا؟ إنك تدعو إلى الإسلام، وأنا والله مسلم، يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه، فكيف لا يتم تلاقينا؟.

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق: ٢٤٣ .

قال الأستاذ السباعي: لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة! أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة، ويقدر لكل شيء حسابه، ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة، ولابد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت أمتنا التاريخ، وبه تسنّمت مركز القيادة العالمية من أوربا إلى أقصى الصين.

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته، ونهض ليودعه وهو يقول: إذن فنحن معذورون باتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا، ولكنني آمل أن لا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر، عندما تتضح لكم حقيقة أغراضي يا دكتور![1].

بدوري أتساءل: هل كان الشيخ في حواره مع الشيشكلي شديداً إلى هذا الحد الذي ذكره الشيخ محمد المجذوب في كتابه: علماء ومفكرون عرفتهم؟ من عادة الدعاة أن يقولوا للناس حسناً، وأن يخاطبوا الآخرين بالكلام اللين حسب التوجيه القرآني، والشيخ السباعي ليس داعية فحسب، بل هو من شيوخ الدعاة، وقد كان رحمه الله يخاطب كل الناس بالكلم الطيب، ويعمل على تأليف قلوبهم، وإظهار محاسن الإسلام لهم، ولقد رافقته في بعض أسفاره، وعرفته عن قرب، ولمست فيه الدماثة والرقة وعذوبة الحديث،

---

(١) محمد المجذوب - علماء ومفكرون: ١/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

فكيف يشتد على إنسان دعاه وتلطف معه - وهو رئيس البلاد - وأبدى له أسفه على ما بدر منه من اعتقاله، وطلب تعاونه، وأكد أمامه أنه مؤمن بالله وبالإسلام، وإذا بالشيخ يرد عليه بأن فهمه للإسلام على أنه عقيدة وعبادة يختلف عن فهمنا بأن الإسلام يشمل كل مرافق الحياة، هل كان الشيخ السباعي ينتظر من الشيشكلي أن يكون ملتزماً، وأن يكون على درجة من الفهم للإسلام كعالم أو فقيه أو داعية؟ ألا يكفينا منه إقراره بالإيمان بالله، وانتسابه للإسلام، وتقديم أسفه واعتذاره؟ أليس الأجدر بنا في مثل هذا الموقف أن نتألفه، وأن نكتفي منه - كخطوة أولى - أن يفسح المجال لحرية الدعوة والعمل لنشر الإسلام؟ أم أن حساسيتنا المفرطة من التعاون مع الانقلابيين والعسكريين هي التي أملت على شيخنا وأستاذنا الدكتور الشيخ مصطفى السباعي هذا الموقف رحمه الله وأعلى مقامه؟

ولو كان الأستاذ الداعية محمد المجذوب حياً لقصدناه مستوضحين منه عن حقيقة هذا اللقاء، وعن مضمونه وفحواه، وعن مصدره، وعمن استقاه، ولو أن شيخنا السباعي تصور أو خطر بباله ما سوف يؤول إليه الحال في سورية، من تسلط الأقليات على أمتنا والتنكيل بشعبنا، وما وقع عليه من اضطهاد وإذلال لكان له موقف آخر، وهو المعروف بغيرته الشديدة على الإسلام وعلى أبناء الإسلام.

وعلى كل حال، فإن نظام الشيشكلي انتهى كما بدأ، إذ وقع

انقلاب عسكري أطاح به دون أن ينتبه أو يفطن إلى المؤامرات التي كانت تحاك على قدم وساق في الجيش، من قبل الضباط الذين كانوا بصفّه ويعملون معه، ففي صباح الخميس ٢٤-٢-١٩٥٤ تمردت وحدات اللواء الثاني في حلب، ثم تبعتها وحدات أخرى في اللاذقية ودير الزور، وفي المنطقة الوسطى - حمص وحماة - وفي درعا، فآثر الشيشكلي الانسحاب وتقديم الاستقالة، فقامت المظاهرات الشعبية من اليساريين، ومن الإخوان المسلمين، ثم أقدم البرلمان على حل نفسه، فاتفق السياسيون والعسكريون الذين عملوا على إسقاط النظام على العودة إلى برلمان ١٩٤٩ ودستور ١٩٥٠، فدخل هاشم الأتاسي دمشق، واستأنف سلطاته الدستورية كرئيس للجمهورية وكأن عهد الشيشكلي لم يكن.

رابعاً: بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥، خرج الاتحاد السوفياتي منها ليكون إحدى القوتين العظيمتين في العالم، وشكل السوفيات كما يقول أتباعهم قلعة الشيوعية بين الدول،فانتشر الفكر الماركسي، وقامت أحزاب شيوعية في البلاد العربية، ولاسيما في بلاد الشام والعراق، وقد ساند السوفيات الأحزاب الشيوعية في بلادنا، فأمدوهم بالمتفرغين، وفتحوا لهم المكتبات في المدن الكبيرة والصغيرة، وأصدروا لهم الصحف اليومية والمجلات الشهرية، فتعاظم أمر الحركة الشيوعية، وصار لهم تأثير في مجريات الأحداث الفكرية والاجتماعية والسياسية، وكان من أبرز

القضايا التي طرحها الشيوعيون والاشتراكيون والبعثيون في الجمعية التأسيسية التي وضعت دستور ١٩٥٠ موضوع تحديد الملكية، وتوزيع الفائض على الفلاحين، وقد أثار هذا الموضوع جدلاً كبيراً في المجتمع السوري، ولاسيما تحت قبة البرلمان، فكان للإخوان المسلمين موقف يستأهل تسجيله لما ترتب على موضوع ملكية الأرض من أحداث ونتائج هزت المجتمع السوري، وقلبته رأساً على عقب.

١- نادى الإخوان بتحديد الملكية بالتدريج دون أن يكون لذلك أثر رجعي، بل يطبق هذا المشروع على المالكين بالتراخي وعن طريق الإرث، فإذا حدد القانون سقف التملك مثلاً خمسة آلاف دونم، وكان لدى المالك مئة ألف أو خمسين ألف دونم، وترك من الورثة خمسة أبناء، يكون حظ الوارث بعد الوفاة عشرة آلاف دونم من الخمسين ألفاً، دون أن يحق للوارث المالك أن يزيد على ما يملكه أو يحدده القانون أي زيادة عن طريق الشراء أو الهبة أو غير ذلك، وهكذا يكون الميراث عاملاً في توزيع الأرض دون حدوث صراع أو اضطراب أو هزة اقتصادية أو فوضى أو تهريب أموال، بل يظل المجتمع مستقراً، والاقتصاد مزدهراً، فلا يمضي عقدان أو أكثر حتى تنتهي الملكيات الكبيرة، وتحل محلها الملكيات المتوسطة أو الصغيرة، هذا هو موقف الإخوان المسلمين في سورية، وفي الجمعية التأسيسية، غير أن تيارين آخرين كانا على طرفي نقيض، الأول يمثله

الملاّك الكبار الذين كان عددهم كبيراً، ونسبتهم عالية في المجالس النيابية السورية، ففي المجلس النيابي السوري لعام ١٩٤٣ كان عدد الملاكين النواب ٧٨ من مجموع ١٢٦[١]، وربما كان العدد في برلمان ١٩٤٧ وفي الجمعية التأسيسية ١٩٤٩ يقارب هذه النسبة، وهذا التيار يرفض رفضاً قاطعاً أي معالجة لموضوع الملكيات الكبيرة، أما التيار الآخر الذي يضم اليسار بكل شرائحه، فإنه يصر على التوزيع السريع والمباشر لما يزيد على ما يحدده القانون في الملكيات الكبيرة بأثر رجعي للبت في هذه القضية.

٢- احتدم النقاش تحت قبة البرلمان بين التيارين، فعرض الموضوع على التصويت، فكانت النتيجة متقاربة، إذ نال المناصرون لبقاء الأمر على ما هو عليه (ريثما يصدر قانون بتحديد الملكية دون أثر رجعي) ٤٥ صوتاً، ونال الذين طالبوا بتوزيع ما يزيد على ما حدده القانون بالتملك ٤٣ صوتاً، أي كان الفارق بينهما صوتين، فتم إقرار المادة ٢٢ من الدستور التي نصت على تحديد الملكية دون أثر رجعي، وتشجيع الملكيات الصغيرة والمتوسطة، كما نصَّ على إصدار تشريع يوجب استثمار الأرض، وعند إهمالها يسقط حق التملك فيها، كما نصت على توزيع أملاك الدولة على الفلاحين غير المالكين لقاء أجر زهيد[٢].

---

(١) الحركات الإسلامية ليوهانس: ٤٦ .

(٢) دراسة في تاريخ سورية: ١٩٤ .

٣- ظل هذا الموضوع يراوح في مكانه، فلم تصدر تشريعات أو قوانين في موضوع الملكية وتحديدها وتنظيمها لدعم الملكيات الصغيرة والمتوسطة، وتوزيع أملاك الدولة على صغار الفلاحين غير المالكين، حتى إذا تمت الوحدة بين مصر وسوريا، أصدر جمال عبد الناصر بصفته رئيس الجمهورية قانوناً بتحديد الملكية، ونزع ما يزيد على ما حدده القانون - وكان رقماً متواضعاً - والبدء بتوزيعه على الفلاحين، فطبق القانون بظلم وحقد شديدين، وعاشت سورية فترة مقت وعداء بين المواطنين، وتدنى الإنتاج، وتراجعت الزراعة، وعُطلت الخبرات الزراعية، ولم تسترد أنفاسها إلا بعد أكثر من ربع قرن، فلو أخذت سورية عبر برلمانها وحكوماتها بالمشروع الذي تقدمت به جماعة الإخوان المسلمين وارتأته وتبنته لتجنبت سورية قوانين عبد الناصر في شدتها وقسوة تطبيقها.

خامساً: تجاوزت حركة الإخوان المسلمين حدود سورية إلى كل بلاد الشام، وقام أبناؤها بتوعية واسعة في لبنان والأردن وفلسطين، بل وفي العراق بالتعاون مع الشيخ محمد محمود الصواف طيب الله ثراه، لفهم الإسلام والدعوة إليه، وحمل الجماهير بالحسنى على رفع رايته، وصبغ المجتمع بصبغته، ثم تجاوزوا ذلك إلى أقطار العالم الإسلامي، فشدوا رحالهم إلى باكستان والهند وأندونيسيا، تلبية لدعوة قادة العمل الإسلامي في جنوب شرقي آسيا، وحضور المؤتمرات، وإلقاء المحاضرات، وإجراء الحوارات والمباحثات مع

الشيوخ الكبار من أمثال محمد ناصر في أندونيسيا وأبي الحسن الندوي في الهند، وأبي الأعلى المودودي في باكستان، وغيرهم في ماليزيا وأفغانستان وتركيا وغيرها.

١- لحظ ذلك ورصده بعض المراقبين والكتاب الغربيين، فقال الكاتب الألماني يوهانس دايسنر في الصفحة ١٥١ من كتابه، الحركات الإسلامية في سورية: وبشكل عام، فقد كان للشيخ مصطفى السباعي في الخمسينيات اتصالات كثيرة في الدول الخارجية (الإسلامية) ففي عام ١٩٥١ ترأس البعثة السورية للمؤتمر العالمي الإسلامي في باكستان، وفي نيسان - أبريل - عام ١٩٥٤ ترأس البعثة السورية للمؤتمر الإسلامي- المسيحي العالمي في لبنان - بحمدون - حيث ألقى محاضرته الشهيرة عن علاقة المسلمين بالشيوعية من ناحية، والاتحاد السوفياتي من ناحية أخرى.

٢- حضر الإخوان أو شاركوا في جميع المؤتمرات التي تم عقدها في سورية وبلاد الشام، وفي البلاد الإسلامية والأجنبية، وحضروا منذ وقت مبكر مؤتمرات العلماء التي كان من أبرزها مؤتمر علماء دمشق الذي دعا إليه الشيخ كامل القصاب عام ١٩٣٨ وقد حضره السباعي قبل توحيد الجمعيات الإسلامية في جماعة الإخوان المسلمين، وكان من أبرز المؤتمرات التي شارك فيها الإخوان المسلمون في الفترة الثانية من تاريخ الجماعة - من عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٤ ثلاثة مؤتمرات.

أولهـا: المؤتمـر الإسلامي الذي عـقد عـام ١٩٥١ في باكسـتان، ومثل الإخوان فيه الشيخ السباعي والأستاذ المبارك والأستاذ عمر بهاء الدين الأميـري، وكان لوفد الإخوان، ولاسيـما المراقب العـام الشيخ مصـطفى السبـاعي نشاط مـلحوظ في مـناقشاتـه، وفي طرح القضـايا الساخنة فيه، وعلى رأسها قضية فلسطين.

وثانيـها: المؤتـمر الإسلامي الـذي عقد في الـقدس، وشارك فـيه الشيخ السباعـي، وكان عضواً في البرلمان، ونائباً لرئيـسه، كما شارك فـيه ثـلة من الـقيـادات الإسـلاميـة من العـراق ومـصر، ومـن العـالم الإسلامي، كان ضـمنهم الشهيـد سيد قطب وسعـيد رمضان رحمـهما الله، وكـان المؤتـمر مكرسـاً للقـضية الفـلسطينـية ولاسيـما مـوضوع القدس، وحفظها من الأطماع الصهيونية.

٣- غير أن الـمؤتمر الذي ذاع صـيته، وأحدث زلزالاً شـديداً في بلادنا، وفي المحـيط الدولي، هو المؤتمر الإسلامي المـسيحي الذي عقد في بلدة بحمدون من لبنان، في ٢١ شعبان ١٣٧٣هـ و٢٥ نيسان ١٩٥٤م، والذي أعدت له الدوائر الغربية، لحشد المسلمين في العالم ضد الشيوعية بدعوى أنها تدعو إلى الإلحاد، والمسلمون والمسيحيون يؤمنون بـالله، إذ إن هذا المؤتـمر قد تم تنظـيمه من جـمعية أصـدقاء الشرق الأوسط الأمـريكية، ودعيت إليـه وفود من جميع أنحـاء البلاد العـربية والإسلامـية، من باكـسـتان وتركيا وإيـران وغيرها، وقـد تردد الوفـد السوري أول الأمر فـي قبول الـدعوة، لإدراكهم الأهـداف التي

يقصد إليها الداعون للمؤتمر، ثم رأى السباعي وبعض إخوانه قبولها لإحباط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية، إذ كان القصد من الدعوة إلى المؤتمر هو إنشاء كتلة عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الكتلة الشيوعية، ولم يكن يومها من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لإنشاء هذه الكتلة، وكان من أبحاث المؤتمر المقررة: جواب الإسلام على الشيوعية، وقد وقع اختيار الوفود العربية على الدكتور السباعي لإلقاء كلمة عن الشيوعية في نظر الإسلام، فكتب كلمته، وترجمت إلى الإنكليزية، فكان لها وقع القنبلة، التي حولت المؤتمر إلى تظاهرة رائعة للانتصار لفلسطين واللاجئين والقضايا العربية والإسلامية، وقد أعرب جميع الوفود العربية والإسلامية عن إعجابهم الشديد بهذا الخطاب الجامع الذي اتصف بالجرأة والدقة العلمية والتاريخية والسياسية، أما بقية الوفود، وخاصة الداعين للمؤتمر، فقد تملكتهم الدهشة والارتباك أمام هذه المفاجأة التي فوتت عليهم أغراضهم، وأضاعت عليهم الفرصة المنشودة[1].

٤- إن ما تضمنه خطاب الشيخ عن الصهيونية وجرائمها وأخطارها، ومدى ما لقيته من الغرب المسيحي، والديمقراطيات الغربية من دعم وتأييد، يعد من أهم الأمور التي عرّفت هذه النخبة التي شاركت في المؤتمر من مختلف دول العالم بالموقف الإسلامي من

---

(١) الدكتور مصطفى السباعي -هذا هو الإسلام - المجموعة الثانية - ٤ .

الصهيونية، وهو الموقف الذي لم يكن يصل إليها قبل ذلك الحين.

إن هذا الخطاب لا يتأتى إعداده على هذا النحو من الدقة والشجاعة والموضوعية لأي مفكر وسياسي بارز، وزعيم وطني غيور، إلا في وقت طويل، وقد توفر السباعي على كتابته في جلسة أو ساعة من ساعات المؤتمر، وهذا هو نص الخطاب التاريخي كما نشرته جريدة الشهاب في حزيران ١٩٥٦ .

قال السباعي: من الواجب أن نبحث هذا الموضوع بكثير من الصراحة والحكمة والصدق، فنحن هنا رواد حق في مؤتمر علمي محصور بين لفيف من أقطاب الفكر في العالمين الإسلامي والمسيحي، لا في اجتماع عام يقصد به الاستيلاء على عاطفة الجماهير بالخطابة المؤثرة والبيان البليغ.

إننا نحن المسلمين ننظر إلى الشيوعية من جهات ثلاثة:

أ- ننظر إليها كعقيدة ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة، وهي في ذلك تختلف عن الإسلام في أسسها وجوهرها، ولا يمكن أن تلتقي معه في عقيدته وفلسفته، وجواب الإسلام على الشيوعية في هذه الناحية، هو جوابه على كل فكرة خاطئة، أن يفنّدها بالحجة والمنطق، وأن يبين ما فيها من انحراف عن الحق وخطأ في الواقع.

ب- وننظر إلى الشيوعية كنظام اقتصادي اشتراكي، يسعى إلى تحقيق العدالة بين طبقات الشعب، ويمنع تحكم المال ووسائل الإنتاج في العمل والعمال على أسلوب خاص به، وجواب الإسلام

على الشيوعية من هذه الناحية، أنه وضع نظاماً اشتراكياً واضح المعالم مستقلاً عن الشيوعية وعن الاشتراكية وعن الرأسمالية، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية، ولا يقرها في كل اتجاهاتها أيضاً، كما أنه لا يحارب النظم الاقتصادية الأخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها، وأعتقد أن الأديان كلها سبقت الشيوعية إلى الرحمة بالبائسين، والإنصاف للناس، والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير، ولكل ديانة وسائلها الخاصة بها في تحقيق هذه الأهداف، فلا ضير على كل من الإسلام والمسيحية أن تتفق معهما الشيوعية في الأهداف الإنسانية النبيلة، وإن كانت تسلك لذلك طريقاً لا تقرها المسيحية، أو لا يقرها نظام الإسلام الاشتراكي.

ج- وننظر إلى الشيوعية كدولة ذات قوة وأهداف سياسية، وجواب الإسلام على الشيوعية من هذه الزاوية، هو جوابه على كل قوة مسلحة تجاوره، فإن سالمت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت إرادتهم وسلطانهم على ديارهم، سالمها الإسلام ولو كانت مخالفة له في العقيدة والنظام، لأن الإسلام لا يفرض الحرب على كل من خالفه، وإنما يضع هذا المبدأ الخالد العادل ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١). وإن حاربت المسلمين في عقيدتهم وكرامتهم وديارهم، أعلن عليها الحرب، وأمر المسلمين

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ .

بإعداد كل وسائل القوة لرد العدوان، وشعاره في ذلك هو المبدأ الذي لا يزال شرعة الأمم حتى اليوم ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(١)، وإذا كان جواب الإسلام على الشيوعية المعتدية هو الحرب، كان ذلك جوابه أيضاً على الديمقراطية المعتدية، وعلى الصهيونية المعتدية، وعلى كل قوة تعتدي على أرضه وحقه، بل تعتدي على الأمن والنظام العام، ولو كانت من أبنائه ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾(٢)، وقد يقال: إن الشيوعية تتبنى الثورة والحرب كوسيلة من وسائل انتشارها، وقد يكون هذا صحيحاً وواقعاً، ولكني أتساءل:

أليس بجانب الشيوعية أنظمة ودول تعتمد على القوة وتثير الحروب؟

ألم تعتمد الديمقراطية في بلاد الشرق العربي والإسلامي على القوة والبطش لتحقيق حكمها وسيطرتها؟

ألم تسلك الصهيونية كل وسائل الحرب والتدمير والتقتيل للوصول إلى أهدافها؟

وإذا كان من حق الديمقرطي الغربي أن يزعم بأنه يسعى للسلم، وأن ينكر على الشيوعي إعداده للحرب، فإن من حق رجال الدين

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٤ .

(٢) سورة الحجرات جزء من الآية ٩ .

وقادة الفكر أمثالكم في هذا المؤتمر أن ينكروا كل وسائل البغي والعدوان، وأن لا يخصوا بنقمتهم فريقاً دون فريق، فذلك شأن السياسيين الذين لا يرون أنفسهم ملزمين بالتقيد بمبادئ العدالة والحق والأخلاق دائماً وأبداً. وقد يقال: إن الشيوعية بفلسفتها المادية تحمل مبادئ التدمير لكل القوى الروحية والأخلاقية في العالم، وقد يكون هذا صحيحاً أيضاً وواقعاً، ولكن من حقنا أن نتساءل هنا:

ألم تنحرف الديمقراطية في عصرنا عن القيم الروحية والأخلاقية للشرائع والديانات؟ ألم تسع الديمقراطية السياسية لتحقيق مطامعها وأهدافها بشرهٍ مادي يُجانب روح الأنبياء ومبادئ الكتب المقدسة وشرائع الله؟

أليست الصهيونية السياسية حركة مادية تجانب كل القيم الروحية والأخلاقية حتى في الشريعة اليهودية ذاتها؟

فلماذا يقتصر مؤتمركم على بحث الشيوعية المادية، ولا يتناول الديمقراطية المادية والصهيونية المادية؟

ولماذا يطلب منا نحن سكان هذا الشرق الأوسط من عرب ومسلمين وشرقيين أن نحارب الشيوعية وحدها، بحجة أنها مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية، بينما نجد العالم الغربي المسيحي تسيطر على سياسته روح مادية، لا تأبه إلا بمصالحها وسيادتها، حتى إنها تبنت الصهيونية المادية وخلقتها وزرعتها في بلادنا زرعاً بقوة

الحديد والنار، وبإغراء الذهب والدولار؟

أمن الممكن أن نطلب من جماهيرنا التي تكتوي بنار الصهيونية، وتعاني فظائع الظلم والإرهاب الاستعماري في بلادنا، أن تصدق بأن الغرب المسيحي مخلص في محاربته الشيوعية لماديتها وخطرها على الأديان والأخلاق، بينما هي تشاهد كيف تزدري الدول الغربية بكل مبادئ الحق والعدالة في علاقاتها معها، وتحتضن الحركة الصهيونية الباغية المادية كوليد مدلل ينزل أبواه عند كل رغباته ومطالبه؟

أيها السادة: لست أبعد عن الحديث حين أنتقل من الكلام عن الشيوعية إلى الصهيونية، ذلك لأن الصهيونية تعتمد على الشيوعية وتنشرها، كما تعتمد على الديمقراطية وتدافع عنها، لأن الصهيونية لا دين لها إلا تحقيق مطامعها، وإنكم لتعلمون أن الصهيونية كانت دعامة الحركات الشيوعية في أوربة وأمريكا، وأن الجاسوسية التي أقضت مضاجع أمريكا وإنكلترا وغيرهما من دول الغرب، إنما يديرها ويسهر عليها صهيونيون كبار، استطاع التحقيق أن يكشف القناع عن وجوه كثيرين منهم، فأسلمهم إلى يد العدالة، ولا يزال القناع قائماً على وجوه كثير من كبار الصهيونيين المواطنين في أمريكا وأوربا، وسيعلم الشعب الأمريكي والشعوب الأوربية ولو بعد حين، أن هؤلاء الصهيونيين الكبار لم يكونوا إلا خونة ومجرمين كباراً في حق أمريكا وأوربا على السواء، وهذه العناصر الصهيونية القوية هي التي توجه سياسة الدول الغربية، وتبسط سلطانها ونفوذها على كثير من الرؤساء

والزعماء والنواب ودور الصحافة وبيوت التجارة في بلاد أوربا وأمريكا، وهي هي التي تتصل بأمثالها في الشرق العربي والإسلامي عندنا، وتتبنى الشيوعية لا إيماناً منها بالشيوعية، ولكن استدراراً لعطف الشيوعية الدولية، وتأييدها كما فعلت في إقامة دولة إسرائيل، من أجل ذلك كان الحديث عندنا نحن في الشرق العربي والإسلامي عن الخطر الشيوعي مقترناً بالحديث عن الخطر الصهيوني.

إنكم أيها الأمريكيون والإنجليز والفرنسيون والكنديون والإيطاليون وغيرهم من زملائنا أعضاء هذا المؤتمر، قد لا تشعرون بخطر الصهيونية ومحاربتها للأديان والشرائع، وخاصة رجال الدين وأساتذة الجامعات منكم، ممن لا يمارسون السياسة ولا يعانون مشاكلها، فاسمحوا لنا إذن نحن أبناء هذه البلاد أن نكاشفكم بحقيقة هذا الخطر، وعليكم أنتم يا رجال الدين وأساتذة الجامعات وأصدقاء الشرق الأوسط أن تفسحوا صدوركم لآلامنا ما دمتم تريدون منا أن نتعاون معاً على الخير، وأن نسير في طريق واحدة تؤدي بالإنسانية إلى السعادة والسلام.

إن الصهيونية حركة مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا بالقيم الروحية والأخلاقية، وهي حركة سياسية تستغل كل الشرائع والقوانين والمثل العليا لتحقيق مطامعها في السيادة والملك، وهي سياسة ميكيافيلية تستبيح كل الجرائم الخلقية والاجتماعية من قتل وتخريب وتشريد للوصول إلى غاياتها، وهي حركة عدوانية تدير

الحروب، وتثير العداوة والبغضاء بين الشعوب.

هذه هي الصهيونية في فكرتها وفي واقعها، فإذا شككتم في ذلك فتعالوا لتروا الصهيونية خراباً ويتماً وتشريداً وإجلاءً وإفناءً، تعالوا بنا نزر معكم أماكن اللاجئين لتروا آثار الصهيونية في جولتها الأولى، وهي الآن تستعد للجولة الثانية والثالثة وغيرها حتى تصل إلى ما تريد من إفنائنا كشعب، والقضاء علينا كأمة ذات دين وحضارة روحية ومثل عليا.

من أجل ذلك نعتبر الصهيونية خطراً قائماً في قلب وطننا العربي والإسلامي، ونعتبر كل من يساعدها عدواً للحق وللأخلاق وللأديان، ونحن حين نخوض ضدها معركة الدفاع إنما نخوضها لا من أجل أنفسنا وتراثنا وقيمنا الأخلاقية فحسب، بل نخوضها من أجل الإنسانية كلها، من أجل القيم الروحية والخلقية التي جاءت بها شرائع الله، ولئن كان الغرب المسيحي وقف حتى الآن موقف المؤيد الممهد لهذه الحركة بكل ما يستطيع من نفوذ ومال، فإن العالم المسيحي ليطلب منكم يا قادة الروح في الغرب أن تحيوا شعور أممكم وشعوبكم، وتوقظوا الضمير العالمي لإيقاف هذه الكارثة التي نشأت عن أكبر غزو إفنائي لنا في تاريخنا القديم والحديث.

أيها السادة: لقد كان من الحق حين وضع في برنامج أبحاث المؤتمر موقف الإسلام والمسيحية من الشيوعية، أن يذكر بجانب ذلك أسباب انتشار الشيوعية ووسائل مكافحتها، وهو أمر لابد منه

ليكون لبحث هذا الموضوع نتائج عملية مثمرة، إن المريض لا يكتفي من طبيبه أن يقول له بعد معاينته: إنك مريض، ولكن يطلب منه أن يكشف له عن أسباب مرضه، وأن يصف له علاجه الناجع، وإذا كانت فلسفة الإسلام والمسيحية تجانبان الفلسفة الشيوعية المادية، كان لابد لانتشار الشيوعية في بلاد المسيحية والإسلام من أسباب أدت إلى هذه النتائج:

أ- وأول هذه الأسباب - في رأيي - فساد الأنظمة الاجتماعية، وخاصة في الشرق الإسلامي، فإن انحطاط مستوى المعيشة والتعليم والصحة، والتفاوت الفاحش بين الطبقات، وفساد أنظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة، وطغيان روح التحكم والاستبداد في نفوسهم، ذلك كله من أكبر أسباب التذمر الذي يؤدي بالجماهير إلى اعتناق أية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة، إن الجماهير إنما تعنى بمصالحها المادية قبل كل شيء، وهي تفتش عن تحقيق هذه المصالح في دائرة أديانها، فإذا رأت فيها العجز والإعراض عن تحقيق هذه المصالح في دائرة أديانها، تولّت عنها، وهي تفتش عن مذهب يعدها بالإنقاذ، وهي ستتبعه حتماً، ولو كان آتياً عن طريق الشيطان.

ب- وثاني هذه الأسباب محاربة الديمقراطية الغربية لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية، ومحاولة إبقائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية، وإشاعة حكم الإرهاب والبطش في كثير

من الأقطار المتحفزة للتحرر، والقضاء على الحركات الشعبية النظيفة، وتشويه سمعتها بالاتهام بالشيوعية والانصياع لتحريض أجنبي، كل ذلك كان له أثره في اتجاه الجماهير إلى نظام يعدها بالتحرر من سلطان الديمقراطيات وبطشها وإرهابها.

ج- وسبب هذه الأسباب - وهو سبب خاص ببلادنا - ذلك التأييد الذي لقيته الصهيونية من الديمقراطيات الغربية، حتى أصبح لها كيان مفروض في قلب الوطن العربي رغم إرادة سكانه وشعوبه، مما شرد مليوناً من سكان فلسطين، وأشاع المرارة والخيبة في نفوس العرب والمسلمين، وجعل أوساط اللاجئين أمكنة صالحة للشيوعية، تزداد يوماً بعد يوم، واعذروا هؤلاء اللاجئين أيها السادة، اعذروهم إذا تلفت أحدهم إلى زوجته فرآها أسيرة أو مفقودة، وتلفت إلى أولاده، فرأى البرد والمرض والسل يفترس واحداً منهم بعد آخر، وتلفت إلى نفسه فرأى خيمته تقتلعها الرياح وتغطيها الثلوج، ورأى جسمه تهده الأمراض، ورأى نفسه عاجزاً عن توفير الكرامة لنفسه وأطفاله، إنه ليعاني هذا كله وهو يرى بعينه أرضه تُزرع، وداره تسكن، وأثاثه ينهب، ويرى أن ذلك كله نتيجة سياسة الديمقراطيات الغربية وحكمها وتأييدها للصهيونية المحتلة لأرضه وداره، فكيف تستطيعون أن تقنعوه مع ذلك بأن هذه الديمقراطيات تحمل لواء الحق، وتمثل المعسكر الذي يعتقد بالله وبالروح والقيم الأخلاقية والدينية؟

إن اضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أوربا جعل نصفها يميل إلى الشيوعية، أو يقع تحت قبضتها، فكيف لا يؤدي

سوء أوضاع اللاجئين، وهي أسوأ بآلاف المرات من تلك، إلى اعتناق الشيوعية أو غيرها، وهم في تلك الحالة من البؤس؟

هذه هي الأسباب الرئيسية لانتشار الشيوعية، وبذلك يعرف الطريق الواضح لمكافحتها.

إنه لا سبيل لكم - لتكونوا عمليين مخلصين في نصرة القيم الروحية والأخلاقية - من أن تعلنوا إنكاركم لاستمرار الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أوساط الشعوب والجماهير، ومن أن تعلنوا إنكاركم لسياسة الديمقراطيات الغربية في موقفها من أماني الشعوب العربية والإسلامية، ومن أن تعلنوا استنكاركم للصهيونية كحركة مادية فيها كل الخطر على السلم وعلى الأمن، وعلى الأخلاق والدين في هذه المنطقة الحساسة من الشرق الأوسط، كونوا جريئين مخلصين أيها السادة في إعلانكم هذه الحقائق، وسنكون نحن جريئين مخلصين حين نعلن لكم أنه من العبث أن تفكروا بحمل شعوبنا على محاربة الشيوعية والوقوف ضدها، وهي ترى الدبلوماسية الشيوعية تنتصر لقضايانا في المحافل الدولية من حيث تخذلها الدول الديمقراطية الغربية.

لقد قال المستر تشرشل كلمة ذهبت مثلاً في التاريخ يوم اعترض عليه بعض الناس حين مدّ يده إلى روسيا في الحرب ليتعاون معها على حرب ألمانية قال: إنني مستعد لأن أتحالف مع الشيطان في سبيل الوصول إلى النصر، وتعاون الحلفاء يومئذ مع الشيوعية خلال

مدة الحرب العالميــة الثانية، وما كان تحالفهم مع الشـيوعية الفكرية، ولا مع الشيوعية الاقتصادية، وإنما كان مع الشيوعية القوية المسلحة، لأن مصلحتـهم التقت مع مصلحـتها في هذا التعـاون، ونحن اليوم لا نريد أن نفرض سـيطرتنا ولا انتصـاراتنا على الشعوب، وإنـما نريد أن نصل إلى حقنا، نريد أن نطمئن على حرياتنا وكرامتنا، إن من حقنا أن نعيش أحـراراً في فلسطين وسورية ولبنـان والأردن، وفي العراق وفي مصر وفي ليبيا ومراكش وتونس والجزائر، وفي كشمير وفي أندونيسيا وفي كل بلادنا العربية والإسلامـية، نريد أن نصل إلى هذا الحق الذي تحاربه الديـمقراطيات الغربـية المسيحـية حرباً تنكرها مـبادئ الديانات وشرائع الله، فـهل نلام إذا نظرنا إلى مصلحـتنا المشروعة فـي مهادنة كل من يعترف لنا بهذا الحق؟

سيـذهب كل جهـد لكم عبـثاً مالـم تعلنوا قـراراً في هذا المؤتـمر جريـئاً واضحـاً في هذه القضـايا كلهـا، وعندئذ تنالـون احترام العـالم وثقـته، وتـسيـرون في طريـق التعـاون المـثمـر المـفيـد بين الإسـلام والمسيحـية، لرد الإنسانية الجامـحة إلى الله، ولتدعيم القـيم الروحية التي لا يقوم بناء العالم الحر الكـريم إلا على أساسها، وإذا لـم تفعلوا فثـقوا - وهذه كلمـة لا أقولهـا كسيـاسي فحسـب، بل كرجل مـسلم يشترك في أكبر حركة إسلامية في العصر الحديث، ينتمي إليها ملايين الشباب الأقوياء المؤمنين في دنـيا العرب والإسلام - أقول لكم: ثقوا أننا لن نسير مع الغرب خطوة واحدة في مكافحة أية حركة مادية كقوة سياسيـة، مالم يثبت لنا الغرب عـملياً حسن نيته وصـدق إخلاصه في

التخلي عن مناصرة الصهيونية حتى ندرأ أخطارها عن بلادنا وعن العالم كله، وفي الاعتراف بحقوقنا كاملة في السيادة والاستقلال، حتى نتعاون معه تعاون الحر مع الحر، والكريم مع الكريم، لا تعاون العبد مع السيد، والذليل مع العزيز، والمظلوم مع الظالم.

هذه كلمة نقولها اليوم رجاء أن تحتل من قلوبكم مكان الاقتناع والتأييد، فتكونوا أنصاراً للحق في أوساط شعوبكم، تجهرون بكلمته القوية على مسمع حكوماتكم ورؤسائكم، وإلا فإننا نقولها اليوم للتاريخ.. وسيقول فيها التاريخ كلمته فيما بعد.

اللهم وفقنا جميعاً للخير والحق، وألهمنا رشدنا، وهيئنا لإنقاذ الإنسانية من طغيان السياسة على شرائع الله وآدابه[1].

٥- هذه كلمة شيخنا السباعي التي ألقاها في المؤتمر الإسلامي - المسيحي في بلدة بحمدون بلبنان في شهر نيسان ١٩٥٤ بتمامها، كالذهب الخالص لا نستطيع أن ننقص منها أو نزيد عليها. والشيخ بهذا الخطاب الوثائقي التاريخي أحبط مخططاً ماكراً أعدته الدوائر الغربية متسترة خلف الهيئات الدينية والتبشيرية (التي تستخدمها الدول الاستعمارية لتحقيق أهدافها) لدفع شعوب الأمة الإسلامية وقوداً في مواجهة المعسكر الشيوعي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي، فجاءت النتيجة على عكس ما يشتهون، وانكفؤوا فاشلين، يرضون من الغنائم التي كانوا يؤملون تحقيقها بالإياب والانسحاب، وبالرغم من أن

(١) هذا هو الإسلام للدكتور السباعي - المجموعة الثانية: ١٦ .

الغرب لن ينصفنا، ولن يكون معنا، ولا مع الحق في مواجهة الصهاينة (الذين يسعون في الأرض فساداً، ويوقدون نيران الحروب بين الشعوب والأمم) - في المستقبل القريب على الأقل - فإنه - أي الغرب - أقلع عن مثل هذه المحاولات، ويئس من قدرته على تضليل شعوبنا، أو التدليس عليها، بفضل الله، ثم بيقظة القادة والدعاة الكبار والمصلحين، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم أستاذنا وشيخنا الجليل الدكتور الداعية المجدد والفقيه المجتهد مصطفى السباعي طيب الله ثراه، أما المؤتمرات الأخرى فسيأتي الحديث عنها في المرحلة اللاحقة من هذه الصفحات.

سادساً- لم تكد سورية تحصل على استقلالها الناجز عام ١٩٤٦ حتى تحركت الدول الغربية، ولاسيما أمريكا للهيمنة على شؤون هذا القطر عبر الأحلاف والاتفاقيات والمساعدات وأجهزة المخابرات، وقد صادفت هذه الدول من بعض الساسة السوريين من روّج للسياسات الغربية، ودعا إلى إدخال سورية في الأحلاف الأجنبية، من جهة أخرى تحرك السوفيات ودول المنظومة الاشتراكية بمسعى مضاد لتنشيط الحركة الشيوعية في سورية وفي بلاد الشام، ولعقد صفقات لبيع السلاح للسوريين الذين كانوا في أمس الحاجة إليه، وتقديم قروض ومساعدات لتمويل عدد من المشروعات العمرانية في سورية، هكذا برز التسابق بين الغرب والشرق لتثبيت أقدامهم، ومد نفوذهم في هذا القطر ذي الأهمية البالغة استراتيجياً وجغرافياً وتأثيراً على دول المنطقة، وعلى شعوبها، لقد بذل كل فريق جهوداً كبيرة عبر الأجهزة

الأمنية ووسائل الإعلام، ورصد المبالغ ليكون له السبق على الفريق الآخر، فانقسم الساسة السوريون حيال العلاقات الدولية إلى تيارين:

أحدهما يؤيد تمتين العلاقات مع الدول الغربية - ولا سيما أمريكا وإنكلترا وفرنسا - بدعوى أن التحالف مع الغرب يحقق لها مكاسب كبيرة في تسليح جيشها وازدهار اقتصادها.

وثانيهما: يلح على إقامة أفضل الصلات مع الاتحاد السوفياتي وحليفاته من الدول الشيوعية الأخرى، وعقد صفقات في السلاح لكسر احتكار الغرب لتجارة الأسلحة، وللوقوف بجانبنا ضد الأطماع الغربية بأرضنا.

١- عقد الأمريكان في إستنبول مؤتمراً في ١٤-٢-١٩٥١ استمر حتى ٢١-٢-١٩٥١ تحت رئاسة ماك غي المسؤول عن قضايا الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية، ومع أن المؤتمر كان مخصصاً لمناقشة شؤون اقتصادية، فقد شغلت قضايا الأمن جزءاً واسعاً من جلساته، وأشار البيان الأخير الصادر عن المؤتمر، إلى أن الدول العربية مثلها مثل تركيا وإيران أصبحت معنية بضرورة المشاركة في الدفاع عن الأمن الجماعي للمنطقة، وبأمن العالم الحر بشكل عام، وقد أثارت مهمة رجل الدولة الأمريكي ردود فعل في العالم العربي.

حاول ماك غي إبان جولته على العواصم العربية أن يقلل من أهمية الحياد العربي، فقد صرح في القاهرة بأن على حكومات الشرق الأوسط أن تختار بين الشرق والغرب، وأنه مقتنع أنهم الآن في

المعسكر الحر، وفي دمشق عاد وأكد أن الحياد لصالح العدو، وهو في طريق التقهقر، وقد قوبلت زيارة ماك غي بتظاهرات عنيفة في دمشق وبيروت وبغداد، ووصل العنف حد استخدام المتفجرات ضد المراكز الأمريكية[1].

٢- كان عدد من السياسيين والنواب من حزب الشعب ومن الحزب الوطني يؤيدون التحالف مع الغرب، وكذا كان الحال بالنسبة لعدد من المستقلين من أمثال حسني البرازي ومنير العجلاني وحسن الحكيم وزكي الخطيب وغيرهم من العشائر وأحزاب اليمين، وكان الشيشكلي إلى جانب التحالف مع الغرب، غير أنه تجنباً للمشاعر الشعبية المعادية للغرب، والمؤيدة لمصر في إلغائها معاهدة ١٩٣٦، ترك لرئيس وزرائه حرية التعبير عن آرائه لمناصرة الغرب والدعوة إلى التحالف معه.

شكل الحكيم وزارته في ١٢-٨-١٩٥١، وأدلى بتصريح عن سياسته الخارجية أدى إلى الاختلاف مع وزير خارجيته فيضي الأتاسي، فظهر الخلاف جلياً في الإعلام وفي البرلمان، وقامت مظاهرات عارمة ضد الوزارة، قادها الإخوان المسلمون في دمشق وعلى رأسها الأستاذ محمد المبارك عضو البرلمان، كما قادها أنصار السلام - الشيوعيون وأنصارهم - في مدينة حمص ضد مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط، فأدلى الحكيم بتصريح قال فيه: لن أسير

---

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ١٩٩ .

بوحي الشارع، ولن أفرّط بسياسة سورية الخارجية، غير أن المظاهرات العنيفة التي طالبت بالحياد كشفت عن مدى اتساع الهوة بين الحكام والشعب[1].

قدم حسن الحكيم استقالته في ١٠-١١-١٩٥١، ونشر مع نص الاستقالة بياناً تضمن رأيه في مسألة حلف الدفاع عن الشرق الأوسط قال فيه: إذا ثابرنا على سياستنا الخاطئة ولم نتعظ خسرنا قضايانا وأصدقاءنا، وقال: وإني أرى في مشروع الدفاع المشترك فرصة للعرب يقوون فيها عسكرياً واقتصادياً[2].

٣- فأين موقع الإخوان المسلمين من هذا الصراع؟

تبنى الإخوان سياسة الحياد وعدم الانحياز في بادرة غير مسبوقة في السياسة العربية منذ ظهور الدعوة إلى الأحلاف عام ١٩٥٠ وحتى منتصف الخمسينيات على لسان الأستاذ محمد المبارك في البرلمان عام ١٩٥٥، بعد زوال حكم الشيشكلي.

قال الشيخ السباعي رحمه الله في كلمة ألقاها في البرلمان يوم ٣-٥-١٩٥١: يجب أن نفكر في علاقاتنا مع المعسكر الغربي، وإننا جديرون بأن نصون كرامتنا إزاء هؤلاء الذين يستهزئون بكرامتنا وبإرادتنا، ولا أدري إلى متى نسير بإرادتهم، ومتى نفكر بالخروج عن

(١) المرجع السابق: ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق: ٢١٣ .

تلك الإرادة[١].

وفي عام ١٩٥١ عندما ترأس الشيخ السباعي البعثة السورية للمؤتمر العالمي الإسلامي في باكستان، وكذا عندما ألقى كلمته في المؤتمر الإسلامي- المسيحي في نيسان عام ١٩٥٤ بلبنان، أكد في المناسبتين على سياسة الإخوان المسلمين التي تدعو إلى دعم سياسة الحياد الإيجابي تجاه القوى العظمى[٢]. وبعد أن روّج الإخوان المسلمون لسياسة الحياد الإيجابي منذ عام ١٩٥٠، هلل الشعب السوري لهذه التوجهات، وتبنت بعد ذلك الأحزاب الأخرى مثل حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي بالإضافة إلى الجبهة الإسلامية دور القيادة في الحملة التي تدعو إلى حياد سورية في الحرب الباردة[٣]، وراحت الدعوات إلى الحياد تنطلق في سورية على نطاق واسع[٤] غير أن الدكتور معروف الدواليبي يعتبر هو الرائد لسياسة الحياد، فهو الذي بذر بذورها في وقت مبكر، عندما صرح في نيسان ١٩٥٠ -وهو يقوم بزيارة للقاهرة- ذلك التصريح الشهير الذي كان وقعه مدوياً في المحيطين العربي والدولي، وكان خطوة الانطلاق لتطور سياسة الحياد في العالم العربي: قال الدواليبي:

---

(١) الدكتور السباعي لحسني جرار: ١١٨ - ١١٩ .

(٢) الحركات الإسلامية ليوهانس: ١٥١ .

(٣) دراسة في تاريخ سورية: ١٨٣ .

(٤) المرجع السابق: ١٩٧ .

بصفتي الشخصية، وليس بصفتي كوزير مسؤول في الحكومة السورية، بإمكاني أن أصرح: في حال استمرار ضغوط الحكومة الأمريكية على الدول العربية لدفعها لاتخاذ سياسة لا تؤدي إلا لتهويد ما تبقى من الدول العربية، فإنني سأطالب بنفسي بإجراء استفتاء في الدول العربية لكي يدرك الرأي العام بأن العرب يفضلون ألف مرة أن يصبحوا دولة سوفياتية من أن يكونوا لقمة بيد اليهود[١].

أصبحت مسألة الحياد منذ ذلك التصريح بمثابة معضلة دائمة في السياسة العربية، وبالنسبة للإخوان المسلمين في سورية والبرلمان السوري بمثابة عامل مؤثر في السياسة الداخلية حتى حُلّ البرلمان إثر الانقلاب الثاني لأديب الشيشكلي في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥١[٢]. وقد نوه معروف الدواليبي بالإضافة إلى ذلك، إلى أن العديد من المسؤولين الأمريكيين قد تجولوا في الشرق الأوسط في الأشهر الفائتة، مما يؤكد اهتمام الولايات المتحدة بإقامة قواعد عسكرية في المنطقة، وأضاف: إن الشرق الأوسط لا يستطيع أن يجنب نفسه دخول حرب قادمة إلا إذا عقد العرب اتفاقية عدم اعتداء مشتركة مع الاتحاد السوفياتي، هكذا فقط يمكن أن يتحقق سلام في العالم العربي، تدّعي الولايات المتحدة بأنها تسعى إليه.

تلقى الإخوان المسلمون تصريح معروف الدواليبي بحماسة زائدة،

---

(١) الحركات الإسلامية في سورية: ٣٩٣ نقلاً عن المنار الصادر في ١٠-٤-١٩٥٠ .

(٢) المرجع السابق: ٣٩٤ .

فقد أدلى مصطفى السباعي بحديث لجريدة المصري (المصرية) يدعم فيه تصريح معروف الدواليبي، واتهم فيه الدول الديمقراطية أي دول الغرب، بأنها كانت المسبب الرئيسي لهزيمة فلسطين، لذا فإن العرب ما عادوا مستعدين لتصديق (الديمقراطية الأثيمة) إذ إنها تتصرف بشكل مناف للكرامة الإنسانية[1]، وعندما بذل رئيس الوزراء ناظم القدسي مساعيه باتجاه الوحدة العربية أو اتحاد عربي في مشروع قدمه إلى الجامعة العربية تعرض له الأستاذ محمد المبارك قائلاً: إن مشروع القدسي يلقى دعماً كاملاً، إلا أنه من الضروري المحافظة على الحياد[2]، وعندما صرح حسن الحكيم وكان رئيساً للوزارة تبنيه إقامة حلف مع الغرب، علق الأستاذ المبارك، وكان وزيراً في وزارة الحكيم، بأن تصريح الحكيم لا يعبر إلا عن رأي شخصي، ولا يمثل بأي حال رأي الوزارة، وعندما صرح الحكيم أمام الصحافة بأنه لا يريد أن يتبع سياسة تسير حسب ضغوط الشارع، وأنه ليس بحاجة إلى شعبية رخيصة، وأن سياسة الشارع قد أدت بسورية إلى فقدان استقلالها أيام الملك فيصل، وتبع ذلك سنجق الإسكندرون، وأخيراً أدى إلى تقبل الهزيمة في فلسطين، علق الشيخ السباعي على تصريح الحكيم قائلاً بغضب: ليس الشارع، بل الزعماء والسياسيون أمثال حسن الحكيم هم الذين قادوا الدولة إلى كوارث الانتداب وفقدان الإسكندرون وهزيمة فلسطين[3].

(١) المرجع السابق: ٤٠١ .

(٢) المرجع السابق: ٤٠١ .

(٣) المرجع السابق: ٤٠٣ .

لقد سجل المراقبون والمحللون أن سقوط حكومة الدواليبي وحل البرلمان ارتبطا بمسألة سياسة الحياد، ويرى خالد العظم - في مذكراته ٢/ ٢٣٩ - أن الدول الغربية اعترفت فيما بعد بحكومة الدكتاتور أديب الشيشكلي لأنها كانت تعتقد بأنه الوحيد الذي كان قادراً على إيقاف التيار القوي لسياسة الحياد في سورية، وعلى هذا النحو يرد الاعتقاد بوجود علاقة بين الانقلاب ومسألة الحياد، وذكرت جريدة - تسوريخر تسايتونغ - السويسرية والكريستيان مونيتور السويسرية في ٣٠-١١-١٩٥١ بأن الانقلاب الجديد يعود لمسألة الحياد، كذلك جاء في جريدة الديلي ووركر، وكل تلك الآراء في ذلك الاتجاه عن العلاقة بين الانقلاب الذي قام يه الشيشكلي وبين سياسة الحياد، ولو أن رايسنر لا يرى تأييد ذلك من الوثائق الموجودة لدينا(١).

سابعاً: بعد أن أمضيت عاماً في محافظة الفرات، تم نقلي إلى محافظة حماة، ليكون مكان عملي في قرية برّي التي تبعد ١٣كم عن بلدة سلمية نحو الشرق، وهذه القرية تعتبر بمثابة مركز روحي للطائفة الإسماعيلية، كنت وزملائي في القرية نسكن جانباً من المدرسة الابتدائية التي نزاول فيها مهمتنا التعليمية، وفي ذات يوم كنت أعطي درساً في الديانة وتحفيظ القرآن في الصف الثالث الابتدائي الذي أسندت إليّ إدارة المدرسة تعليم طلابه، قال أحد الطلاب ونحن نقرأ

(١) المرجع السابق: ٤٠٤ - ٤٠٥ .

سورة قل هو الله أحد:

- أنا رأيت الـرب مشيـراً إلى زيارة علي شـاه زعيم الإسـماعيلـية وابن آغا خان إلى المنطقة.

قلت يـا بني: ليس هـذا هو الرب، فالرب لا يـشبه الـرجال، ولا نستطيع مشاهدته، بل هذا هو زعيم ورئيس.

وعنـدما انـتهـى الدوام وعـاد الطلاب إلى مـنازلهـم، جاءنـا خبـر مزعج، مـفاده أن رجال القريـة تجمهروا فـي الساحة في طريـقهم إلى المدرسة احتـجاجاً على معلم شتم زعيم الطـائفة علي شاه، ورغم أن هذا الـكلام لا أصل له، وأن الـتلمـيذ الصـغيـر لم يدرك مـا قيـل في المدرسة مـن نفي الألوهية عن إمام الـطائفة، ونحن - كمـعلمين- لا حول لنا ولا طـول في المكان الذي نقيم فـيه، فتدارك بعض الـعقلاء في القـرية هذا الأمر بعـد أن تأكدوا واقتنعـوا بأن الذي قيل غـير وارد البـتة، وليس من الـمعقـول حدوثه، فانـتهى الأمر إلـى مغادرة القـرية وصدور قرار بنـقلي إلى قرية أخرى في قـضاء السلميـة، هي قرية تل الدرة التـي تقع علـى بعد ٢١كـم عن حمـاة شرقـاً و١٣كم عن مـركز القضاء غـرباً، التحق سبع عـشرة عائلة من سكان تل الـدرة بالمذهب السني، فعانـوا أياماً صعبة، وذكر بعضـهم بعض التفسيرات الـمذهبية لآيات القرآن الكريم، ومـنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِـيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْـبَيْـتِ وَإِسْمَاعِيـلُ رَبَّنَا تَـقَبَّـلْ مِنَّا إِنَّـكَ أَنتَ السَّـمِيـعُ الْعَلِـيمُ﴾، ليقرؤوها: وإذ يرفع إبراهيم القواعـد من البيت وإسماعيل ربُّنا.. إلخ

فهم يفصلون العطف بين إبراهيم وإسماعيل، ويقرؤون: إسماعيل ربُّنا، أي يصلون كلمة إسماعيل بعد فصلها عما قبلها، وربطها بالكلمة التي تليها، باعتبارها مبتدأ وربنا خبرها، ليخرجوا منها بأن إسماعيل هو ربنا، وهكذا نسمع تفسيرات ضالة عجيبة، يحرفون فيها الكلم عن مواضعه.

وذات يوم نشرت الصحف العالمية أن علي شاه الذي يُمضي معظم وقته في أوربا، ولا سيما في سويسرا يمارس هواية التزحلق على سفوح جبال الألب، قد تزوج الممثلة الأمريكية (ريتا هيوارث) فأمسك المسلمون بالصورة وعرضوها أمام أتباع علي شاه، ليبرهنوا لهم أن زعيمهم مستغرق في المتع والنزوات، غير أن الأتباع رأوا في هذا الزواج دليلاً على مكانة الزعيم الذي حظي بإحدى الحوريات ذات الجمال الصارخ، فتذكرت قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1].

كنا نلتقي أساتذة المدرسة الأهلية المتوسطة في القرية بين فينة وأخرى، وكان فيهم معلم يظهر إلحاده وسخريته من الإسلام، ولم أكن أعرف عنه شيئاً، ثم أسرَّ لي زميل من المعلمين: أتعلم من هذا؟ إنه عبد الكريم الجندي الذي لعب فيما بعد دوراً خطيراً في الحكم العسكري، واستلم إدارة المخابرات، وكان غريب الأطوار في لباسه

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤ .

وكلامه وتعامله مع الملاكين في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، والذي انتهى به المطاف منتحراً أو منحوراً بعد خلافه مع حافظ أسد، متضامناً مع صلاح جديد.

١ - لم يطل المقام في القرية حتى تم النقل إلى مركز القضاء سلمية، وكانت المعركة البرلمانية والشعبية على أشدها حول موضوع دين الدولة عام ١٩٥٠، وكنا منشغلين في هذه المعركة شأن المواطنين جميعاً أو معظمهم، فباشرنا الاتصال بالوجهاء الغيورين على الإسلام، وكان في مقدمتهم محمد الجندي أو الجندي محمد كما كان يسميه أبناء البلدة، هذا الرجل حمل لواءين في وقت واحد، لواء الدعوة إلى الإسلام والتحرر من سلطة زعيم الإسماعيلية، ومن الأفكار المذهبية، والعودة إلى رحاب الإسلام حسب اعتقاد أهل السنة والجماعة، وقد لاقى عنتاً كبيراً في هذا السبيل، كما حمل لواء الوطنية والدعوة إلى الاستقلال، فكان يمثل الكتلة الوطنية في سلمية، وهكذا أضحى زعيماً دينياً، وقائداً وطنياً في ذات الوقت، لجأنا إليه لدعم المطالبة بأن يكون الإسلام دين الدولة في الدستور، فما خيب ظننا[1]، ثم اتصلنا بالرجل الصالح رسلان الخالد الذي حمل راية الدعوة إلى الإسلام، فاستجاب وتحرك بحماسة وإخلاص كبيرين، هذا الرجل الذي انتهى به المطاف إلى الإقامة في الكويت، وعاش

(١) الجندي محمد هو والد سامي الجندي وخالد الجندي وإخوانهما، وجميع أبنائه تنكبوا درب والدهم، وساروا في طريق آخر بعيد كل البعد عن الإسلام والالتزام بمنهاجه!!

فيها حياة الزاهدين، ووقف حياته على خدمة الفقراء والمستضعفين، وقدم صوراً من تضحيات تذكر بسيرة السلف الصالح وتفانيهم في سبيل الله، واستمر على هذا النهج، حتى توفاه الله في الكويت ودفن بأرضها.

٢- في سورية معهدان فقط لتخريج المعلمين للتدريس في المدارس الابتدائية، أحدهما في مدينة حلب، يلتحق به أو بها (دار المعلمين) الطلاب من محافظات حلب وحماة واللاذقية والدير والجزيرة، وثانيهما في دمشق، يدرس فيها الطلاب من دمشق وحمص والسويداء ودرعا، التحقت بدار المعلمين في حلب بعد مسابقة كنت فيها مقبولاً، وأمضيت العام الدراسي طالباً داخلياً في دار المعلمين للعام الدراسي ١٩٥٠ - ١٩٥١، وكان هذا العام من أكثر أيام حياتي ثراء وإنتاجاً في العمل الدعوي والتنظيمي في جماعة الإخوان المسلمين، كانت الدراسة تستغرق ثلاث سنوات لمن يحمل شهادة الإعدادية أو شهادة الدراسة المتوسطة، وسنة واحدة لمن يحمل الشهادة الثانوية - البكالوريا - وكنت من هؤلاء الذين يمضون عاماً دراسياً واحداً فيما يسمى بالصف المحدث أو الصف الخاص، ومعنى ذلك أنني كنت متقدماً في العمر على الآخرين، وهذا ما أتاح لي القيام بدور في قيادة التنظيم في دار المعلمين.

كانت تجربة رائدة ما زالت محفورة في الذاكرة، وماثلة في الناظرين، أعرضها على الأجيال الصاعدة أملاً بأن يأخذوا بأحسنها.

قمت ومجموعة من الإخوة العاملين بإجراء إحصاء لطلاب المعهد - دار المعلمين - يشمل التنوع الديني والمذهبي أو الطائفي، والتصنيف الحزبي، فكان عدد طلاب المعهد ٢٧٠ طالباً، منهم سبعون ينتمون للمذهب النصيري و٤٠ من المسيحيين، أما الانتماء الحزبي فكانوا موزعين على الأحزاب التالية: ١٧ بعثياً واشتراكيان - قبل توحيد حزب البعث مع الاشتراكي - وبضعة وخمسون شيوعياً ومؤيداً للحزب الشيوعي، و٣٦ قومياً سورياً و١٨ إخوانياً، فوضعنا مخططاً يمتد تنفيذه إلى آخر العام الدراسي، يقتضي من كل أخ أن يختار من أصدقائه ومعارفه شخصاً أو أكثر من القريبين يعمل على إلحاقهم بالتنظيم، كما يختار طالباً أو أكثر من الحياديين يعمل على تقريبهم من الفكر الإسلامي والمنهج الإخواني ليصبحوا مؤيدين إن لم يقتنعوا بالالتحاق بالتنظيم، وحددنا للإخوة الوسائل التي يؤلفون بها قلوب المؤيدين والحياديين، وحددنا فترة للأخ ينجز من خلالها برنامجه الذي أسند إليه تنفيذه، فلم ينتصف العام الدراسي حتى تضاعف عدد الإخوان الملتحقين بالتنظيم، وعندما جرت انتخابات اللجنة الطلابية، كان العنصر الإخواني غالباً، وعندما خرجت مظاهرات الطلاب من دار المعلمين ومن ثانويات حلب تأييداً لرئيس الوزراء السوري ناظم القدسي في مشروعه الذي قدمه إلى الجامعة العربية، وطلب فيه إقامة اتحاد فيدرالي بين الدول العربية، ألقيت - بتكليف من طلاب المعهد- كلمة دار المعلمين في شارع النصر، من إحدى شرفات الأبنية في وسط الشارع، وبعدما تمت سيطرة الإخوان

على جو دار المعلمين، تم إنجاز المشروعات التالية:

أ- قدم طلاب المعهد عرائض بالتعاون مع طلاب الثانويات في حلب يطلبون فيها زيادة حصص التربية الإسلامية في مناهج الدراسة الثانوية، وإدخال مادة التربية الإسلامية في امتحانات الشهادات، وبعد صراعات ومماحكات مع الوزير - هاني السباعي - الذي كان يجامل التيارات اليسارية، نجح مسعى الطلاب بعد أن أُسندت وزارة التربية - المعارف - إلى رئيف الملقي، نائب حماة، الذي حل محل هاني السباعي، فصار للتربية الإسلامية حصتان بدلاً من حصة واحدة، ودخلت مادة التربية الإسلامية في امتحانات الشسهادات المتوسطة والثانوية، بعد أن كانت مستبعدة من الامتحانات، فكان الطلاب لا يأبهون لها، ولا يهتمون بمنهاجها، وكثيراً ما كانوا يتغيبون عن دروسها.

ب- كان الشيوعيون قد ركزوا على دار المعلمين، فحشدوا لها عدداً من المدرسين الشيوعيين، وكان مدير المعهد الأستاذ عمر فوزي الذي تخرج في الجامعات الفرنسية، فعاد مشبعاً بحضارة الغرب، يدعو إليها، ويشجع على الأخذ بمفاهيمها، فكان يوجه الطلاب إلى الرقص مع الطالبات كما سمعت ذلك من بعض الطلاب، وكان نائب المدير الأستاذ محمد علي الزرقا، وهو علوي من لواء الإسكندرون، وكانت حماسته للشيوعية دونما حدود، فكان يوزع النشرات الحزبية بنفسه تحت مظلة الرحلات المدرسية إلى الساحل، وكان ثمة خمسة

مدرسين آخرين يعتنقون المبادئ الشيوعية، منهم الأستاذ عبد الكريم خليفة أخو الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة المراقب السابق لجماعة الإخوان في الأردن، ثم عاد بعد ذلك إلى عمان، ولم يعد يدعو إلى الشيوعية، ثم أسندت له الحكومة إدارة المجمع اللغوي في عمان، وبالمقابل كان الشيخ محمد أديب الصالح مدرساً للتربية الإسلامية في دار المعلمين، وكان ناجحاً في تدريسه، لبقاً في معاملته مع طلابه، أريباً في عرض أفكاره، وإن أنس، لا أنس أول درس تلقيته مع طلاب الصف الخاص ممن يحملون الشهادة الثانوية، دخل الشيخ إلى الصف، فحيا طلابه، ثم شرع في تسجيل عدد من التعريفات للدين على اللوح، منها، قال ماركس: الدين أفيون الشعوب، ومنها قالت الموسوعة الفرنسية: الدين ما خالف العقل - أي لا يتقيد بمقتضياته - وبالطبع هذا مستقى من المفاهيم السائدة عن الدين في أوربا بعد الثورة على الكنيسة، ثم التفت الشيخ إلينا - نحن طلاب الصف الخاص- قائلاً بعد أن قرأ هذه التعريفات على أسماعنا: هل ينطبق أي منها على الإسلام؟ ثم قال: الإسلام يوقظ الشعوب ولا يخدرها، والإسلام قائم على العلم ومبني عليه ولا يخالفه أو يتناقض معه، وهكذا أمضى الحصة الأولى، فكان لها أثر إيجابي كبير في نفوس الطلبة، ولم تزل محفورة أو مخزونة في أذهاننا، كان تعاوننا مع الشيخ عميقاً ووثيقاً، أدى إلى أفضل النتائج للدعوة الإسلامية في دار المعلمين، وكان نشاط الشيخ يعدل نشاط المجموعة الشيوعية من المدرسين وزيادة، ورغم مضي ٥٥ سنة على تلك الأيام، فإن الشيخ

أديب، أو الدكتور أديب فيما بعد، لم ينسها، بل يذكرها بكثير من الحنين، فعندما نلتقي بعد عشر سنين أو عشرين، يتذكر أبو إقبال تلك الفترة المباركة، وكان آخر لقاء لي مع الشيخ - أمد الله في عمره - عام ٢٠٠٥ مع بعض الأحباب، فسرعان ما قفز على الخمس والخمسين سنة، ليذكر تلك الأيام المحفورة في ذاكرته بالخير والثناء، والحمد لله الذي قدرها وبارك فيها.

٣- طلبنا من إدارة المدرسة تخصيص مكان للصلاة فتلكأت وماطلت، فوقعّنا عريضة من طلاب المعهد، مسلمين ومسيحيين، فقد كان رئيس الحزب القومي السوري، وما زلت أذكر اسمه، عيسى طيارة من صافيتا، طلبت منه دعمنا بالمطالبة بتخصيص قاعة للصلاة، وقلت له: ألا تقولون إنكم تؤمنون بالمدرحية - كلمة منحوتة من كلمتين: مادية وروحية - فلماذا لا تؤازروننا في المطالبة بتخصيص مكان للعبادة؟ فوافق ووقّع، وأمر أعضاء حزبه بالتوقيع على العريضة دون أن يتخلف واحد منهم، بالرغم من أن عدداً منهم، وربما كثرتهم كانت من المسيحيين، استدعاني مدير المعهد إلى غرفته وقال لي: إن القيادات تستغل فيكم عاطفتكم الدينية، قلت: هذا غير ممكن، لأن الإسلام مبني على نصوص واضحة، فالذي يود الاستغلال أو التضليل سرعان ما يتكشف أمره، ثم قال: تطالبون بمسجد، ومن حق المسيحيين أن يطالبوا بكنيسة، وبالطبع فالمدير الأستاذ عبد العزيز عثمان خريج فرنسا، كان يبالغ، لأن المسيحيين يحضر المتدينون منهم إلى الكنيسة يوم الأحد، وليس عليهم - كالمسلمين - خمس

صلوات في اليوم والليلة، فقلت للمدير: نرضى بأن نسمي مكان الصلاة معبداً، فمن شاء أن يعبد الله يجده مفتوحاً أمامه، سواء أكان مسلماً أم كان نصرانياً، فطوي الموضوع، وتم تخصيص مكان لأداء الصلاة.

سقى الله تلك الأيام، ما أجملها وما أعذب ذكراها، وما أحلى التجرد والإخلاص إذا لامسا أو خالطا بشاشة فؤاد المؤمن، فإنه عندئذ يجد من المتعة والأنس مالا يدرك حقيقته إلا من ذاق طعمه، وهذا ما عناه كبير العارفين إبراهيم بن أدهم حين قال: إنا لنجد في الصلاة متعة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها.

ثامناً: لم أكد أتخرج في دار المعلمين حتى قرأت إعلاناً صادراً عن وزارة التربية لإجراء مسابقات للإيفاد إلى الجامعات في أوربا والبلاد العربية، فسجلت مشاركتي في بعثتين، إحداهما لدراسة التربية في السوربون في باريس، والثانية إلى كلية الشريعة في الأزهر، ولما تعارض التوقيت بين المسابقتين، آثرت الاشتراك بالمسابقة إلى الأزهر، وبانتظار النتيجة، حملت أمتعتي وسافرت إلى دمشق في طريقي إلى بلدة فيق في الجولان حيث تم تعييني في مدرستها، وفي المساء أعلنت الإذاعة أسماء الذين نجحوا في المسابقة، فجاء اسمي واحداً منهم، فحزمت أمتعتي، وعدت أدراجي إلى حماة، لأستعد للسفر إلى القاهرة، والالتحاق بكلية الشريعة في الأزهر، بعد الانتهاء من إنجاز أوراق السفر، والانفكاك عن وزارة المعارف، والاستعداد للتوجه مع

أعضاء البعثة إلى الأزهر الشريف للعام الدراسي ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

١- حملت رسالتين من العارف بالله الشيخ محمد الحامد رحمة الله عليه، إحداهما للشيخ عبد المعز عبد الستار الذي ما زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الكلمات، رغم أنه تجاوز من عمره المبارك مئة عام أو قاربها، والثانية للشيخ عبد البديع صقر رحمه الله، وفي كلتا الرسالتين قال الشيخ الحامد لأخويه اللذين تآخى معهما عندما كان طالباً في الأزهر بمصر: أرسل إليكما هدية إخوان سورية إلى إخوان مصر، فحملتهما، وذهبت إلى دمشق ماراً بشيخنا السباعي لأسمع منه وأتلقى التوجيه من جنابه، كان الشيخ عيسى منّون عميد كلية الشريعة شيخاً للسباعي، فحمّلني التحية إليه، وزودني بوصية ثمينة ما زلت متذكراً إياها، ومنقوشة في مخيلتي، قال لي الشيخ: إذا اعتمدت على ما تتلقاه من مناهج الأزهر، فإنك تعود فقير المحصلة، لذا يجب أن تعتمد على نفسك في الدراسة وكثرة المطالعة، والاطلاع على المراجع والمصادر، وتتلقى العلم من منابعه، ثم قال: لأضرب لك مثلاً، برامج الأزهر تتناول الرق في معظم مرافق الدراسة، مع أن الرق لم يعد موجوداً، وتتجاهل دراسة الماركسية مع أنها تسيطر على أكثر من ثلث الكرة الأرضية وتحكم شعوبها.

وكنت قبل أسابيع التقيت الشيخ أبو الخير زين العابدين في معسكر للجماعة كان يقوم بزيارته في ريف حلب فقال: أوصيك بقراءة كتاب: بروتوكولات زعماء صهيون، فإنه أخطر بخططه علينا من القنبلة الذرية.

٢- وصلنا - نحن أعضاء البعثة إلى الأزهر - القاهرة، وكان الدكتور زكي المحاسني الملحق الثقافي السوري في استقبالنا، فصحبنا إلى فندقين، يسمى أحدهما فندق فينواز في وسط القاهرة، كنت مع النزلاء فيه، علمنا أن ساطع الحصري كان يسكن فيه، وكان الحصري قد أثار جدلاً كبيراً في الأوساط التعليمية في سورية، عندما كان برفقة الملك فيصل، وفي العراق عندما انتقل معه إلى بغداد، تحمس كثيرون لبرنامجه التعليمي ودافعوا عنه، وشجبه كثيرون، وتهجموا عليه، وكنا قد قرأنا له في مقتبل حياتنا الدراسية كتباً في الدعوة إلى القومية العربية، منها كتاب: العروبة أولاً، وكتاب: آراء في القومية والوطنية، وكان شديد الحماسة لبناء المجتمع القومي العلماني الذي لا يقيم للإسلام وزناً في بناء الدولة والمجتمع، فكنت وزملائي مشوقين لزيارته في غرفته، والاستماع مشافهة إلى آرائه وأفكاره، وبعدما جالسنا رأينا أنفسنا أمام رجل لا يحسن التكلم في العربية الفصيحة، بل كان يؤنث المذكر، ويذكر المؤنث كالذين يتعلمون العربية وأعمارهم كبيرة أو متقدمة، سألنا عن السبب، فقيل لنا: إنه عاش في تركيا فترة طويلة، فأثّر ذلك على إتقانه الحديث بالفصحى، فخرجنا من مقابلته، ونحن نتساءل: أهذا هو الرجل الذي روج للقومية العلمانية، وطرح مشروعه السياسي أو القومي مجرداً عن الإسلام الذي هو روح العربية وإكسيرها وباني مجدها، ومنشئ حضارتها، والترويج للغتها أو بالأصح فرض لغتها على الأمة الإسلامية التي يبلغ تعدادها ستة أضعاف عدد الشعب العربي كإحصاء

متوسط في كل العصور؟!! لقد ظن بعضنا أنه ينحدر من أصل تركي، والبعض نفى ذلك، وهذا ما يستدعي التأمل في خلفيات دعاة الشيوعية، التي دلت الدراسات الرصينة على أن الذين أسسوا الأحزاب الشيوعية في مصر ولبنان وغيرهما كانوا من اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا من روسيا أو من فلسطين بعد بدء الهجرة إليها، أو دعاة القومية العلمانية، أو دعاة الماركسية، أو دعاة الوطنية الذين يودون إقامة المجتمع والدولة على أسس وحدود جغرافية.

٣- ذهبنا مع الملحق الثقافي إلى كلية الشريعة في الأزهر الشريف، وقصدنا حجرة العميد الشيخ عيسى منّون رحمه الله، فرأينا الشيوخ ينحنون على يد العميد ويقبلونها، ولم نكن قد تعودنا ذلك أو ألفناه في صلتنا بأساتذنا، بمن فيهم شيخنا السباعي وأستاذنا المبارك، وبركتنا الشيخ محمد الحامد، فلم نفعل ذلك، ولم نستطع أن نجامل فيه، ثم رأينا أموراً أخرى تتعلق بالنظام وأحوال الطلاب الوافدين من إفريقيا وآسيا، وصادف أن نصفنا كان يحمل شهادة شرعية فتم قبولهم بالحال، أما نحن الأربعة، فثلاثة منا يحملون شهادة دار المعلمين، والرابع يحمل شهادة الدراسة الثانوية فقط، فاشترط الأزهر علينا الدخول في مسابقة، فامتنعنا عن ذلك، لأننا لا نضمن النجاح، ولم نكن مهيئين لها، وبعد تشاور أرسلنا موفداً عنا إلى دمشق ليشرح الحالة للأمين العام لوزارة التربية، فتمت الموافقة على تحويلنا إلى دار العلوم التي كانت وسطاً في مناهجها بين الأزهر وبين كلية الآداب في جامعة القاهرة، فقلنا للملحق الثقافي: طالما أن الوزارة وافقت

على التحويل، فنرجو تحويلنا إلى كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة فيما بعد - والذي جعلني ألحف في هذا الأمر رؤيا رأيتها في سورية أنني التحقت بجامعة فؤاد الأول وتم لنا ما أردنا، والتحقنا بكلية الآداب، دخلنا الكلية متأخرين جراء المعاملات والمراجعات، ولم ينتظم دوامنا إلا في شهر آذار/ مايس، ولم يبق على نهاية الدوام إلا شهران، فكيف نستطيع اللحاق بالدراسة الفائتة؟ كانت الاضطرابات شديدة، وكان الدوام متعثراً، لأن الطلاب حولوا ساحة الجامعة إلى معسكر تدريب، ينطلقون منه إلى قنال السويس لمقاومة الإنكليز في معسكراتهم، وكان أول شهدائهم عمر شاهين الذي شيع الطلاب جنازته في حفل مهيب، ثم لحق به في ركب الشهداء الطالبان: المنيسي وغانم، دخلنا الكلية ولا نعرف كيف نبدأ، وإذا بطلاب يلتفون حولنا، ويطلبون التعارف معنا، ويعرضون علينا مساعدتهم، باعتبارنا طلاباً محدثين، ومتأخرين في الانتساب وقالوا: نحن إخوانكم، وسرعان ما جاؤوا لنا بالمحاضرات المسجلة في الكراسات خلال الأشهر الماضية، واستمروا بالاتصال معنا حتى أحطنا بالمنهاج المعطى لطلاب الكلية، وبفضل هذه المساعدة، استدركنا ما فاتنا، ولحقنا بزملائنا، واجتزنا الامتحان بنجاح، لننتقل إلى السنة الثانية.

طبق تنظيم الإخوان هذا السلوك مع جميع الطلاب الغرباء الوافدين على جامعات مصر، ولا زلت أذكر طالباً من حزب أكرم الحوراني

ذهب إلى القاهرة، والتحق بمعهد التربية الرياضية، وكان بعيداً عن التدين، وعن السلوك الإسلامي، عاد بالعطلة الصيفية وهو يشيد في انبهار بالإخوان المسلمين في مصر لما لمسه ورآه منهم من رعاية وتعاون ليتغلب الطالب على مصاعب الدراسة في بداية التحاقه بها.

٤- كنت نذرت في نفسي أن أقوم بزيارة قبر الإمام الشهيد حسن البنا، وزيارة الأستاذ سيد قطب، وقد وفيت النذر، وذهبت أسأل وأفتش عن قبر الإمام الشهيد في مقبرة - قرافة - الإمام الشافعي، إلى أن وصلت إلى القبر، فوقفت عليه وقرأت الفاتحة على روح هذا الشهيد الذي أحيا الله به نفوس مئات الآلاف بنور الإيمان وروح الإسلام، ليكونوا خير أمة جهاداً والتزاماً وأخلاقاً، وبعد أن استقر بنا الحال في السكن والدراسة، التفتنا إلى النشاط الدعوي والاتصالات الإخوانية، فبادرت أولاً إلى اقتناء كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، وشرعت بقراءته، واستوعبت مضمونه فيما يبيته الصهاينة من كيد وتآمر وإفساد لأبناء أمتنا، ولاسيما في البروتوكول الثالث عشر الذي ينص على إغراق جماهيرنا بالغناء والرياضة التي تنفق عليها حكوماتنا المليارات لبناء الملاعب وشراء اللاعبين، ومعظم شعوبنا يعيش تحت خط الفقر، وفي حياة بائسة.

كان حديث الثلاثاء بالنسبة لي غذاء أسبوعياً لا أستغني عنه، وكان الترامواي ينوء بحمل الركاب إلى الحلمية حيث يوجد المركز العام للإخوان المسلمين في مصر، وكثيراً ما تعرضت حياتنا للخطر من

الازدحام في القاطرات، والتدافع بين الركاب، لقد استمعنا إلى أحاديث الثلاثاء من الشهيد عبد القادر عودة، والشهيد محمد فرغلي، والشهيد سيد قطب، والمرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي، والأستاذ عبد العزيز كامل، والأستاذ صالح عشماوي، وغيرهم من الرعيل الأول، ومن المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية في القرن العشرين وفي القرن الواحد والعشرين، كنا نحضر صلاة الجمعة في مكان فسيح في روضة الفرج حيث يوجد منزل المرشد العام الهضيبي، ومقر مجلة (المسلمون)، وكان المكان مشروعاً كبيراً لبناء مسجد وصالة محاضرة، ومكتبة وغير ذلك، وكان قادة الجماعة يعلنون من فوق هذا المنبر قرارات الجماعة ذات الأهمية، لقد أعلن وكيل الجماعة الأستاذ عبد القادر عودة في آخر خطبة ألقاها فيما أقدر أن الجماعة ثابتة على مواقفها، وكان الهضيبي وأكثر من سبعين من القادة مودعين في السجن، وكان عبد الناصر يحاول أن يستميل الأستاذ عبد القادر عودة إلى صفه مناوئاً للمرشد والقيادة، فجاء الرد من الوكيل العام الشهيد عبد القادر بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾، أيها الإخوة: كونوا صفاً واحداً خلف قيادتكم، ولا تتلقوا أي توجيه إلا منها، فخاب ظن عبد الناصر في كسب الشهيد عبد القادر إلى صفه، وكان الثمن الذي دفعه الأستاذ عودة هو حياته في سبيل الله تلقاء ثباته على مبادئ دعوته وطاعته لقيادته، أما مشروع الروضة، فلم ير النور، وذهب وصودر مثل موجودات الجماعة الأخرى

بما فيها المركز العام ومشروعات الطبابة والصحافة والتعليم والخدمات الاجتماعية والمشروعات الاقتصادية، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اتصلت بالأخ عبد الحفيظ الصيفي باعتباره مسؤولاً عن قسم الاتصال بالعالم الإسلامي، فلم أجد في هذا الاتصال ما يحقق طموحي، وكان الأستاذ عبد العزيز كامل رمزاً بالنسبة لشباب الجماعة فيما يطرحه من فكر متقدم، ودراسات شيقة، وقد التف حوله نفر من الإخوان المعنيين بالدراسات الفكرية، أطلقوا على أنفسهم - الشباب المسلم - فأذن لي الأستاذ عبد العزيز كامل بالحضور معهم، أذكر منهم الأستاذ جمال عطية والدكتور عز الدين إبراهيم الذي انطفأ وهجه بعد أن عمل في الإمارات مستشاراً ثقافياً للشيخ زايد رئيس دولة الإمارات وحاكم أبو ظبي، وآخرون لا يزيدون على العشرة، كان الدكتور عبد العزيز يقرأ عليهم أفكاره ورسائله التي يعدها للنشر، وبعد أن يشبعوها دراسة وبحثاً وتمحيصاً تدفع بها لجنة الشباب المسلم إلى النشر، لقد حضرت مناقشة رسالة - الأسرة والكتيبة - ورسالة نحو جيل مسلم، وكانت من أغنى الرسائل التي أخذت بها وطبقتها في إحدى الأسر التي كنت أتولى توجيهها في حماة أثناء الإجازات الصيفية، وأذكر أنني أمضيت في دراستها، وفي مناقشتها وما يتفرع عنها من أفكار وبحوث مع أفراد إحدى الأسر التي كان من أعضائها الأخ فارس ملّي ستة أشهر، كان عبد العزيز كامل لنا مثلاً يحتذى في الوضوح والفهم والإخلاص والاستقامة، وقد استفدت من محاضراته، ولاسيما تحليلاته للسيرة النبوية، وإنزالها على واقعنا

المعاصر وحياتنا العملية، أكثر مما استفدت من أي مصدر آخر، وكنت أزوره في شقته في حي إمبابة، وكان يزوره جاره هنداوي دوير الذي يسكن في شقة مجاورة، والذي أعدمه عبد الناصر بعد محاولة الاغتيال المزعومة كما دلت بعد ذلك كثير من البحوث والمقالات المنشورة، وقد استمرت علاقتي بالأستاذ عبد العزيز كامل رحمه الله حتى بعد خروجه من السجن في شقته الجديدة في ساحة المساحة بحي الدقي التي تزوج فيها، لكنني وجدت الرجل قد نال منه السجن وما مارسوه من التعذيب الرهيب الذي لا يقوى عليه الإنسان، فأصابوه في روحه، وتركوا آثاراً سلبية على نفسه وإرادته، رحم الله الدكتور عبد العزيز كامل بقدر ما قدم للدعوة والجماعة والشباب وجماهير مصر في المحاضرات التي كان يلقيها على الألوف بالمناسبات الدينية والتاريخية، فكانت زاداً أو غذاء لشباب الإخوان وشاباتهم في مرحلة المد الإخواني وصعود الجماعة وامتداداتها حتى بلغت أقاصي الأرض، ووصلت إلى القارات الخمس، ومن الأشخاص الذين اتصلت بهم، ولو لفترة وجيزة الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله وأمد في حياته المباركة، لقد كان خطيب الجماعة ورمز الشباب وشاعر الإخوان الذين تغنوا بقصائده التي حفظوها وأنشدوها في لقاءاتهم واجتماعاتهم ومعسكراتهم، ليس في مصر فقط، بل وفي سورية وغيرها، ولاسيما قصيدته التي مطلعها:

يا رسول الله هل يرضيك أنا   فتية في الله للإسلام قمنا

لا نهاب الموت لا بل نتمنى   أن يرانا الله في ساح الفدا

كنا نذهب إليه في شبرا لنحضر عنده أسرة كان نقيبها، وظلت الصلة به قائمة حتى حضر مع رفيق دربه الشيخ أحمد العسال متعاقدَين مع حكومة قطر للعمل في وزارة المعارف، فوجدا عنتاً وصدوداً وقراراً من جهات دينية أن لا يتم التعاقد معهما، فتعاونت مع الأستاذ محمود عباس - أبو مازن - على تذليل العقبات وإزالة العوائق، وتثبيت التعاقد معهما، فكانت الدوحة للشيخ يوسف منطلقاً له في عمله الدعوي إلى أرجاء العالم كله.

٥- كانت حياة الشهيد سيد قطب وأفكاره، وتطور حياته في محراب الفكر وساحاته من العجائب التي تستأهل التسجيل والتأمل، فقد نشأ سيد رحمه الله في الصعيد من أسرة حجازية هاجرت من الحجاز إلى الصعيد، فنشأ في بيئة محافظة، ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بدار العلوم، فشغلته الدراسات الأدبية، فبرع فيها، وكان على اتصال بالعقاد ومدرسته ومجالسته، ولا أذكر أنني استفدت من كتاب في النقد الأدبي كما استفدت من كتاب سيد قطب في دراستي بكلية آداب القاهرة، ثم شغلته الأحوال السياسية والاجتماعية في مصر، وما شاهده من ظلم الطغمة الحاكمة ومن جور الملاكين على الفلاحين، وما لمسه من بؤس شديد يشمل الكثرة الكاثرة من أبناء الشعب المصري، فضاق ذرعاً، وتحركت مشاعره المرهفة وقلبه النزاع إلى العدل، وإلى إنصاف الفقراء والمساكين والمستضعفين، فمارس الكتابة في صحف الحزب الوطني وفي جريدة الاشتراكي لسان حال

حزب مصر الفتاة، الذي أسسه أحمد حسين شقيق عادل حسين ووالد مجدي حسين السياسيَّين المعارضين النزيهين، ومن المقالات التي لا أزال أذكرها لسيد رحمه الله في جريدة الاشتراكي مقالة بعنوان: سطو ملكي كريم، إشارة إلى عدوان الملك أو الخاصة الملكية على أراضي الدولة والمواطنين.

استمر سيد في دراساته الأدبية وكتاباته السياسية الاشتراكية حتى أوفدته وزارة المعارف إلى أمريكا لدراسة التربية في جامعاتها، وهناك تغيرت حياته، أو بالأصح تغيرت اتجاهاته، بما رأى من فساد مستشر في الحضارة الغربية الأمريكية، وسجله في كتابه: أمريكا التي رأيت، وبما لمسه من فرحة غامرة لدى الأمريكيين عندما سمعوا باغتيال حسن البنا، تساءل سيد: ومن هو حسن البنا حتى يبتهج الأمريكان بمقتله، لقد كنت في مصر، ولم أكن أعرف قدر البنا، ولا الدور الكبير الذي يضطلع به. فلم يكد يصل إلى القاهرة بعد عودته من الإيفاد حتى التحق بجماعة الإخوان المسلمين، وابتدأ مسيرة العطاء التي بلغت به منزلة الإمامة والريادة والشهادة رحمه الله وأعلى مقامه، وكان باكورة إنجازاته كتابه: العدالة الاجتماعية في الإسلام، ولهذا الكتاب قصة سردها في محاضرة ألقاها في كلية الزراعة بدعوة من جمعية الدراسات الإسلامية المنتشرة في جميع كليات الجامعة، وكنت ممن حضر هذه المحاضرة المهمة التي لا تنسى: قال سيد: كنت أعد لكتابي: التصوير الفني في القرآن تمهيداً لتأليفه ونشره، ولم أشأ أن أضيف إلى العنوان - الكريم - فأقول: التصوير الفني في

القرآن الكريم، حتى لا تأخذ الدراسة طابعاً دينياً، ويبقى طابعها فنياً. وعندما كنت أبحث عن الصور الفنية وألتقطها وأجمعها عثرت على ألوان أو أنماط من العدالة الاجتماعية في الإسلام لم أجدها في أي نظام آخر، لأنها لا تختص بالاقتصاد، بل تشمل القضاء والاجتماع، والسياسة وجميع مرافق الحياة الأخرى، ومن هنا ألفت كتابي: العدالة الاجتماعية في الإسلام، بعد ذلك تتالت اللقاءات معه، كان أحدها في بيت الأخ نور الدين شمسي باشا في حي الدقي، وكان رحمه الله يحمل عدداً من جريدة المصري لصاحبها أحمد أبو الفتح، ليطلعنا على مقال فيها يقول: إن الأتراك حطموا تمثال أتاتورك في مظاهرة خرجوا بها استنكاراً لأفكاره وعلمانيته وعداوته للإسلام، لكن أكثر اللقاءات معه كانت في مكتبة وهبة حسن وهبة الذي كان يطبع له كتبه، ويؤمن له المراجع التي يطلبها منه، كنا نتلهف لصدور العدد الشهري لمجلة - المسلمون - كي نقرأ مقال سيد تحت عنوان: نحو مجتمع إسلامي، ثم توقف عن الكتابة في هذا البحث، فسألته عندما التقيته في المكتبة عن ذلك فقال: البحث واسع جداً، يحتاج إلى فرقاء عمل، فريق يختص بالفلسفة، ليقدم دراسة عن جميع المذاهب والمدارس الفلسفية في القديم والحديث، ثم يقارنها بالفلسفة أو الأيديولوجية - أو العقيدة - الإسلامية، ثم يقدم النتيجة ويبين صحة ورجحان كفة الفلسفة الإسلامية، وهكذا في كل مرافق الحياة الإسلامية من أخلاق وتشريع وعبادة وفي كل ما يمت للحياة بصلة، ثم شرع في كتابة مقالات أخرى تحت عنوان: في ظلال القرآن، فإذا

بهذا الباب يتسع ويمتد ويتطور ليكون تفسيراً جديداً، بل من أحدث التفاسير المعاصرة للقرآن الكريم، ليبلغ حجمه ستة مجلدات كبيرة، ولتقبل عليه الأجيال في جنبات العالم الإسلامي، ويترجم إلى لغات المسلمين في كل أمصارهم، وليكون تأثيره في شعوب الأمة الإسلامية بالغاً أكثر من أي كتاب أو مصدر آخر، رحم الله سيداً، فإنه لم يك سياسياً بقدر ما كان مفكراً وأيديولوجياً، ألقى مرة حديث الثلاثاء، كان التوتر قد بلغ أوجه بين عبد الناصر وبين الإخوان، فقال: لن نعتقل بعد اليوم، وكان عبد الناصر قد اعتقل الهضيبي وإخوانه، ثم أطلق سراحهم، وذهب إلى الهضيبي معتذراً له، فسألته وقد التقيته كالعادة في مكتبة الأخ وهبة: لقد سمعتك تقول في المركز العام لن نُعتقل بعد اليوم، فماذا تعني؟ قال: أعني أننا لن نمكنهم من اعتقالنا مرة أخرى، رحم الله سيداً، أي حكومة مهما كانت ضعيفة هل تقبل مثل هذا التحدي؟ فكيف إذا كانت الحكومة عسكرية، وتحسب للإخوان في صراعها معهم ألف حساب؟ وهل من ضرورة لمثل هذه المواقف التي انتهت وأمثالها إلى المأساة المروعة التي حلت بالجماعة، وهذا الموقف يذكر بما كان عليه الهضيبي رحمه الله عندما كان يعتلي منبر الثلاثاء، وجماهير الإخوان تهدر في المركز العام، وفي الشوارع كالسيل، وتهتف بشعارات الجماعة، فتتجاوب جنبات الحي بأصدائها، فيتكلم بهدوء وكأنه فوق منصة القضاء، فلا يطفئ ظمأ الجماهير الإخوانية ولا يروي غليلهم. رحم الله الأستاذ المرشد الثاني حسن الهضيبي، فقد كان إماماً في الصبر والصمود

والصلابة والإخلاص، لكنه لم يكن سياسياً، وأين من يسد فراغ البنا في دهائه وذكائه وتأثيره في الجماهير، وقدرته على تعبئتهم وإشباع طموحاتهم وتطلعاتهم، وإرواء غليلهم، فإنه رحمه الله كان ينطق بالحكم وفصل الخطاب، أعود إلى الأستاذ سيد قطب واللقاءات معه في المكتبة، إذ سمعت منه رحمه الله أن ميشيل عفلق عندما مر بالقاهرة في طريق عودته من الدراسة في فرنسا إلى سورية عن طريق البحر، عرض على الأستاذ سيد التعاون في تأسيس حركة شيوعية في دول المنطقة، فعقب سيد قطب على ذلك بقوله، فما الذي جعله يعدل عن ذلك بتأسيس حركة قومية لا شيوعية؟ وفي وقت لاحق التقيت الأستاذ ميشيل عفلق وسألته عن لقائه مع سيد، فنظر إلي ولم يجبني بنفي أو بإيجاب. وكان ممن التقيتهم في مكتبة وهبة الأستاذ خالد محمد خالد، وسبق لي أن ذكرت سؤاله لي عن أكرم الحوراني الذي يدعو إلى الحرية، ويلجأ للانقلابات العسكرية، وكيف يوفق بين هذين الأمرين المتناقضين، وفي ذات يوم قرأت له عموداً في جريدة المصري، بمناسبة وفاة ستالين عام ١٩٥٣ بنزف في الدماغ اتهم بموته أطباء يهود في الاتحاد السوفياتي، فنعاه الأستاذ خالد محمد خالد بقوله: بأبي أنت وأمي يا ستالين، طبت حياً وطبت ميتاً!! وهي الكلمات التي رثى بها سيدنا أبو بكر رسول الله ﷺ عندما التحق بالرفيق الأعلى، فاستشطت غضباً منه، وتمنيت لقاءه لأشفي غليلي من هذا الشطط، وكان من قبل قد نشر أو نشرت له صورة يراقص فيها امرأة كتب تحتها: الرقص يدعو للإيمان!! وقد يسر الله اللقاء

به، وصاحب المكتبة يناوله دورية تدعو للسلام، وتصدر من النمسا مكتوباً عليها: جمهورية أوستيريا، فقال: ما معنى أوستيريا؟ قلت لهما: هو اسم للنمسا بالفرنسية، قال خالد: وما علاقتي بمنظمة السلام أو مجلس السلام بالنمسا؟ يتنصل من صلته بمؤسسة شيوعية، قلت: هذا ثمن قولك، طبت حياً وطبت ميتاً يا ستالين. ودار بيننا حديث متعدد الجوانب، أنكر فيه صورته مع الراقصة زاعماً أنها مزورة عليه، سألته عن كتابه: من هنا نبدأ، وهو الكتاب الذي أنكر فيه أن تكون للإسلام دولة، وإنما هو دعوة روحية، وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وجدلاً واسعاً، ورد عليه الشيخ محمد الغزالي طيب الله ثراه بكتاب عنوانه: من هنا نعلم، سألت خالد محمد خالد: أما تزال عند آرائك في الكتاب؟ لقد قرأت لك كتاباً عنوانه الدين في خدمة الشعب، وهو مجموعة محاضرات جمعتها في هذا الكتاب الذي يتناقض كلياً مع ما جاء في كتابك من هنا نبدأ من حيث النظرة إلى الإسلام فقال: لقد قرأت كتاباً لمؤلف أجنبي اسمه... جاءني بأمور جديدة - يشير إلى أنه غير اقتناعاته - دون أن يجيب مباشرة على تساؤلي، ثم قال: جاءتني عن الشابات المسيحيات من اشترت خمسين نسخة من الكتاب، وجاء رجل من قادة حزب البعث في سوريا، وعرفني أنه أحد خمسة تتشكل منهم قيادة الحزب، وأرجح أنه سمَّى منيف الرزاز، ذاكراً أن الحزب قرر تدريس الكتاب في خلاياه الحزبية، وأرجح أني قلت له: أترى كيف يتخذ المعادون للدعوة الإسلامية من كتابك مادة يزودون بها أعضاءهم؟ وفي حي

الدقي الذي كنت أسكن فيه كنت أرى رجلاً يمشي في السوق ويشتري حاجاته، وكأني قد رأيته من قبل، يلبس حذاءً أصفر مدبب الرأس على طريقة أهل المغرب، لم أتعرف على شخصه، ولم أر تغيراً لتأكدي من رؤيته، كان ذلك عام ١٩٥٢، ولو تأكدت من شخصيته لحرصت على زيارته أو الجلوس معه لأستمع إلى صفحاتٍ من جهاده ومن تاريخه المشرف، بعد أن استبان لي أنه عبد الكريم الخطابي بطل الريف، وقائد الجهاد فيه، فقد كنا منذ الصغر تعرفنا إليه عبر صورته التي كانت منقوشة في الكتب المدرسية المقررة علينا، رحم الله الخطابي الذي استمر مقيماً في القاهرة حتى وافته المنية في مطلع الستينيات من القرن العشرين.

رواية سمعتها عن الأستاذ سيد قطب في الستينيات خلال زيارة قمت بها إلى القاهرة، وزرت فيها بيت سيد في حلوان عن طريق أخيه محمد الذي كان يعمل موظفاً في مجمع الوزارات بمشروع الألف كتاب، أذكرها لأن أحداثها جرت في هذه الفترة أو المرحلة الثانية من تاريخ جماعة الإخوان. قلت للأستاذ محمد عن طريق أخ قاهري كان زميلاً في الجامعة: أود زيارة بيت سيد وفاءً له وعرفاناً بما استفدنا منه وتلقيناه عنه عبر كتبه النافعة التي شكلت مساحة كبيرة من فكرنا، ومن ثقافتنا، وفي طريقنا إلى حلوان حيث بيت سيد وأخيه محمد، مر القطر بنا أمام سجن ليمان طره، فأشار مرافقي أن سيد في هذا السجن، وبعد دقائق دخلنا منزله العامر بمكتبة مليئة ثمينة، فقص علينا الأستاذ محمد قطب أن مجلس قيادة الثورة كان يحضر في

جلساته اثنين من المدنيين، أحدهما سيد قطب، وثانيهما أحمد أبو الفتح، ليشاركوا أعضاء مجلس قيادة الثورة في أبحاثهم ومناقشاتهم، وذات يوم قال سيد قطب: ينبغي على الثورة أن تحرص على أصدقائها التقليديين ولا تفرط بهم، مثل الإخوان المسلمين والحزب الوطني وحزب مصر الفتاة والجناح المتحرر من حزب الوفد، وأن تحذر من أعدائها التقليديين من أمثال الدستوريين وحزب الأحرار واليمين من حزب الوفد. . .إلخ

فأجاب اللواء محمد نجيب بعفوية وعلى الفور، وبما يشبه ردة الفعل: أمريكا - بتخرب بيتنا - فلم تعجب هذه الإجابة جمال عبد الناصر، وعمل فوراً على طي الموضوع، فقال: سوف نبحث في هذا الأمر وندرسه، ومن ذلك الوقت، لم يدع سيد إلى جلسات المجلس، وحصل الفراق.

٦- استمر دوامي على المركز العام في حي الحلمية، وكنت أرى في الصف من الحاضرين المستمعين ضيوفاً من كل أنحاء العالم الإسلامي، وبخاصة من العالم العربي، كنت أرى علال الفاسي من المغرب زعيم حزب الاستقلال الذي تفرعت عنه معظم أحزاب المغرب، والأستاذ الفضيل الورتلاني الزعيم الجزائري الداهية الذي كان لا يهدأ في حركته، وفي برامجه وتعبئته للمسلمين المجاهدين، والحبيب بورقيبة الذي وجد في مقرات الإخوان في مصر وسورية ملاذاً لاستضافته واستقباله، باعتباره زعيماً وطنياً مسلماً ثم نكس على

رأسه، وتبنى أفكار الغـربيين وأخلاقهم، واستحال حـرباً ضروساً على الإسـلام، وعلـى كل مـا يـمت لـلإسلام بـصلـة، من عـبـادة وخـلق وتشريع، وكـذا محي الدين القـليبي الزعيـم التونسي مؤسـس الحزب الحر الدستوري، والـذي غدر به الحبيب بورقيبة، وأقـصاه عن زعامة الحزب، وسيطر على قيادته، وسماه الحزب الحر الدستوري الجديد، وكنـت أرى محـمد بـن إدريس السـنوسي سـليل الـحركـة السنـوسيـة الجهـادية، والذي نصب على لـيبيا بعـد توحيدهـا لتشمل فـزان وبرقة وطرابلس، وكـان رجلاً صالـحاً كما عـرفه القـريبون منه، ثـم غدر به مجموعة من صغار ضباط الجيش ليؤول الحكم إلى القذافي الذي كان وما يزال لعنـة على ليبيا وعلى الـعرب والمسلمين وعلـى الإسلام بما أحدثه من إفك على الأئمة، وعلى الأحـاديث النبوية وعلى آي القرآن الكريـم، وكنت أرى زعيـم المهـدية وسليـل المهـدي ضمن ضـيوف المركـز العام، كان زعـماء المسلمـين من الدار البيـضاء حتى جـاكرتا يجدون في مـركز الإخوان دارهم وملاذهم ومـحطتهم التي يرون فـيها المحبة والمودة والتعاون والـدعم الصادق لهم من قادة حركة الإخوان المسـلمين. وكـان ركيزة المـركز العـام الذي ينظم أمـوره، ويستقـبل زواره الأستـاذ الأريب المخـلص سعـد الدين الوليـلي سكرتيـر الإمام حسن الـبنا حتى آخـر أيامه واسـتشهـاده، ثم سكرتيـراً للمرشـد حسن الهـضيبي، واسـتمر عـلى تلك الحـالة، حتى إذا كـان على سفـر إلى دمـشق لحـضور مـعسكر للـفتـوة في الزبـداني، وكـانت العـلاقة قـد تدهورت بيـن الإخوان وعبـد الناصر، وبلغـت أسوأ حالاتهـا، أصدر

عبد الناصر قراراً بإسقاط الجنسية عن خمسة من الإخوان خارج مصر وهم: عبد الحكيم عابدين وسعيد رمضان وعز الدين إبراهيم وسعد الدين الوليلي وعبد العزيز العلي، فأقام سعد الدين في دمشق، وعمل مع الدبس صاحب مصانع النسيج الشهيرة، فرتب أحوال العمال، ونظم أمورهم الصحية والمعاشية، وإجازاتهم والضمان الاجتماعي لهم بصورة مثالية كانت مضرب المثل على الارتقاء بالعمال، وتأمين الحياة الراقية لهم، وكنت أراه بين الفينة والأخرى مع صهري الأستاذ نزار السراج، فسمعت منه الحادثة التالية: كان رشاد مهنا أحد قادة الانقلاب، وكان برتبة عقيد - قائمقام - مسؤولاً عن سلاح الحدود، وكان الآخرون مثل عبد الناصر وبقية أعضاء مجلس الثورة دونه بالرتبة العسكرية، فرتب عد الناصر له برنامجاً يؤدي إلى إقصائه والتخلص منه، فتم تعيينه عضواً في لجنة ثلاثية تشرف على ولي العهد أحمد فؤاد بن فاروق بعد تنازل فاروق عن الملك، فكان في لجنة الوصاية يداوم في قصر عابدين، وبذلك فصله وأبعده عن الوحدات العسكرية القوة الحقيقية في السيطرة على الحكم، بدعوى ترفيعه وإسناد مهمة كبيرة إليه يشرف عبرها على الملك، قال الوليلي: رن جرس هاتف المركز العام، فرفعت السماعة، لأسمع من يقول: أنا رشاد مهنا الوصي على العرش، قلت: أفندم تريد التحدث مع فضيلة المرشد، قال: لا، أود الحديث معك، كررت كلامي لأصله مع المرشد، فأكد حديثه: أريدك أن تحضر شخصياً إلى قصر عابدين في ساعة كذا، ذهبت في الموعد وأنا مثقل بهم كبير، ماذا يريد مني، وما هو موقعي

حتى يستدعيني الوصي إلى القصر؟ وجدت اسمي مع الحرس في كل مراحل الدخول، فوصلت إلى مكان اللقاء، فاستقبلني رشاد مهنا ببشاشة وترحاب قائلاً: يا سعد، رغبت حضورك، حتى لا يثير حضور المرشد ضجة في الأوساط السياسية والإعلامية، ولتحمل عني الرسالة الشفهية التالية: لقد استلمنا حكم مصر، وأنتم أكبر حركة إسلامية في القطر، فماذا أعددتم لهذا اليوم؟ لم يكن رشاد مهنا منظماً في الإخوان، لكنه كان شديد التمسك بدينه والحرص على نصرته والتمكين له، يقول الوليلي رحمه الله: عدت إلى المركز العام، وأبلغت المرشد ومكتب الإرشاد فحوى الرسالة، فتناولوا الموضوع وناقشوه، وانتهوا إلى أنهم ليس لديهم ما يقدمونه من مشروعات، لكنهم قرروا استدراك الأمر بسرعة، فشكلوا لجنتين، إحداهما برئاسة سيد قطب لإعداد منهاج تربوي يطبق على الطلاب في مراحل التعليم، وثانيهما لجنة قانونية برئاسة إبراهيم الطيب لإعداد دستور وقوانين ولوائح مستمدة من الإسلام تمهيداً للأخذ بها وتطبيقها، غير أن التوتر في العلاقة مع عبد الناصر الذي تخلص من كل ما كان يظنه منافساً له، مثل: اللواء محمد نجيب ورشاد مهنا ويوسف صديق، وأعدم فيما بعد رئيسي اللجنتين، سيد قطب وإبراهيم الطيب الشهيدين البارين رحمهما الله رحمة واسعة، وحشرهما في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٧- كانت الجامعات المصرية (جامعة القاهرة وجامعة عين شمس وجامعة الأزهر) وعدد من الثانويات مبعث الحركة الوطنية في

القاهرة، وكان طلاب هذه الجامعات يحتشدون في القاعة الكبرى في جامعة القاهرة التي تتسع لحوالي خمسة عشر ألف طالب في المناسبات الوطنية والسياسية وغيرها، وكانت حركة الإخوان في صعود مدهش، وعندما أعلن عام ١٩٥٣ عن انتخابات الاتحادات الطلابية في جميع جامعات القطر، كان تيار الإخوان الطلابي كاسحاً، لا يقوى أي حزب على مواجهته، سواء أكان يمينياً مثل حزب الوفد صاحب الأكثرية البرلمانية، أم يسارياً مثل الحزب الشيوعي، فتداعت جميع الأحزاب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لتشكيل جبهة تواجه تيار الإخوان المسلمين، فضمت الجبهة أحزاب الوفد والدستوريين والأحرار واليساريين والكتلة الوفدية بزعامة مكرم عبيد التي ضمت معظم الطلاب الأقباط، ودارت معركة انتخابية غير مسبوقة في شدتها وحدتها وما حشد لها من دعم سياسي ومادي وإعلامي، حتى إن إذاعة لندن كانت تنقل أخبار الانتخابات أولاً بأول مع ذكر جملة من التفصيلات، وكنا نسمع نتائج الكليات واحدة بعد أخرى، ومعظمها كانت عشرة من عشرة لصالح الإخوان، وقلما نسمع تسعة من عشرة للإخوان وواحد حيادي، فكلية العلوم المعروفة بأنها مركز تجمع الشيوعيين، وكانوا يسمونها الكلية الحمراء انتخبت قائمة الإخوان كاملة، وقسم الفلسفة في كلية الآداب المعروفة بميولها للعلمانية والبعد عن الروح الإسلامية اختارت مرشحي الإخوان لأول مرة كجزء من انتخابات كلية الآداب التي يمثل اتحادها عشرة مثل سائر الكليات، وعندما خرجت من باب الكلية وقد شاركت في

انتخابات قسم الفلسفة التي كنت أحد طلابها قبل أن أتحول إلى قسم اللغة العربية بتوجيه من وزارة التربية في دمشق، صادفت الدكتور عبد العزيز كامل أمام باب كلية الآداب مقبلاً من إحدى كليات الجامعة، وكنا - نحن طلاب الجامعة - نأنس بلقياه والتحدث معه، فسأل عن نتيجة انتخابات قسم الفلسفة، فأجبته بفرحة غامرة وعفوية ظاهرة: لقد أسلمت الفلسفة، كناية عن نجاح الإخوان في انتخاباتها.

إن هذه النجاحات التي فاقت كل تقدير، وأعطت صورة واضحة عن قوة التيار الإخواني في أوساط الطلاب والمثقفين، أثارت حفيظة الأحزاب والقصر والدوائر الأجنبية والسفارات، والإعلام الغربي، وأشعرت الجميع أن مصر صارت في متناول جماعة الإخوان، وأن حكمهم لها ليس بالبعيد، فاستُنْفِرت هذه القوى الداخلية والخارجية، وخططت، ووضعت البرامج الجهنمية لسحق الجماعة وتدميرها، والقضاء المبرم عليها، ولم تكن حكومة الصهاينة التي اغتصبت فلسطين بمنأى عن هذا المخطط كما سيأتي بيانه.

شرعت حكومة العسكريين بإقامة مؤسسات تضاهي وتوازي مؤسسات الإخوان، فأنشأت مؤتمراً إسلامياً كما كان لدى الإخوان مؤتمر إسلامي، وانتدبت له أنور السادات أميناً عاماً، وأقامت منظمة سياسية أسمتها هيئة التحرير، وانتدبت لها ضابطين هما: إبراهيم الطحاوي ووحيد رمضان، وشكلت منظمة للشباب كما للإخوان منظمة للفتوة، وعيَّنت عليها كمال يعقوب. كان الإخوان يقيمون

احتفالاً بالجامعة بمناسبة أرجح أنها يوم استشهاد البنا في ١٢-٢-١٩٤٩، ففوجئ المحتفلون بوحدات منظمة تدخل الجامعة على شكل أرتال عسكرية بقيادة كمال يعقوب، فحدث صدام بين الفريقين أدى إلى إحراق سيارة الجيب التي كان يركبها كمال يعقوب، وانفض الطلاب بعد تعطيل الاحتفال وإلغائه، وفي المساء من ذات اليوم أذاع راديو القاهرة قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، مشفوعاً بتسعة أسباب كانت وراء قرار الحل، واعتقلت الحكومة العسكرية المرشد العام حسن الهضيبي وسبعين من إخوانه، فهاج الإخوان، وحدثت مظاهرات واحتجاجات أدرك منها عبد الناصر أنه لم يحكم الضربة، وأنه استعجل بها، وسرعان ما توجه إلى منزل الهضيبي في حي منيل الروضة بعد إطلاق سراحه، معتذراً له عما حدث.

٨ - حضرت معسكراً للإخوان في ضواحي حلوان كان يضم مئات من شباب الجامعة، فواجهت تدريباً لا أطيقه ولا أقدر عليه، كانت التدريبات قاسية، والسير على الأقدام والهرولة في أرض صخرية وعرة، وكان الطعام قليلاً لا يُسكت غائلة الجوع، ولكن المسؤول عن المعسكر واسمه صلاح البنا قال للشباب بعد أن أجهدهم: هذا التدريب القاسي لا بد منه، وإن جميع إخوانكم الذين حاربوا في القنال ضد الإنكليز، وفي فلسطين ضد الصهاينة مروا بمثل ما يُطبَّق عليكم من شظف العيش وقسوة التدريب، فاحتسبوا ذلك في سبيل الله.

وذات مساء حضر إلى المعسكر المرشد العام حسن الهضيبي رحمه الله، وتحدث للشباب، مشيراً إلى أن بعض الأمور لا يمكن ذكرها الآن، وتحتاج إلى وقت، فقال له البعض على الطريقة المصرية: مثل ماذا؟ فقال: اتصل مستر إيفانز المستشار الشرقي في السفارة البريطانية بالأحزاب المصرية يسألها عن موقفها من مطالب المفاوض المصري، وعندما اتصل بنا أعلمنا حكومة عبد الناصر، فرحّبوا وقالوا: إنها فرصة تدعمون فيها موقفنا ومطالبنا، ولما تم اللقاء، شددنا على المطالب وقلنا: إن ما تطالب به حكومة مصر أقل من طموحنا، وكان موقفنا هذا باعثاً على التهدئة بيننا وبين عبد الناصر بعد أن كان يسود علاقاتنا التوتر، هذا ما سمعته بأذني من فضيلة المرشد بمناسبة زيارته للمعسكر الذي حضرته وشاركت فيه، وأخرى يجدر ذكرها لما سوف تدعيه حكومة العسكريين على الإخوان حينما قررت إبادتهم والقضاء عليهم، كان الأخ المحامي حسن عشماوي أحد الذين ارتبط بهم جمال عبد الناصر في المجموعات السرية من الضباط، وكان جمال قد وضع يده على كميات من سلاح الجيش، فأخفاها له حسن العشماوي في قرية - عزبة - والده محمد العشماوي باشا وزير المعارف السابق، ونقلها في سيارته الخاصة على دفعات إلى القرية، ونظم جمال تخزينها في مخابئها، وعندما أزفت ساعة الخلاص من الإخوان، وصدر قرار الحل بعد حادث المنشية المزعوم التي أطلق فيه النار محمود عبد اللطيف على جمال عبد الناصر في مسرحية ذكر العديد من الكتاب والصحفيين وبعض رجال

عبد الناصر من أمثال حسن التهامي ومحمد نجيب أن الحادث مدبر في إخراجه، والمسافة الشاسعة بين المكان الذي وقف فيه محمود عبد اللطيف والمنصة التي كان يقف عليها جمال عبد الناصر (وقد شاهدت ذلك في إحدى زياراتي للإسكندرية) ووجود رجل حمل المسدس من الإسكندرية إلى القاهرة مشياً على الأقدام زاعماً أنه وجده بين المحتشدين، وصراخ هنداوي دوير، حينما يساق إلى غرفة الإعدام قائلاً: لقد غدروا بالاتفاق بيني وبينهم، واستعداد واستنفار أجهزة الأمن في كل أنحاء القطر، والانقضاض فوراً على كل تنظيمات وكوادر الإخوان واعتقالهم إثر إطلاق النار على الفور.

لقد جاء في حيثيات الحل: أن المرشد اتصل من خلف ظهورنا بالسفارة البريطانية لإضعاف موقف المفاوض المصري، وهكذا قلب الحقائق التي عرفناها في وقت مبكر، وقدم شهادة مزورة على خلافها، ثم أرسل جمال عبد الناصر رجال أمن إلى قرية العشماوي باشا، وأخرج الأسلحة التي رتب عبد الناصر إخفاءها وتخزينها بيده بعد أن نقلها له مسؤوله في التنظيم العسكري حسن العشماوي من منزله إلى القرية، لإبعادها عن عيون رقباء القصر والجيش الذين كانوا يقومون بتفتيش منازل الضباط الذين كانت حكومة الملك فاروق تشتبه بمعارضتهم، مدعياً أنها أسلحة للنظام الخاص، لاستخدامها في انقلاب وثورة وتغيير النظام!! أما راديو العدو الصهيوني فبدأ يذيع بيانات الدعم للإخوان المسلمين والدفاع عنهم، لتشويه صورتهم، وإيهام المصريين أنهم حلفاء الإسرائيليين، دعماً للحكومة العسكرية

المصريـة، وهذا ما كشفت عنـه الوثائق والبحوث في أوقـات لاحقة، كإحـدى حلقات التـآمر الغربـي الإسرائيلي العـسكري المـصري لإبادة الجـماعة التـي أيقظت شعـوب الأمة الإسلامـية في كل أصـقاعهـا من جاكرتا إلى الدار البيضاء.

٩ - بلـغ التوتـر في مـصـر أشـده، وزاد الاحـتقـان فـي الشـارع المصـري وفي الجامـعات والنقـابات على مـا كان متـوقعاً، وتسـربت أخبار الخلاف بين وحدات الجيش المـؤيدة لعبد الناصر والمناوئة له، بقـيادة خالـد محي الديـن في سلاح الفـرسان - الدبـابات - ومبـاركة محـمد نجـيب، وانطلقـت مظاهرات عـارمة كالسـيل الهـادر، وتنادى طلاب الـجامـعـة من كل أنـحاء الـقـاهرة، ومـعهـم طلاب المـدارس الثانـوية، فأغلقت الـحكومة الجـسور - بفتـحها - فـوق النيل، فعـبر المتظاهرون إلى قلب القاهرة عبر جسور بعيدة، وتجمعوا في ساحات قصر عـابدين، وأصواتهم تشق عنان الفـضاء ضد جمال عبـد الناصر، وبكلمات جارحة، وكان المتظاهرون، وفي مقدمتهم جماهير الإخوان يحـملون مكبـرات الصـوت وعلى رأسهـم الشهـيد عـبد القـادر عودة ينادون بعـودة الحرية والـحياة البـرلمانيـة، وكان يمـتطي سيـارة جيب يقودها الأخ مالـك الذي كان قد حكم أيام فاروق بالإعـدام أو المؤبد بقضـية سيارة الجيب، كان اللواء مـحمد نجيـب يصرخ بالمتـظاهرين الذين ملؤوا ساحة قصر عابدين بازدحـام غير عادي، راجياً أن يسمعوا منه كلمات، دون جدوى، فـاستنجد بالشهيد عبد القـادرة عودة مشيراً إليه بالصعود على ظهر القصـر حيث يقف نجيب، وسرعان ما شق له

الجموع الطريق، ليكون بجانب اللواء محمد نجيب بعد قليل، وعندما أشار بيمينه إلى الجماهير بالهدوء، سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير، فتكلم نجيب قائلاً: خلال أربعة أشهر، سيُدعى الشعب لاختيار جمعية تأسيسية يناط بها وضع دستور جديد، أشار الشهيد عبد القادر بالانصراف فعادت الجماهير من حيث أتت بدقائق معدودة. اجتاز عبد الناصر أخطر أزمة مر بها منذ انقلاب ٢٣-٧-١٩٥٢، (وقد شهدت هذه المظاهرات منذ البداية) ولما يمض يوم وبعض يوم حتى بدأ عبد الناصر بتنفيذ هجومه، فاستدعى الصاوي رئيس نقابات العمال، وزوده بالدعم المالي وغيره، فأخرج مظاهرات هزيلة ضد وعد محمد نجيب بالانتخابات والعودة إلى الحياة الدستورية، وقد رأيت مجموعة من العمال تسيرفي شارع رفاعة الذي كنت أسكن في العمارة رقم ٣ منه مع زميلين كريمين هما: الدكتور مازن المبارك العالم اللغوي الشهير شقيق الأستاذ محمد المبارك وابن عضو المجمع اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك، والدكتور صفوح خير الذي استلم عمادة كلية الآداب فيما بعد، وكلاهما حضر إلى الإمارات للعمل مدة من الزمن في جامعة الإمارات في العين، وفي معهد الدراسات لصاحبه السيد جمعة الماجد، وعندما شاهد الدكتور مازن ولدي عامر طبيباً في دبي للأمراض النفسية، أَنِس له، وذكر أيام سكننا المشترك وما كان يجري فيه من مطارحات ونكات طريفة وساعات لا تنسى. أطللنا على هذه المظاهرة التي سيَّرها الصاوي، وكانت تمر من شارع رفاعة المطل على ساحة الأمير عبد المنعم (ساحة المساحة فيما بعد)

ويمتد إلى الطرف الثاني ليخرج إلى شارع النيل حيث مجلس الدولة - القلعة القضائية العتيدة في تاريخ مصر - برئاسة الفقيه الكبير صاحب نظرية الالتزام في القانون المدني الدكتور عبد الرزاق السنهوري، وصاحب الشهرة العالمية، الذي استفاد منه العراق والسودان وسورية وغيرها، اتجهت المظاهرة التي رأيناها رأي العين، وعددها يتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين عاملاً، كلهم أو جلهم يحملون على ظهورهم الورق المقوى، وعليه أسماء الصحف التي يوزعونها، وقد وقعت عيني على كلمة الجمهورية، وكانوا يهتفون تسقط الحرية، وسارعوا إلى مجلس الدولة للهجوم على السنهوري الذي كان ينادي بالعودة إلى الحياة النيابية والدستورية، فاضطر إلى إطلاق الرصاص في الهواء لينجو بحياته من الموت، وفي الساعات التالية انقضت أجهزة الأمن على كل الشخصيات التي نادت بالحياة النيابية لإيداعها المعتقلات وممارسة التعذيب الوحشي عليها، وكان في مقدمتهم الدكتور توفيق الشاوي أستاذ الحقوق الجزائية في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، فمارسوا عليه تعذيباً فوق طاقة الإنسان، وعندما خرج غادر إلى السعودية، وعمل مشرفاً على مدارس المنارة لصاحبها الأمير محمد الفيصل، وقد ترك التعذيب في نفسه آثاراً لازمته في حياته وفي صحته، أجزل الله له المثوبة ورفع مقامه، وسادت مصر سياسات قهرية وقمعية، ذهب ضحيتها - كما قدر ذلك عبد البديع صقر كما سمعت منه - حوالي مائة ألف ضحية من الجماعة ما بين معدوم وقتيل تحت التعذيب واعتقالات جماعية

اعترف النظام أن عددهم زاد على سبعين ألفاً كما ذكر عبد الناصر في إحدى خطبه، ومشرد ومختبئ وهارب ومهاجر في شتى أصقاع الأرض، وكانت هذه الحكومة قد أعلنت منذ الساعات الأولى أنها جاءت لتحرر الشعب وتحطم قيوده، ولتعيد إليه الحرية المفقودة، والحياة البرلمانية والديمقراطية الصحيحة، فإذا بالمصريين بعد الذي ذاقوه على يد العسكريين يحنون إلى الأيام الخوالي، التي كانت نزهة وسهلة قياساً على ما لاقوه في عهد الحكومة العسكرية التي انتهى أمرها إلى جمال عبد الناصر، والذي أحدث حكماً قمعياً سرت عدواه إلى سورية والعراق واليمن والسودان وليبيا والجزائر وبلاد آسيوية وإفريقية أخرى. فدخلت بلاد العرب والمسلمين في المرحلة الرابعة من تاريخها الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: ستكون فيكم نبوة... ثم خلافة راشدة... ثم يكون حكم وراثي (أموي وعباسي وعثماني)... إلخ... ثم حكم جبري... (حكم القهر والقمع والعسكر).... ثم تعود إلى منهج النبوة، فنحن الآن في أعقاب المرحلة الرابعة والعودة إلى الشورى والحرية تحت وطأة أحداث كبيرة، كما تزعم مصر وسورية وليبيا وتونس... وبين يَدَيْ المرحلة الخامسة ليعود المسلمون إلى منهج النبوة.

والبشائر تؤكد أن هذه المرحلة الخامسة قد بدأت، بدليل تزايد عدد المسلمين إلى أكثر من ملياري نسمة، ورفضهم الخضوع إلى الأعداء، كالذي نراه في العراق وفلسطين وأفغانستان، ويقظة الشباب

المسلم والشابات المسلمات في طول البلاد الإسلامية وعرضها.

١٠- قام الأستاذ المرشد حسن الهضيبي رحمه الله بزيارة إلى سورية كان لها ما بعدها من أحداث خطيرة جسام، طاف المدن السورية في أثناء الزيارة عام ١٩٥٤، وجرت له استقبالات حافلة في المدن الكبيرة والصغيرة، وكان إخواني قد كلفوني بتنظيم أو ببرنامج استقباله في مدينة حماة، كنا ننتظر وصوله بعد العصر من يوم وصوله، وبينما كنت في تلك الظهيرة أتناول طعام الغداء على عجل، جالت في ذهني معاني شعرية شعبية ما ألفتها من قبل، وما درجت عليها، فاستعجلت القرطاس والقلم وسجلتها! قلت:

أ - وانهلهلتي يا دعوتنا، نحن الإخوان بلمتنا، محمد هو قدوتنا، كلام المولى شرعتنا، إن عشنا والله ون متنا

ب - إخوانية إخوانية، إسلامية قرآنية. . إلخ لا شرقية ولا غربية، أخلصنا لله النية. . واحد منا يهدي مية. . . . إلخ

ثم سجلتها على وريقات، وناولت كل رأس مجموعة واحدة ليهتف بها استقبالاً للمرشد العام وفي جموع المستقبلين.

خرجت جماهير المستقبلين أعداداً زادت على كل ما توقعناه، إلى جنوب المدينة على طريق حمص في مكان يسمى الشيخ مهران، وكان عدد السيارات كبيراً في مدينة لا يملك من سكانها السيارة إلا أقل القليل، وعاد الموكب إلى المدينة كالفاتحين، وبدأ المرشد يستقبل الزوار من كل الفئات، ولفت النظر حضور الوفد المسيحي

برئاسة مطران المدينة، فكانت لفتة ذكية وروحاً طيبة وفطنة تسجل لهم، والمعروف أن المسيحيين على أطيب العلاقات مع المسلمين من سكان المدينة منذ تاريخ قديم، وهذا على عكس ما حصل في معرة النعمان حينما مر موكب المرشد في طريقة إلى حلب، فعندما تجمع المستقبلون في المسجد الكبير، دخل حزبيون منحطون تفوح من أفواههم رائحة الخمر، وتصرفوا بأسلوب هابط دون مراعاة لحرمة مسجد المعرة الكبير التاريخي، ولا لحرمة الضيافة، وكان وقتاً عصيباً انتهى في نهايته على خير، فلنقارن بين موقف المسيحيين في حماة، وموقف المسلمين الذين أفسدت الحزبية المقيتة تربيتهم وأخلاقهم، وملأت نفوسهم بالكره والحقد على جيرانهم وأبناء مدنهم، وسكان بلادهم من المواطنين!!

أحدثت زيارة المرشد ومرافقيه إلى سورية - في وقت كانت العلاقة بين الإخوان وحكومة عبد الناصر في أسوأ حالاتها - ضجة كبيرة في سورية وفي البلاد العربية، وحركت الأحقاد، وأثارت الحفائظ، ونبهت الأعداء في الداخل والخارج على تنامي قوة الإخوان المسلمين في أوساط الجماهير العربية، وأبناء بعض الأقليات الواعية فأعدوا العدة لتطويقها والكيد لها، وتشويه سمعتها، وتضليل المواطنين، لينفضوا من حولها، وكان من أهم ما يلفت النظر التقرير الذي كتبه محمود رياض أحد أعضاء تنظيم عبد الناصر، وكان قد عينه سفيراً في دمشق لأهمية الموقع، قال في تقريره: كما سبق وذكرت ذلك، إذا استمر صعود الإخوان على ما نرى سياسياً، فسوف

يستلمون الحكم في سورية خلال خمس سنوات.

كانت الحكومة العسكرية تستشيط غضباً من هذا الصعود في وقت كان الكره دفيناً ضد الإخوان، فشرعت حكومة عبد الناصر تعد للضربة القاضية، وبدأت ملامح ذلك تظهر جلية، فانتهزت فرصة الخلوة مع الهضيبي، ورجوته بعدم السفر إلى مصر فلم ير في ذلك مسوغاً، وعاد أدراجه إلى القاهرة، وهناك هيأ له إخوانه مخبأ في الإسكندرية، يوجه منه التعليمات والتوجيهات إلى قيادات التنظيم، ولم يطل به المقام حتى كشفت السلطات مكانه من كثرة ما سجل هاتف المنزل من مكالمات كما ذكر بعض الإخوة المطلعين، فأمسك عبد الناصر بخيوط القيادة والجماعة، ولا سيما بعد اختراق التنظيم الخاص، وكسب بعض قياداته إلى جانب الحكومة، وفي مقدمتهم عبد الرحمن السندي رئيس التنظيم، وللسندي قصص أو أمور أذكر ما يهم العمل الإخواني السوري منها. بعد اختراق عبد الناصر التنظيم السري لمعرفته برموزه إذ كان على صلة وثيقة بهم أو ببعضهم قبل الانقلاب، وقد ساعدوه يوم التغيير بالإمساك بالشوارع، وبحراسة الكنائس والأماكن الحساسة، حتى لا تمتد إليها يد التخريب، باسم حماية الأقليات، أو القيام بتفجير أو ما إلى ذلك، بل إن الانقلابيين لم يجدوا أفضل من الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف للقيام بتطويق قصر رأس التين في الإسكندرية بدعوى أن تنظيم الإخوان القوي في الإسكندرية يكون ظهيراً في السيطرة على القصر ودوائر الدولة، والإمساك بمفاصل المجتمع، وفي مقدمتها حركة الشوارع، وعبد

المنعم كان من أبرز قادة الإخوان العسكريين وأشدهم إخلاصاً وأكثرهم إقداماً. أقول بعد اختراق عبد الناصر للنظام الخاص، وكسب عناصر فاعلة فيه من أمثال السندي والصباغ وأحمد عادل كمال وآخرين، وكسب محمود كامل الذي وقف ضد كمال يعقوب في غزوه للإخوان في جامعة القاهرة كما مر معنا، فاستدعاه عبد الناصر قائلاً له: يا محمود. كنت في السجن المؤبد، فأخرجناك بعفو خاص، فاختر لنفسك، العودة إلى السجن، أو التعاون معنا، ونحن نريد الخير للوطن، وعندك فرصة للتفكير، فضمه إلى صفوفه، وأبعده عن الإخوان، فكر عبد الناصر بتطويق العمل الإخواني في سورية بعد أن أدرك أنها قاعدة توازي أو تعوض الإخوان في مصر عما أصابهم، فاستخدم نجيب جويفل في هذه المهمة، وانتدبه لها، فأرسل هذا بدوره أحد عناصره المدعو محمد علي سليم، فتوجه إلى دمشق، وابتكر عدة أساليب لتمزيق الصف الإخواني في سورية، ثم تبعه نجيب جويفل، ليتولى تنفيذ المخطط الناصري بعد أن مهد له مبعوثه لهذه المهمة، بدأ بتشكيل نظام خاص في دمشق امتد إلى حمص وإلى إدلب، وإلى الدير واللاذقية بشكل محدود، وإلى حوران، أما حلب وحماة فقد استعصتا عليه، وقالت له إدارتاهما: أرنا تفويضاً من الشيخ السباعي الذي تدعي أنه فوضك بالأمر، وكان هذا الادعاء فرية لا أصل لها، والسباعي في تلك الآونة مبعد عن سورية إلى لبنان في ظل حكم الشيشكلي، ثم شرع يطلب البيعة للمرشد العام الهضيبي بدعوى دمج التنظيمات بتنظيم قوي متماسك، ولم يكن للهضيبي علم

بالأمر، بل كان مرمى سهامهم بالقاهرة بتنسيق ودعم من عبد الناصر، ولما علم الهضيبي بالأمر استنكر، وأكد على ثقته غير المحدودة بالسباعي، فهم يزعمون تفويض السباعي لهم بتشكيل نظام خاص، وفي نفس الوقت يضربون السباعي بالقيادة الواحدة للهضيبي، وفي القاهرة يحطمون الإخوان وفي مقدمتهم مرشدهم، هذه السياسة الخبيثة أقضت مضجع الإخوان في سورية، وكنت إذ ذاك طالباً في مصر، فكلفني إخواني بمراجعة السندي ونصحه وتحذيره من مغبة هذه السياسة التي تؤدي إلى تمزيق الإخوان شر ممزق، ولم أكن أعرف شيئاً عن السندي، كما لم أكن محيطاً بمثل هذا الأمر البالغ التعقيد، فعزمت على تنفيذ ذلك بكل عفوية وسذاجة، ولكن من أين أبدأ، قصدت الأستاذ القدوة عبد العزيز كامل، وعرضت الأمر عليه تفصيلاً حسب معرفتي وما سمعت وما كلفته، فأجاب على الفور: اذهب إلى الأخ عبد الرحمن السندي في منزله، واطرح الأمر عليه هكذا تفصيلاً، وعنوانه: رقم ٤ في مدخل أو في زقاق جريدة الأهرام، فاسترحت لهذا واطمأننت وعزمت على التوجه إلى السندي في وقت لاحق على عجل، وفي اليوم التالي قرأت في جريدة الأهرام أن مكتب الإرشاد فصل أربعة، هم قيادة التنظيم الخاص: عبد الرحمن السندي، ومحمود الصباغ وأحمد عادل كمال و... وهكذا وقعت الطامة، فهؤلاء يعرفون التفاصيل الدقيقة عن التنظيم، وكرههم للمرشد ومكتب الإرشاد أضحى صداماً، وتعاونهم مع عبد الناصر ازداد تلاحماً، وبعد أيام استشهد سيد فايز - الذي حل مكان

السندي- في ظروف غامضة، عندما جاء رجل إلى بيته وسلم أخته هدية هي صندوق حلوى مغلق بمناسبة عيد المولد النبوي، فلم يكد يباشر فتحه حتى تناثر جسده على جدران الغرفة، وبعد التحقيق اشتبهت شقيقته بأحمد عادل كمال، فجاءت الفرصة لعبد الناصر كي يتخلص من الجميع، يتخلص من الهضيبي بصدامه مع قادة النظام الخاص، ويتخلص من النظام الخاص بدعوى اغتيال سيد فايز، فزج أحمد عادل كمال بالسجن، ومورس عليه تعذيب قاس، وترجح أنه كان بعيداً عن مسرح الجريمة.

١١ - دنت ساعة التصفية النهائية لجماعة الإخوان الأم في مصر التي ملأ كتَّابها المكتبة الإسلامية بشتى الموضوعات الفكرية والفقهية والتربوية والتاريخية والحركية، وملأ جهادهم صفحات التاريخ ضد الإنكليز في مصر - في القاهرة ضد معسكرات الإنكليز في قصر النيل وفي العباسية - وفي الإسكندرية وضفاف القنال، وكان الإعلام الغربي في أوربا وأمريكا، والشرقي في الاتحاد السوفياتي وفي دول المنظومة الشيوعية دائب التحريض عليهم، فشكل عبد الناصر محكمة عسكرية ثورية برئاسة جمال سالم الذي عرف عنه الطيش والرعونة وسوء الخلق بما اشتهر عنه من التحرش بأخوات الملك فاروق، وباستهتاره بالقيم الإيمانية. وعضوية حسين الشافعي - وكان أخوه حسن من كرام الإخوان ومن مدرسة عبد العزيز كامل، ويسكن قريباً منه، ويحضر إلى شقته، وقد رأيته زائراً له - وعضوية أنور السادات. وأعلن الإعلام أن المحكمة سوف تكون علنية، ويحق للمواطنين

تقديم طلبات بحضورها، فسارعت إلى الدائرة المخصصة لذلك، وقدمت طلباً لم أتلق أي إجابة عليه، فأدركت أن من يحضر يكون مختاراً من أمن الحكومة، كما تفعل فضائيات اليوم في أكثر المداخلات، والذين شاهدوا حلقات برنامج (شاهد على العصر) مع حسين الشافعي، لاحظوا اضطرابه في تأكيده على القيم الإسلامية من ناحية، ومحاولته تفسير مظالمه في المحكمة ضد الإخوان كعضو برئاسة جمال سالم، بل سمعت منه كلاماً يناقض الحقيقة، فقلت لأحمد منصور مقدم البرنامج: لقد قال حسين الشافعي كذا والحقيقة شيء آخر، فقال لي باختصار وبكلمة واحدة: إنه كذاب. أما أنور السادات الذي أحسن إليه الإخوان إحساناً لم يتلق مثيله من غيرهم، من إخفائه ودفع نفقاته، كما جاء في عدد من المصادر، فإنه كان العضو الذي أقر بإعدام قادة الإخوان، مع الشافعي وجمال سالم، فباؤوا بسفك دمائهم الزكية ليحملوا وزرها في يوم الحساب العسير.

بدأت المحكمة بمرافعة للفقيه المجتهد الكبير عبد القادر عوده بقوله: لو صح أني المتهم، وأنكم المعتدى عليكم، فلا أعلم نظاماً قضائياً في الدنيا، يجيز للمعتدى عليه أن يحاكم المعتدي، فبادره جمال سالم: تقول ماذا، تتكلم باميه ولا فاصوليا ولا إيه؟ ثم قال مستهتراً بكتاب الله وبالسبع المثاني - سورة الفاتحة -: اقرأ لنا الفاتحة بالمقلوب، وهكذا كانت مجريات المحاكمة الناصرية، ومحاكمات المحكمتين اللتين شكلهما - كفرعين للمحكمة التي يرأسها جمال سالم - ليعرض عليها وعلى المحكمة الرئيسية مئات القضايا، مما

ذكر بمحاكمات المهداوي في العراق التي ربما أخذت بأسلوب محاكم مصر الناصرية، من ازدراء بالقضاء، واستهتار بالعدالة، أما التعذيب في السجون بين الجلسة والأخرى، وقبل الجلسات وإحالتهم إلى قاعات المحكمة، فلا يطيق ذو قلب رحيم أن يصغي إلى سماعها، ومن شاء ذلك، فليعد إلى عشرات الكتب والمسلسلات، ولا سيما كتاب أحمد رائف - البوابة السوداء -، ومن إصدار حكم جمال سالم وأنور السادات وحسين الشافعي بالإعدام على شيخ المشرعين عبد القادر عودة الذي تحدى رجال الفقه الجزائي في العالم الذين كانوا يتهمون التشريع الإسلامي بفقره في الحقل الجنائي، فرد عليهم الشهيد بمجلدين كبيرين بعنوان التشريع الجنائي الإسلامي، فاعتمدته دول عدة، منها أندونيسيا أكبر الدول الإسلامية عدداً في السكان، وعلى شيخ المجاهدين محمد فرغلي الذي رصدت القوات البريطانية جائزة بخمسة آلاف جنيه - كان الراتب يتراوح ما بين ثلاثة جنيهات إلى خمسة عشر جنيهاً كمتوسط للرواتب في مصر - وعلى شيخ الفدائيين ضد الإنكليز يوسف طلعت الرجل الصالح، وعلى إبراهيم الطيب رئيس اللجنة القانونية في المركز العام لتعديل النظم والقوانين واللوائح حسب مقتضيات الشريعة الإسلامية، وعلى هنداوي دوير ومحمود عبد اللطيف المشكوك بإدانتهما في عملية اغتيال جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية.

وذات صباح بدأنا حصة اللغة الفرنسية نتلقاها من أستاذ فرنسي من مرسيليا، بدأ الحصة ممتقع اللون، ثم قال: الآن ينفذ حكم

الإعدام بقادة الإخوان، بمعدل كل نصف ساعة، يدفع كل واحد منهم إلى الغرفة السوداء، وفي اليوم التالي صدرت الصحف تشير إلى موضوعين، الأول كيفية تنفيذ الإعدام، وَعَلِمْنا عما قاله الشهداء قبل إعدامهم، فقال عبد القادر عودة: سيكون دمي لعنة على أعضاء مجلس قيادة الثورة، وقال الطبيب الشرعي: استمر عبد القادر بعد شنقه أربع دقائق وعشرين ثانية حتى فاضت روحه، أما الشيخ الفرغلي، فقد فاضت روحه بعد دقيقة واحدة وعشرين ثانية، وقال إبراهيم الطيب للسجان: حاسب على ذراعي حينما أوثق يديه إلى الخلف لأن ذراعه كان مكسوراً من التعذيب، وهكذا تم إعدام القادة الستة ليكونوا من صدِّيقي عصرهم بعد أن قضوا في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام، أما الذين حكموا عليهم بالإعدام، فقد عجل الله عقابهم في الدنيا قبل الآخرة، فجمال سالم أصيب بالسرطان بدماغه - الذي كان يسخر فيه من قراءة الفاتحة ومن القرآن العظيم، فكان يصرخ ويولول من الألم دون أن يستطيع الطبيب أن ينجده، وأما السادات، فقد ذهب إلى اليهود خاضعاً وكلم أعضاء الكنيست اليهودي في القدس المحتلة، فرد عليه بيجن بلهجة الحاخامات الذين يرجفون أصواتهم بقراءة مقاطع من التوراة المحرفة باللغة العبرية على الهواء كما نقلها المترجم للعربية، ومما قاله بيجن فيما قرأه: ثم يأتيكم ملوك الأرض طائعين، والسادات يضع يداً على الأخرى واقفاً في زاوية الكنيس وامرأته بجانبه، وبعد الفراغ من إلقاء الكلمات المتبادلة، جاء دور القبلات المتبادلة بين الأزواج

والزوجات، وعندما قبل بيجن زوجة السادات بفم يشبه فم سمك الهامور الطويلة والعريضة قال: ما شممت قط مثل هذه الرائحة التي تتعطر بها زوجة السادات، ولولا أن الصحف والوكالات تناقلت هذا الإسفاف وهذا الهبوط من رئيس لدولة الأزهر، ما استسغت مروءة أن أنقل هذا الأمر المهين، وانتهى السادات بقتله من الجند المسلم الذي كان يفترض أنهم قائمون على حراسته، وعندما صوب خالد الإسلامبولي رشاشه عليه وطرحه بالرصاص أرضاً، نزل نائبه حسني مبارك إلى تحت المقعد، قال خالد: لا أهدف إلا إلى قتل هذا (الكلب) الخائن، فحملته طائرة هليوكبتر، غير أنه فارق الحياة قبل وصوله إلى المستشفى، وهكذا انتهت سمعته، وانقضت حياته، أما الشافعي فالحديث عن خاتمته لا حاجة لتكرارها، وكل هذه الأحداث عجلت بالانقضاض على الإخوان وإبادتهم، بل واجتثاثهم من الجذور، ولم تمض على هذه الأحداث شهور قليلة حتى حلت النكبة الكبرى بجماعة الإخوان المسلمين لتدخل في طور المحنة التي تحدث عنها البنا، وتنبأ بها، وأهاب بإخوانه على الاستعداد لمواجهتها، وبالصبر على لأوائها.

١٢ - فيما سمته حكومة عبد الناصر العسكرية: تصفية الإقطاع حدثت تصرفات رهيبة، وظهرت مظالم لا تحملها أرض ولا سماء، فقد اعتدي على كرامات الرجال في المخافر كالذي لاقته العائلات الثرية أو العريقة في مصر من آل الفقي، وغيرهم، وصودرت قصور وأراض وأموال، وكانت الحكومة قد أنشأت كما ذكرنا مؤسسات

توازي مؤسسات جماعة الإخوان وتلغيها، ومنها منظمة المؤتمر الإسلامي الذي خصصت له دارة مترفة من قصور المالكين المصادرة في الزمالك ١٧ شارع حسن صبري، كما خصصت من الأموال المصادرة مبالغ تصرف على نشاط المؤتمر، وعين عبد الناصر أنور السادات أميناً عاماً للمؤتمر، وكانت لائحة المؤتمر تنص على أن كل أربعة طلاب أو أفراد من جنسية عربية أو إسلامية يحق لها الانتساب إلى المؤتمر باسم جمعية من جمعياته، فأشار علينا الإخوان المصريون، أن نلتحق بالمؤتمر باسم الجمعية السورية بأقل الأعداد المطلوبة، فالتحقنا بالمؤتمر بأربعة شكلت جمعية سورية من جمعيات المؤتمر ما زلت أذكر منهم ثلاثة، وقمنا بزيارة المقر، فأبلغتنا إدارة المؤتمر أنها قررت إقامة معسكر لها على شاطئ بور سعيد يمتد أو يستغرق عشرين يوماً، وسينتقل المشتركون بالقطار من القاهرة في موعد حددوه لنا، بدأت نشاطات المعسكر في الأول من شهر تموز/ يوليو، فإذا بنا امام أعداد كبيرة من البلاد العربية والإسلامية، وكانت المفاجأة أن معظم المشتركين كانوا من الإخوان، ويبدو أنهم تلقوا التوجيه الذي تلقيناه من قيادة الجماعة المصرية.

كان الهدف من المؤتمر جذب الشباب إلى صفوف الحكومة، وتأييدها، وشجب جماعة الإخوان وتشويه سمعتها، كان المشتركون لديهم المناعة الكافية ضد هذا التوجيه، فلم يكن لهذه السياسة من أثر، وكانت هيئة التحرير الحكومية قد حشدت زهاء ثمانين مشتركاً، فاقترح الجوهري ممثل الحكومة ورئيس المجموعة اختيار قيادة

بالانتخاب الفردي، فرفضنا اقتراحه، لأن أعدادهم تساوي أعداد عشرين جمعية، فاقترح استفتاء الموجودين، فكانت الكثرة برفض الاقتراح، لأن معظم الجمعيات بعيدة عن هذا التوجه، فكان هذا التكتل الواسع راجحاً على الأعداد الكبيرة التي بعثت بهم هيئة التحرير، فاستخدموا أسلوب القمع، وألغوا فكرة الانتخاب، فعوضنا ذلك بنشاط شمل جمعيات المؤتمر، وكان لهذا النشاط أثره البالغ في التوجهات السياسية بعد الانتهاء من الدراسة والعودة إلى سورية، فقد خصصت ليلة من كل يوم أزور فيها إحدى الجمعيات، لأسأل أفرادها عن كل ما يخص بلدانهم: الجغرافيا والتاريخ والأقليات غير الإسلامية وعدد السكان، وتصرف المستعمرين بالمجتمع، والأمراض التي تسود، وعمل المستعمر على نشرها، والأحزاب السياسية. . . و. . . وكنت أختم الزيارة بطلب الكتب أو النشرات أو الرسائل أو الكراسات ذات الصلة بذلك كله، وقد تمكنت بعد أن أضفت إلى هذه المعلومات التي حصلت عليها من أبناء هذه الأقطار في السنغال وتشاد وأريتريا والكمرون وغينيا وباكستان وماليزيا. . . إلخ والتي أضفت إليها ما قرأت لشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب وغيرهما مثل: الغارة على العالم الإسلامي وحاضر العالم الإسلامي وغيرهما لكتاب آخرين من ملء صفحة في مجلة الشهاب الإخوانية طيلة ستة أشهر تحت عنوان: عالمك الإسلامي، وحتى توقف المجلة عن الصدور، وذات يوم قدم أعضاء هيئة التحرير الناصرية تمثيلية مليئة بالغمز واللمز والاتهامات لجماعة الإخوان المسلمين، وكنا

نسمع ونصمت كارهين، وكان الطعام يقدم في قاعة واسعة، ويوزِع الحصصَ على كل طاولة مَنْ يجلس على رأسها، وكنت ذات مرة على رأس الطاولة، فشرعت بتوزيع الدجاج المقلي الذي كان يغلب على الطعام الذي يقدم للجالسين، فرفض أحدهم حصته، راغباً بأفضل منها، فاخترت له ثانية كما ظننت أنه أفضل ما لدي، فرفضها ثانية، فاستشطت غضباً، ورميت الطبق كله على الطاولة وقلت له: خذوا الطعام كله فأنتم حضرتم للأكل والطعام، فساد توتر سرعان ما انتهى.

في عصر ذلك اليوم على ما أذكر، حدد البرنامج وقتاً للسباحة في البحر، وعندما ابتعدنا عن الشاطئ أدرك الغرق أحد المشاركين السابحين، فجاؤوا بجثمانه مسجى في تابوت، وتحلق المؤتمرون حوله. ولما استفسرت عنه، وجدت أنه الطالب الجامعي في السنة الرابعة من كلية الزراعة، وهو الذي رفض حصة الطعام مرتين كما ذكرت، ساد الوجوم على وجوه الجميع، فشربوا الصمت، ولم يفه أحد منهم بكلمة، فتقدمت من التابوت بخطى متثاقلة، حتى كنت على بعد خطوتين، ألقيت كلمة عن الموت والمصير الذي هو القدر المحتوم لكل مخلوق، ثم قلت: منذ قليل كنتم تغمزون وتلمزون وتطعنون في عباد الله، ليت الفقيد يرجع إلينا برهة قصيرة، ليحدثنا عن ما لاقاه وما شاهده وما صادفه من السؤال والمحاسبة والمعاقبة، ليكون هذا واعظاً لنا جميعاً، فقد جاء في الأثر: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، انفض الجميع، وعادوا إلى مهاجعهم دون أن ينبس أي منهم ببنت شفة، وبعد ثمانية عشر يوماً قضيتها في ذاك المخيم، ولم يبق

على انتهاء المعسكر إلا يومان، استأذنت بالسفر لارتباطي برحلة إلى الحج ستقوم بها جامعة القاهرة، واتجهت إلى محطة القطار للسفر إلى القاهرة، فخرج معي عدد من المشاركين لتوديعي في المحطة، قال بعضهم: بقاؤك يومين في هذا الميدان أفضل من ذهابك إلى الحج، بالطبع هذا غير وارد، لأنها رحلة الفريضة، وليست حج النافلة، وأجهش أخ تركي بالبكاء، فلم تغادر صورته مخيلتي، وعندما ذهبت إلى استنبول وزرت مع الإخوة عبد الكريم عثمان رحمه الله، وفوزي حمد رحمه الله، وعادل كنعان أمد الله في عمره، جامع الفاتح، والتقينا إمامه الذي كان في توديعي في مطار بور سعيد، فتبين أن هذا التركي هو الرجل الصالح، والداعية المخلص أمين سراج، فتجددت الصلة والعلاقة، مع تذكر الأيام التي قضيناها في ذاك المعسكر، وما كان من تعاون بيننا، وفق الله الجميع لخدمه دعوته ولكل مسعى أو عمل يرضيه، مع التضرع إليه بالتوبة والإنابة عن التقصير في جنب الله تبارك وتعالى، وجل في علاه.

١٣ - من البلوى التي عمت، وأذعن لها الناس، بمن فيهم الدعاة والعاملون، وسكتوا، أو سكت معظمهم عنها، ورضوا بها، فأضحت أمراً مألوفاً دونما شجب أو إنكار، وإنني أتحدث عنها حديث من لحظ ورأى وشاهد وسمع في حياته الدراسية طيلة سنوات أربع، فقد كانت كلية الآداب في جامعة القاهرة يغلب على الملتحقين بها الطابع الأنثوي، لأن عدد الطالبات في معظم أقسامها يزيد على عدد الطلاب، وفي بعض الأقسام يتساوى العدد، والطلاب والطالبات

الذين يلتحقون بالدراسة الجامعية أو معظمهم يكونون في سن المراهقة الذي هو من أعقد وأصعب فترات العمر في حياة الإنسان، ولا حاجة للتفصيل في هذه الدراسة، فالكتب مبذولة وكثيرة حول الموضوع، وأهم من الكتب ما لمسه كل إنسان في اضطراب نفسه، وحدة شهوته، وتشتت خواطره في هذه المرحلة من العمر، فالطلاب والطالبات في اختلاط واسع في الكلية، على مقعد الدراسة، وفي البوفيه والمطعم والحديقة، وفي الممرات، وأخطر من ذلك في الحدائق القريبة في أوقات الراحة، والأخطر في الرحلات المشتركة التي تستغرق عشرة أيام كالتي رأيت في جميع مدن وآثار الوجه القبلي، وفي الإسكندرية ومدن القنال، وإلى الصحراء الغربية، والعلمين ومدن الوجه البحري، والرحلات النيلية، وما يتخلل ذلك من رقص وغناء وحفلات سمر، والذين يزعمون أن ذلك لا يؤثر في الأخلاق والعلاقات والانحرافات، ليسوا صادقين، بل إنهم يتغاضون ويتجاهلون ما يترتب على هذا الاختلاط الواسع بين المراهقات والمراهقين حيث يطمئن الأهل إلى بناتهم وأبنائهم في دراسة يظنون أنها مأمونة، فيتركون أو يترك بعضهم للأولاد الحبل على الغارب، يقول المدافعون عن التعليم المختلط: إن دوام الاختلاط يضعف من حدة العلاقات بين الجنسين، لتصبح الحياة بعد ذلك طبيعية واعتيادية، فيتساءل الإمام - كما قرأت له - البنا: وهل العلاقة بين الزوجين تلغى تفكير الواحد بالآخر، وحاجة كليهما بشكل دائم إلى متطلبات الحياة الزوجية، بل إن البعض يبحثون عن التعدد طلباً

للتوسع في المعاشرة، أو للتنويع في الرغبة، وهذا ما يجعل الكثير من الشباب يميلون عن الزواج، رغبة في التعدد غير المشروع، ويتأخر بعضهم إلى ما فوق الثلاثين أو الأربعين حتى يقدموا على الزواج.

إن الشهادة التي أقدمها عما كنت أسمع وأرى في حياة الاختلاط بين الجنسين في الكليات الجامعية للطلاب التي تكون عادة في مرحلة المراهقة أو ما هو امتداد لها، لتشكل خطراً وأي خطر على نفوس ذويها، وعلى أخلاقهم وعاداتهم، وعلى مستقبل حياتهم العائلية، لأن الإنسان الذي ألف البحث عن المعاشرات المتنوعة، والانتقال من واحدة لأخرى. (كما يفعل الغربيون وكما سمعت منهم عندما كنت في دراسة للغة الإنكليزية) والأنثى التي اعتادت أن تصادق أو تخالل عدداً من الشباب - أو الزملاء كما يعبرون تخفيفاً لهذه الصلات - لن تجد الاستقرار العائلي المنشود - إلا من رحم ربك - الذي حرص الإسلام على توفيره في بناء الأسرة المسلمة، القائم على العفة والمودة والرحمة، إذ الزوجة لا ترضى عن زوجها بديلاً، وبعضهن يبالغن في الوفاء، فيمتنعن عن الزواج بعد وفاة الزوج، كذا حال الرجل المتمسك بأحكام الإسلام وآدابه وضوابطه الشرعية، أو قل معظم الرجال، مبرؤون من الخيانات الزوجية التي هي في الغرب متفشية تبعاً للنشأة الأولى، وقد سمعنا عن سكان بعض المدن الغربية مثل ميلانو الإيطالية أن الناس يعيشون في إجازة شهر كل عام، هو شهر آب / أغسطس فيصعدون إلى مصايف الجبال، وإلى

المتجعات، وللزوجة الحرية التامة، وكذا لزوجها، أن يتصرفوا ما يشاؤون في المعاشرة خلال شهر الإجازة، لأنهم اعتادوا في نشأتهم وتكوينهم أن لا يصبروا على طعام واحد حسب تعبير إحدى الكاتبات العربيات المعاصرات. أعود إلى مشاهداتي في آداب القاهرة لأشهد أن قسماً كبيراً من أوقات الطلبة في جو الاختلاط تستهلك في الحديث عن هذا الموضوع، وما يتفرع عنه من صلات وعلاقات وزيارات وخصومات ومعاتبات دائمة ليس بين الذكور فقط، ولكن في أوساط البنات، وأشهد كذلك، والله تعالى يقول: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾: أنه لولا ما أحاطنا به شباب الإخوان في مصر من رعاية واهتمام، وإلحاق بالأسر، وعقد اجتماعات دورية، والاصطحاب إلى المحاضرات وأحاديث الثلاثاء، وزيارة بعض الصالحين والدعاة، والالتقاء مع كبار المفكرين، لولا هذا وغيره من المراقبة الدائمة غير المقصودة، ولكن بحكم حياتنا المشتركة والالتقاءات المستمرة في داخل الدراسة وخارجها، لكان المنزلق أكبر بكثير من إرادة معظمنا، فلله در جماعة الإخوان، كم من الأعداد الكبيرة انتشلت من السقوط أو جانبته بفضل الله، ثم بالرعاية الإخوانية التي لا يمكن لمن يملك ذرة وفاء أن ينساها أو يتناساها أو يدير ظهره لها، لاهثاً وراء متاع الحياة الدنيا الزائل القليل، فهل ينبري الدعاة والمصلحون من حكام وغيرهم لهذه الظاهرة المتفشية، ويعملون على تطهير المجتمعات أو تخليصهم منها؟ وهل يظهر الجيل الذي يلفظها بفطرته وشهامته وحسن تربيته، وصدق توجهه، وتمسكه بالعروة الوثقى وبأهداف دينه

وعقيدته؟!!

تاسعاً – نظام الأسرة في التربية والتوجيه والتكوين والالتزام هو العمود الفقري وحجر الزاوية في بناء الجماعة وتكوينها، وتخريج الأجيال العاملة والملتزمة بمبادئ الإسلام والتقيد بأحكامه والدعوة إليه، والانضواء تحت رايته سلماً وحرباً، وقد عنيت الجماعة منذ نشأتها الأولى في مصر وسورية وفي الأقطار العربية والإسلامية الأخرى بنظام الأسرة والكتيبة، كالذي مر بنا في صفحات سابقة.

١ – أتاحت لي الدراسة في مصر عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٥، الاطلاع في هذا الحقل، فالتقيت مراراً لمدة ليست قصيرة بلجنة الشباب المسلم – إحدى لجان الإخوان بالمركز العام – برئاسة الدكتور عبد العزيز كامل.

٢ – انصرفت منذ بدء انتمائي للجماعة ونشاطي في ساحتها عام ١٩٤٥ إلى الأمور الثقافية والفكرية والتربوية والسياسية، وأسند لي المركز تشكيل أسر وتوجيهها، ولم يكن النظام الذي يسود اليوم جماعة الإخوان معمولاً به في سنوات النشأة الأولى في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، فكان الانتساب للجماعة يتم دون المرور بالأسرة (المفتوحة) التمهيدية، بل كان يُكتفى بتزكية الأخ ليلتحق بالتنظيم، ومن ثم بأسرة تؤلف منه ومن أمثاله المنتسبين، وكان أول عهد بتشكيل الأسر وتوجيهها عام ١٩٥٠، كما سيأتي بيانه، وعندما ذهبت إلى القاهرة موفداً من وزارة المعارف عام

١٩٥١، أتيح لي الاتصال بتنظيم الإخوان في القاهرة، والاستفادة من تجربتهم الرائدة في شتى الحقول، وفي مقدمتها نظام الأسر ومناهجها وأنشطتها، وكانت الفرصة ثمينة باللقاء مع لجنة الشباب المسلم برئاسة الدكتور عبد العزيز كامل الذي كان عاكفاً على دراسة الأسرة والكتيبة ونظامهما، وقد أفدت كثيراً من حضور اجتماعات هذه اللجنة، والاستماع إلى مناقشاتها حول ماهية نظام الأسرة وروحه ومناهجه، وتصحيح مساره ومعالجة علله، وكنت أمضي السنة الدراسية في القاهرة، وإجازة الصيف الطويلة في مدينة حماة التي أحمل إليها ما أتلقاه وأفيده من الإخوان في مصر ولا سيما من الداعية الكبير والمفكر الفذ عبد العزيز كامل، مثل رسالة الأسرة والكتيبة، ورسالة نحو جيل مسلم، ورسالة الرشد رشدان: (رشد في العقل، وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ، ورشد في القلب، لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) ورسالة في مقدمة المنهاج للإمام البنا كان قد أخفاها تحت كومة من الأحجار على سطح منزله حينما اقتيد إلى المعتقل، قبيل أن يلقى القبض عليه، ثم وجدها بعد الإفراج عنه، وقد نالت منها عوامل الطقس، فطبعها، وتفضل علي بنسخة منها. غير أن المناقشة المثمرة والمجدية التي أفدت منها فائدة كبيرة هي الدراسة التي تناولت الحالة النفسية - السيكولوجية - لعضو الأسرة في مسيرتها الطويلة، فقد لاحظ أعضاء اللجنة أن الأخ الذي ينضم إلى الأسرة يكون في أول أمره راغباً متحمساً، فيتلقى مفردات المنهاج للأسرة قرآناً كريماً وحديثاً شريفاً وفقهاً وسيرة وتوجيهاً. . .إلخ، ويستمر هكذا أشهراً،

حتى تصبح اجتماعات الأسرة روتيناً مملاً، يؤدي إلى تسرب السأم إلى نفسه، فلا يجد لديه تلك الحماسة التي كان يشعر بها في أول عهده بلقاءات الأسرة، فيعتذر حيناً، ويتغيب حيناً، ثم ينتهي به المطاف إلى عدم الانتظام بالأسرة ثم إلى تركها، وقد مر على هذه الحال مئات بل ألوف من أعضاء الجماعة استحالت فيه ارتباطاتهم في الأسرة إلى ذكريات.

٣ - عالجت اللجنة هذه الحالة ودرستها لفترة ليست قصيرة والتمست الحلول، ومنها أن على النقيب أن يربط أعضاء الأسرة عبر الآيات التي يتلقاها بالمصدر الأول للمسلمين، ألا وهو القرآن الكريم، ليعلق فؤاده بحبه، فيصبح أنيسه والأثير لديه، بالتلاوة المنظمة - الورد القرآني - والتدبر والتفكر، والغوص على معانيه السامية وأسراره التي لا تبلى، وكذا الحال بالنسبة للحديث النبوي الشريف الذي يحتوي على كنوز ما زال المسلمون - بالرغم من كل ما بذلوه في خدمته - بحاجة للكشف والبحث عنها في مجالات التربية وعلم النفس والاقتصاد والاجتماع، ومن أحاديث الفتن والتحذير من أخطارها ومزالقها، وعلى النقيب أيضاً أن يطرح بين يدي اجتماعات الأسرة موضوعات معاصرة شيقة مفيدة تلامس حياة الفرد والجماعة وكذا الأحداث الجارية التي تعني المسلمين وتتصل بحياتهم إيجاباً أو سلباً، وأن يشارك جميع أفراد الأسرة بمناقشة هذه الموضوعات في إطار المنهاج، وأن ينفذ النقيب مع إخوانه في الأسرة أنشطة هادفة كالعبادات المشتركة، والحرص على صلاة الجماعة،

وصيام النافلة، والإفطار المشترك، وزيارة الصالحين والعارفين، والقيام برحلات تغذي معارف الأعضاء وثقافتهم - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. - وتحديد كتب حديثة أو قديمة وتسميتها، والعمل على تيسير اقتنائها أو استعارتها للاطلاع عليها.

٤ - بدأت بتشكيل أول أسرة وأهمها قبيل الذهاب إلى الدراسة في مصر، استمرت عاملة متماسكة أربعة عشر عاماً (١٩٥٠ - ١٩٦٤)، إلى يوم أحداث حماة الدامية، أخذنا بتطبيق برنامج جديد في الأسرة يضاف إلى منهاجها المعهود، ضمت الأسرة الأخ المهندس الزراعي مروان حديد الذي ملأ بحركته فيما بعد فضاء الشباب المتحمس، وشغل المجتمع وذاع صيته في البلاد الأخرى، فعندما ذهبت إلى الجزائر بدعوة من الأستاذ عبد الله جاب الله في مطلع التسعينيات، وزرت مخيمات حركة النهضة - ثم تبدل الاسم فيما بعد - كان أول ما طلب شباب المعسكر أن أحدثهم عن مروان حديد رحمه الله، لقد كان شديد الاندفاع عظيم الحماسة، وكان مخلصاً باع نفسه لله، ولم يلو على شيء. كما ضمت الأسرة الشيخ نافع علواني الذي اضطلع بدور كبير في توجيه الشباب، وتعبئة المواطنين بخطبه المؤثرة في سورية، وفي توجيهاته ودروسه النافعة المثمرة في الإمارات وفي الأردن. وكذا محمد ضاهر الكبيسي الأستاذ الضليع بعلوم العربية وآدابها، والذي كان يتفجر حماسة وغيرة على دعوة الله، ثم قضى شهيداً في حادث سيارة وهو في طريقه من أبها إلى الحرم المكي، والأخ محمد سفاف الذي التحق بالجيش،

وانتسب إلى سلاح المدفعية، وكان يقدم نصائح غالية عن أوضاع الجيش، لو أتيح تنفيذها لكانت سورية قد تجنبت ما تردت فيه من كوارث ومحن. والأخ المعلم محمود عون رحمه الله الذي كان ما يزال يعيش - كما حدثني أخوه عدنان - في ذكريات الأسرة وأيامها التي لا ينساها، ولا يفتر عن ذكراها رغم مرور أكثر من ربع قرن على افتراقنا. والأخ عدنان الزعيم - أبو ربيع - الذي ترك أثراً ملموساً حينما كان بمكة المكرمة يدرس علوم الشريعة، وكان منها أثره في الشيخ سفر الحوالي الداعية السعودي الشهير، الذي حفظ لشيخه عدنان الفضل، وعندما خرج الشيخ من سجنه عزم على تأمين منزل لأستاذه الذي كان رقيق الحال لولا أن المنية وافته، والتحق بجوار ربه، فحزن عليه تلميذه الشيخ سفر الحوالي حزناً شديداً. كما ضمت الأسرة خمسة إخوة آخرين كان شأنهم شأن إخوانهم الذين أوردت أسماءهم في هذه الذكريات.

٥ - درجت في توجيه هذه الأسرة وتربية أعضائها على أسلوب يجمع ما بين منهاجها التقليدي، وما تلقيته من دراسات الشباب المسلم في القاهرة، وبما اجتهدت من إضافات. ومن ذلك: تخيير أعضاء الأسرة في أن يحدد كل واحد منهم رسالة من رسائل الشهيد حسن البنا، ليدرسها بالتراخي دراسة عميقة، ويدرب نفسه على عرضها على إخوانه في الأسرة، ويوصل أفكارها وأحكامها إليهم، ثم يناقش أعضاء الأسرة أخاهم في مضامينها، وما عرضه عليهم من معانيها وأحكامها. وقد أمضينا في هذا الأمر شهوراً طويلة مع ما

نتناوله من مفردات أخرى. كنا نقوم برحلات على الأقدام إلى ضواحي المدينة والقرى المجاورة، ونمارس الرياضة، وكنا نعقد جلساتنا في بيوتنا بالتناوب مرة في كل منزل، ونلفت أنظار أفراد عائلة الأخ - أباً وإخوة - فيجلسون قريباً يسمعون أحاديثنا، وهذا ما كنا نقصده، فاطمأنت عائلات أفراد الأسرة، وصاروا أو صار معظمهم من الجماعة أو من مؤيديها، ثم نقوم الليل أو ما تيسر منه لنصبح صائمين صيام نافلة، نتناول فطورنا عند المساء على مائدة واحدة نكتفي منها بطعام زهيد، فكنا أسرة بكل ما تعنيه كلمة الأسرة من معاني الترابط والحب في الله. طبقنا مبدأ التكافل بين الأعضاء، وجمعنا مبلغاً مجزياً بمقياس الدخل في تلك الأيام، فصار لدى صندوق الأسرة عدة مئات من الليرات السورية، فأرسلنا في البدء الأخ مروان حديد إلى القاهرة لدراسة الزراعة، وأنفقنا عليه ما لدينا حتى أكمل سنته الأولى أو معظمها، وكان أهله في ضيق مما أصاب مشروعهم في زراعة القطن من خسائر لم يلبث أن انتهى، فأكملوا لولدهم دراسته، ووفى لنا الحساب، فأرسلنا أخاً آخر هو الأخ محمود نجار إلى القاهرة للدراسة في كلية الزراعة كذلك، فسدد أهله فيما بعد المبلغ، فأوفدنا الأخ عدنان الزعيم إلى استنبول لدراسة الطب على طريقة الأخوين السابقين فلم يجد الطريق أمامه سالكاً، فعاد ودرس الشريعة في جامعة دمشق.

كانت أسرة مثالية من حيث الفهم والالتزام والحماسة والتكافل ونشر الدعوة في ضواحي المدينة، وفي أحيائها، ولم يفرق بين

أفرادها إلا الموت أو النفي أو السجن، فقد توفي مروان وعدنان، ومحمد ضاهر ومحمود نجار، ومحمود عون وسبقونا إلى جوار ربهم، رحمهم الله جميعاً، وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

٦ - في أسرة أخرى كان لنا فيها تجربة جديدة، كان من أعضاء هذه الأسرة الشيخ فارس ملي الذي استلم رئاسة مركز حماة فيما بعد، وصار عضواً في مجلس الشورى، وعضواً في قيادة الجماعة، وكان منها مصطفى عبد الرزاق، وقريبه الصيدلي وغيرهم، عرضنا فيها بالإضافة إلى منهج الأسرة التقليدي أسلوباً جديداً في لقاءاتنا واجتماعاتنا وأنشطتنا، طرحنا رسالة نحو جيل مسلم للدكتور عبد العزيز كامل، وهي الرسالة التي حضرت في اجتماعات لجنة الشباب المسلم، مناقشة أفكارها والآراء التي احتوتها قبل دفعها إلى الطباعة، فاستغرقت دراسة بحوثها ستة أشهر على الأقل، كنا نقضي في كل موضوع جلسة نبحث فيها مثلاً أمور التعليم القديم واستفادة الأجيال منه، وما فيه من نقص لا مناص من استدراكه على ضوء تطور وسائل التعليم وأساليبه، والتعليم الحديث، وما له وما عليه، وكيف حاول الإنكليز في مصر حجب الأزهر - بدل تطويره - وإنهاء دوره بجامعة فؤاد الأول التي كانت من أحدث جامعات الشرق الأوسط في مطلع الخمسينيات، والتي حشدوا لها أفخم الأبنية ومشاهير الأساتذة من مصر وأوربا وعدداً من المستشرقين، وأمدوها بدراسات حديثة ووسائل متطورة، وخصصوا للخريج منها راتباً يزيد خمسة أضعاف ما

يتقاضاه خريج الأزهر. وهكذا كنا نغوص على الخلفيات والبواعث في الفكر والسياسة والتربية والاقتصاد، وما إلى ذلك من موضوعات ذات أهمية كبيرة كبناء المجتمع وإقامة الدولة، وتوجيه الشباب والأجيال الصاعدة.

وكما قصدت من إيراد تفصيلات في تجربتنا الإدارية والتنظيمية في دار المعلمين في حلب، وما أفرزته من نجاح وتخريج قيادات استلم بعضهم مهمة المراقب العام - محمد ديب الجاجي- وبعضهم مديراً لمكتب الجماعة في الاغتراب في عمل مبدع - محمد منذر كوجان - وبعضهم استلم قيادة مركز إدلب - محمد سعيد مبيض - وآخرون مثل محمد دمياطي من اللاذقية ويوسف نجار من حلب وغيرهم، قصدت من إيراد تجربتنا في التربية والتكوين وتوجيه الأسر والتي خرجت قادة وخطباء ومجاهدين كي يطلع عليها أبناؤنا ومن يلحق بنا، فلربما وجدوا فيها نماذج يستفاد منها، ولمسوا فيها نفعاً يضيفونه إلى تجاربهم، وما يفتح الله من رحمة بها وبأمثالها عليهم.

عاشراً - أفرج الشيشكلي عن الشيخ السباعي بعد أن اعتقله مدة أربعة أشهر، ثم استدعاه لمقابلته، وعرض عليه التعاون معه، مؤكداً أنه رجل مؤمن بالإسلام، غير أن الشيخ لم يستجب لعرض الشيشكلي الذي ألمح إلى التهديد بعد الرفض قائلاً:

إذاً فنحن معذورون باتخاذ ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا. ولكني آمل أن لا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر، عندما يتضح لكم

حقيقة أغراضي يا دكتور.

وكان متوقعاً أن يفرض الحصار على تحركات الشيخ السباعي، وأن يكون تحت المراقبة، وكذا منزله والضيوف الذين توافدوا عليه من مختلف أنحاء دمشق، ثم انتهى الأمر بإخراجه من سورية، وإبعاده إلى لبنان.

١ - أقام الشيخ رحمه الله في لبنان بضعة عشر شهراً، كانت فتحاً مبيناً في العمل للإسلام على أرض البلد الشقيق، فاللبنانيون مثقفون، وعلى صلة بحضارة الغرب، وبالأحداث المعاصرة، بل إن نسبة التعليم في لبنان تزيد على مثلها في جميع البلاد العربية الأخرى زيادة ملحوظة، بيد أن المثقفين ورجال الفكر والسياسة - بمن فيهم الملتزمون برسالة الإسلام - لم يُقدم لهم الإسلام بسعة وعمق وشموليةواجتهاد في معالجة القضايا المعاصرة، وتشخيص العلل، وتقديم الحلول الناجعة لها من منظور إسلامي، وكأن الله تعالى بحكمته، هيّأ للشيخ السباعي الرحلة أو الابتعاد إلى لبنان ليضطلع بهذه المسؤوليةالدعوية، فجاء نزوله إلى بيروت كنزول المطر على أرض عطشى، كما قال أبو تمام:

ديمة سمحة القياد سكوب   مستغيث بها الثرى المكروب

كان استقبال رجال لبنان وشبابها الناهض للشيخ مصطفى السباعي حاراً وصادقاً، وكانت إقامته معهم حافلة بالنشاط والعطاء. يقول الأستاذ محمد المجذوب: ولقد حدثني عدد من المثقفين في لبنان

من مختلف الطوائف أن للسباعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام التي ما كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً[1].

لقد كان دور الشيخ السباعي في دعم الحركة الإسلامية في لبنان ورفدها فكرياً وثقافياً فاعلاً ومثمراً، ولا سيما إذا لاحظنا ما حملته محاضراته لأبناء لبنان من فكر نيرٍ، وثقافة عميقة وناضجة، وتوضيح مشرق لأخطر الموضوعات والبحوث عن الفرد والمجتمع والدولة وعظمة التشريع الإسلامي، وقدرته على استيعاب مستجدات العصر، وهضم التطورات والمعطيات الحضارية للحياة البشرية جمعاء.

وهذه أفكار موجزة عن ثلاث محاضرات ألقاها الشيخ في قاعة الخلية الاجتماعية في بيروت بدعوة من جماعة عباد الرحمن، في الخامس من جمادى الثانية ١٣٧٢هـ الموافق ١٩-٢-١٩٥٣ وقدمت لها لجنة الطلاب الجامعيين في الجماعة بمقدمة قالت فيها: إن موضوع المحاضرة - الدين والدولة في الإسلام - من الموضوعات التي تشغل بال الشباب في شرقنا العربي والإسلامي، وإن الأستاذ السباعي ألقى هذا الموضوع على فريق من طلاب الجامعات والمعاهد العليا في بيروت، وقد تحدث الدكتور السباعي كعادته حديثاً شافياً وافياً، وقالوا في كتاب: هذا هو الإسلام: لقد بدا أثر هذه المحاضرة واضحاً لدى كثير من معتنقي فكرة فصل الدين عن الدولة، إذ لم يسعهم بعد أن يسمعوا هذا البيان المستفيض، والتعليل العلمي

(١) علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب: ١/٣٦٦ .

التاريخي لتلك الفكرة، إلا أن يعلنوا اقتناعهم ببطلانها، وبطلان ما تستند إليها من حجج وبراهين[1].

أما المحاضرة الثانية وعنوانها: المرونة والتطور في التشريع الإسلامي، فقد قدَّم لها الأستاذ محمد عمر الداعوق رائد جماعة عباد الرحمن في لبنان، وختم تقديمه بقوله: وها هو الدكتور السباعي حفظه الله يبين لنا في هذا المقال القيم خلود الإسلام وعظمة تشريعه المرن، ليزيل كل لبس، ويوضح كل إبهام، جزاه الله عن الإسلام كل خير، وختم له بخاتمة السعادة إنه سميع مجيب[2].

أما المحاضرة الثالثة وعنوانها: نظام السلم والحرب في الإسلام، فقد قالت لجنة الطلاب الجامعيين في جماعة عباد الرحمن في تقديمها: إنها واحدة من سلسلة المحاضرات التي ألقاها السباعي في أندية لبنان العلمية، وقالت اللجنة في هذه المحاضرة إنها أحدثت أثراً قوياً تردد صداه بين مختلف المواطنين، إذ كانت فتحاً جديداً في عالم الدعوة إلى الإسلام بأسلوب علمي أخَّاذ، وقد ألقيت هذه المحاضرة في ندوة دار الأيتام الإسلامية في بيروت بدعوة من اللجنة النسائية للهيئة العليا لدار الأيتام مساء الجمعة في ٣ شعبان ١٣٧٢هـ الموافق ١٧ نيسان ١٩٥٣م. وقد أكدت اللجنة المذكورة التي قامت بطبع هذه

---

(١) د. مصطفى السباعي - هذا هو الإسلام - الجزء الأول - الدين والدولة في الإسلام: ٣ .

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني - ٣ .

المحاضرة على أثرها البالغ في جمهور المستمعين، حتى إن فريقاً كبيراً منهم، وبعضهم أساتذة في الجامعات العليا، رغبوا بطبعها وتوزيعها لما تضمنته من حقائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا ما تضمنته من تصحيح لكثير من الأخطاء الشائعة في البيئات العلمية والدينية البعيدة عن الإسلام[1].

٢ – حكم العقيد أديب الشيشكلي سورية حكماً عسكرياً مباشراً وغير مباشر لأكثر من ثلاث سنين، لكن حكمه لم يكن بقسوة من سبقه – حسني الزعيم – ولا من لحق به. وعندما حل الأحزاب السياسية، وحظر على الطلاب العمل في السياسة، لم يشدد قبضته على المواطنين، بل اكتفى منهم بعدم معارضته، وعدم شنّ الحملات الإعلامية على حكمه، أو تفجير القنابل في المدن. فوجدت جماعة الإخوان المسلمين فرصتها في التحرك السرِّي الهادئ على محورين:

الأول: إحكام التنظيم في المراكز والشعب والفروع، فصارت لديهم تجربة في العمل السرّي، بعيداً عن أنظار السلطة ومراقبة الأجهزة الأمنية.

والثاني: الاهتمام بالشباب من مختلف الأعمار، فكثيراً ما نرى أعضاء في الجماعة قد تقدم بهم السن يقولون: لقد التحقنا بالجماعة في عهد الشيشكلي، وكنا في المرحلة الابتدائية أو المتوسطة، وكان نقيبنا فلان، ومسؤول أسرتنا الأخ فلان.

(١) نفسه – نظام السلم والحرب في الإسلام –ص٤ .

لقد انصرفت الجماعة إلى هذه الجموع التي التحقت بالجماعة، وتفرغت إلى توجيهها وتربيتها، وتلقينها القرآن الكريم والسيرة النبوية والأحاديث الشريفة وأبواب الفقه، وتدريبها على الأنشطة المختلفة، وعلى الالتزام والطاعة، وعلى بث معاني الأخوة الصادقة بين أفرادها، فولدت مئات الأسر المنتظمة في جميع المراكز، واتسعت قاعدة الجماعة، وأضحت المساجد كخلايا النحل في الحلقات المفتوحة، والأسر المغلقة، والدروس العامة، والتحلق حول العلماء، والاستفادة من علومهم ومن توجيهاتهم.

إن هذه المرحلة السرية في عهد الشيشكلي، كانت فترة مثمرة، مكنت التنظيم من التغلغل بين صفوف المواطنين، وأقامت قاعدة عريضة للإخوان المسلمين في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي. وهذه التجربة تؤكد لنا أمراً مهماً جداً، وتبني لنا قاعدة دعوية وفكرية ثابتة، هي أن الأخ أو الداعية ينبغي أن لا يتوقف عن العمل تحت وطأة أي ظرف مهما كان قاسياً أو معقداً، وأن لا يجمد مكانه، وأن لا ييأس من النجاح والنهوض مهما كانت العقبات والصعوبات. فإذا كان العمل متاحاً في الحقل السياسي والإصلاح الاجتماعي، فليبادر إلى ملء الساحة وعدم تركها فارغة كيلا يحتلها العلمانيون أو الاغترابيون أو ذوو الأفكار الشوفينية - المتعصبون للقوميات العرقية - أو اليسارية المتطرفة، أو دعاة الفلسفات الوافدة الفاسدة، وإذا سدّت المنافذ في وجوه العاملين للإسلام، جراء حكم العسكريين أو الطغاة أو الجبريين (الحكم الجبري) القائم على السطوة

والقمع، فليلتفت الدعاة إلى حقل التربية والتبليغ والتعليم والتوجيه الذي هو الأساس في البناء لكل عمل سياسي أو ثقافي أو اجتماعي، وإذا سدَّت الدروب وأغلقت الأبواب، فليشتغل أبناء الجماعة في تربية الصغار، ولو كانوا في رياض الأطفال، فهذا مما لا يخشاه الظالمون المنشغلون بالمكاسب العاجلة، فلا يمضي عقد من الزمان، إلا ونحن أمام جيل مؤهل للاضطلاع بالمسؤولية الدعوية، أو ربما قادر على التغيير، وإذا سدّت كل هذه الدروب والسبل - وهذا شبه مستحيل أو نادر جداً - فلينشغل المؤمن بتطهير نفسه وتزكيتها، والسير في طريق السالكين إلى الله تعالى ذكراً وتلاوة وصوماً وقياماً، وإصلاحاًفيمن حوله، وتقويم اعوجاج المجتمع بالتي هي أحسن، والمجاهدة بالكلمة أو القلم، أو بكل ما هو متاح، ولو في غير محيطه حسب الضوابط الشرعية والعقلية الدقيقة، فالمؤمن كما يقول محمد إقبال: كالشمس إذا غربت من جهة أشرقت من جهة أخرى.

هكذا بصدق الصادقين، وطهر المخلصين تتحول المحنة إلى منحة، كما حدث للإخوان المسلمين في عهد أديب الشيشكلي، والنفي إلى سياحة ينشر فيها الدعاة دعوتهم في الآفاق، كما جرى للشيخ مصطفى السباعي رحمه الله في إبعاده من سورية، وسفره إلى القطر الشقيق لبنان.

٣ - شهد عهد الشيشكلي إصلاحات في شتى المجالات، كان أهمها وأبرزها التطور الذي شهدته سورية في الحياة الاقتصادية، حيث شهدت البلاد توسعاً اقتصادياً ورفاهاً عاماً. إن حكم الشيشكلي

بالمقارنة مع من سبقه قد أظهر إمكانية ورغبة أكبر في مضمار تنمية البلاد، وإيصالها إلى مستوى جيد من الاستقلال الاقتصادي في مجال استثمار الأموال المتوفرة أثناء الحرب العالمية الثانية، في الزراعة والصناعة والبناء، وفي حماية الدولة للصناعة الوطنية وتشجيعها بالتدابير الجمركية والمالية، ومد الصناعات الكبرى بالقروض، وفي الانفصال الجمركي بين سورية ولبنان وفي سياسة التسليف، وتشجيع المصارف على اعتمادها، وتحسين الأسعار العالمية لكثير من المحاصيل الزراعية، وفي سياسة القطع التي رسمتها الحكومة وساهمت في ثبات النقد، واطمئنان رؤوس الأموال الأجنبية والوطنية وتشجيع التصدير واستقرار الاستيراد، مما أدى إلى ارتفاع الدخل القومي من ١١٤٠ مليون ل.س عام ١٩٥٢ إلى ١٥٠٠ مليون ل.س عام ١٩٥٤ . وكذا شهدت الزراعة قفزة نوعية كبيرة، فبعد أن كانت المساحة المروية ٢٥٠ ألف هكتار عام ١٩٥٢، ارتفع رقم الأراضي المستثمرة المروية إلى ٥٠٠ ألف هكتار والأراضي القابلة للري إلى ٧٥٠,٠٠٠ هكتار عام ١٩٥٤ . لقد تجلت النهضة الاقتصادية من خلال اتساع مساحات الأراضي المستثمرة وازدياد الأراضي المروية نتيجة التوسع في شبكة مشاريع الري الحكومية والخاصة، مما أدى إلى ازدياد الإنتاج الزراعي، ووجود فائض من المحاصيل الزراعية المعدة للتصدير وخاصة القطن، فقد اتسعت الأراضي المزروعة قطناً من ٥٨ ألف هكتار عام ١٩٥٠ إلى ١٥٩ ألف هكتار عام ١٩٥٤[1].

(١) دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر: ٢٦٨ - ٢٦٩ .

لكن هذا كله لم يشفع لعهد الشيشكلي في مصادرته للحريات ومنع العمل السياسي وحل الأحزاب، والتضييق على الصحافة وعلى حرية القول. لهذا انتهى النظام كما بدأ بانقلاب عسكري أطاح بالشيشكلي الذي أعمته خمرة السلطة عن التنبه إلى المؤامرات التي كانت جارية على قدم وساق ضده وضد نظامه. فقد تكتل الضباط بدوافع عائلية وسياسية، متضامنين مع المعتقلين، ومستنكرين حركة التسريحات والتنقلات التي أجراها الشيشكلي في صفوف الضباط، لا سيما أبناء الطائفة الدرزية، كما أنكر الضباط على الشيشكلي معاملته مع المعارضة، فاستعرض الضباط مع السياسيين الأوضاع، وقرروا أن يتحركوا بعيداً عن دمشق، حيث تتركز السلطة والأجهزة والعيون التي تحصي على الناس تحركاتهم، فاختاروا حلب يعلنون منها انقلابهم.

٤ - في صباح الخميس ٢٤ شباط تمردت وحدات اللواء الثاني في حلب بقيادة العقيد فيصل الأتاسي الذي اعتقل قائد اللواء الزعيم عمر تمرخان، وحل مكانه في قيادة اللواء، ثم توجهت القوى الآلية والمدرعات إلى مركز الحكومة ومبنى الإذاعة والبريد واحتلتها، وسرعان ما التحقت به الوحدات المتمركزة في الجزيرة بقيادة العقيد أمين أبو عساف، ثم انضم إلى الانقلابيين آمر المنطقة الوسطى - حماة وحمص - العقيد محمود شوكت يؤيده ضباطه وفي مقدمتهم المقدم غسان جديد وجماعته من القوميين السوريين، وفي الساعة

الحادية عشرة والنصف أذاع النقيب مصطفى حمدون حليف أكرم الحوراني نداءً عاماً أعلن فيه رفضه لحكم الشيشكلي، وانضمامه إلى الانقلابيين وعند الظهيرة أيد الانقلاب العقيد عمر قباني الملحق العسكري السوري في عمان، والمقدم عبد الإله رسلان آمر فوج في جبل الدروز، وعبد الجواد رسلان قائد حامية اللاذقية وغيرهم، وبعد أن بحث الشيشكلي الأوضاع مع مستشاريه العسكريين والمدنيين فضل الانسحاب على إغراق البلاد في حمّام من الدم، واشتعال حرب أهلية، فقدم استقالته[1]. فاجتمع المجلس العسكري الموقت الذي تشكل برئاسة العقيد محمود شوكت وضم العقيد توفيق نظام الدين، والعقيد نبيه الصباغ، والمقدم رياض كيلاني، والمقدم نوفل شحم، والمقدم عدنان المالكي، والمقدم غسان جديد، وصدر بيان باسم رئيس الأركان شوكت شقير في ٢٨ شباط يعلن أن الجيش ينسحب إلى ثكناته، ويضع نفسه رهن خدمة سلطة رئيس الجمهورية وحكومته الدستورية[2]. وهكذا، وبعد مضي خمس سنوات على توالي الدكتاتوريات العسكرية على السلطة استعادت سورية النظام الديمقراطي المدني، وانسحبت النخبة العسكرية من الساحة فوراً وسط ضغوط جماهيرية حادة نادت بعودة الجيش إلى ثكناته[3].

---

(١) دراسة في تاريخ سورية: ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق: ٢٦٦ .

(٣) المرجع السابق: ٢٦٧ .

كان الاتفاق قد تم بين المجلس العسكري وزعماء الأحزاب المجتمعين في حمص على العودة إلى برلمان ١٩٤٩ ودستور ١٩٥٠، واعتبار كل الإجراءات التشريعية الصادرة في العهد السابق ملغية، وفي الأول من آذار ١٩٥٤ دخل هاشم الأتاسي دمشق باحتفال مهيب، لاستئناف سلطاته الدستورية التي اغتصبها الشيشكلي.

حادي عشر - بعد أن اشتد الصراع بين جمال عبد الناصر وبين الإخوان المسلمين، وأضحى التفاهم بينهما بعيد المنال، وأن الأزمة بين الطرفين توحي بانفجار أو صراع وشيك، وبعد أن بلغ التضييق على الأعضاء من الإخوان مبلغاً كبيراً، انتقل نشاط الجماعة من القاهرة إلى دمشق، فأضحت العاصمة السورية مقراً للقيادات الإخوانية التي أسقط عنها جمال عبد الناصر الجنسية كما جاء ذكر ذلك من قبل، من أمثال عبد الحكيم عابدين وسعيد رمضان وعزالدين إبراهيم، وسعد الدين الوليلي وعبد العزيز العلي، وكانت قيادات الإخوان المسلمين في البلاد العربية قد شكلت مكتباً - المكتب التنفيذي للبلاد العربية - ضم ممثلي الإخوان في ستة أقطار هي: مصر وسورية ولبنان والأردن والسودان والعراق، أسندت رئاسته للأستاذ الأخ عصام العطار مراقب الإخوان في سورية لعدة دورات.

لقد تضامن الشعب في سورية مع الإخوان المسلمين في محنتهم في مصر، فوجد الإخوان المصريون في السوريين ظهيراً وسنداً، كما

لمسوا تعاطفاً كبيراً من العلماء والهيئات الإسلامية ومعظم الأحزاب السياسية، ولا سيما بعد إعدام عبد الناصر لقادة الإخوان، فخرجت سورية عن بكرة أبيها في مظاهرات صاخبة تشجب هذه الجريمة النكراء، وشارك قادة الأحزاب في المظاهرات باستثناء أكرم الحوراني الذي ضغط على قيادة البعث، وتحديداً على الأستاذين عفلق والبيطار، كي لا يشارك الحزب في المظاهرات الاحتجاجية على إعدام عبد الناصر لقادة الإخوان في مصر، فاتخذت القيادة البعثية موقفاً وسطاً هو تأييد المظاهرات، من دون الاشتراك فيها، وقد وصف الحوراني خلال ذلك الإخوان بالرجعيين العملاء، ودعا إلى مباركة سحق عبد الناصر لهم(١).

١ - استشاطت حكومة عبد الناصر غضباً من نشاط الإخوان المصريين في دمشق، ومن جماعة الإخوان المسلمين التي احتضنتهم، وأتاحت لهم هامشاً كبيراً من النشاط، ومن شنٍّ حملات إعلامية موجعة للنظام في مصر، فوضعت حكومة عبد الناصر خططاً ترمي إلى شنٍّ هجوم معاكس بدأته على الإخوان في سورية، وقد نجحت في اختراق التنظيم بالعمق، والعمل الدؤوب على هدم حصون الجماعة من داخلها، وكما قال السيد جمال الدين الأفغاني في قول ينسب إليه: لا يذبح الدين إلا بسيف الدين، فإن عبد الناصر الذي خبر الإخوان، وكان واحداً من تنظيمهم العسكري الذي انضم

(١) الأحزاب والحركات الإسلامية لجمال باروت: ٢٦٧ .

إليه في عام ١٩٤٢ على يد الصاغ محمود لبيب وكيل الجماعة، اقتنع بأن الإخوان لا يمكن ضربهم إلا بأمثالهم ممن يحمل صفتهم والانتساب إليهم سابقاً أو ظاهراً، فانتدب لذلك مجموعة تضطلع بهذه المهمة، كان رأسها أو على رأسها نجيب جويفل الإخواني المصري القديم.

فمن هو نجيب جويفل؟؟

التحق نجيب بالجماعة في مصر، وهو في سنٍّ مبكرة، وكان يملك صفات قيادية في الخطابة والمخاطبة وكسب ود الشباب من حوله، والاندماج السريع بهم، كما كان جريئاً مقداماً، تدرب على الأسلحة والمفرقعات، بعد التحاقه بالجهاز السري الذي شكلته الجماعة في مواجهة الإنكليز في معسكراتهم بالقاهرة والإسكندرية وعلى ضفاف القنال، فاستهوى قلوب من حوله من أعضاء الجماعة وتبوأ منزلة قيادية في صفوفهم، غير أن طموحه كان من النوع الخطر، أغراه بإزاحة كل من يتصور أنه منافس له، أو أنه يقف في طريقه، إذ شنَّ حملة ظالمة على الشيخ محمد فرغلي عضو مكتب الإرشاد وتلميذ الإمام البنا، وشيخ المجاهدين، بدعوى أنه متعجرف ومتكبر، وأنه يهمل واجباته الدعوية!!! وقد ذكر من نقل من أعضاء الإخوان القياديين في مصر هذه الرواية أن نجيب حاول ضمه إليه في هذه الحملة الظالمة، ولما أبى ذلك خاصمه نجيب واستهدفه في تشويه سمعته وتحطيمه، ودفع به إلى مزالق خطرة كي يتخلص منه

ومن أمثاله، غير أن الأعمار بيد الله دون سواه، وبعد أن جذب عبد الناصر إلى صفه رئيس الجهاز الخاص في الإخوان عبد الرحمن السندي وآخرين، كان نجيب جويفل ممن ناوؤوا الجماعة وأضحوا أدوات طيعة لدى الأجهزة الأمنية الناصرية بعد إصدار عفو عنه، ومن ثم خروجه من السجن في قضايا حدثت في عهد الملكية في مصر، وعندما تمرد لفيف من أعضاء النظام الخاص على المرشد حسن الهضيبي، وحاصروا منزله في حي روضة الفرج لإكراهه على الاستقالة، كان نجيب جويفل واحداً منهم، لكنهم فشلوا في تنفيذ هذا التصرف الشائن الذي لقي دعماً من الأجهزة الأمنية، ومن جمال عبد الناصر خصيصاً، مما لا يحتمل الحديث ذكر تفصيلاته الكثيرة، وفي اليوم التالي غص المركز العام في حي الحلمية بالإخوان من كل حدب وصوب، وجاءوا بشكل منظم، وبمجموعات، كل واحدة منها تمثل شعبة أو مكتباً إدارياً، وكان المتحدث فيهم الأستاذ عز الدين إبراهيم، ثم تلاه رؤساء المكاتب والشعب بالتتابع، والكل يستنكر ما أقدم عليه هذا النفر من تصرفات هابطة بعيدة عن أخلاق الإخوان وعن المبادئ التربوية التي نشؤوا عليها، ولقد قُيض لي حضور هذا التجمع الطارئ السريع الهائل، إذ كنت طالباً في كلية الآداب في جامعة القاهرة.

٢ – ما الذي حوّل السندي ومن حوله ممن كانوا قادة النظام، وكذا نجيب جويفل إلى موقف المعارضين والمناوئين للمرشد

ولمكتب الإرشاد؟ هل لأن الهضيبي لم يستطع ملء الفراغ الذي تركه البنا بعد استشهاده؟ ولم يتمكن من إرواء غليل الجماهير الإخوانية المتعطشة لما كانوا يسمعونه من الإمام البنا الذي كان يأخذ بمجامع القلوب؟ والهضيبي رجل قضاء يغلب عليه الصمت والكلام القليل والعمل الهادئ؟ هل لأن المتربصين نجحوا في تشويه سمعة المرشد رحمه الله بالسهام المسمومة التي كانوا يرمون بها الهضيبي وأعضاء القيادة، وفي مقدمتهم مكتب الإرشاد؟ هل لأن المرشد الذي زار الملك فاروق، وخرج من المقابلة قائلاً: كانت زيارة كريمة لملك كريم ليبدد الصورة القاتمة عن الجماعة والحملات المسعورة عليها باتهامها بالإرهاب والاغتيال؟ مما أثار حفيظة شطر كبير من شباب الإخوان في الجامعة وفي تنظيمات الجماعة، وأضحى مصدر تعليقات لاذعة وساخرة، لأن الملك كان متهماً بل ومداناً بقتل الإمام البنا الذي أحبه كل من عرفه والتقاه حباً ملك عليهم شغاف قلوبهم؟ وقد كنت أسمع ذلك بأذني في أوساط الجامعة، يضاف إلى ذلك كما ألمحت حملة التلفيق والتهم المفتراة من أجهزة الدولة ضد الإمام الهضيبي الذي ارتقى إلى منزلة الصامدين والصابرين فيما أصابه من الأذى والبهتان.

٣ - باشر جويفل مهمته بالسفر إلى لبنان، والتقى الشيخ السباعي رحمه الله، واستطاع أن يأخذ منه الموافقة على تشكيل مجموعات سرية في سورية إبان الحكم العسكري الذي حل الأحزاب، وحظر نشاطها، واعتقل قادتها، ثم نفاهم إلى لبنان. فتحرك في جميع مراكز

الإخوان في سورية مع مجموعة تحمست لمشروعه، واستجاب له بعض المراكز في دمشق وحمص وإدلب، وتحفظت حياله مراكز أخرى مثل حوران واللاذقية ودير الزور، ورفضت مشروعه مراكز طالبته بالتفويض المكتوب من المراقب العام، كالذي فعله مركز حلب ومركز حماه، فلم يسمحا له بأي تحرك أو اتصال بأي عضو في الجماعة فشكل جويفل إدارات في المراكز التي نجح في اختراقها وهي إدلب وكان على رأسها أنور حمادة الذي انضم فيما بعد إلى البعثيين، وصار واحداً من وزرائهم، وفي حمص، وكان على رأسها عبد المجيد الطرابلسي الذي انتسب فيما بعد إلى الناصريين، ثم إلى البعثيين، وتوفي وهو واحد منهم، وفي وزارتهم، وقد شيعه وأبَّنه وقت الدفن أعضاء الجبهة التقدمية باعتباره وزيراً لأوقاف نظام الأقلية الحاكمة في سورية، وفي دمشق كان أبو الخير عرقسوسي في الإدارة التي شكلها جويفل، وظهر فيهم - حسب اتفاقهم - عبد الفتاح غندور كمراقب عام للمنشقين، وكان من أبرز قياداتهم التي التفت حول مراقب الانشقاق: علي الحسن (شقيق خالد الحسن وهاني الحسن وبلال الحسن أعضاء قيادة فتح) وعبد الرحيم الطباع والمهندس الجندلي، وأنور حمادة وغيرهم.

كثف المنشقون أنشطتهم، فأقاموا المعسكرات، ودربوا الشباب على السلاح، وذهب قادتهم بترتيب من نجيب جويفل - الذي أطلق على نفسه اسم عبد العزيز سالم أبو عصام - برحلة إلى مصر في دورة عسكرية مخابراتية، تدربوا فيها على الأسلحة الرشاشة والقنابل

اليدوية، وعلى أساليب الشيفرة والتجسس، ثم ركزوا بعد عودتهم، هم وأتباعهم هجوماً حاداً ورخيصاً على الشيخ السباعي، زاعمين أنه يعيش حياة مترفة في اللباس، وفي الاستحمام على الشواطئ!!! ليحطموا كيانه وسمعته التي تحتل موقعاً كبيراً في قلوب تلامذته وإخوانه، وأعضاء جماعة الإخوان المسلمين في سورية وفي غيرها، وكانوا يوهمون الأعضاء بأنهم يأخذون البيعة للمرشد العام الهضيبي كي ينصهر جماعات الإخوان في جماعة واحدة، كما كانوا يحطمون سمعة الهضيبي رحمه الله في مصر، زاعمين أن المرشد الجدير بالقيادة هو الشيخ السباعي!! وعندما استفحل الأمر، وأحرز مخطط الأجهزة الناصرية نجاحاً كبيراً، ليس في سورية وحدها، وإنما امتدت شروره إلى لبنان والأردن والكويت، فشرعوا بمحاولة السيطرة على المراكز الموالية لهم، وعلى المكاتب واللجان والوحدات التنظيمية، وكانت جرأتهم فائقة في مركز إدلب، فقد احتلوا مقر الجماعة، وأجروا انتخابات في غرفها، وعندما واجههم رئيس المركز الشيخ نافع شامية بالإجراءات المناسبة، لاذوا بالفرار، ثم أعادوا الكرة مرة أخرى، وملأوا الصفوف الأمامية في الاجتماع الأسبوعي، فاستنجد إخوان إدلب بمركز حلب، فأمدهم بثمانين أخاً، فقاموا بحماية المركز، وإسكات كل من تسول له نفسه الفتنة، فَبُهِتَ المنشقون، ويئسوا وتلاشوا، ثم انتقلوا بنشاطهم إلى المناطق والقرى، فَألْفَوا من أبناء الجماعة صدوداً ورفضاً، فلم يبق لهم أثر. عندئذ التحق قادتهم بالأحزاب العلمانية من ناصرية وبعثية وغيرها، وعاد المنخدعون إلى

صفوف الجماعة بعد كشف المؤامرة ومعرفتهم بتفصيلاتها، وابتعد فريق منهم عن الجميع، واستغرقتهم شؤون الحياة.

تحرك الشيخ السباعي بسرعة البرق، وحضر خفية إلى سورية، بعد أن أحاط بما يبيت للجماعة من أذى وتآمر وكيد، واتصل بالمراكز التي استطاع المنشقون أن يثيروا فيها فتناً ولغطاً، فأعادها إلى سابق عهدها في ارتباطها بتنظيم الجماعة وقيادتها، فتم الفرز بالتزام المخلصين مع إخوانهم، ونَبْذ دعاة الفتنة خارج صف جماعة الإخوان. هكذا ألقى الداعية الكبير الشيخ مصطفى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون.

نقل نجيب جويفل نشاطه المخابراتي التخريبي من سورية (بعد أن افتضح أمره لدى الإخوان في جميع المراكز) إلى السودان فطرده الإخوان منها، وإلى لبنان فأخفق في مسعاه، وإلى الأردن متزلفاً للمراقب العام محمد عبد الرحمن خليفة، ثم إلى الجزائر دعماً لابن بيلا حليف عبد الناصر، وقام بتفجيرٍ في فندق الصنوبر، فانكشف أمره، وألقت السلطات الجزائرية القبض عليه، وفي الكويت استمال فريقاً بدعوى تحييده في النزاع بين الإخوان وعبد الناصر، غير أن الفريق الموالي للجماعة تغلب على الفتنة، ونبذ فكر الحياد، فباءت جهود جويفل بالفشل، فانطوت هذه الصفحة السوداء من صفحات المؤامرة التي حاكها أعداء الداخل والخارج ضد تنظيم الإخوان المسلمين في سورية وفي جميع الأقطار العربية والإسلامية الأخرى،

والتي باءت في المآل إلى الفشل، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾(١).

ثاني عشر: بعد كارثة فلسطين عام ١٩٤٨، توزع مئات الألوف من أبناء فلسطين الجريح في البلاد العربية المجاورة، وكان نصيب دمشق منها كبيراً بعد الأردن ولبنان، وكانت اللغة الإنكليزية قد حلت محل اللغة الفرنسية في مناهج التعليم في سورية، فتم اختيار شاب فلسطيني يحسن الإنكليزية ليدرسها للشيخ السباعي، فلمس الشيخ منه الأدب واللباقة والإتقان، فاختاره سكرتيراً له كمراقب عام للجماعة، غير أن الإخوان الكبار رأوا في خالد الحسن (الذي لم ينشأ في صفوف الجماعة، ولم يترعرع في أجوائها، ولم يتلق أي توجيه من مناهجها) نمطاً من الحياة لم يألفه شباب الجماعة، من قيامه بنزهات في شوارع دمشقية تبدو فيها مظاهر الحياة الغربية في اللباس والتبرج وغير ذلك، فعبروا عن تحفظهم على ذلك حيال شخص ليس منا محسوب على المراقب العام، ويشغل منصباً خطيراً جداً كسكرتير لقائد الجماعة، ويرافقه في رحلاته، أو يطوف على المراكز مندوباً عنه. وفي هذا الصدد أذكر أن طلاب الجماعة قد عقدوا مؤتمراً عاماً في مدينة حماة ضم مندوبين عن قسم الطلاب في جميع المراكز الإخوانية في سورية، وكنت إذ ذاك ممن شارك في المؤتمر عن طلاب مركز حماة، فتقدمت لرئاسة المؤتمر بمشروع برقيات إلى

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

النحاس باشا تأييداً بمناسبة إلغائه معاهدة ١٩٣٦، وإلى وزير خارجيته المشهود له بالوطنية محمد صلاح الدين، وإلى صالح عشماوي ممثل الجماعة، لتأييده في حق الإخوان المسلمين في مصر بالعمل السياسي، وإلى الدكتور محمد مصدق رئيس وزراء إيران بمناسبة تأميمه للبترول في إيران، وإلى أبو القاسم الكاشاني الزعيم الديني الذي دعم مصدق في مواقفه السياسية، وقد جاء في برقيتنا إلى الكاشاني باسم مؤتمر طلاب الإخوان في سورية: جهادكم الجبار مفخرة التاريخ وحديث الأجيال، وبعد زهاء شهر استلمت رد الكاشاني - وقد كلفني المؤتمر بأمانة سره - في برقية تحتوي على بضع وثلاثين كلمة باللغة الفارسية مكتوبة بالحرف اللاتيني، فتوجهت إلى دمشق، وسلمتها إلى السيد خالد الحسن بوصفه سكرتيراً لفضيلة المراقب العام، ليحصل على ترجمتها من السفارة الإيرانية في دمشق، فذهبت الشهور والسنوات، ولم أتلق من الأستاذ خالد الحسن ترجمة البرقية، وما عرفت شيئاً عن مصيرها.

١ - كان الأستاذ خالد الحسن يقوم بجولات على المراكز في سورية، وكان يسجل الملحوظات والمعلومات والإحصاءات والمقترحات من أبناء كل مركز، ولا سيما من أعضاء الإدارات بصفته أمين سر المراقب العام، وكان بهذه الصفة يحصل على ما يريد. وصادف أن أحد أعضاء الإدارة في مدينة حماة سجل انتقادات شديدة، وشنَّ هجوماً حاداً على بعض قيادات المركز في التقائه بخالد الحسن الذي أصغى إلى انتقاداته ومآخذه على سير العمل. وبعد فترة

طويلة أقدرها بحوالي عامين حضر إلى حماة شقيقه علي الحسن أحد رموز الانشقاق على الجماعة وعلى الشيخ السباعي، وإذا به يسأل عن الأخ المعارض، ويطلب إليه اللقاء به، في مسعى لتشكيل مجموعة متمردة على قيادة المركز، مؤيدة لحركة نجيب جويفل وعلي الحسن والطرابلسي وحمادة، ومناوئة للشيخ السباعي. فمن الذي دلَّ علي الحسن على الأخ الذي كان التقاه أخوه خالد الحسن منذ أكثر من عامين، واستمع إلى آرائه المناوئة لقيادة المركز؟ وما الرابط بين الأخوين خالد وعلي في هذا النشاط أو في هذا السياق؟ لقد كان نشاط الأستاذ خالد الحسن وجولاته وجمعه للمعلومات - باسم المراقب العام - من مراكز الجماعة إحدى حلقات المخطط لنسف حصون الجماعة من داخلها، ولا سيما أنه كان يشغل أخطر المواقع كأمين سر لقائد الجماعة وزعيمها؟ ليس لدي الإجابة الشافية الموثقة مكتفياً بهذه التساؤلات عسى أن يأخذ أبناء الجماعة حذرهم، وأن يضعوا الضوابط الدقيقة لإسناد المواقع الحساسة ذات الأهمية البالغة لمن هم أهل للثقة القائمة على تاريخ الأخ ونشاطه وصلاته الاجتماعية والسياسية، وعلى كل ما له صلة بسيرته الذاتية، وأن لا تتكرر مثل هذه الأخطاء في إسناد أخطر المسؤوليات لأفراد لا علاقة لهم بالجماعة، ولا بتاريخها، ولم يترعرعوا في أكنافها، ولم يتلقوا مبادئها، أو يتربوا في أحضانها!!!

٢ - كان الشيخ تقي الدين النبهاني عضواً في الإخوان المسلمين في فلسطين، ثم انشق عليهم، وأسس حزباً سياسياً عام ١٩٥١ سماه:

حزب التحرير الإسلامي، دعا فيه إلى استئناف الحياة الإسلامية، وقيام الخلافة، وألف كتباً عدّة في الفكر والسياسة والاقتصاد والدولة والتكتل الحزبي وغيرها. فمن هو تقي الدين النبهاني؟ ولد النبهاني عام ١٩٠٩م في إحدى قرى حيفا - إجزم - والتحق فيما بعد بالأزهر الشريف وكلية دار العلوم في القاهرة، وحمل شهادتيهما، وعمل بعد تخرجه في التدريس، ثم في القضاء الشرعي في القدس، ثم مدرساً في الكلية الإسلامية في عمان، وعندما أسس حزبه، وضع له تعريفات ومصطلحات يتلقاها أفراد الحزب على صيغة استفهام، ويحفظون الرد عليها، مثل: ما هي السياسة؟ وما هي الثقافة؟ وما السياسة الداخلية؟ وما السياسة الخارجية؟... إلخ وكان له معرفة واسعة في داخل جماعة الإخوان المسلمين مذ كان عضواً فيها، فحاول استقطاب أعداد كبيرة منهم، وسلخهم عن الجماعة، وقام أنصاره بنشاط محموم ضد الجماعة من داخلها وفي خارجها. سمعت من موظف عمل في وزارة التعليم في أبو ظبي موجهاً إدارياً رواية قال فيها: كنت عضواً في أسرة إخوانية يقوم على توجيهها الشيخ عبد العزيز الخياط، وقد جاءنا ذات يوم يبشرنا بقيام حزب التحرير، ويعرفنا بشخص رئيسه النبهاني، فمنا من استجاب، ومنا من ابتعد عن العمل التنظيمي، وكنت واحداً منهم.

أدخل النبهاني في روع أنصاره أن الحركة التي لم تنجح في تحقيق أهدافها بعد ٢٣ سنة ميؤوس منها، قياساً على فترة العهد النبوي، ومن ثم، فإن الإخوان شجرة لم تثمر يجب اقتلاعها،

وبالطبع فإن هذا الحكم الجائر لم يأخذ به الحزب، ولم يطبقه على حزب التحرير، بعد أن مضى على تأسيسه أكثر من نصف قرن دون أن يحقق ما يريد أو بعض ما يريد، فانبرى شباب الحزب في حملة محمومة على الإخوان المسلمين في بلاد الشام، نقداً وجدلاً ومشاحنة، وأذكر أنني والأخوين الشيخ عبد الله الحلاق رئيس مركز حماة، والحاج عبد الغني الساعاتي عضو الإدارة في المركز، كنا في رحلة إلى القدس وكان التحريريون في أوج نشاطهم في النصف الأول من الخمسينيات، وبينما كنا نتجول في رحاب الأقصى، اعترضنا شاب وقال: إنه من الخليل وأن اسمه فريد، فسأل: من أنتم؟ قلنا: سوريين، فلم يلبث أن شنّ هجوماً على القائمين على المؤتمر الإسلامي الذي اتخذ من القدس مقراً له، ونعتهم بالعمالة، فكان ردي عليه قاسياً، فاعتذر، وتنصل من كلامه، وفارقنا.

شغل حزب التحرير الإخوان بجدل عقيم طيلة الخمسينيات والستينيات، وأضاع على الجماعة أوقاتاً ثمينة، وطرح أفكاراً خطيرة وشاذة تنطوي على مخالفات شرعية، لم يجرؤ غيرهم عليها، وسحبوا عدداً من شباب الجماعة إلى حزبهم، وقد فسر بعض قادة الإخوان في الأردن سلوك الحزب تفسيرات سلبية، واتهموه باتصالات جاؤوا عليها بأمثلة وأحداث لم تكن لديّ كافية بالإدانة والاتهام، كما أن بعض قادة الجماعة أدركوا أن أعظم مهمات هذا الحزب هو القضاء على جماعة الإخوان، وتشويه أهدافها وسمعتها، وإشغالها بالصدام

الداخلي بين العاملين للإسلام، ولاسيما بعد أن رأوا أعضاء الحزب يطوفون على المتطوعين الذين يحرسون الحدود في مواجهة العدو في ريف مدينة الخليل وغيرها، للاحتفاظ بما تبقى من فلسطين بعد احتلال الصهاينة لقسم منها، فكانوا يقولون للمجاهدين: لا يجوز الجهاد ضد العدو إلا بعد قيام الدولة الإسلامية!! غير أن موجة الحزب تراجعت، وتلاشى الزخم الذي بدأ الحزب به نشاطه، ولم يعد حزب التحرير - بعد أن أسقط كلمة الإسلامي - ليصبح: حزب التحرير، يشكل خطراً أو عائقاً على جماعة الإخوان المسلمين في بلاد الشام، وعندما عدت إلى سورية من الرحلة إلى الأقصى، حصلت على جميع منشورات الحزب وكتبه التي ألّف النبهاني معظمها، فعكفت عليها، وقرأتها باهتمام وعناية وتفحص، فرأيت فيها ما أنكره بشأن الدعوة إلى الأخلاق والإصلاح الجزئي وغير ذلك، فرجعت إلى شيخ حماة وعالمها وصدّيقها الشيخ محمد الحامد طيّب الله ثراه، أسأله عن الحزب، وعن مؤسسه الشيخ النبهاني، فقال: النبهاني رجل ذكي وواسع الاطلاع، غير أن لديه انحرافات فقهية ينبغي الحذر منها.

٣- أعود بعد هذا الاستطراد في الحديث عن حزب التحرير، لأسجل حادثة ذات دلالة كبيرة في تداخل الحزب في صفوف جماعة الإخوان المسلمين في سورية، لقد كان الأخ الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله من خيرة شباب الإخوان في سورية، بل لقد كان

زين شبابها، فهماً وذكاءً وعلماً وثقافة، وأدباً جماً وخلقاً رفيعاً، ورقة وعذوبة مع إخوانه ومع الآخرين، درس علم الاجتماع في مصر، وحمل منها شهادتها بتفوق وامتياز، واقترب من البنا كثيراً، ولازمه منذ عام ١٩٤٧ وحتى استشهاد الإمام عام ١٩٤٩، أثناء إقامته في القاهرة للدراسة، ولما عاد إلى سورية بذل نشاطاً ملموساً في نشر الدعوة والإشراف على معسكرات الفتوة، عمل مدرساً للفلسفة في مدينتي حلب ودير الزور، وترك فيهما وفي المواطنين أطيب الأثر، زيادة على ما خلفه في مدينته حماة من نتائج باهرة في شباب الجماعة وفي الأوساط الشعبية، وقبل ذلك أقام فترة في دمشق وكان نائب مدير المعهد العربي الإسلامي فيها، بل كان المدير الفعلي للمعهد، كما كان نائب المراقب العام بعد أن أُبعد الشيخ السباعي إلى لبنان من قبل السلطات العسكرية إبان عهد الشيشكلي، وقد تصدى للمنشقين بشجاعة وجرأة نادرتين بعد أن هددوه إذا تصدى لحركتهم، وقد سمعت منه أن السيد خالد الحسن قد جمعه سراً بالشيخ تقي الدين النبهاني الذي كان في زيارة إلى دمشق، ليستمع إليه، أملاً في سلخه عن الجماعة وضمه للحزب، لكنه قابل هذه المحاولة برفض شديد، وانتهى اللقاء دون أن يحقق خالد الحسن مبتغاه، ومن غير أن يحقق الشيخ النبهاني هدفه في كسب الدكتور عبد الكريم عثمان إلى صفه، وضمه إلى حزبه، فأي دور هذا الذي كان يقوم به الأستاذ خالد الحسن، سكرتير المراقب العام؟ وهل يجوز أن تحدث مثل هذه الأخطاء في بنية الجماعة التنظيمية، بالاعتماد على شخص أياً كانت

مواهبـه، وإسناد أخطر المواقـع التنظيمـية إليه دون أن يكون لـه سابق عهد بالتـنظيم أو الانتماء للجـماعة؟! كذلك حدثني الأخ عـبد الكريم عثـمان رحمه اللـه حديثاً آخر عـن الأستاذ خالد الـحسن سمعـه منه، رغّبـه فيه بإقامـة علاقات دوليـة، لا أسوّغ لنفسـي إثباته بعد أن انـتقل كلاهمـا إلى جوار الله تعـالى، لأن مثل هذه الصـلات تتطلب توثيـقاً وتثبيتاً مرة بعد مرة، حتى لا يشوبها شك أو التباس أو نسيان.

٤- كان الأخ عـبد الكريم عـثمان، والأخ مصـطفى الصيـرفي أمد الله فـي عمره، وكـاتب هذه السـطور الفـقير إلـى عفو ربـه، في سنّ واحدة، انـتسـبنا إلى الـجماعـة في عـام واحد، هو عـام ١٩٤٥ الذي ولدت فيه جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وكنا نضطلع بالنشاط الدعوي في محـافظة حماة (توجيـه أسرها وإلقاء أحاديث الجـمعة في مركـزها، وزيارة أحيـائها، ومخـاطبة نقـاباتها وطـلابها والتـحدث في مهرجاناتها وفي احتفالاتها العـامة وفي زيارة ريفها والقرى التابعة لها) فكان لـذلك أثر ملمـوس - بفضل اللـه - في تطور الجـماعة - كـماً وكيفاً -، وقد عُـرف عن عبد الكريم ميله للثقافـة والفكر والاجتماع، فاشتهر في أحاديثه الثقافية، وعرف عن الأخ الأستاذ مصطفى الصيرفي براعته في أحاديثه الـشعبية ومخاطبة الجمهـور، وعرف عن الفقير إلى الله كاتـب هذه السطور ميله لـلأحاديث السياسـية منذ باكورة شـبابه، فكان الثـلاثة يشكلون جـهداً متكـاملاً في العـمل الدعوي من جـوانبه المختلفة، وفي آخـر ما كتبه الشيخ سعيد حوى رحـمه الله من كتبه - (هذه شهـادتي وهذه تجربتي) فـقال عن نفسه: كـنت في بيئة فـقيرة،

تؤيد أكرم الحوراني، وتناصر حزبه، وكانت عائلتي ضمن أبناء الحي المتحمسين للدعوة إلى الاشتراكية، وإلى مناصرة الحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني، لكن ثلاثة من الإخوان المسلمين في مركز حماة هم الإخوة: مصطفى الصيرفي وعبد الكريم عثمان وعدنان سعد الدين تركوا أثراً في أفكارنا وقناعاتنا، بمبادئ جماعة الإخوان المسلمين، فالتحقنا بهم ، وانتسبت إليهم، وانخرطت في نشاطهم الطلابي في ثانويات مدينة حماة، بل صار الشيخ سعيد حوى رحمه الله من قادة العمل الطلابي إن لم يكن رأساً له، وفي الجامعة تابع مسيرته التنظيمية والدعوية، وبعد التخرج أضحى واحداً من مفكري الجماعة وخطبائها، بل ومن كبار كتابها، مستمراً على هذا النهج في كل سنوات عمره، وحتى أدركته الوفاة رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل أجره، ورفع قدره، وبوأه من الجنة فردوسها الأعلى.

* * *

الملحق رقم (ا)

بيان مؤتمر العلماء الأول المنعقد بدمشق

بتاريخ ١١-١٣ رجب ١٣٥٧ و٦-٨ أيلول ١٩٣٨

«**مدخل**: كان الشيخ السباعي يأخذ على العلماء قعودهم عن مواجهة الظلم، وتخليهم عن تحمل المسؤولية، وانزواءهم في البيوت والمعابد، بينما تُشاد معاهد التبشير، وتُحارب أحكام الله عمداً. وإذا لقيت أحدهم، وذكرت له ما يعانيه المسلمون، اعتذر له بفساد الزمان وضعف الوازع الديني.

قال الشيخ: وبقي الأمر هكذا حتى عاد إلى دمشق الأستاذ الجليل محمد كامل القصاب - من منفاه - عام ١٩٣٨م. فرأى في تمزق العلماء وسكوتهم ما يُؤذن بخطر كبير، فعمل على تأليف جمعية تضم صفوفهم، وتوحد آراءهم، وتدافع عن كرامتهم، وتسعى إلى إعلاء كلمتهم. وإبلاغ صوت الحق إلى القلوب.

لقد وصف شيخنا السباعي فضيلة الأستاذ القصاب بأنه أمة وحده، لا تكاد تحدثه أو تخالطه حتى ترى فيه همة الشباب، وحكمة الشيوخ، ودهاء الساسة، وعلم الفحول، وإيمان السلف الصالح من

علماء المسلمين، يعمل فلا يكلّ، ويهاجم فلا يتراجع، ويدعو فلا يسكت، ويجاهد فلا يفتخر. .إلخ. دعا الشيخ القصاب علماء المسلمين في بلاد الشام والعراق إلى مؤتمر ضم أكثر من مئة شخصية، وصفهم السباعي بأنهم طائفة كبيرة من خيرة العلماء، فكان هذا المؤتمر بعثاً جديداً لنشاط العلماء، ونجح نجاحاً كبيراً، واتخذ قرارات عظيمة، بلغت سبعة وعشرين قراراً كان من أهمها: الحيلولة دون إلغاء الوقف والقضاء الشرعي، ومعارضة حل الأوقاف الأهلية.

ولأهمية هذا المؤتمر - مؤتمر علماء المسلمين الأول - الذي حضره السباعي نثبت في هذا الملحق وقائع هذا المؤتر كما أعلنه ذووه والقائمون عليه.»

- ١ -

الفكرة العامة الموجبة للمؤتمر

لما كان هذا العصر يتميز عن غيره بتزاحم العوامل المختلفة فيه من مادية ومعنوية في شتى نواحيها وميادينها، وكانت الأدوار الإنشائية العامة في تكوين الأمم المتحفزة إلى النهوض والحياة من أخطر الأدوار التي تمر بها الأمم كما في عهدنا الإنشائي الحديث اليوم، إذ تكون تلك الأدوار مفترق طرق يقذف بالسائرين فيه إما إلى هناء وإما إلى شقاء - من حيث تشعر أو لا تشعر - في ركني حياتها المادي والروحي - قضى الواجب المحتم على كل ذي إخلاص واختصاص أن يبادر إلى المساهمة في بنيان أمته الناشئة بهمته الصادقة، ضمن خطته واختصاصه، ليكون مليء الصحيفة بالآثار الناطقة الناصعة،

بـريء السـاحة مـن السؤال عـن التـهـاون فـي الـتعـاون للـحيـاة الصالحة.

ولما كان شأن رجال الدين يقف بهم على ذروة المراقبة والنظر فيما يضمن للأمـة تلك الحياة الصالحة، وثـمراتها اليانعة، والعـمل على ما يداوي عللها، ويسد خللها، ويمنع زللها، ويصعد بها عارجاً في مراقي الكمال البشري، وفضائل الإنسانية، كيلا تطغى عليها المادة فتغرقها في ضلالـها عن خـالقهـا، وتجمح بـها النـزوات والنزغات فـي شهواتـها، فتنسـيها أمانتـها وواجباتها وأخـلاقها، فتـرجع القهقرى من حـيث تظن التقدم، وترسب في حضيض الرذيلة من حيث تبغي السمو.

لهذه العـوامل القوية وجب عـلى العلماء - والأعـباء ثقيلة مـتزايدة متزاحمة كـما يرى - أن يفكروا في الطرق الناجحة، والوسـائل الناجعة لجمع الجهود، وتضافر القوى الصالحة على النهوض بتلك الأعباء التي تزداد وطأتها ثقلاً كلـما اشتدت عوامل المدنية المـادية عماية وضراوة، والتي لم تعد تغني فيها ولا تثمر جميع الجهود الفردية المبعثرة.

- ٢ -

واجب العلماء في تبرئة الإسلام مما يصمه به المستعمرون

لما كان الدين الإسـلامي في مبادئه الإنسانية السلمـية العليا، وفي قواعـده الحكيمـة الرفيـعة العامـة، وفي أهدافه الإصـلاحية الـتنظيمـية الاجتماعية الكبرى - لا يقتصر على أن يكون عقيدة فردية خاصة، بل هو أيضاً عمل وأمل، وهمـة وانتظام، وحسن تدبير للحياة الـمشتركة بيـن من يعـيشـون تحـت سمـاء واحـدة تظلهـم، وفوق أرض واحـدة

تقلهم، ورسالة اجتماعية عامة إلى البشر قاطبة، جاءت تحمل الاحترام للإنسان مطلقاً، والرحمة العامة بين الناس مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم، ليعيشوا بعيدين عن العصبيات الذميمة التي تقطع عليهم طريق التعاون في العمل النافع المفيد للمجموع، تلك العصبيات التي أينما وجدت اليوم فإنما هي أثر سيء، وطابع كريه من طوابع الاستعمار الذي يئس اليوم من أن يبرر مقاصده الغاشمة فلم ير وسيلة أكبر مفعولاً في إخفاء تلك المقاصد، وسترها عن أنظار الضعفاء المبيتة لهم سوى إيجاد النعرات المذهبية، والعصبيات الذميمة الطائفية، ليلهيهم عن شئونهم وشجونهم، متباكياً بدموع الكذب على من يسميهم بالأقليات، زاعماً حمايتها لتثبيت أقدامه فوق مخانق الجميع على نحو الأسلوب الشيطاني الذي قال[١] فيه نبينا عليه الصلاة والسلام: «أما بعد أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

وإذا كان ذلك الاستعمار قد حاول أن يمس بهذه الفكرة الخبيثة وطنية رجال السياسة في شيءٍ ما - فقد استهدف أيضاً أن يجني على الدين الإسلامي في المراكز الإسلامية جناية كبرى في وصمه، وتشويه سماحته ورحابته، في مبادئه الحيوية الإنسانية العامة البريئة من كريه العصبيات، وفكرة العدوان، ذلك لأن الدين الإسلامي - وهذه مبادئه - لا يأتلف مع الاستعمار في مكان أو زمان، وهو أكبر ضمانة للعمل

(١) أخرجه المحب الطبري عن ابن إسحاق.

الدائب على طرده، وحفظ وحدة الصفوف في الحياة المشتركة بين أبناء البلاد، فقد قال[1] الله تعالى في القرآن العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[2].

لذلك وجب على علماء الإسلام أن يبادروا إلى وظيفتهم في مضاعفة الجهود، لعرض حقائق الإسلام، وصحائفه الناصعة التي تتكفل بخدمتين عظيمتين هما: حسم دسائس الاستعمار، وتمتين الإسلام في نفوس أبنائه، ذلك التمتين الذي من نتائجه تحقيق اتحاد صحيح بين أبناء البلاد الواحدة، مبني على أساس العقيدة النبيلة، لا على أساس المجاملات الكاذبة، الأمر الذي لا يحمّل سوى العلماء اختصاص العمل في مضماره.

- ٣ -

غاية المؤتمر العملية

لما كان تعاقب الحوادث قد أفقد المسلمين كثيراً من مقوماتهم الدينية، والأخلاقية والاجتماعية حتى أصبح منظوراً في حياتهم من هذه النواحي نواقص كثيرة، يجب تلافيها في ظواهرها وخوافيها.

وكان التطور الزمني يقضي بأن يكون ذلك التلافي منظماً وعاماً في جميع المراكز الإسلامية، وقائماً على أيد دائبة دائمة في جبهة

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده والبزار عن أنس.

موحـدة مشتركـة من العلمـاء - قد عزم العـلماء (بعد أن تـراسلوا من مختلف البلاد الشامية) للنظر في سائر الشئون المتقدمة الذكر، واتخاذ الذرائع المنتجـة لتحقيق ما يجب فيهـا، وتنظيم الجبهة العلميـة تنظيماً يضـمن النهضـة والاضطلاع بأعـباء هذا الأمـر الجلل. وتنـفيذاً لـهذه العزيمـة قامت (جمعيـة العلماء بدمشق) بـتوجيه الدعوة إلـى عقد هذا المؤتمـر الميمون فلباهـا من القدس ونابلس والنجف وبيـروت وصيدا وطرطوس واللاذقـية وحمص وحمـاة وحلب وأنطاكيـة وإدلب والباب ومنبج ووادي العـجم والقنيطرة ودير عطيـة والنبك جمهـور عظيم من أكابر العلماء فيهم الشيخ المسن الـذي لم تثن عزيمته مشقات السفر، والشاب الذي لم يؤثر هواه على واجبه، فانضـموا جميعاً إلى إخوانهم العلماء في دمشق، فبلغوا مائة وخمسة أعضاء، عقدوا مؤتمرهم ثلاثة أيام بليـاليها وصـالاً، ووضعوا مقـررات لها من الشأن والـخطورة في ذلك ما لها.

- ٤ -

خلاصة مقررات المؤتمر

أما المـقررات التي وضـعها مؤتـمر العلمـاء في مختلـف الفروع، تحقيقاً لغايته السامية - فإنه سـينشر نصوصها كاملة في رسالة خاصة، وإن المؤتمر في مـقرراته هذه التي لم تتناول في الحقـيقة إلا جزءاً من مدى غـايته - قـد راعى الاقتـصار على مـا يسعف الـوقت في تنفـيذه ويمكّن من تطبيقه، وهذه هي خلاصة تلك المقررات:

١- مطالبة الحكومـة الكريمة بإنشاء مدارس شرعية منـظمة ابتدائية

وثانوية في المدن، والعناية بتنظيم المدارس الموجودة حالياً، وتأسيس معهد عال شرعي ضمن الجامعة السورية ذي ثلاث سنوات لتخريج القضاة الشرعيين والمفتين سداداً للحاجة الملحة اليوم، وإحياءً للتراث التشريعي الإسلامي الجليل، ذي الشأنين العلمي والعقلي في تاريخ التشريع الإسلامي خاصة والعالمي عامة، والإسراع بإرسال بعثات شرعية لهذه الغاية إلى مصر للتخصص.

٢- مطالبة الحكومة بإصلاح المحاكم الشرعية، والعناية بها عناية تامة، وملء شواغر القضاء الشرعي بقضاة شرعيين، وإلغاء القرار الحكومي السابق الذي يقضي بانتداب الحكام المدنيين مكان القضاة الشرعيين، مع احترام المؤتمر لجميع الحكام المدنيين، وذلك لضمان تطبيق الأحكام الشرعية بمقتضى الاختصاص.

٣- المطالبة بملء الشواغر من الوظائف الشرعية كالإفتاء والتدريس العام سداً للحاجة القائمة.

٤- المطالبة بإعادة الأوقاف المستولى عليها من قبل بعض الدوائر الحكومية، وبدفع جميع عائدات الأوقاف العشرية التي تدخل على الخزينة - إلى دوائر الأوقاف.

٥- تأييد ما قرره مؤتمر الدفاع عن الأوقاف المنعقد بحلب سنة ١٣٥٣هـ و١٩٣٤م من وجوب إدارة الأوقاف الإسلامية إدارة أهلية طائفية انتخابية، والمطالبة بالإسراع في وضع النظام الطائفي الانتخابي لإدارة الأوقاف - على أن يكون مضموناً فيه وجود أكثرية من علماء الدين في مجالس الأوقاف المحلية والعليا.

٦- الاحتجاج على غصب الخط الحجازي واستثماره لمصلحة شركة خطوط دمشق - حماة وتمديداتها (D. H. P) لما في ذلك من عدوان على المؤسسات الوقفية المقدسة، ومخالفة للعهود الدولية، ولحقوق المسلمين الدينية، مع المطالبة بإعادة هذا الخط إلى الأوقاف الإسلامية.

٧- تأييد رسالة (جمعية العلماء بدمشق) التي أصدرتها بشأن عدم جواز حل الأوقاف الذرية وإلغائها، وجمعت فيها فتاوى علماء الأمة ومفتيها من مختلف البلدان، بالنظر لصراحة الأدلة والأحكام الشرعية فيها، ولأن إلغاءها - علاوة على ذلك - سيكون مبعث أضرار عامة سياسية واقتصادية، ولاسيما في هذا الوقت الذي عرف مما ظهر في فلسطين الشقيقة شأن عظيم لملكية العقار في مستقبل البلاد وأهلها.

٨- المطالبة بزيادة الدروس الدينية في مدارس المعارف، من ابتدائية وثانوية، وخاصة منها دور المعلمين والمعلمات، وجعل الدروس الدينية في جميع تلك المدارس تابعة للامتحان، ومداراً للنجاح والرسوب، كسائر الدروس أسوة بمصر. والمطالبة بتعيين ذوي الاختصاص الشرعي لتعليم هذه الدروس الدينية، ولفت نظر الحكومة لإصدار أمر لأساتذة المعارف وتلامذتها بالمحافظة على القيام بالشعائر الدينية ضمن المدارس.

٩- المطالبة بصيانة الآداب والأخلاق العامة وذلك:

(أ) بمراقبة الأشرطة السينمائية مراقبة أخلاقية علاوة على المراقبة السياسية المقتصر عليها الآن.

(ب) بمنع كل ما يخل بالآداب العامة المصونة بالشرائع والقوانين.

(ج) بمراقبة لغة الشوارع، وفرض عقاب على من يتلفظ بالألفاظ المستهجنة المخجلة، التي تصدر من بعض الجهلة على مسمع من الأحداث والنساء، لما في ذلك من الإساءة إلى سمعة آداب البلاد.

١٠- الاحتجاج الشديد على ما يجري في فلسطين الشقيقة المعذبة لإجلاء أهلها عنها، وتقسيمها بين الدخلاء، من أعمال السلطة الإنكليزية من قتل وتعذيب ونسف للمنازل والقرى ولمدينة جنين، والاعتداء على كرامة رجال الدينين الإسلامي والمسيحي، ومعاملتهم كالجناة المجرمين، وانتهاك حرمات المعابد، وتعطيل المجلس الإسلامي الأعلى، والاستيلاء على الأوقاف الإسلامية مع تأييد قرار جماعة كبار علماء الأزهر الشريف برفض مشروع التقسيم، وتأييد فتوى علماء العراق الأجلّة من أهل السنة والشيعة باعتبار جهاد فلسطين جهاداً مشروعاً، وتأييد أعمال (اللجنة المركزية بدمشق للدفاع عن فلسطين) في يوم ٢٧ رجب يوم فلسطين لجمع الإعانات لمنكوبي أهلها، وأن المؤتمر يرسل تحية خالصة مملوءة بالإكبار والإعجاب لزعماء فلسطين وشعبها الباسل في جهادهم الشريف العظيم.

١١- الاحتجاج الشديد على ما آل إليه الوضع الحاضر في لواء اسكندرون، الذي شتت فيه شمل المتمسكين بدينهم من العرب وغيرهم، وقضي به على الحريات الدينية والقومية، وانتهكت حرمات رجالها، وغير ذلك مما هو جار تحت سمع رجال السلطة وبصرهم.

١٢- المطالبة بضمان مستقبل طلاب العلوم الشرعية بحصر وظائف دوائر الأوقاف، ودواوين المحاكم الشرعية بهم، وإشراكهم في تدريس العلوم العربية في مدارس الحكومة.

١٣- تأييد اقتراح الأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم الزنجاني من علماء إخواننا الشيعة في النجف في وجوب جمع كلمة المسلمين من مختلف المذاهب الإسلامية، الذين تجمعهم عقيدة التوحيد، ومقاصد الإسلام، لمكافحة الإلحاد، ولتنظيم العمل الاجتماعي، والشؤون الإسلامية التي تهم الجميع، وشكر الأستاذ الزنجاني على هذه الفكرة، وتكليف اللجنة التنفيذية للمؤتمر بالسعي لتهيئة الدعوة إلى مؤتمر عالمي لعلماء المسلمين لتحقيق هذه الفكرة السامية وفقاً لاقتراحه الطيب.

١٤- المطالبة بزيادة الاعتناء باللغة العربية:

أولاً: في المدارس بشكل يحفظ جوهر اللغة، ويفقّه في أساليبها وآدابها، مع لفت نظر الحكومة إلى الخطأ الكبير في إرسال بعثات معلمي اللغة العربية وآدابها إلى أوروبا للتخصص في ذلك، والمطالبة بإرسال تلك البعثات إلى مصر منبع اللغة وآدابها عوضاً عن أوروبا.

ثانياً: في دواوين الحكومة ودوائرها في لغة المعاملات الرسمية التي يجب أن تكون سليمة من الأخطاء العربية لأن لغة الدوائر تمثل قومية الحكومة الكريمة وعروبتها.

١٥- اعتبار جمعية العلماء بدمشق لجنة تنفيذية مركزية للمؤتمر، على أن يدخلوا معهم من شاءوا من أعضاء المؤتمر من دمشق.

١٦- تأليف جمعيات للعلماء في المدن خلال ثلاثة أشهر من انفضاض المؤتمر، واعتبار تلك الجمعيات لجاناً تنفيذية فرعية للجنة التنفيذية المركزية، على أن يعتبر الآن أعضاء المؤتمر من كل بلدة لجنة تنفيذية فرعية مؤقتة إلى أن يتم تأليف الجمعيات المذكورة.

١٧- تكرير عقد المؤتمر عندما تدعو الضرورة إليه، وذلك بدعوة من اللجنة التنفيذية المركزية.

١٨- تكليف اللجنة التنفيذية بتنظيم مالية دائمة للمؤتمر، وطبع مقرراته.

١٩- المباشرة بتنظيم مشروع القرش ليصرف في سبيل تأسيس مدارس علمية، ومياتم ومستشفيات، ويكون أساساً لأموال المؤتمر.

٢٠- إصدار صحيفة لجمعيات العلماء.

٢١- تكليف جمعيات العلماء في المدن بالعمل للإصلاح بين الناس، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونشر الآداب الإسلامية، وحمايتها في المدن والقرى.

٢٢- تكليف اللجنة التنفيذية المركزية بوضع نظام للعلماء بعد أخذ اقتراح جمعيات العلماء في البلاد يشتمل على الأسس الآتية:

أ- تعيين الصفات العلمية التي بموجبها يعرف العلماء.

ب- تبيين الواجبات الأدبية والعلمية المطلوبة من العلماء في أعمالهم ومظاهرهم.

ج- تعيين شعار خاص بالعلماء ليتميزوا عن غيرهم من الدخلاء،

وأخذ امتياز رسمي به ليكون ممنوعاً عن سواهم.

د- تعيين لجنة علمية لتطبيق النظام ولترتيب المسؤوليات المتحتمة على العلماء عند خروج أحدهم على النظام.

٢٣- تكليف جمعيات العلماء في كل مدينة لتسجيل أسماء العلماء فيها ليكون أساساً للاعتبار عند الاقتضاء.

٢٤- إذاعة بيان عن أعمال المؤتمر وفي مقدمته إعلان المبادئ الإسلامية في المساواة بين المسلمين وبقية المواطنين، وشجب الدعايات الاستعمارية لسمعة الإسلام عن طريق إثارة فكرة الأقليات، ووصم المسلمين بالتعصب الذميم.

٢٥- العمل على توثيق الصلات بين علماء الأقطار، وسائر الجمعيات الإسلامية، وبين منظمات الشباب المتعلم، لتسهيل القيام بالواجب الملقى على عواتق الجميع.

٢٦- توجيه شكر للحكومة السورية الكريمة على شمولها المؤتمر بالعناية والرعاية والاعتبار الجليل.

٢٧- شكر الصحافة السورية التي اهتمت بشأن المؤتمر ونشر أخباره ومباحثه.

- ٥ -

آمال المؤتمر من الحكومة والصحافة والشعب

هذه هي مقررات مؤتمر العلماء الأول التي بلغت سبعة وعشرين قراراً تناول كل واحد منها ناحية هامة مادية أو معنوية في الحياة

العلمية، والنظم الاجتماعية، والآداب العامة، والتأسيسات العلمية، يعاهد المؤتمر الله جل شأنه على احترامها، والسعي لتحقيقها بالحكمة واليقظة، وهو يضعها أمانة بين يدي الحكومة الجليلة، والصحافة النبيلة، والشعب الكريم، آملاً أن يكون لها من هذه القوى الثلاث في الأمة احترام وتقدير، وحرص على تحقيقها.

- ٦ -

كلمة إلى رجال السياسة المحترمين

هذا وإن المؤتمر يجد من الواجب عليه أن يلفت أنظار رجال السياسة في البلاد المسئولين عنها إلى ضرورة الاهتمام بالتهذيب الديني، وأثره في النفوس، ذلك الأثر الذي لا يقوم مقامه سواه في تكوين صلاح الشعب، وإعداده للحرية والاستقلال، وأن لا تكون دعايات الاستعمار الكاذبة في تشويه سمعة الإسلام، وتصويره بصورة الخطر على العناصر المواطنة الدينية الأخرى ذريعة تحمل على اجتناب الجهر بالمحافظة على الأوضاع الدينية، بداعي إيجاس الخيفة من دسائس الاستعمار، فإن ذلك الاستعمار ورجاله الماهرين فيه لا يعدمون وسائل أخرى غير الدين يتخذونها مبرراً للتدخل، وتحقيق مطامعهم، فليكن أقوى سلاح لمحاربة الاستعمار في المراكز الإسلامية هو مجابهة الاستعمار بفضح دسائسه على الدين الإسلامي، وبكشف حقائق الإسلام الاجتماعية، التي هي خير ضامن للوحدة الوطنية بين أبناء البلاد، ولتكن الذريعة الحكيمة لصد هجمات الاستعمار هي تقوية العقيدة الإسلامية ومبادئها ونتائجها في النفوس، فإن الإسلام كما رأينا لا يأتلف مع هذا الاستعمار الهدّام في زمان ولا

مكان، ويأتلف في الحياة المستقلة مع جميع العناصر، ويحترم حرية الأديان، وحقوق أصحابها أكثر مما يدعيه المستعمرون لأنفسهم من حماية حقوق الأقليات المستعمرة، فإن الإسلام يقول لمن يعيشون إلى جانب أبنائه من المواطنين: لهم ما لنا وعليهم ما علينا كما قررته القواعد الإسلامية، بينما لم نر إلى اليوم دولة من دول الاستعمار جعلت لمن تدّعي حمايتهم: لهم ما لها وعليهم ما عليها.

- ٧ -

كلمة إلى العلماء في أقطار العالم الإسلامي

لئن كان هذا المؤتمر الأول للعلماء اليوم إقليمياً بالنسبة إلى المشتركين فيه من علماء بلاد الشام وما جاورها، فإنه في فكرته وأهدافه عالمي شامل، فإلى علماء المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية يتوجه هذا المؤتمر الأول بندائه، مستفزاً شعورهم، ومستثيراً خوالج نفوسهم المتأججة بغيرتها، داعياً إياهم أن يعدوا العدة ويتأهبوا لعقد مؤتمرهم العام العالمي الذي يكون صخرة مقدسة في بناء حصن الإسلام، وأن يكون أول معداتهم منذ الآن تواصلهم وتعاهدهم، وعقد المؤتمرات المحلية في مواطنهم، لتكوين نواة قوية المنبت لذلك التنادي العام الأكبر في سبيل صد طغيان المادية الجشعة، وتحقيق المبادئ الإسلامية في خدمة الإنسانية.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اللجنة التنفيذية المركزية بدمشق

أعضاء مؤتمر العلماء الأول المنعقد في دمشق
في ١١ - ١٣ رجب سنة ١٣٥٧ و ٦ - ٨ أيلول سنة ١٩٣٨
مرتبة أسماؤهم على حروف الهجاء

أصحاب الفضيلة:

الشيخ إبراهيم الغلاييني - وادي العجم

الشيخ أبو الخير الميداني - دمشق

الشيخ أبو السعود عبد السلام - حمص

الشيخ أبو الهدى القواس - صيدا

الشيخ أحمد الدقر - دمشق

الشيخ أحمد السبع - حماة

الشيخ أحمد عبد الدائم - حلب

الشيخ أحمد العجوز - بيروت.

الشيخ أحمد عمر المحمصاني - بيروت

الشيخ أحمد القصاب - دمشق

الشيخ أمين الكيلاني - حماة

الشيخ بدوي السباعي - حمص

الشيخ توفيق الأتاسي - حمص

الشيخ توفيق الصباغ - حماة

الشيخ جميل الشطي - دمشق

الشيخ حامد هلال - حلب

الشيخ حسن أبو السعود - القدس

الشيخ حسن الرفاعي - حمص

الشيخ حسن الشطي - دمشق

الشيخ حسن شمس الدين - حمص

الشيخ حسن الميداني - دمشق

الشيخ خير الدين السيد - طرطوس

الشيخ راغب الطباخ - حلب

الشيخ رضا الجمالي - حمص

الشيخ سعدي ياسين - بيروت

الشيخ سعيد الجابي - حماة

الشيخ سعيد الحمزاوي - دمشق

الشيخ سعيد مسعود - الباب

الشيخ سعيد المش - دير عطية

الشيخ سعيد النعساني - حماة

الشيخ سليم الطيبي - دمشق

الشيخ صالح الحمصي - دمشق

الشيخ صالح فرفور - دمشق

الشيخ صلاح الدين الأزهري - اللاذقية

الشيخ صلاح الدين السباعي - حمص

الشيخ طاهر الأتاسي (رئيس المؤتمر) حمص
الشيخ طاهر الرئيس - حمص
الشيخ طيب الأتاسي - حمص
الشيخ عارف الدوجي - دمشق
الشيخ عارف صدقي الطرقجي - حلب
الشيخ عاطف الأتاسي - حمص
الشيخ عبد الجليل مراد - حمص
الشيخ عبد الحميد الطباع - دمشق
الشيخ عبد الرؤوف الأسطواني - دمشق
الشيخ عبد الرحمن سلام (نائب الرئيس) بيروت
الشيخ عبد الرحيم الخطيب - دمشق
الشيخ عبد العزيز عيون السود - حمص
الشيخ عبد الفتاح المسدي - حمص
الشيخ عبد القادر الإسكندراني - دمشق
الشيخ عبد القادر الخجا - حمص
الشيخ عبد القادر السرميني - حلب
الشيخ عبد القادر شموط - دمشق
الشيخ عبد القادر المبارك - دمشق
الشيخ عبد الله إسحق - القنيطرة
الشيخ عبد الله الزهري - حمص
الشيخ عبد الكريم الزنجاني - النجف
الشيخ عبد اللطيف رشيد - نابلس

الشيخ عمر أبو الورد - حلب
الشيخ عمر صدقي الأميري - حلب
الشيخ علي الدقر - دمشق
الشيخ عيد الحلبي - دمشق
الشيخ كامل القصاب - دمشق
الشيخ مؤيد شمسي باشا - حمص
الشيخ محمد أحمد دهمان - دمشق
الشيخ محمد أسعد العبجي - حلب
الشيخ محمد البارودي- حماة
الشيخ محمد بلنكو - حلب
الشيخ محمد بهجة البيطار - دمشق
الشيخ محمد حافظ الشريف - إدلب
الشيخ محمد الحامد - حماة
الشيخ محمد الحكيم - حلب
الشيخ محمد الداعوق - بيروت
الشيخ محمد زين العابدين - أنطاكية
الشيخ محمد سليم الحلواني - دمشق
الشيخ محمد سيادي المراد - حماة
الشيخ محمد شريف العطار - حماة
الشيخ محمد علي ظبيان - دمشق
الشيخ محمد علي عيون السود- حمص
الشيخ محمد عيسى الكردي - دمشق

الشيخ محمد الغزال - بيروت
الشيخ محمد الفيومي - بيروت
الشيخ محمد الكامل القصار - دمشق
الشيخ محمد كلزية حلب
الشيخ محمد محاسن الأزهري- اللاذقية
الشيخ محمد الناشد - حلب
الشيخ محمد نافع الشامية - إدلب
الشيخ محمد نجيب الآلا - حلب
الشيخ محمد نديم الرفاعي - حمص
الشيخ محمد نور العثمان - حمص
الشيخ محمود الشقفة - حماة
الشيخ محمود العثمان - حماة
الشيخ محمود العطار - دمشق
الشيخ محمود ياسين - دمشق
الشيخ مختار العلايلي - بيروت
الشيخ مصطفى أبو زلام - منبج
الشيخ مصطفى حسني السباعي- حمص
الشيخ مصطفى الزرقاء - حلب
الشيخ معروف الدواليبي - حلب
الشيخ مكي الكتاني - دمشق
الشيخ موسى الطويل - دمشق
الشيخ ناصر الكتاني - دمشق
الشيخ نايف بن عرفات - أنطاكية
الشيخ هاشم الخطيب - دمشق
الشيخ ياسين القطب - دمشق
الشيخ يوسف حيدر - النبك

❋ ❋ ❋

الملحق رقم (٣)

مصطفى السباعي
المحدث المكافح البطل

الدكتور محمد رجب البيومي(#)

- ١ -

حين بدأتْ مقالاتي عن أعلام النهضة الإسلامية تظهر في المجلات الدينية والأدبية، طلب مني نفر من أفاضل القراء أن أتحدّث عن الدكتور المجاهد الفقيه مصطفى حسني السباعي، وأنا على صلةٍ قوية بمؤلفاته القيّمة، وأقدر جهاده المتّصل في سبيل الله والإسلام حتى لقي ربه الكريم، ولكنّ ظروف حياته العملية والعلمية لم تكنْ من الوضوح لديَّ بحيث أتحدّث عنه في ثقة، وقد أخبرني بعضُ الزملاء أن مجلّة حضارة الإسلام بدمشق قد أصدرت عدداً حافلاً بتاريخه وجهاده، قام الأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح على نشره محتفلاً محتشداً، فبذل جهداً كبيراً، فحاولت العثور عليه دُون جدوى.

(#) عن كتاب النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ج٣، دار القلم - دمشق، ط ١٤٢٠ هـ.

وتوالى الطلب المُلحّ بكتابة الترجمة فأنقذني الله بكتاب (علماء ومفكّرون عرفتهم) للأستاذ الأديب الشاعر المعروف محمد المجذوب، وبه ترجمةٌ للدكتور السباعي ترسمُ خطوط نشأته، ففرحت بما كتب الأستاذ المجذوب، واتخذت منه تكأة لهذا البحث المتواضع حيث أمدني بموجز دقيق عن حياة الفقيد العزيز.

لقد وُلد مصطفى في بيت علم وفضل بحمص سنة ١٣٣٣هـ، وكان أبوه خطيب الجامع الكبير، وله مجالس علمية يعقدها بالمسجد وبمنزله، وله تلاميذ من الشبيبة المثقفة يأخذون العلم الديني على يده، وليس أبوه وحده رجل العلم من أسرته، بلْ إن أعمامه وأخواله من ذوي الفضل والفضيلة، وقد تفتحت عينا الابن الناشئ ليرى مكانة والده في العلم، وليسمع عنه أنّه من مجاهدي الميدان في حربِ الفرنسيين حين ناوؤوا البلاد وداهمُوها بغطرستهم المنكرة! وقد أوقعوا الرعب في قلوب الأعداء، وهم قلّة أمام كثرة مسلحة بالقذائف والدبابات.

ويا لها بطولة فذة يسمعُ عنها الناشئ معجباً، فيطمح إلى مساماة والده علماً وجهاداً، ولقد حفظ القرآن قبل أن يلتحق بمدارس الدّولة المدنيّة، فاكتسب وقاية واقية من الانحراف، وجرى البيان على لسانه غُلاماً فصعد إلى المنبر يخطب الناس كما يخطب أبوه، وكان يستعد للموقف أطيب استعداد، فبشّرت مباديه بما سيكون في مستقبله، وقرّ الوالد عيناً حين رأى امتداده العلميّ يتصل بنجله الطامح.

وواصل الدراسة بالمدرسة مع دراسة أخرى تُهيئها مكتبةُ أبيه،

فشب كما شب أديب الشام الكبير الأستاذ علي الطنطاوي مُزوّداً بثقافتين، ومحارباً في جهتين، ودعاه الظمأ العلمي إلى الالتحاق بكلية الشريعة بالأزهر الشريف، وقد التحق بالكلية عالماً بذخيرته التي اكتسبها من مكتبة أبيه، قبل أن يكون طالباً يقرأ الدروس مع زملاء قد سبقهم تحصيلاً واستيعاباً، ولا أقولُ ذلك رجماً بالغيب، ولكن آثار الشباب في هذ الفترة تؤكد ما أقول، لقد كان طالب الأزهر يكتب المقالات الحارّة ذات الوهج المشتعل في مجلّة (الفتح)[1] التي يقوم على تحريرها الأستاذ المجاهد محب الدين الخطيب.

ولصاحب الفتح فراسة في الناس كباراً وصغاراً، وقد كون حوله طائفة من الشباب المتحمس لدينه ليكونوا كتيبة مجاهدة في ميدان الدعوة الإسلامية، إذ لم تكن (الفتح) مجلة علمية تظهر حافلة بدروس التفسير والحديث، وتراجم مشاهير الصحابة، كما نرى في مجلات كثيرة، لا تكاد تفرق بين موضوعاتها، وموضوعات كتاب علمي يؤلفه باحث مطلع، ويدعه للمشترى إن شاء قرأه وإن شاء طواه، بل كانت مجلة (الفتح) كلية توجيهية ينتسب إليها ذوو الغيرة من حماة الإسلام، وعميدها الكبير أستاذ يوجه ويلهم، لا إداري ينظر في مرافق الكسب والذيوع.

كانت مجلة الفتح لسان العالم الإسلامي في شتى ربوعه، تكشف مساوئ الاستعمارَيْن الفرنسي والإنجليزي في بلاد الإسلام، وكتابها

(١) وقامت دار الورّاق في بيروت بتجميع كافة المقالات التي نشرت في مجلة الفتح القاهرية وطبعتها في كتاب بعنوان: "آلام وآمال".

يسيرون خلف مديرها يحاكونه فيما يكتب، قد دفعهم إلى الإلمام بالمحيط الإسلامي العام في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا ومصر والشام والعراق والهند وأندونيسيا، حتى لكأن هذه البلاد دولة واحدة لا عدة دول تتفرق وتتباعد في أرض الله ذات الطول والعرض!

لقد فسحت مجلة الفتح صفحاتها لمصطفى السباعي، فكتب المقالات الضافية عن فلسطين، وعن مآسي الاستعمار في سورية ولبنان والعراق، ومن هنا تيقظت روحه الإسلامية لتنطلق في مداها الفسيح.

هذه الغيرة السياسية جاورتها لدى طالب كلية الشريعة غيرةٌ علمية شديدة الحماسة أيضاً، فقد كان يرقب المؤلفات الدينية لينقدها إذا انحرفت عن الصواب، وقد بدا من تعمقه الدقيق فيما يناقش من مسائل الحديث والتشريع ما كان موضع الابتهاج والفرحة حقاً. وأضربُ المثل بنقداته العلمية على صفحات الرسالة للباحث الكبير الأستاذ أحمد أمين، حيث قرأ الطالب المجتهد ما كتبه الباحث الذائع الصيت في ضحى الإسلام وفي فجر الإسلام، ورأى من الأقوال المندفعة ما يدعو إلى التصويب، والدكتور أحمد أمين باحث نزيه الغرض، وكنت مع الذين يحاولون أن يلجوا الضمائر ليقولوا عن ميوله ما هو بريء منه، إن كل مؤلف كبيراً كان أو صغيراً معرض للخطأ، وطريق التصحيح هو النقد الهادف النزيه، وهو ما انتحاه طالب كلية الشريعة مع عميد كلية الآداب حينئذ على صفحات الرسالة، وأظن القارىء قد تشوّق إلى استجلاء بعض ما قام به

مصطفى السباعي في مناقشة الأستاذ أحمد أمين.

١ - لقد تحدّث صاحب فجر الإسلام عن الوضّاعين في الحديث فقال: «وبعضُهم كان سليم النية يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح، وهو في ذاته صادق، فيحدث بكل ما سمع فيأخذه الناس عنه مخدوعين بصدقه، كالذي قيل في عبد الله بن المبارك، إنه ثقةٌ صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر».

وقد رد السباعي فبين خطأين في هذه العبارة، الخطأ الأول، أن الوضاع في الحديث من ينسب إلى رسول الله ﷺ قولاً لم يقله، أما سليم النية فليس من الوُضّاع حتى يتحدث عنه المؤلف بهذه الصفة، والخطأ الثاني أنه جعل ابن المبارك من المحدثين ذوي الغفلة الذين لا يفرقون بين الغث والسمين، وابن المبارك ليس كذلك، فهو من الأوائل الذين عنوا بنقد الرجال، ولم يروِ إلا عن الثقات من الشيوخ، وفي كتب الحديث التي سردها الأستاذ السباعي ما ينطق بذلك!

أمّا كيف وقع الأستاذ أحمد أمين في هذا الخطأ فقد أوضح الناقد أنه - أي الأستاذ أحمد أمين- قرأ في صحيح مسلم هذا النّص: (حدثني قهزار قال: سمعتُ وهباً يقول عن سفيان عن ابن المبارك قال: (بقيّة) صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر). فابن المبارك يتحدث عن محدث اسمه بقية بن الوليد الحمصي، ولكن الأستاذ أحمد قد نسي كلمة (بقيّة) وظن الحكم راجعاً إلى ابن المبارك، فأسند إليه ما هو بريء منه لأن ابن المبارك من أئمة

المحدثين الثقات[1].

٢ - جاء في فجر الإسلام ص ٢٦٧، أن البُخاري على جليل قدره، ودقيق بحثه، أثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية على أنها غير صحيحة، واستشهد لذلك بحديث: «لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة سنة نفس منفوسة».

وقد أورد الأستاذ السباعي النصّ الذي رجع إليه أحمد أمين وهو هذا، صلى النبي ﷺ صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلم، قال: «أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مئة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» كما رواه مسلم، ولكن البخاري قد اختصر، فأسقط كلمة (اليوم) يريد الرسول أن يقول: إذا مرت مئة عام فلن يبقى أحد ممن على ظهر الأرض الآن! وهو كلام صحيح، وقد قال الإمام النووي بصدده: "إن هذا الحديث من أعلام النبوة إذ أخبر فيه الرسول بأن كل نفس كانت تلك الليلة على الأرض لا تعيش بعدها أكثر من مئة سنة وكان الأمر كذلك). ثم نقل الناقد روايات أخرى تؤكد رواية مسلم، ودلل فأحسن التدليل في بسط شاف مستوعب[2].

٣ - قال الأستاذ أحمد أمين في فجر السلام عن أبي هريرة رضي الله عنه: (والحنفيّة يتركون حديثه أحياناً إذا عارض القياس كما فعلوا في حديث المصرّاة).

---

(١) مجلة الرسالة: العدد: ٣٦٧، ١٥/٧/١٩٤٠.

(٢) مجلة الرسالة: العدد ٣٦٨، ١٢/٨/١٩٤٠.

وقد ردَّ الأستاذ السباعي بأن القول بأن الحنفية جميعهم يقدّمون القياس على حديث أبي هريرة إذا عارضه لا يخلو من نظر، لأن أبا حنيفة وصاحبيه وجمهورَ الحنفية على أنّ الخبر مقدمٌ على القياس مطلقاً، سواء كان الراوي فقيهاً أو غير فقيه، ولكنَّ من ذهب إلى ذلك فخرُ الإسلام وبعض تابعيه، ومن هذا يتبين أن جمهور الحنفية على غير هذا الرأي.

وكعادته وضَّحَ الناقدُ مأتى الخطأ في قول الأستاذ أحمد أمين، حيث اعتمد على كتاب (مسلّم الثبوت وشرحه) وفهم منه ما يدل على أن القول راجعٌ إلى الحنفية مع أنّ النص يوحي بأنه راجع إلى فخر الإسلام(١)، وقد حاولت أن ألخص هذه النقاط، لأن الإتيان بكل ما قال الطالب المجتهد سيخرج بالبحث عن نطاقه، وهذا الاهتمام بالحديث في دور النشأة كان إرهاصاً قوياً يدل على ما سيتجه إليه الدكتور السباعي من التبحّر في علوم السنة فيما بعد، حيث ستكون مجال تخصصه العلمي، وقد كتب رسالة الدكتوراه عن السنة النبوية وتدوينها، فبلغ في هذا المجال مبلغاً كان السباق المجلي فيه، حيث تبعه كثير من الباحثين حين لمسوا سلامة المنهج، وقوة الاستنتاج، ووضوح الدليل، وهذا نجاح لا يتحقق إلا بتوفيق كبير من الله، فهو الملهم إلى الصراط القويم.

ولكي يطرد الكلام في مجراه المتصل دون انفصال، فسأعجّل الحديث عن (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وهي التي نال بها

---

(١) مجلة الرسالة: العدد: ٣٧١، ١٢/٨/١٩٤٠ .

درجة الدكتوراه، والتأليف في السنة قديماً وحديثاً لا يقف عند حد، ولكن الدكتور السباعي لم يأت بالمكرر المعاد، وإنما وقف عند قضايا غامضة ليجلوها أصقل الجلاء، هذه الوقفات هي التي تضيف الجديد للبحث العلمي حيث تفصل مجملاً، أو تبين غامضاً، أو تنقض باطلاً شائعاً لا يعرف الدارسون مدى بطلانه، وإذا كان المستشرقون قد وجهوا سهامهم إلى السنة، وتبعهم من المسلمين من طمس الله على بصائرهم، فإن رسالة السباعي قد فضحت الذين اتَّبعوا والذين اتُّبعوا معاً، وبينت النوازع الحاقدة التي دفعت المتبوعين إلى الافتراء الصارخ، حين تلمسوا الشبهات تلمساً، وأرجفوا بكبار الصحابة واهمين، كما شرحت دوافع التابعين ممن يروقهم أن يرددوا أسماء أوروبية تباهياً بالمعرفة، وخضوعاً إلى مركب النقص الذي يضائلهم أمام نفوسهم، كما ضاءلهم أمام الحُصفاء من القارئين.

ومن أطرف الأبواب التي قرأتها في الرسالة ما كتبه الدارس تحت عنوان: (هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره الحديث) إذ الشائعُ في كثير من الكتب التراثية أن الفاروق رضي الله عنه قد حبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر حين رووا أحاديث رسول الله! وكنت أقرأ ذلك فأزدادُ حيرة، لأن الثلاثة الكرام من أفاضل الصحابة، ولهم برسول الله وثاقة متينة تدعوهم للرواية عنه، فكيف يفعل الفاروق ذلك، وقد كان أدرى الناس بصحابة رسول الله؟ لقد تتبع السباعي القضية الشائكة تتبعاً ذكياً مستنيراً، وكان مفتاح بابه ما رواه ابن حزم من الشك في الرواية، وأنها منقطعة غير متصلة، ولأنها لا تخلو من

اتهام الصحابة، وهذا غير معقول! وفي حومة الجدل تعرض السباعي إلى ما قيل من أن بعض الصحابة كان يرد رواية الصحابي الواحد، فنفى ذلك بأدلة من النصوص الصريحة لا تقبل الدفع، وأطال في ذلك إطالة حميدة يحسب له ثوابها عند الله، إذ كانت فتحاً جديداً في تاريخ الحديث، وانتهى من ذلك كله إلى قوله: (إن الثابت الصحيح من عمل أبي بكر وعلي أخذهم بخبر الواحد فقط، أما الحالات التي تطلبت الرجوع إلى صحابي آخر أو استحلافه فلا تستلزم أن تكون مذهباً عاماً وخطة مقررة، وعلى ذلك التقى عمر بأبي بكر وعلي، ولن يجحد مكانتهم في الإسلام إلا كفور).

ومن إنصاف السباعي حديثه عن موقف الخوارج من الحديث، حيث أشار بعض المتسرعين إلى أنهم كانوا يضعون الأحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ ترويجاً لمذهبهم، وقد يفعل ذلك غير الخوارج كما ثبت حقاً عند بعض الطوائف، ولكن المؤلف يرى أن الخوارج لم يكونوا يستحلون الكذب على الناس، ويعتدّون الكاذب كافراً، فكيف يكذبون هم أنفسُهم؟ وعلى من؟ على رسول الله! وقد كانوا مع تهورهم القتالي، واندفاعهم السياسي على جانب عظيم من التقوى والورع، وقد انتهى المؤلف في هذه القضية بعد أن أشبعها تحليلاً إلى قوله: (لقد كنت أتمنى أن أعثر على دليل علمي واحد، يؤيد نسبة الوضع إلى الخوارج، ولكني رأيت الأدلة العلمية على العكس تنفي عنهم هذه الشبهة، فقد كان الخوارج يكفّرون مرتكب الكبيرة، أو مرتكب الذنوب مطلقاً، والكذب كبيرة فكيف يقعون فيها مع رسول

الله نفسه! وكانوا في جمهرتهم عرباً أقحاحاً، لا يقبلون الدسائس، صرحاء يواجهون الخصم بما يعتقدون، وكل ذلك يدل على أنهم من الكذب بمكان بعيد).

أما انتقاد المؤلف لأمراء المؤمنين في العصر العباسي الذين استحلوا رواية الأحاديث الموضوعة ترويجاً لسياستهم وتثبيتاً لمكانتهم، فممّا انتقده الدارس انتقاداً حاسماً، وقال في صراحة: (إن هذه المواقف مما يحاسب الله عليها هؤلاء الخلفاء لأنهم اشتدوا في تعقب الزنادقة والخارجين على حكمهم، تعقبوهم قتلاً وتشريداً وإغراقاً وخنقاً، ليحتفظوا بالملك لأنفسهم، ولم يفعلوا عشر ذلك مع الكذابين والوضاعين الذين استحلوا الكذب على رسول الله إرضاء لأهوائهم!).

هذه فقرات تدل على تحقيق السباعي العلمي، وقد بسط جزءاً من رسالته لتفنيد آراء شيخ معاصر، أصدر كتاباً سماه (أضواء على السنة المحمدية) وصاحب هذا الكتاب في رأيي لا يستحق الالتفات إليه فليس بذي أصالة في العلم، ولكنّه يقرأ روايات لا يعرف مبلغها من الكذب أو الصحة، فيفرح بكل رواية تدل على توهين السنة، ويخفي كل أثر يثبت أصالة ما روي عن رسول الله، وقد غشه قوم يدعون التحرر الفكري، وهم لا يعرفون شيئاً عن كتب الحديث ولا عن المحدثين، فتباهى بتشجيعهم، مع أن شهادتهم مرفوضة لجهلهم ما يتحدثون عنه، ومن آيات تدليسه أنه سعى إلى الدكتور طه حسين ليتحدث عن كتابه في مقال يضمن له السيرورة، وليس الدكتور طه

بذي قدم في علم الحديث، ولكنه استجاب وكتب عن مؤلّفه مقالاً بالجمهورية، نصفه ثناء، ونصفه تجريح.

أو يدري القارئ ما صنع المؤلف الغاش بكلام طه حسين؟! لقد جعل من حديث المدح مقدمة للطبعة الثانية من كتابه وأغفل حديث التجريح إغفالاً تاماً! كدأبه حين يظهر أحاديث ضعيفة ويخفي أحاديث قوية! ولو كان الرجل ذا حصافة لعلم أن مقال الدكتور قد نشر في صحيفة يومية سيارة، وأن القراء قد وقفوا على كل شيء فيه! وكان عليه أن ينشره جميعه، ثم يعقب عليه بما يوضح وجهة نظره على الأقل، ولكنه خادع الناس فلم ينخدعوا، أقول: لو كنت مكان الأستاذ السباعي لما بسطت هذه الصفحات الممتدة في الرد على إنسان لا يعرف ماذا يقول، وكأنه رأى بعض الأقلام الشهيرة قد انخدعت به فآثر نقده، ولم ينقد فقط، بل دك الكتاب دكاً حتى سوّاه بالتراب.

وبمناسبة حديث السنة، أقول: إن للدكتور السباعي مؤلفاً موجزاً عن السيرة النبوية الكريمة، وقد قرأت نقداً له، خلاصته أنه ردد الذائع المعروف، ولم يأت بجديد، وأحب أن أقول للناقد الفاضل: إن السباعي رحمه الله لم يرد أن يكتب سيرة رسول الله، ولكنه شاء أن يعرض أحداث السيرة موجزة ليعقب على كل حدث بما يؤخذ منه، وبما يستنبط من مدلوله تشريعاً وتربوياً، فهو كتاب تهذيب وتربية، وليس كتاب سيرة مستقلة! ولن يعجز المؤلف أن يكتب مئات الصفحات عن رسول الله ﷺ، ولكنه رأى أن يتخذ من أشهر مواقفه

الكريمة ما يصلح قدوة للقارئ بوجه عام، وللشاب المتطلع بوجه خاص، وقد وفق فيما اختاره، وأصبح كتابه ثابت المكانة في مجال التربية والتهذيب!.

-٢-

شغلنا حديث السنة النبوية في إنتاج السباعي عن الحديث الشائق عن جهاده العظيم في حقلي التربية والدعوة الإسلامية، ففي حقل التربية بدأ حياته التعليمية مدرساً بإحدى مدارس حمص الثانوية، وللشاب الملتزم رسالة عربية إسلامية لا بد أن يقوم بها بين طلابه، ولكن مجاله محدد بالمنهج الدراسي، المنهج الذي لا يخص الشريعة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي بما ينشئ شباباً عرباً مسلمين، يخطون طريق العزة على الوجه الصحيح، إن هذه المواد الأصيلة تعيش على هامش المناهج، ولا تدخل في صميمها، لأن القائمين على رسم المناهج في بلاد العرب بالأقطار المحتلة، لا تهمهم هذه المواد الأصيلة، ولولا الحياء لانتزعوها انتزاعاً، لذلك عمل المدرس الطامح على إنشاء المعهد العربي بدمشق، ليقدم الغذاء الجيد للطلبة في هذه المرحلة الدقيقة من حياتهم، وبالفعل ساعد المعهد الناشئ ببرامجه التهذيبية، وبروحه الإسلامي الخالص على تكوين أفواج من الشباب شعارهم هذا البيت الحماسي:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

ثم أتاحت للأستاذ درجة الدكتوراه أن ينتقل إلى التدريس بكلية الحقوق، فكان من حظه أن يرى كثيراً من طلاب المعهد العربي قد

التحقوا بالكلية، ومعهم روح المعهـد التي بثّها السباعي فيهم، فنشأت بينهم وبين أستاذهم صلة قوية كانت مضـرب المثل في التفاف الشبيبة الجامعـية حول أستاذهـم الرائد، وتضاعفت الآمـال في صدر الرجل، فعمل جاهـداً على إنشاء كلية الشريعـة بدمشق، لتكون خالصة لـلثقافة الإسلامية، كـما عمل من قبل علـى إنشاء المعهد العـربي الإسلامي، وكانت قاعة البحث بالكلية الناشئة التي صار السباعي عميداً لها محور جذب شـديد للـطلاب، وجذوة مـشتـعلة تـدفعـهم دفعـاً إلى بحـوث الشريعة فـي شتى اتجاهاتها من عـقيدة وعبادات ومعـاملات، وحدود جنائية وأحوال شخصية، وسياسة داخلية ودولية!

هذا في حقـل التربية والتـعليم، أما حقل السـياسة فيـالله ما أروع وما أبدع! لقد قرأ الشاب الأستاذ حيوات الرجال العظام من أمثال عبد الله بن المبارك، وأسـد بن الفرات والعز بن عبد السـلام وابن تيمية، من رجال الـعلم والجهـاد، فآلى أن يقتـدي بهم فقيـهاً مجـاهداً، كان عضواً بمجلس النواب بعد زوال الكابوس الفرنسي، إذ اختاره الشعب المسلم نائباً عن دمشق، فقاوم معارضي الإسلام، وهم طوائف شتى، حتى أخمد روح العلمانية، واستبـعد طابعها المدمّر عن الدستور الذي حاولوا أن ينحرفوا به عن مقدسات العقيدة.

ورأى الصحافة ذات تأثير نفّاذ، فأخـذ يعلن فكرته الإسلامية على صفحاتها، غير مكتفٍ بندواته الكـثيرة خارج الجامعة وداخلها، وأنشأ جريدة (الـمنار) يوميـة لتكون لسان الحـركة الإسلامـية التي يقـوم بها زعيماً للإخوان المسلمين في سورية.

ومثل هذا الداعية الدؤوب لا تُغفله محابس المعتقلات الظالمة منذ دعا إلى الله، فقد زار هذه الدياجير المظلمة مرات عديدة في مناسبات تتوالى وتتتابع، بسبب مقاومته للاحتلال بفروعه الثلاثة: إنجليزياً، وفرنسياً، وصهيونياً، وكان يُعتقل لا لجهاده في موطنه فحسب، بل لنشاطه في مهاجمة أعداء الإسلام بالعراق ومصر وفلسطين!! فلسطين التي جعل يُنشئ عنها مئات المقالات، ويُلقي في إيضاح مأساتها مئات الخطب، ويقود في سبيلها عشرات المظاهرات، حتى رأى من واجبه أن يكون بطلاً من أبطالها في ساحة القتال، وفي أحرّ ميادين القتال بالقدس، فقاد الكتائب من تلاميذه وأصدقائه الزاحفة من سورية إلى القدس، ثم رأى الأمر فوق طاقته حين انسحبت الجيوش العربية من الميدان، فعاد إلى دمشق ليكشف أسرار المؤامرات الخادعة التي أدت إلى هذا الانسحاب.

وقد أوغر صدور الكثيرين ممن نقدهم النقد اللاذع، فهدّدوه وتوعّدوه، ولكن البطل الذي فتح صدره للرصاص بالقدس، لم يعبأ بما سمع من تهديد، بل قال في إحدى خطبه الناريّة: أنا الذي أهدّدكم، لأن معي الحق.

وإذا كانت جريدة المنار اليومية لم تستطع الاستمرار لما لاقت من عقبات وضعها خصومها في طريقها الشاق، فإنّ السباعي قد أصدر مجلة (المسلمون) بعد احتجابها القهري في مصر، كما أصدر مجلة (حضارة الإسلام) لتكمل مسيرتها، والمسلمون وحضارة الإسلام كلتاهما امتداد للخط الإسلامي الذي بدأ به السيد محمد رشيد رضا

بالمنار في مصر، ومحب الدين الخطيب بالفتح، وحسن البنا بالشهاب.

ومؤرخُ الصحافة الإسلامية لابد أن يقف طويلاً عند هذه المجلات الواعية، ليكتب تاريخها على الوجه الصحيح، لأن الذين يتحدثون عن الصحافة اليوم في الرسائل الجامعية، يتجاهلون التيار الإسلامي الذي بعث اليقظة في الشعوب، ومثّلته هذه المجلات وأخوات لها في العالم الإسلامي، يتجاهلونه عن عمد، على حين يخصّون مجلات الراقصات والممثلات والمطربات بفيض من الكتب، باعتبارها مرايا (الفن).

ومن لم يتجاهل هذه المجلات الرائدة ذات الصوت الرنّان من هؤلاء، يصبّ عليها جام غضبه، ويكتب عنها كتابة حاقد متأزّم، ولا يجد حرجاً من وصفها بالرجعية، تلك الكلمة التي كانت من أسلحة الشيوعيين في العالم العربي يردّدونها كل يوم ولا يسأمون، وفي مقابل ذلك يسمّون أنفسهم (بالتقدميين) ثم جاء الطوفان فسقطت التقدمية المزعومة، بعد أن كُتب عنها ما كشف عوارها، وهتك أسرارها، وبرئت الرجعية (وهي السلفية الأصيلة) من تُرّهات المبطلين، وليس هذا استطراداً مني في هذا المجال، ولكنه كشف للحقائق، وتذكير بها لمن ألقى السمع.

إن زملاء السباعي في حومة الجهاد لا يزالون أحياء، وواجبه عليهم يحتم أن يكتبوا صفحات جهاده بالتفصيل، وأن يخرجوا الكتب الخاصة بالفكرة الإسلامية في كل قطر إسلامي، وأنا أعرف أن أنصار

الفكرة الإسلامية في سورية بالذات قد لاقوا عناء فكرياً ضاغطاً حين نادوا بالفكرة الإسلامية، لأن دعاة العروبة - والعروبة وحدها - قد ارتفع صوتهم في سورية على نحو أدى إلى الخذلان، وهم يتجهّمون للإسلام، ويتخذون الدعوة للعروبة ستاراً لمعاداته، مع أن أصحاب الفكرة الإسلامية يرحبون بالعروبة الصحيحة لأنها أسّ الإسلام، وقد نشأ الإسلام عربياً، فمحاولة اصطناع الفرقة بين العروبة والإسلام كيد لئيم.

وفي ميدان الجهاد العالمي قام الدكتور السباعي برحلات إلى أماكن كثيرة في الشرق والغرب، ليُلقي كلمة الإسلام في مؤتمرات عالمية، وكان من الصراحة والوضوح بحيث هابه مخالفوه، ممن يُظهرون التعاون المظهري في كلماتهم المعسولة، ويُخفون ما يمتلئون به من الضغائن، ومما يُذكر له في هذا المجال موقفه عند انعقاد المؤتمر المسيحي الإسلامي في لبنان، إذ كان الغرض من انعقاده محاربة الشيوعية وحدها، كما دبّر الأمريكيون برنامج المؤتمر، وقد حلا لهم أن يقولوا: إن الإسلام والمسيحية صف واحد أمام المد الماركسي، ليكسبوا طوائف من المسلمين، إلى جبهة أمريكا.

وقد رأى الدكتور مصطفى أن يصارح المجتمعين بأن عداء الإسلام للشيوعية لا يجعلنا نسكت على مؤازرة أمريكا للصهيونية، وعملها على سلب حقوق المسلمين في فلسطين، فإذا كانت أمريكا تسعى إلى الخير الذي جاءت به المسيحية، فمن واجبها أن تنتصر للحق لذات الحق، أما أن تنضم جهاراً إلى الصهيونية وتدعو

المسلمين إلى تأييدها في اتجاهاتها فهذا موضع الاعتبار! وقد فوجئ الذين عقدوا المؤتمر بأن الغرض المستتر في نفوسهم من انعقاده قد تبدّد بعد كلمة الدكتور السباعي، فسكتوا على كمد.

وهذا يذكرنا بموقف الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، حيث دُعي إلى مؤتمر في أمريكا يوطد العلاقات بين المسيحية والإسلام، وظن المجتمعون أن الشيخ سيسارع إلى تأييد المؤتمر مرحباً، ولكنه ألقى قنبلة ساحقة، حين ذكر أن الإسلام يعترف بالمسيح، والمسيحيون لا يعترفون بنبي الإسلام، ولن يتم التعاون إلا إذا كان الاعتراف متبادلاً، ثم إن توطيد العلاقات بين المسيحية والإسلام الذي ينشده المؤتمر، لا يتفق مع البعثات التبشيرية التي ترسلها أمريكا وأوروبا لتنصير المسلمين في شتى أماكن الأقليات بآسيا وفي أكثر دول أفريقيا، ولو كان التبشير بين الوثنيين، ما اعترض المسلمون، ولكن مبشري المسيحية يجعلون هدفهم محاربة الإسلام في أوطانه! فكيف يتم التعاون مع هذه الجرائر الفادحة! وهكذا تكون صراحة الدعاة الأحرار!.

ومع تفاني الدكتور في الدعوة إلى الكرامة والحرية، فقد اتهمه بعض خصومه بالغرض والهوى، اتهموه علناً وأرجفُوا بأكاذيب لا مبرر لها، وحين عُوتبوا في ذلك زعموا أنهم ناصحون، وأن الإسلام أوجب النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين، وقد رد عليهم الدكتور بمقال هادف كتبه تحت عنوان (بين النصيحة والتشهير) بدأه بقوله: "إن الإنسان معرض للخطأ والانحراف عن سنن الحق، استجابة لما رُكّب

فيـه من الغرائـز وما توارثه من الـطباع، ولذلك كـان من حق المـسلم على أخـيه أن يقوم بنصـيحته وأن يـبصّره بعيـبه، دعا إلى ذلك كـتاب الله، ودعت إليه سنة رسوله، وقام به الأخيار من سلف هذه الأمة" .

وأفاض الكـاتب في هذه المـعاني، بتدفـق وانسياب، حـتى وصل إلى حديث التشهير فقال: "إن من الواجب أن تكون النصيحة سراً بين الناصح ومن ينـصحه" لا أن تكون على رؤوس الأشـهاد، لأن النفس الإنسانية لا تقبل أن يطّلع أحد على عيوبها، والنصيحة العلنية تنمّ عن الحقـد والضغينة، وتـدعو المنصوح إلى الـعناد، وتقلبه عـدواً بعد أن كان صديقاً" وأخـذ الدكتور يستشهـد بكثير من الوقائع التـاريخية التي كانت فـيها الـنصيحـة العلنيـة مصدر فـتن وباعث مشـكلات، على أن تكون النصيحة مانعة شر، فإذا أدت إلى وقوع شر أكبر مما هو كائن، فالامتناع عنها واجب، حين تعقب تفريق الجماعة وفتنة الناس.

ولا يتسع المجال للحديث عن مؤلفات الكاتب بالتفصيل، ويكفي أن أشير إلـى كتابه عن المـرأة في ظل الإسلام[1]، حيث أظهـر رعاية الإسلام لحقوق المـرأة بما لم يتأت لقانون أوروبي نفتخـر بتقدمه، ثم وازن بين الـمرأة في الـشرق والغـرب محدداً مـعانـي الحرية بـالنسـبة للـرجل، وبالـنسـبة لـلمـرأة، وقد كـان في ذلك مـلتـزماً بـالنصـوص الصريحة والمواقف المؤكدة.

ويلـي كتـاب المرأة فـي المنزلـة كتـابه المـوجز الدقـيق عن نـظام

---

(١) كتابه «المرأة بين الفقه والقانون».

الحرب والسلم في الإسلام، وهو في أصله محاضرة قوية تتحدث عن طريقة المسيحية في معالجة شؤون الحرب، موازنة بمنهج الإسلام في هذا المضمار، ويلي ذلك عرض للدعائم التي يقوم عليها نظام السلم الداخلي في الأمة، ومتى تكون الحرب ضرورية لتأمين السلم الداخلي، وكان من المناسب أن يفيض في حديث الأسرى والجزية بما يُظهر عدالة الإسلام، ففعل، ولم يكتف الأستاذ بكتب الشريعة قرآناً وسنة، بل رجع إلى المصادر التاريخية المعتمدة مثل: فتوح البلدان للبلاذري، والطبري، وابن الأثير، كما نقل عن كتاب الخراج لأبي يوسف، وكتاب السياسة الشرعية لابن تيمية، وغيرهما ما كان موضع تأييد لوجهة نظره، التي تعبّر عن روح الشريعة الغراء.

بقي أن نتحدث عن كتابه الرنّان (اشتراكية الإسلام)[1] وأقول: "الرنّان" صادقاً، لأن هذا الكتاب قوبل بحملة ظالمة مغرضة، إذ جعله بعض الأدعياء بمثابة دعاية إعلامية للماركسية، وهذا ما يبرأ منه الباحث، يبرأ منه تاريخه الناصع، في محاربة الشيوعية حرباً لا تعرف الهوادة، وبما ساق في الكتاب نفسه من نصوص إسلامية استقاها من أوثق المصادر، وأتمّها صحة وسداداً، ولكن الغرض يُعمي.

ومعروف بادئ ذي بدء أن الاشتراكية في مفهومها السياسي غير الشيوعية، فالاشتراكية تُبيح الملكية الخاصة، وتحميها مما يتهدّدها من الثورة والانتقاض، وتمنع إقامة الصراع بين الأغنياء والفقراء،

---

(١) تم طبعه من جديد بعنوان «التكافل الاجتماعي في الإسلام».

والإسلام يتضمن ذلك ويزيد عليه فرض الزكاة للسائل والمحتاج، وإقامة التكافل الاجتماعي على وجه لا يتيح لمسلم أن يجوع، ولا لمسلم أن يعلم حاجة أخيه إلى الطعام وينكل عن إسعافه بالزاد وهو طوع يده! والأستاذ السباعي غير غافل عن استقلال الإسلام بضرب ممتاز من التكافل الاجتماعي اصطلح هو على تسميته بالاشتراكية الإسلامية، وقد قال في مقدمة الكتاب:

"أنا أعلم أن بعض الغيورين على الإسلام يكرهون هذه التسمية، لأن الاشتراكية في رأيهم موضة العصر، ولأنه قد يأتي زمن تبطل فيه هذه الموضة، ويسود الاعتقاد بمذهب اقتصادي آخر، فنضطر إلى العدول عن الاشتراكية الإسلامية".

ثم قال بعد ذلك: "لقد اخترت القول بالاشتراكية في الإسلام، مع العلم بكل ما يقول هؤلاء، لأني لا أعتقد أن الاشتراكية - في مفهومها الإسلامي - ستزول، بل هي نزعة إنسانية تتجلى في تعاليم الأنبياء ومحاولات الصالحين منذ أقدم العصور، وهدف الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من الاستغلال لرأس المال على حساب الجماهير، وإشراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين، بحيث تمَّحي مظاهرُ الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتاً فاحشاً يقترن فيه الجوع والفقر والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخُلقي".

وإذا كانت الاشتراكية في الإسلام في منطق الأستاذ السباعي تدور حول هذا المفهوم، فهي بعيدة عن الشيوعية الروسية، وبعيدة عن

الاشتراكية الغربية في الدول التي تقتفيها، وهي تنحصر في تعاليم الإسلام الخالصة، ولو أن الأستاذ السباعي جعل اسم كتابه (التكافل الاجتماعي في الإسلام) ما اعترض أحد عليه، ويسلم كتابه من الضجيج المثار دون التفات إلى ما تضمنه الكتاب من حقائق إسلامية لا يمكن المماراة فيها، ولم يستطع أقوى معارض للأستاذ السباعي أن يأتي بحكم شرعي خالف فيه الأستاذ نصاً أصيلاً من نصوص الكتاب والسنة! ففيم الاحتجاج!؟

لقد أحسنت مجلة الأزهر إذ قابلت الكتاب مقابلة منصفة، وقالت في تأييده[1]: "إن الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (اشتراكية الإسلام) يفيض الكلام حول المنهاج الإسلامي المتضمن لأعدل اشتراكية عرفها التاريخ".

وبعد أن عرضت فصول الكتاب في إيجاز قالت: "إنه ليسرّنا أن تمتلئ المكتبة العربية، بل الإسلامية بهذا اللون من الكتابة التي يحتاج إليها العصر، والتي يفتقر إلى التزوّد منها أبناء الإسلام"، وقد بدأت المجلة حديثها المنصف بقولها عن الكتاب: "إنه يعد في طليعة البحوث الفنية الخاصة بما احتواه الإسلام من تعاليم في هذا المضمار، ويمتاز بانتظام مقدماته ونتائجه، واطّراد الفكرة فيه على نسق متكامل، يلمح القارئ فيه دقة الروح التشريعية، ووفرة الثروة الفقهية، والبعد عن المجازفات والفضول".

---

(١) مجلة الأزهر: ربيع الأول، سنة ١٣٧٩هـ، ص٣٧٢.

ولا أدري أيحتاج الباحث المجتهد المجاهد، إلى دفاع عن منحاه الإسلامي، حتى نستمع إلى أقوال خصومه، ومنهم من لا يحب أن يذكر الإسلام بخير ما، أم أن جهاده الحافل منذ عرف طريقه إلى أن لقي ربه الكريم سنة ١٩٦٤م في سبيل الله ونبيه وشريعة دينه، وأوطان قومه قد نُسي نسياناً تاماً لدى هؤلاء، فحاولوا أن يطمسوا نوره إطفاء لنواغر دامية تأكل صدورهم فيتصايحون!

❋ ❋ ❋

المراجع والمصادر

١ - رسالة: دعوتنا في طور جديد للإمام حسن البنا ١٩٤٢ .

٢ - رسالة: هل نحن قوم عمليون؟ ١٩٣٤ .

٣ - رسالة: المؤتمر السادس ١٩٤١ .

٤ - رسالة: مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ١٩٤٨ .

٥ - كلمة الإمام في اجتماع رؤساء المناطق ١٩٤٥ .

٦ - رسالة: دعوتنا للإمام ١٩٨٤ .

٧ - رسالة: المؤتمر الخامس ١٩٣٨ .

٨ - رسالة النظام الاقتصادي ١٩٤٨ .

٩ - عظماؤنا في التاريخ للشيخ الدكتور مصطفى السباعي.

١٠ - مصطفى السباعي للدكتور عدنان زرزور، الطبعة الثانية، دار القلم ٢٠٠٣م.

١١ - مصطفى السباعي، الداعية الرائد والعالم المجدد للأستاذ عبد الله الطنطاوي، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١ .

١٢ - آلام وآمال، للدكتور مصطفى السباعي. جمع وطبع دار

الوراق في بيروت .

١٣ - مجلة حضارة الإسلام .

١٤ - مصطفى السباعي لحسني جرار.

١٥ - محمد المبارك لحسني جرار.

١٦ - الحركات الإسلامية في سورية تأليف الباحث الألماني يوهانس رايسنر، ترجمة محمد إبراهيم الأتاسي، الطبعة الأولى تموز ٢٠٠٥.

١٧ - الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة للدكتور إسحاق موسى الحسيني، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر.

١٨ - كبرى الحركات الإسلامية للدكتور محمد السيد الوكيل الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

١٩ - دروس في دعوة الإخوان المسلمين الصادر عن مكتب الطلاب في جماعة الإخوان المسلمون.

٢٠ - تطور الصحافة السورية في مئة عام ١٨٦٥ - ١٩٦٥م لمؤلفه جوزيف إلياس، يقع في جزءين، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٢، طباعة دار النضال والنشر والتوزيع.

٢١ - كتاب البعث للدكتور سامي الجندي، طباعة دار النهار للنشر ١٩٦٩ .

٢٢ - الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، لكامل الشريف ومصطفى السباعي.

٢٣ - مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه.

٢٤ - لعبة الأمم لمؤلفه مايلز كوبلاند، ترجمة مروان خير الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

٢٥ - دراسة في تاريخ سورية المعاصر للدكتورة أمل ميخائيل بشور الطبعة الأولى طرابلس ٢٠٠٣ .

٢٦ - هذا هو الإسلام للشيخ السباعي، المجموعة الأولى، الرسالة الثانية بعنوان: الدين والدولة في الإسلام.

٢٧ - أيام عشتها للضابط محمد معروف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٢٨ - علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب.

٢٩ الأحزاب والحركان الإسلامية لجمال باروت وفيصل دراج.

٣٠ - خطوة نحو كتابة تاريخ الإخوان في سورية، كتاب مخطوط للأستاذ سعيد مبيض.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم: عبدالله الطنطاوي	٥
توطئة	١٣
مدخل	١٥
من هو حسن البنا	١٦
مقدمة	٢٩
سورية أول من استجاب لصيحة الإمام البنا	٣١
الصراع بين دعاة التغريب ودعاة الإسلام	٣٧
الجمعيات التي سبقت ميلاد الإخوان	٣٨
القائد الفذ مصطفى السباعي	٤١
ظهور الجمعيات الإسلامية في سورية	٤٩
الجمعيات التي سبقت ظهور الإخوان	٥٥
الشبان المسلمون في دمشق	٥٥
جمعية دار الأرقم في حلب	٦٣
جمعية الإخوان المسلمين في حماة	٦٩

الرابطة الدينية في حمص ٧٩
جمعية الأنصار في دير الزور ٨٥
جمعية الشبان المسلمين في اللاذقية ٩١
مراكز أخرى للإخوان بعد التأسيس ٩٧
عود على بدء ١٠١
مؤتمرات مهدت لقيام الجماعة ١٠٩
تاريخ تأسيس الجماعة في سورية ١١٤
انتمائي للإخوان المسلمين ١٢٥

المرحلة الأولى

الإخوان المسلمون منذ عام التأسيس وحتى عام ١٩٤٩ .... ١٣٩
أولاً - الأهداف والمبادئ ١٤٠
ثانياً - في التربية والتكوين ١٤٩
ثالثاً - الإخوان والنشاط الإعلامي ١٥٩
رابعاً - الإخوان والانتخابات ١٧٠
خامساً - الإخوان والمشاركة في الحكم ١٨٠
سادساً - الإخوان والإصلاح الاجتماعي ١٩٤
سابعاً - الإخوان والحياة التعليمية والثقافية ٢٠٠
ثامناً - موقف الإخوان من الأحلاف الأجنبية ٢٠٧
تاسعاً - الإخوان والحركة الرياضية ٢١٨
عاشراً - الإخوان والقضية الفلسطينية ٢٢٦

المرحلة الثانية

الإخوان والانقلابات العسكرية من ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٤ .... ٢٦٥
مذكرة الإخوان إلى حسني الزعيم ٢٨٠
برنامج الجبهة الإسلامية الاشتراكية ٢٨٨
الصراع حول دين الدولة ٣٠١
الإخوان وسياسة الحياد بين المعسكرين ٣٥٤
تجربة الإخوان في دار المعلمين ٣٦١
سيد قطب ومسيرته الفكرية والسياسية ٣٧٥
مكائد النظام العسكري للمرشد وللإخوان ٣٨٩
زيارة المرشد حسن الهضيبي إلى سورية ٣٩٥
تجربة إخوان مصر في نظام الأسر ٤١٢
أثر الشيخ مصطفى السباعي في لبنان في التوجه الإسلامي ٤٢٠
سقوط نظام الشيشكلي في سورية ٤٢٨
تآمر النظام الناصري على إخوان سورية ٤٣١
وجوب الحذر من الاختراقات لتنظيم الجماعة ٤٣٧

الملحق رقم (١)

مؤتمر العلماء الأول المنعقد في دمشق ٤٤٧

الملحق رقم (٢)

مصطفى السباعي: المحدث المنافح البطل ٤٦٥
المراجع والمصادر ٤٨٧

هذا الكتاب

يشخص ما كان عليه السوريون من محنة كبرى إثر احتلال الفرنسيين لدمشق، وفرضهم الانتداب بكل جبروته وطغيانه على المواطنين، وتصميمهم على فرض أنظمتهم وثقافاتهم وأنماط حياتهم، ولا سيما مناهج التعليم على الجيل الناشئ في الوطن العزيز، وفي هذا السياق حالوا دون إنشاء كليات جديدة في الجامعة السورية، لتبقى مقتصرة على كليتي الحقوق والطب ودفعوا بحملة البكالوريا السورية للدراسة في معاهد فرنسا وجامعاتها، والعودة إلى الوطن بشهاداتها وثقافاتها وأفكارها المناهضة بجملتها للمبادئ الإسلامية، والتقاليد العربية الأصيلة، فانبرى رجال أفذاذ ومصلحون كبار من دعاة الإسلام في كل أرجاء البلاد يقرعون أجراس الخطر ويستنهضون الهمم، ويحثون المؤمنين على التمسك بمبادئ الإسلام، والالتزام بأحكامه، والتقيد بمثله وآدابه. ثم نشأت جمعيات إسلامية ظاهرت هذا التوجه، لتنبثق عنها جماعة الإخوان المسلمين التي حملت الراية، واستقطبت جيلاً من العاملين والدعاة، تكسرت على صخرته أمواج التغريب والعلمنة.

يوضح هذا المجلد إنجازات الإخوان المسلمين في سورية التي انتهت بتحرير الأجيال الصاعدة من مركب النقص حيال التفوق الغربي عسكرياً وحضارياً، والتأكيد على هويتها وانتمائها، وكيف عادت سورية وبلاد الشام الأخرى إلى أصالتها، والثبات على عقيدة الإسلام ومبادئ الرسالة المنقذة، واستئناف دورها الذي تتصل جذوره بما كان عليه قدوتنا سيد الأنام، عليه أفضل صلاة وأزكى سلام.

الناشر

الإخوان المسلمون فى سورية
ما قبل التأسيس وحتى عام ١٩٥٤

يشخص ما كان عليه السوريون من محنة كبرى إثر احتلال الفرنسيين لدمشق، وفرضهم الانتداب بكل جبروته وطغيانه على المواطنين، وتصميمهم على فرض أنظمتهم وثقافاتهم وأنماط حياتهم ولاسيما مناهج التعليم على الجيل الناشئ فى الوطن العزيز، وفى هذا السياق حالوا دون إنشاء كليات جديدة فى الجامعة السورية، لتبقى مقتصرة على كليتى الحقوق والطب، ودفعوا بحملة البكالوريا السورية للدراسة فى معاهد فرنسا وجامعاتها، والعودة إلى الوطن بشهاداتها وثقافاتها وأفكارها المناهضة بجملتها للمبادئ الإسلامية، والتقاليد العربية الأصيلة، فانبرى رجال أفذاذ ومصلحون كبار من دعاة الإسلام فى كل أرجاء البلاد يقرعون أجراس الخطر ويستنهضون الهمم، ويحثون المؤمنين على التمسك بمبادئ الإسلام، والالتزام بأحكامه، والتقيد بمُثله وآدابه، ثم نشأت جمعيات إسلامية ظاهرت هذا التوجه، لتنبثق عنها جماعة الإخوان المسلمين، التى حملت الراية واستقطبت جيلاً من العاملين والدعاة، تكسرت على صخرته أمواج التغريب والعلمنة.

يوضح هذا الكتاب إنجازات الإخوان المسلمين فى سورية التى انتهت بتحرير الأجيال الصاعدة من مركب النقص حيال التفوق الغربى عسكرياً وحضارياً، والتأكيد على هويتها وانتمائها، وكيف عادت سوريا وبلاد الشام الأخرى إلى أصالتها، والثبات على عقيدة الإسلام ومبادئ الرسالة المنقذة، واستئناف دورها الذى تتصل جذوره بما كان عليه قدوتنا سيد الأنام، عليه أفضل صلاة وأزكى سلام.

مكتبة مدبولى
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب . القاهرة . ت ٢٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 25756421